







# النثر الفنى فى القرن الرابع


تأليف

زكي ميمنك

دكتور فى الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس  
وحائز دبلوم الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس

[ قدم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس ونوقش أمام الجمهور فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١  
وقال به المؤلف لإجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جداً ]

الجزء الثانى

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع عدل بمصر لصاحبها :  مطبعة

[ الطبعة الأولى ]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م

## تحت الطبع :

- ١ - سرائر الروح الحزين .
- ٢ - أكواب الشهد والعلم .
- ٣ - أعمار وأحاديث .

## فهرس

الباب السادس	
كتاب الرسائل والمهود	
صفحة	
١٩٣	أبو الفضل بن العميد ... ..
٢٠٢	ثرأبن العميد ... ..
٢١١	أبو حفص بن برد ... ..
٢١٨	أبو المغيرة بن حزم ... ..
٢٢٦	أبو الفرج البيضا ... ..
٢٣٣	ثرأبي الفرج البيضا ... ..
٢٤٣	الصاحب بن عباد ... ..
٢٥٩	أبو بكر الخوارزمي ... ..
٢٧٧	قابوس بن شمشير ... ..
٢٩٠	أبو إسحاق الصابى ... ..
٢٩٦	رسائل الصابى ... ..
٣٠٢	أبو عامر بن شهيد ... ..
٣١٠	ثرأبن شهيد ... ..
٣١٩	أبو الفضل الميكالى ... ..
٣٢٥	بديع الزمان ... ..
٣٥١	ثر بديع الزمان ... ..
٣٥٧	عبد العزيز بن يوسف ... ..
٣٦٣	الفهرس المفصل ... ..
٣٧٣	فهرس الأعلام ... ..
٣٩١	المراجع ... ..

الباب الرابع	
كتاب النقد الأدبى	
صفحة	
٧	أبو الحسن الجرجاني ... ..
١٧	نقد كتاب الوساطة ... ..
٢٧	ابن فارس ... ..
٣٧	نقد آراء ابن فارس فى فقه اللغة العربية
٤٨	النقد الأدبى عند ابن شهيد ... ..
٥٩	أبو بكر الباقلانى ونقد آرائه فى إعجاز القرآن ... ..
٨٢	أبو القاسم الأمدى ... ..
٨٩	بين صاحب أبى تمام وصاحب البحرى
٩٤	أبو أحمد العسكرى ... ..
٩٦	أبو هلال العسكرى ... ..
١٠٣	نقد كتاب الصناعتين ... ..
١١١	أبو على الحاتمى ... ..
١٢٠	أبو عبد الله المرزبانى ... ..
الباب الخامس	
كتاب الآراء والمذاهب	
١٣٣	أبو حيان التوحيدى ... ..
١٤٥	أبو على بن مسكويه ... ..
١٥٢	الأخلاق عند ابن مسكويه ... ..
١٥٩	ابن نباتة الخطيب ... ..
١٦٦	أبو محمد بن حزم وآرائه فى الحب ... ..
١٧٩	أبو منصور الثعالبى ... ..





## الباب الرابع

---

كتاب التفسير الأدبي



## ١ - أبو الحسن الجرجاني

١ - إن للرجل الذي تتحدث عنه في هذا الفصل فضلا على علوم اللغة العربية يجب أن يعرفه طلاب الأدب والبيان .

ويكفي في تقدير فضله أن نشير إلى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجاني صاحب "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" . وسيرى القارئ في درس هذه الشخصية ما لم يكن يتخظه من درس شخصيات الفقهاء .

فأبو الحسن هذا قاض من كبار القضاة عند الشافعية، ولكنه بالرغم مما يحيط بوظيفة القضاء من قيود الرزاة وأغلال الوفاة : رجلٌ طليق العقل، حى الإحساس، حر الوجدان يلقي إلى فطرته القياد فيا يعمل وما يقول . وأى خسارة كانت تُرزى بها الآداب العربية لو توقر هذا الرجل وتزهى وألقى بنفسه في تيار الجلود ! وأى خطر كان يحقق بالقضاء لو أحم هذا القاضي مشاعره، وأمات ذوقه، ودفن إحساسه، وأغمض عينيه عما في هذا العالم من فنون السحر، وضروب الفنون !

أفتحسب القضاء بنجوة عما تعرض له النفس الانسانية من ظلمات الفتن وعواصف الأهواء ؟ إن أقل صفات القاضي فيا اعتقد أن يكون "إنسانا" له في حياته ما يخضع له من مطامع العقل، وأمانى النفس، وحاجات الفؤاد . وإلا فكيف يحكم بين الناس وهو لا يحس بما تدلن له النفس الانسانية من نزوات المشاعر، وهفوات العقول ؟

٢ - ولد أبو الحسن على بن عبد العزيز في مدينة جرجان سنة ٢٩٠ للهجرة . وجرجان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان، كما ذكر ياقوت . وقد خرج منها عدد من الأدباء

(١) هكذا يقول ياقوت في سيم الأدياء ص ٢٤٩ ج ٥ ، ولكنه يقول في ص ٣ ج ٧ : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبي علي القارسي ، وكذلك قال السيوطي في بنية الوعاة ص ٣١٠

والعلماء والفقهاء والمحدثين . وكانت لمهد من عُرِفَت بهم من كبار الباحثين مشهورة بالصناعة المتينة ، والقوا كه الكثيرة : فكان فيها الإبريسم الجيد الذي لا يستحيل صيغه ، والذي كان يعمل إلى جميع الآفاق ، وكان بها كثير من النخل والزيتون ، والبلوز والزمان ، وكان بها ما شاء القناص من الأجادل والزواجر ، والغلاء واليافير . وكانت فوق هذا كله مشهورة بالخمر ، وفيها يقول ابن خريم ، أو الأعمش البريعي — ترقد في ذلك صاحب معجم البلدان — :

وصبيه جرجانية لم يطف بها      حنيف ولم ينثر بها ساعة قلد<sup>\*</sup>  
ولم يشهد القس المهيم نارها      طروفا ولم يحضر على طبخها حبر  
أتانى بها يحيى وقد نمت نومة      وقد لاحت الشعري وقد جع النسر  
فقلت أصطبجها أولفيري فأسقها      فإ أنا بعد الشيب ويحك والخمر  
تحفت عنها في العصور التي مضت      فكيف التصابي بعد ما كلاً<sup>(١)</sup> العمر  
إذا المرء وقى الأربعين ولم يكن      له دون ما يأتى حياءً ولا مستر  
فدعه ولا تنفس عليه الذي أتى      وإن جر أسباب الحياة له الدهر

قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فانه ناقص المروءة<sup>(٢)</sup> .

ونرى أن لوفرة ما كان بجرجان من القوا كه ولشهرتها بالخمر تأثيراً فيها كان لأهلها من رقة الحس ، ودقة الذوق . وفي ظلال هذه المدينة المقتنة في تنسيق المزارع والمصانع نشأ أبو الحسن الذي برع من تلمذه من الكتّاب في أساليب البيان .

٣ — ولقد ظلت جرجان أثرة لديه طول حياته وكان الصاحب بن عباد فيما قال يقسم له بها من إقباله وإكرامه أكثر مما يتلقاه به في سائر البلاد .

قال : وقد أستاذنيته يوماً من فرط تحفيي بي وتواضعه لي فأئسدتني :

أكرم أخاك بأرض مولده      وأمدته من فطرك الحسني

(١) كلاً العمر : انتهى إلى آخره وأقصاه . (٢) ورد حديث هذه الأبيات قبل ياقوت في الأمالي .

فالسز مطلوب وملبس وأعزّه ما نيل في الوطني

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى في الصلبة . يريد قوله :

وشدّت مجدى بين قوى ظم أفل ألا ليت قوى يملون صلي

قال : والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ يا ليت قوى يملون بما غفرلى ربى وجعلنى من المكرين ﴾<sup>(١)</sup> . ورغبة الرجل فى أن يكرم فى وطنه وبين أهله من الأمانى الانسانية التى تحدث بها الشعراء فى مختلف الاجيال .

قال التمايى : " وكان فى صباه خلف الخضر فى قطع حرض الأرض وتلويح بلاد العراق والشام وغيرها وأتقن من أنواع العلوم والآداب ما صار به فى العلوم علماً ، وفى الكمال عالماً . ثم عرج على حضرة صاحب وألقى بها عصا المسافر فاشتت اختصاصه به ، وحل منه محلاً بعيداً فى رفته ... وتقلد قضاء جرجان من يده . ثم تصرف به أحوال فى حياة صاحب وبعد وفاته بين الولاية والمطلعة . وأفضى عمله الى قضاء القضاة بالرى فلم يزل عنه إلا موته رحمه الله<sup>(٢)</sup> . وكانت وفاته بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٢ هـ . وحمل تابوته الى جرجان فدفن بها . وحضر جنازته الوزير القاسم بن على وأبو الفضل المارضى راجلين . فيما ذكر ياقوت<sup>(٣)</sup> .

٤ — ألف أبو الحسن الجرجانى فى الفقه والأدب والتاريخ . أما تأليفه فى الفقه فلم يصلنا منه شيء . وقد جاء فى طبقات الشافعية أنه صنف كتاباً فى الوكالة فيه أربعة آلاف مسألة . ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف استطاع هذا القاضي الأديب أن يخدم التشريع . وأما تأليفه فى التاريخ فلم يُعرف منه إلا كتاب تهذيب التاريخ وهو كتاب وصفه التمايى بأنه ( تاريخ فى بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن التصرف فى الاستقادات ) وقد ضاع هذا الكتاب ولكن التمايى حفظ لنا منه فصلين آتين يمكن أن نعرف منهما معنى هذا الرجل فى دراسة التاريخ :

(١) ٢٥٢ ج ٥ . سيم الأدباء . (٢) ٢٣٨ ج ٣ بقية (٣) ٢٤٩ ج ٥

(٤) ٢٤٢ ج ٣ بقية .

فهو يبين في الفصل الأول أن من غرضه أن يكشف عن مغازى رسول الله وحروبه ، وعن سرياته وبعوثه ، ومتى قارب ولأين ، وفي أي وقت جاهر وكشف - وبين في الفصل الثاني أنه يرى بكتابته إلى غرض ديني وغرض دنيوي : فيبين من الوجهة الدينية كيف طمس الله معالم الشرك ، وأوضح معارف الحق . ويترك من الوجهة الدنيوية أثرا يذكر به عند الصاحب ابن عباد ... وهذا الاتجاه يدل على أن هذا الرجل كان يستخدم التاريخ في نشر الدعوة الإسلامية . واستخدم التاريخ في الأغراض الدينية والسياسية يحمل المؤرخ على مكاره كثيرة يجبو منها من يحاول أن يجعل التاريخ صورة صادقة للأمم والشعوب . وقد يكون للصاحب ابن عباد مثالا مبدئيا خاص إلى بعض الأحزاب الإسلامية . ولهذا أثره المحتوم في كتاب يوضع بنيتة وإرشاده . وتلك خلة قد تكون نيلة باعتبار ما ترى إليه : فطالما آصرت الأمم بما قد يصور به ماضيها من شقي التهاويل . ولكنها خلة خطيرة على التاريخ .

أما أليفه في الأدب فقد بقى لنا منه "كتاب الوساطة بين المتبني وخصومه" وسنعود إليه . وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار هي علّتنا في تصوير نفس ذلك القاضى الأديب .

٥ - كانت نفس القاضى حل بن عبد العزيز الجرجاني نفسا غالية : فلقد ترك لنا في شعره صورة لنفسه الأبية العزيزة ، التي حرمت عليه طيبات الحياة : إيثارا للعزة والألفة والكرامة ، وصونا للعرض من الدنس ، وإيعادا للروعة عن مواطن الابتذال . وسيرى القارئ حين تقدم له صورة تلك النفس الغالية ، العالية ، ولو شئت لكررتها ثلاثا . سرى فيها عزاء له إن كان من الذين وقفت نفوسهم الأبية في سبيل ما يشتهون من بسطة الرزق ، وصولة الجاه . ومن ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيقتل ما تكتب عن هذه النفس إلى من خلعوا نفوسهم عند أبواب المطامع ، وأقبلوا على مصارع الفضل مهطعين ؟ لقد عزّت نفس قاضى القضاة وأمرفت في التصوّن ، إن كان في التصوّن إسراف ، وما زالت به تصدّه عن مواطن الشبهات ومواطن الرّيب والظنون حتى زينت له العزلة والأفراح . وشعره في هذا المعنى مثال من

الأمثلة العليا التي يترجمها كلها بكار النفوس . فليسمع أهل العلم كيف يصف نفسه ذلك العزيز الأتوف :

يقولون لي فيك انقباض وانما	رأوا رجلا عن موقف الذل اجما
أرى الناس من دأهموهان عندهم	ومن اكرمته عزه النفس أكرما
وما زلت متعازا بمرضى جانبها	من الدم أخذ الصيانة مغنا
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى	ولكن نفس الحزن تحتل الظما
وما كل برق لاح لي يستغفرني	ولا كل أهل الأرض أراضا منها
ولم أقض حق العلم ان كان كلما	بدا طمع صبرته لي سلما
ولم أبذل في خدمة العلم مهجتي	لأغني من لا قيت لكن لأغنا
أشقى به غرسا وأجنيه ذلة	إذن فأتباع الجهل قد كان حزنا
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم	ولو عظموه في النفوس لظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا	عياه بالأطاع حتى تهما
وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :	
على مهجتي تجني الحوادث والنهر	فأما أصطباري فهو ممنوع وعمر
كانى الألق لكل يوم ينوبني	بئس وما ذنبي سوى أنى حر
فان لم يكن عند الزمان سوى الذى	أضيق به فرط فعندى له الصبر
وقالوا توصل بالخضوع الى الفنى	وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبنى وبين المال بابان حرما	على الفنى : نفس الأبية والنهر
إذا قيل هذا اليس عاينت دونه	مواقف خير من وقوفى بها العسر
إذا قداموا بالخير قدمت دونهم	بنفس فقير كل أخلاقه وفر

في هاتين الكلمتين صورة تلك النفس المعذبة التي قضى عليها الفضل بالشقوة والحرمان . وأشرف ما وصف به ذلك القاضى حظه من العزة تصويره للطيات تُمرض عليه عرضا فياها إثاره للصون وحرصه على الجلال . يتمثل هذا في قوله :

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى      ولكن نفس الحزن تحتمل الظلم  
وقوله :

إذا قيل هذا اليسر ما بينت دونه      مواقف خيرٌ من وقوف بها العسر  
وقوله :

ويبقى وبين المال بابان حراما      على الغنى : نفس الأبية والدهر  
ويرحم الله من يعاني ثورة النفس ، وقسوة الزمان !

٦ - وما أحب أن أترك هذه الناحية من أبي الحسن الجرجاني قبل أن أقف القارئ على لون آخر من ألوان تلك النفس ، فقد رأى كيف يشور على زينة الحياة الدنيا بخطا على ما يصحبها من مواقف الموان . فينظر كيف يستذر من آتياضه عن أخويه ، وكيف يلمح برفق ولطف إلى ما طوى عنه إياؤه من أسباب النعيم ، وكيف أنس بالوحدة والوحشة هربا من مواقع الظنون ، وكيف جعل نفوره من العالم حجة فطر عليها منذ قضى الله أن يليق به في ظلمات هذا الوجود ، وذلك حيث يقول :

أيا معهد الأحباب ذكّرهم عهدي      ودم لي وإن دام البعاد على الوّد  
ولي خلّق لا أستطيع فراقه      يفوتني حظي ويمتنع رشدي  
نفور عن الإخوان من غير رية      يحدّ جفاءً والوفاء لم وكدي  
غذيت به طفلا فان رمت همره      تأبى وأغرقت به ألقه المهدي  
كما ألفت كفا كما البذل والندى      فأعيا كما أن تمنا كف مستجدي  
على أنقى أقصى الحقوق بنقى      وأبلغ أقصى غاية القرب في بددي  
ويضمهم قلبي وودى ومتلقى      وألح في رعي الذمام لم جهدي  
فإن أتما لم تقبل لي عذرة      والزمتاني فيه أكثر من وجدي  
فقولا لطبي أن يزول فانه      يرى لكما حق الموالي على العبد



٧ - كان القاضي أبو الحسن الجرجاني من المخرمين بالتفريد على أفنان الجمال .  
وشعره في وصف الملاحه ذوافانين وشجون . فقد نراه يترنم بمظاهر الحسن ، ويتغنى بما  
فضح الشباب من أسرار الصباحة . كقوله - في الخلد الموزد والطرف الكحيل - :

أترعى خدّى من وردك      أودع فى يقطعه من خنك  
أرحم قضيب البان وأرقى به      قد خفت أن يتخذ من فلك  
وقل لعينيك بنفسى هما      يخفقان السقم عن جبدك

وقوله - في منازلة النديم - :

أفسدى الذى قال وفى كفه      مثل الذى أشرب من فيه  
الورد قد أينع فى وجتى      قلت فى بالثمن يحينه

وقوله - في فتنة الألفاظ - :

من ذا الغزال الفاتن الطرف      الكامل بهجة والطرف  
ما بال عينيه وألفاظه      دائبة تمل فى حنى  
وأهّا لذلك الورد فى خده      لو لم يكن تمتع القطف  
أشكو الى قلبك يا سيدى      ما يشكى قلبى من طرفى

وقوله - في أخلاص التقييل - :

وضغ عيذك وما أودعت      أجفانها قلب شح وامق  
ما خلق الرحمن ففاحق      خديك إلا لقم العاشق  
لكننى أمتنع منها فإ      حظى إلا خلسة السارق

وقوله - فى القمم بمجنود الجمال - :

لا وجفون يفضها المدل      عن وجنات تذيبها القبل  
ومهجة للهوى مصرضة      تهبث فيها القمدود والمقل  
ما غاب من غاب عن ذراك وان      أخرميات يومه الأجل

وهذه القطع التي آخترناها من شعره في الأوصاف الحسية تمثله شره الحواس . وله في هذه المعاني أشعار طريفة يقضي العُرف الاجتماعي بأن لا تنشر في مثل هذا الكتاب فلنطوها عن القارئ طاعة للتقاليد . وإحساس هذا القاضى بالجمال جعله يختلق الأسباب ليفصح عما يعنى نفسه من أغلال الوجد الدفين . ولنتظر كيف يتحدث عن سحر الميوان وهو يشكو الزمان إذ يقول :

مَنْ عاذرى من زمن ظالم      ليس بمسحوي ولا راحم  
تفعل بالأحرار أحداثه      فعل الموى بالذنف المائم  
كأنما أصبح يرميهو      عن جفن مولاي أبى القاسم

وفي تصيد أسباب الغزل وموجبات التشبيب يقول في تغذية حبيب نال من دمه  
مبضع الطيب :

يا ليت عيني تحملت ألمك      بل ليت نفسي تقسمت سَقَمك  
وليت كف الطيب إذ فصدت      عرقك أجرت من ناظري دمك  
أعمرته صبح وجنتيك كما      تميره إن ثمت من ثمتك  
طرفك أمضى من حد مبضعه      فألحظ به العرق وأرتجز ألمك

٨ — وقد يلهو هذا القاضى الأديب عما في الجمال من نعيم الحواس ، ويعود الى بكاء ما ذهب من أنسه في أيامه السوالف ، ولياليه الخوالى . فيذكرنا بلوعة الشريف الرضى الذى كاد ينفرد بركة الحنين . ولنتظر كيف يذوب روحه وهو يناجي النسيم :

يا نسيم الخنوب باقه بَلِّغ      ما يقول التميم المستهائم  
قل لأحبابه فداكم فؤاد      ليس يسلو ومقلة لا تمام

وكيف يقول في خطاب الديار، ديار الأتس المفقود :

يا ديار السرور لا زال يسكى      بك في مَضْمَك الرياض غمام  
وبّ عيش محبته فيك غض      وجفون الخطوب عنا نيام

في ليالٍ كأنهنَّ أمانيّ      من زمان كأنه أحلام  
وكان الأوقات فيها كزّووس      دائرات وأنسهن مدام  
زمن مسعدٌ وإلفٌ وصولٌ      ومضى تستلخها الأوهام  
كل أنس ولذة وسرور      قبل لقياكو على حرام

وقد أطلق الشاعر خياله في هذه الأبيات فأخفت معانيه كأنها خيال في خيال . أليس يذكر أن عيشه الفض كان :

في ليالٍ كأنهنَّ أمانيّ      من زمان كأنه أحلام

ولكن من ذا الذي ينكر جمال هذا الخيال؟ أو من ذا الذي لا يروقه نوم جفون الخلوط ؟

ومن جيد الشعر قوله في الحنين الى ليالى بغداد :

أراجعةً تلك الليالى كمهدا      الى الوصل أم لا يُرغى لي رجوعها  
وصحبة أقوام ليست لفقدهم      ثياب حداد يستجده خلعها  
إذا لاح لي من نحو بغداد بارق      تجافت جنوبي وأسطير هجوعها  
وإن أخفتها الفاديات رعودها      تكلف تصديق النمام دموعها  
سقى جانبي بغداد كل غمامة      يحاكى دموع المستهام هجوعها  
معاهد من غزلان إنس تحالفت      لواحظها أن لا يُدأوى صرعها  
بها تسكن النفس الثفور ويتدى      بآنس من قلب المقسم زرعها  
يحن إليها كل قلب كأنما      تشاد بجبات القلوب ربوعها  
فكل ليالى عيشها زمن الصبا      وكل فصول البهر فيها ربيعها  
وما زلت طوع الحادثات تهودني      على حكمها مستكرها فاطمئنها

راجع هذا الشعر أيها القارئ وقبّ النظر في شأيا ذلك الروح الحزين . فسترى تلك اللوعة الدفينة وذلك الوجد الدخيل يرجعان الى الكلف بمظاهر الحسن ، والنظما الى معاهد

تلك الطباء التي تحالفت لحاظها أن لا يداوى لها صريح، أو يبرأ منها جريح، أو يُبكي في ظلالها  
قتيل . وما أضيع الدمع المسفوح فوق أفنان الجمال ! .

وما أحب أن يففل القارئ عن رقة الشوق في هذين البيتين يصف بهما الشاعر معاهد  
تلك الطباء :

بها تسكن النفس الثفور ويتندى      بأنس من قلب المقيم نزيها  
يحن إليها كل قلب كأنما      تناد بجبات القلوب ربوعها<sup>(١)</sup>

والمعجب في هذا الشعر أن تُصوّر نفس المحب في غريبه ونواه وهي تأنس بديار  
الأحباب فوق ما يأنس المقيم ! أهذا حق ؟ أهذا مما يشهد به الوجدان ؟ قد يكون ذلك .  
وغيرى عنده الخبر اليقين ! .

ولكن أين أنس الطالعن من نعيم المقيم ؟ وأين روح الذكرى من نشوة الأصطباح  
بوجوه الملاح ؟ ومن يدري لعل من أنس بهم هذا الغريب أعانتهم غربة النوى على نسيان  
المهود !

رويدكم لا تسبقوا بقطيعي      صروف الليالي إن في الدهر كافيا  
أفي الحق أنى قد قضيت ديونكم      وأنت ديسوني باقيات كماها  
فواأسنى حتام أرعى مضيقا      وآمن خوانا وأذكر ناسيا  
وما زال أحبائي يسيئون عثري      ويحفوني حتى عذرت الأطاديا

(١) ما قلناه من شر الجرجاني بحمد القارئ، في أخباره بالبيتية — ج ٣ — ومعجم الأدباء — ج ٥ —

## ٢ - كتاب الواسطة

١ - «الواسطة بين المتنبي وخصومه» كما سماه صاحب وفيات الأعيان، أو «الواسطة بين المتنبي وخصومه وتقد الشعر» كما سماه صاحب كشف الظنون : هو كتاب في التقدير لأبي الحسن علي بن عبد الميرزا الجرجاني . يقع في ٣٦١ صفحة بالقطع الكبير طبعه وصححه وشرح بعض ألفاظه حضرة أحمد عارف الزين من أدباء صيدا في سنة ١٣٣١ هجرية . قلنا عن نسختين مخطوطتين إحداهما بمصر وأخرها بالعراق . ولم تسلم هذه الطبعة مع ما بذل فيها من الجهد من مظاهر التقص والتعريف . أحسن الله لناشرها الجزاء .

٢ - ذكر الثعالبي أنه لما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة في إظهار مساوى المتنبي عمل القاضي أبو الحسن كتاب الواسطة بين المتنبي وخصومه .<sup>(١)</sup>

أما المؤلف فيذكر أنه رأى أهل الأدب في المتنبي فتنين : فتنة تطلب في تقريره وتناول من ينقصه بالاحتقار والتجھيل ، وفتنة تجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معاييه . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه ، وأنه رأى من البر بالآداب - وهي أرحام لأبنائها - أن يقول كلمة الحق في الفصل بين المتنبي وخصومه المسرفين . ويقول في الحرص على الأواصر الأدبية : « وما من حفظ دمه أن يسفك بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك . ولا حرمة أولى بالعناية وأحق بالحماية وأجدر أن يسذل الكريم دونها عرضه ويمتن في إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذي هو روث وجهه ، ووقاية قدره ، ومناز اسمه ، ومطية ذكره . وبحسب عظم منزلته ، وعلو مرتبته ، يعظم حق التشاكر فيه . وكما تجب حياطته تجب حياطة المتصل به وبسببه . وما عقوق الوالد البر ، وقطيعة الأخ المشفق ، بأشنع ذكرا ، ولا أقيح سمّا من عقوق من ناسبك إلى أكرم آبائك ، وشارك في أغسر أنسابك ، وقاسمك في أزين أوصافك ، ومثّ اليك بما هو حظك من الشرف وذريتك إلى الفخر »<sup>(٢)</sup> .

(١) ص ٢٣٩ ج ٣ بقية . (٢) الواسطة ص ١٠

وهذا الحرص على بقوة العلم وأخوة الأدب لا يحمل القاضي الجرجاني على التعصب المطلق . وإنما يزين له أن يحوطه بالعدل والإنصاف فيقول في ذلك :

” وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لما على الحق أو تميل في نصرها عن القصد فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تصدل لأجله عن الإنصاف ، أو تخرج في بابه إلى الإسراف . بل تتصرف على حكم العدل فكيف صرفك ، وتقف على رسمه كيف وقفك . فتتصف تارة وتنذر أخرى ، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا لك إذا أنكرت . وتقيم الاستسلام للجملة إذا قامت محتجا عنك إذا خالفت . فانه لا حال أشد استمطافا للقلوب المنحرفة ، وأكثر استمالة للنفوس المشتمرة ، من توقعك عند الشبهة إذا عرضت ، واسترسالك للجملة إذا قهرت <sup>(١)</sup> “ .

وأخوة الأدب هذه عُرِفَتْ قبل هذا القاضي الأديب في شعر أبي تمام وديك الجن وعلى ابن الجهم والبحتري وعلى بن محمد الكوفي . وللقارئ أن يرجع الى ما قيل فيها من جيد الشعر في الجزء الثالث من زهر الآداب ليرى كيف تأثر هذا الكاتب المبدع بما أطلال النظر فيه من دقات الشعر البليغ .

٣ - وضع القاضي الجرجاني لكتاب الوساطة مقدمة طويلة تكلم فيها عن أغلاط الشعراء في الجاهلية وعن تأثير الطباع والأمكنة في رقة الشعر وجفافه . وانتقل الى الكلام عن أبي تمام والبحتري وجريروأبي نواس فذكر ما لم من المحاسن والصيوب .

وساقه هذا الى بحث الاستمارة والجناس والتصنيف والتقسيم . ثم أخذ في الحديث عن المتنبي فذكر السخيف والمعقد من شعره وتكلم عن تخلصه ومطالعه واعتذاره وفلسفته وسرقاته الشعرية وما أنكر العلماء عليه وما قيل في الاعتذار عنه . وقد جرته هذه الأبحاث الى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس في التشبيهات ، وتفاوت الشعراء في صوغ اللفظ والمعنى واختلافهم في أخذ الألفاظ والمعاني الى غير ذلك مما كان يوجبه الأتس بالاستطراد عند المتقدمين .

(١) الوساطة ص ١٠ (٢) ص ١٧٠ - ١٧٣ (ط) أدل .

وزيد في هذا الفصل أن ندرس مع القارئ بعض النظريات الأساسية لصاحب الوساطة وأن نتبين معه ما فيها من القوة أو الضعف وأن نكشف عنها ما قد يلابسها أحيانا من الغموض . راجين أن يكون في هذه المراجعة فائدة لمن تنهمج دراسة الآداب .

٤ — انفرد الجرجاني، أو كاد، بالشك في سلامة الشعر الجاهلي من الضعف والخلل . فقد كانت جمهرة الباحثين ترى أن شعراء الجاهلية أعز من أن تؤخذ عليهم حقوة أو تحسب عليهم منقطة . وكان من النحاة من يعنى نفسه بتصويب الجاهليين والمخضرمين والأمويين حين يمد الناقد في شعرهم ما يذهب بقيمته من شنيع الأخطاء، وقبيح الأغلاط . ولكن الجرجاني يرى أن الدواوين الجاهلية لا تسلم فيها قصيدة من بيت أو أكثر يمكن القدح فيه : إما في لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه وإعراجه ويقول .

« ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم وآخذوا الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والجهة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة ومستزلة ومردودة منفية . لكن هذا الظن الجليل والاعتقاد الحسن ستر عليهم وقى الظنة عنهم . فذهبت الخواطر في اللبّ عنهم كل مذهب وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام » .

وهو يستنكر تسكين الفعل من غير موجب في قول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحطب<sup>(٢)</sup> إنما من الله ولا واغسل<sup>(٣)</sup>

واسقاط النون لغير إضافة ظاهرة في قوله :

لها متتان<sup>(٤)</sup> خطانا كما أكب على ساعديه الفمر

وتسكين الفعل بغير عامل في قول لبيد :

تراك أمكتنك إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حامها

(١) الوساطة ص ١٢ - ١٥ (٢) يقال احتطب الإثم إذا اكتسبه كأنه شيء محسوس حله (صباح) .

(٣) الراغل المستر — غل في الشجر وغرلا توارى فيه ، ودخل على القوم وأغلا ، وقصده هنا غير مستر .

(٤) الخطأ : المكتنزة من كل شيء .

وقول الأسدى :

كأ نزعها وقد مزقت واتسع الحرق على الراقع

وقول الآخر :

تأبى قضاة أن تعرف لكم نسا      وابننا نزار فأنتم بيضة البيا  
وحذف النون في قول طرفة :      قد رفع الفخ فماذا تحذرى  
ورفع ما يجب نصبه في قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع      من المال إلا مسحتا أو مجلف  
وخفض ما يجب رفعه في قول امرئ القيس :  
كان نبيرا من عرائن<sup>(١)</sup> وبله      كبير أناس في يحد مزمل<sup>(٢)</sup>

وقد أطال الجرجاني في سرد الأمثلة وفيما ذكرناه كفاية . ثم أشار الى أنه تصفح ما تكلفه النحويون لشعراء الجاهلية من الاحتجاج اذا أمكن تارة بطلب التخفيف عند توالى الحركات ومرة بالإلتباس والمجاورة وتغيير الرواية اذا ضاقت الحجة ، وتثبت ما راموه في ذلك من المرامي البعيدة وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة التى يشهد القلب بان الباعث عليها شدة إعظام المتقدم والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد وألفته النفس .

٥ — ونحن لا نحب أن نكتفى بما أشار إليه الجرجاني من تعسف المناهين عن شعراء الجاهلية ومن قاربهم من المخضمين والأمويين فقد لا تقضى هذه الإشارة . وانما نذكر ما قالوه في توجيه قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع      من المال إلا مسحتا أو مجلف

فانهم يذكرون أنه رفع "مجلف" بعد نصب "مسحتا" سيما للحنى لأن المراد أنه لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف — ومثله قول الهذلى — وهو من شواهد الفصل — :

(١) جمع عرائن وهو الأنثى . وعرائن الويل : أدل الخط . (٢) البياد : كما غطط عليه العرب .

(٣) مزمل : أى ملتف فى ثوبه . وكان يجب رفعه .



على أطرقا باليات الخيام إلا التمام وإلا المعنى  
بتصب التمام لأنه استثناء من موجب ورفع المعنى حملا على المعنى<sup>(١)</sup>. وكذلك قول الآخر:  
غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عيطات السدائف والخمر  
رفع الخمر على توهم رفع العيطات لأنه إذا أحلتها الطعنة فقد حلت هي، إلى آخر ما يتأول  
النحاة !!

تأمل هذا أيها القارىء، وسل نفسك : أكان هؤلاء الشعراء يفكرون حقا في أنهم نصبوا  
الاسم الأول على الاستثناء ورفضوا الثاني وقفا للمعنى؟ أكان الهذلي والفرزدق يحسبان حساب  
النحاة في مثل ذلك التأويل؟ لا شيء، من ذلك وإنما اتعب النحاة أنفسهم كلفا بنصرة ماسبق  
إليه الاعتقاد وألفته النفس، كما يقول أبو الحسن الجرجاني . أو هو لحن صريح: فاننا نرتاب  
في سلامة الأعراب من اللحن والغلط ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن المؤلفون وأن من انحطأ  
إهمال القياس اتباعا لما يؤثر عنهم من الشذوذ... وهذا المذهب في استقراء أغلاط القدماء  
خير من التورط في النفع عنهم بما لا يفي ولا يفيد . فقد كان الفراء يذكر أن من العرب  
من يقول في " أنظر " أنظور — وينشد لبعض الأعراب :

الله يعلم أنا في ظفنتنا يوم الفراق إلى جيراننا صور  
وأنتى حيث ما يثنى الهوى بصرى من حيث ما سلكوا أرونا فانظور<sup>(٢)</sup>

وهذا لحن لا ينبغي أن يتحمل له الصواب . فان دياجة هذا الشعر تبعد أن يكون قائله  
من قبيلة مهجورة تسبغ هذا التعبير .

٦ — وقد تكلم الجرجاني عن تأثير المكان والطبع في رقة الشعر وجفافه وهو يرى أن  
للبادية أثرا في خشونة الشعر وقوة أسرهِ وصلابة معجمه . وأن الحاضرة فضلا على رقة الشعر

(١) راجع الفصل ص ٨ (٢) ويجب أن تذكر أن الشعر الجاهل والأمرى كان يجري على قواعد من  
التحول تأخذ صيغة نهائية في التمديد والترتيب ، كما اتفق ذلك في العصر الباسي ، فأغلاط الجاهلين والأمرى بين ليست  
أغلاطا بالقياس إلى قسَمهم ، وإنما هي أغلاط بالاضافة إلى القلة التي حددت قواعدهما المتورين .

(٣) أنظر الصاحي ص ١٢

وعذوبته وسلامته من الوعورة والحقاء ! ومن هنا كان شعر عدىّ وهو جاهل أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤية وهما أهلان : الملازمة عدىّ الحاضرة وبعده عن جلالة البدو وخشونة الأعراب<sup>(١)</sup>. وقد يكون من البر بالأدب أن نذكر في تأييد هذه النظرية قطعة من رائعة المتخّل الشكري وهو جاهل صقلته الحضارة ودمته الترف في قصور الملوك، ولننظر كيف يقول في أخذ الفتى بأعطاف الفتاة، وقد ختلها هدأة الخدر وغفوة الرقيب :

ولقد دخلت على الفتاة      الخدر في اليوم المطير  
الكاعب الحسنة تر      قل في الدمقس وفي الحرير  
فدفعتها فدافمت      مشى القطة الى الندير  
وثقتها فتفتت      كتففس الظبي النير  
فدنت وقالت مامد خد      بل ما يجسك من حرور  
ما شف جسمي غير حبي      لك فاهدنى عني وسيرى  
وأحبها وتحبني      ويحب ناقها يسرى

٧ — وأظرف ماتبه اليه الجرجاني إشارته إلى أن الطبع والمخلقة أثر في رقة الشعر فان وجفائه سلاسة اللفظ تنبع سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة . ويقول :

” وأنت تجمد ذلك في أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الخافى الخلف منهم كز الألفاظ معقد الكلام وعمر الخطاب حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونقمته وفي جرسه ولهجته، ومن شأن البداوة أن يتحدث بعض ذلك “<sup>(٢)</sup>.

ولك أيها القارئ أن تبحث عن ذلك أيضا في أهل عصرك وأبناء زمانك : فقد تجمد تعقيد بعض المعاني أثرا لالتواء بعض الوجوه والنفوس !!

أما أنا فأشهد بصحة هذه النظرية حين أوازن بين مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان أو شعر أبي تمام وشعر أبي نواس . وقد يكون الفرق بين شعر الشباب وشعر الكهول

راجعا الى هذه الناحية الخلقية : فطالما يأتي الشاعر وهو قتي بما لم يستطعه وهو كهل .  
وما أقوى سلطان الجسم والروح في حياة العقول ! وهنا وجه آخر لمائة الشعر ورقته :  
هو تقسم الشاعر حين يتيحه الحب ويأسره الشقي . ولم يذكر الجرجاني أمثلة لذلك اكتفاء  
بوضوح الفكرة ، ولو شاء لتمثل بقول بعض الأعراب :

وفي الجيرة النادين من بطن وجرة غزال كميل المقتنين ريبُ  
فلا تحسب أن الضريب الذي نأى ولكن من تتأين عنه غريب  
وقول الآخر :

فيسارب إن أهلك ولم ترو هامتي بليلى أمت لا قبر أعطش من قبرى  
وإن أك عن ليلى سلوت فأنما تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر  
وإن يك عن ليل غنى وتجدد قرب غنى نفس قريب من الفقر

٨ — وقد نص الجرجاني على أنه لا يريد بالسهل الضعيف ولا يقصد من الرشيق المؤنث  
وهو يتكلم عن سهولة الشعر ورشاقته ، وإنما يريد النمط الأوسط الذى ارتفع عن الساقط السوقي  
وانحط عن البدوي الوحشي . وهو لا يوصي بأجراء الشعر كله مجرى واحدا وإنما يرى أن تقسم  
الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون الغزل كالفتخر ، ولا المديح كالوعيد ، ولا الهجاء كالاستبطاء ،  
ولا الهزل كالجد ، ولا التعريض كال تصريح . فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح  
بالباقة والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والدمام : فكل واحد من  
الأمرين نهج هو أم لك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . ثم يقول « وليس ما رسمته لك  
في هذا الباب بمقصود على الشعردون الكتابة ولا يختص بالنظم دون النثر ، بل يجب أن يكون  
كتابك في الفتح والوعيد خلاف كتابك في التشويق والتهنئة واقتضاء المواصلة ، وخطابك إذا  
حذرت وز جرت أنغم منه إذا وعدت ومنيت . فأما المهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل  
والتهافت ، وما أعترض به التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه ومهل حفظه وأسرع  
علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس » <sup>(١)</sup>

فأما القذف والإفشاء فهو سبب محض . وليس للشاعر إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم . ويقول بمد كلام « ميلالك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض العمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعني بهذا كل طبع . بل المهذب الذي قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والتقيح <sup>(١)</sup> » .

٩ — والذي يتعقب النقد عند العرب يرى الجرجاني مسبوqa في هذه الآراء . فليس له إلا فضل الترتيب والتنسيق . وهو فضل ليس باليسير . على أنك تشعر وأنت تراه يتصرف في هذه الأفكار تصرف المالكيين أن عقله أشرب مذاهب النقد والمفاضلة بين طبقات النثر الجيد والشعر البليغ ، بحيث يتعذر عليه هو نفسه أن يميز ما استفاده بالدرس والمراجعة وما أمذته به قريحته المتوقدة وذوقه السليم... وللقارئ أن يرجع الى صحيفة بشر بن المعتمر ووصية أبي تمام للبحرئى فسرى عناصر هذه النظريات التي يسوقها الجرجاني في سياسة النفس وتقويم البيان . ولكنه مسيرى كذلك أن الجرجاني أنهض بحجته ، وأملك لإياه ، وأقرب الى نفس قارئه من الذين سبقوه في هذا الباب . وتلك دلالة على استقلاله بما أودع كتابه من الآراء .

١٠ — وقد رأى أبو الحسن الجرجاني أن يفرق بين الشعر والدين وأن يميز بين غاية الأدب وغاية الأخلاق . وهو يعجب ممن يتقصص المتنبي ويفض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة ، كقوله :

يترشفن من في رشقات      هن فيه أحلى من التوحيد  
وقوله :

وأبهر آيات التهاى أنه      أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

مع أنهم احتملوا إسراف أبي نواس في مثل قوله في انتهاب اللغات والشك في عذاب  
الآخر : .

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة . (٢) ص ٥٨ من البيان والتبيين .

(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٠١ ط أول .

فدع الملام فقد أطلعت غوايتي      ونبذت موعظتي وراء جداري  
ورأيت إشار اللذائذة والهلوى      وتحتما من طيب هذى الدار  
أحرى وأحزم من تتظر أجل      ظننى به رجم من الأخبار  
لنى بما جل ما ترين موكل      وسواء لإرجاف من الآثار  
ما جاءنا أحد يخبر أنه      فى جنة مذمات أو فى نار

ويقول فى تأييد هذه النظرية "فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات وكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الآية عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبيري واضرا بهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاب من أحبابه بكاء خوسا وبكاء مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والذين يعمزل عن الشعر " .

ويجب أن نذكر أن صاحب هذه الفكرة هو " قاضى القضاة " وسيد الفقهاء فى الرى " وجرجان : لنعرف الى أى حد كانت التزمة الفنية ، ميطرة على مشاعر هذا القاضى الأديب . غير أننا نلاحظ أن الشعر الذى تمثل به لأبى نواس لا يشفع فى تأييد هذا الرأى الخطير . فليست الشاعرية أن يعلن الرجل كفره أو إيمانه فى تعابير لا رونق لها ولا ماء ، كما أعلن كفره أبو نواس ، وكما يعلن الأشياخ والأخبار والرهبان حرصهم على الدين والأخلاق ، وإنما الشاعرية روح يتزدد به الشاعر فيهب نفس القارئ أو السامع هزا عنيقا يجعله على أن يؤمن وهو طامع ذلول بما يدعو اليه الشاعر من ترين الاثم والبلى أو تقييع النى والفسوق .

ومن ذا الذى لا تروقه روعة الفتك فى قول ديك الحق :

لما نظرت إلى عن حدق المها      وبسمت عن متفتح النؤار  
وعقدت بين قضيب بان أهيف      وككيب رمل عقدة الزنار  
عسرت حدى فى الثرى لك طائما      وعزمت فيك على دخول النار

أومن ذا الذى لا ينشع لعظمة الفضل والوقار في قول معن بن أوس :

لمعرك ما أهويت كفى لريبة<sup>(١)</sup> ولا حلتني نحو فاحشة رجل  
ولا فادني سمى ولا بصرى لها ولا دنى رأى عليها ولا عقل  
وأعلم أنى لم تصبني مصيبة من الدهر إلا قد أصابت قتي قبل  
ولست بمش ما حيت لمعرك من الأمر لا يمضى الى مثله مثل  
ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة وأوثر ضيبي ما أقام على أهلى

والشاعر الواحد قد يرضيك جده وهزله ، ويروك شكه ويقينه ، حين يصدر عن ألوان نفسه ، ويتحدث صادقاً عن أسرار قلبه . ولا عيب على الشاعر في أن تختلف آراؤه باختلاف ذوقه وإحساسه : فان الشعر كالمرآة . والنفس دنيا ثانية تراه صورها المختلفة في لوحة الشعر الجميل . وما ذا تريدون من الشعر والأدب أيها الناس ! أتريدون أن تلتنوا الأحكام العرفية على الكتاب والشعراء والفنانين لتلا ينظروا بعيونهم ، ويفقهوا بقلوبهم : فيكون من آثارهم ما ينقض ما تواضعتم عليه منذ أجيال ؟ إن الله الذى يلون العالم كل يوم بلون جديد وتفتن يده الصنّاع في تزيين الأرض والسموات ، وينفخ من روحه فيمن اصطفاهم للشعر والبيان ، هو وحده جل شأنه القادر على أن يقول : هذا ما أريد أن يكون ، وذلك ما أنكر أن يكون !! وسيظل الأدب الحق أداة يعرب بها الشعراء عما تريد القدرة أن تصوّر به محاسن هذا الوجود .

فهنيئاً لمن أراد الله أن يشرهم صفوة الحياة ليكون للعالم من أديهم فرقان وإنجيل .



تلك نواح كشفنا عنها وبنّاها من كتاب الوساطة راجين أن يعود اليه القارئ طلباً للزبد .  
فليس النقد إلا وسيلة الى إثارة الرغبة في المراجعة والشوق الى الاطلاع .

(١) الرية ، بكسر الراء ، التهمة .

### ٣ - ابنه فارس

١ - لم تعين كتب التراجم السنة التي ولد فيها أحمد بن فارس، ولم يتفق مترجموه على المكان الذي ولد فيه . وقد نسب ابن الأنباري إلى المكان الذي مات فيه وهو الرى : فسماه أبا الحسين الرازي . والرازي نسبة شاذة إلى الرى . ويقول ياقوت في معجم الأدياء<sup>(٢)</sup> : « واختلفوا في وطنه فقيل : كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة كرسف وجياناباذ، وقد حضرت القريتين مرارا ولا خلاف أنه قروي . حدثني والدي محمد بن أحمد وكان من جملة حاضري مجالسه أنه أتاه آت فسأله عن وطنه فقال : كرسف . قال فتمثل الشيخ :  
بلادها سُتت على تَمَني وأقل أرض مس جلدي تراها »

أما وفاته رحمه الله فكانت بالرّى في صفر سنة ٣٩٥ هجرية وقد دفن بجوار قاضي القضاة على بن عبد العزيز الجرجاني .

٢ - ذكر السيوطي في بنية الوعاة<sup>(٣)</sup> أن ابن فارس كان يحوي على طريقة الكوفيين وأنه سمع أباه وعلى بن إبراهيم بن سلمة القطان . وذكر ابن الأنباري أنه أخذ عن أبي بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب . وعن أبي عبد الله أحمد بن طاهر المنجم، وكان يقول عن أبي عبد الله هذا : « ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه<sup>(٤)</sup> » وكان ابن فارس حريصا على تدوين ما يأخذه عن أبيه . وقد أثبت ابن الأنباري شاهدا على ذلك الحرص نكتني بالإشارة إليه . وذكر ياقوت أن ابن فارس حدث عن أبيه أنه قال : حججت فلقيت بمكة ناسا من هذيل بخاريهم ذكر شعرائهم فاعرفوا أحدا منهم . ولكنني رأيت أمثل الجماعة رجلا فصيحاً وأنشدني :

إذا لم تحفظ في أرض فدعها وحث اليمحلات على وجعها<sup>(٥)</sup>  
ولا يفررك حظ أخيك فيها إذا صفرت يمينك من جداه

(١) طبقات النحاة ص ٣٩٢ (٢) ج ٢ ص ١٢ (٣) ص ١٥٣ (٤) طبقات النحاة ص ٣٩٢

(٥) اليمحلات : الجمل .

ونفسك فز بها إن خفت ضيما وخل الدار يحزن من بكائها

فانك واجد أرضا بأرض ولست بواجد نفسا سواها

٣ - كان لابن فارس عدد كثير من التلامذة أشهرهم صاحب بن عباد وبدع الزمان المحدثاني . أما حاله مع صاحب فقد ابتدأت بوقاف ، وانتهت بشقاق - نسجع على ذكرى صاحب بن عباد! - تمت بينهما الألفة في بداية الأمر حتى وضع ابن فارس كتابه « الصاحبي » نسبة إلى صاحب . وحتى مدح صاحب ابن فارس بقوله « شيخنا أبو الحسين محمد رُزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف »<sup>(١)</sup> ثم انحرف صاحب عن ابن فارس لانتسابه إلى خدمة آل العميد وتمصبه لهم فأنفذ إليه من ههنا كتاب الحجر من تأليفه فقال صاحب « رد الحجر من حيث جاءك » ثم لم تطلب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر له بصلته<sup>(٢)</sup> . وكان صاحب كما ذكر ياقوت في معجم الأدباء<sup>(٣)</sup> يعرض أحيانا لابن فارس فيذكر أنه رأى « بعض الجهال يصحف ويقول » . وأما حاله مع بدع الزمان المحدثاني فكانت فيما يظهر غاية في صفاء الوداد . عرف ذلك من كتاب بدع الزمان إلى أستاذه جوابا على كتاب ورد إليه منه في ذم الزمان . ومن البر بالأدب والتاريخ أن نذكر هنا نص ذلك الكتاب لئلا نرى كيف كان بدع الزمان يرتاب فيما تقدمه من نظام الحكومات الإسلامية ، وكيف كان يحذر تغلب النفس الانسانية التي تُجَلِّ غدرها في قصائد الشعراء ، وصحائف الأنبياء . ولنتنظر كيف يقول « نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام إنه الحما المسنون »<sup>(٤)</sup> وإن ظننت الظنون ، والناس ينسبون لآدم ، وإن كان المهدي قد تقدم . وارتبكت الأضداد ، واختلط الميلاد . والشيخ الإمام يقول « فسد الزمان » أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفي الدولة العباسية وقد رأينا آخرها ومعها أولها ؟ أم المدة المروانية وفي أخبارها لاتكسع الشول بأخبارها؟ أم السنين الحربية<sup>(٥)</sup> .

(١) طبقات الأدباء ، ص ٣٩٤ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩ (٣) ج ٢ ص ٣٠٢

(٤) الحما المسنون : العطين المختبر . (٥) الشول جمع شائلة على غير قياس . والأخبار جمع خبر وهو بنية اللبن . والكسع هو ترك بقية من اللبن في أخلاف الناقة . الحنى : لا تنزول لبن إيك واحلبها لأضيائك فاك (لا تدمى من النالج) كما في بقية البيت . (٦) نسبة إلى حرب بن أمية ، والمراد خلافة معاوية وابنه يزيد .



(١١) والسرع يركو في الكلى  
(١٢) والسيف يعمد في العلى  
وميت حجر في الفلا والحارثان وكر بلا

أم البيعة الهاشمية وعلى يقول : ليت العشرة منك برأس من بنى فراس ؟ أم الأيام الأموية  
والنغير إلى الحجاز ، والعيون إلى الأعجاز ؟ أم الامارات المدوية وصاحبها يقول : وهل بعد  
النزول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيمية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات في نائة الاسلام ؟  
أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل : اسكني يا فلانة ، فقد ذهبت الامانة ؟ أم في الجاهلية  
وليبد يقول :

ذهب الذين يعاش في أكافهم وبقيت في خلف بجلد الأجر  
أم قيل ذلك وأخو عاد يقول :

بلاد بها كنا وكنا نجبها إذ الناس ناس والزمان زمان  
أم قيل ذلك وقد روى عن آدم عليه السلام :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مضرب قبيح

أم قيل ذلك وقد قالت الملائكة : أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ وما فسد  
الناس ، وإنما اطرد القياس . وما أظلمت الأيام ، وإنما امتد الظلام . وهل يفسد الشيء  
إلا عن صلاح ، ويمسى المرء إلا عن صباح ؟

ثم انتقل بديع الزمان إلى الرفق بأستاذة والمعطف عليه فقال :

« ولعمري ثن كان كرم العهد كتابا يرد ، وجوابا يصدر ، إنه لقريب المثال ، وإنى على  
توبيخه لى لغير إلى لقائه ، شفيق على بقائه ، متست إلى ولاته ، شاكر لآلائه . لا أحل حريدا  
عن أمره ، ولا أقف بعيدا عن قلبه . مانسته ولا أنساه . إن له أبده الله على كل نعمة خولنيها  
الله نارا ، وعلى كل كلمة علمتها منارا . ولو عرفت لكأني موقعا من قلبه لاغتنمت خدمته  
به ولرحدث إليه سؤركاه ، وفضل أنفاسه . ولكنني خشيت أن يقول ( هذه بضاعتنا ردت

(١) الكل جمع كلمة وكلة بالنسب . (٢) الطل بالنسب الأعناق جمع طلبة أو طلبة .

البنا ( وله أيده الله العتي، والمودة في القربى، والمرباع، وما ناله البساع . وما ضمه الجلد، وضمه المشط . وليست رضى ولكنها جل ما أملك » .  
إلى آخر ما قال <sup>(١)</sup> :

ولو وجدنا نص الكتاب الذى بدأ به ابن فارس لعرفنا شيئا من صور نفسه، وألوان قلبه :  
فإن لأزمات القلب، وبفعات النفس، دلالة كبيرة على المناحي التى يمنح إليها الكتاب والشعراء  
والباحثون <sup>(٢)</sup> .

• — كان ابن فارس وسطا في شعره وثره : فلم يكن يُسَفَّ حتى يصل الى وصمة الإعياء . ولم يكن يعلو حتى يصل إلى جودة البيان . وثره في جملة بين واضح مقبول . يسجني منه قوله — في تفرع رجال الفقه والحديث على الفن وترك الإعراب — : « وقد كان الناس قديما يمتحنون الفن فيما يكتبونه أو يقرءونه اجتنابهم بعض الذنوب . فاما الآن فقد تجاوزوا حتى إن المحدث يحدث فيلحن والفقيه يؤلف فيلحن . فاذا نها قالا (ما ندرى ما الاعراب وإنما نحن محدثون وفقهاء) فهما يُسران بما يساء به اللبيب ! ولقد كُتبت بعض من ينهب بنفسه ويراها من فقه الشافعي بالرتبة العليا في القياس . فقلت له : ما حقيقة القياس وما معناه ؟ من أى شيء هو ؟ فقال (ليس على هذا وإنما على إقامة الدليل على صحته) .

« فقل الآن في رجل يروم إقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه ولا يدري ما هو ونموذ بالله من سوء الاختيار ! » .

وللقارئ أن يتأمل هذه الجملة فسيراها جيدة المعنى نقية الأسلوب ، وسيرى كيف وصل الكاتب الى ما يرى اليه من التهمك اللاذع بالفقهاء والمحدثين من غير أن يلجأ الى غرابة المعاني

(١) (راجع ص ١٤٤ و ١٤٩ — من رسائل البديع . (٢) التى في رسائل بديع ازيان أن هذه الرسالة جملت بجوابا عن كتاب ورد اليه من ابن فارس في ذم الزمان . وفي نهاية الأثر ج ٧ ص ٢٦٢ أن بديع الزمان ذكر في مجلس ابن فارس فقال ما معناه : إن البديع قد نسي حق طليتنا إياه وعنا بأنه عا فاعلمه على فساد الزمان وتغير نوع الانسان ! فيلغ ذلك البديع فكذب الى ابن فارس ذلك الكتاب .

وجلبلة الألفاظ. وفي هذه الجملة أيضا دلالة على أن غفلة الفقهاء عن اللغة العربية قديمة العهد وليست من سيئات العصر الحديث .

٦ - أما شعر ابن فارس فهو على قلته يكاد يقف عند شكوى الزمان . من ذلك قوله - وقد قل ماله ، وكثر دينه ، ولم يفنه علمه - :

سقى همدان الفيت لست بقائل سوى ذا وفي الأحشاء نار تنضم  
وما لي لا أصفى الدعاء لبللة أفدت بها نسيان ما كنت أعلم  
نسيت الذي أحسنه غير أني مدين وما في جوف بيتي درهم<sup>(١١)</sup>

وقوله في كثرة همومه وتغزيه بالهرة والكباب والمصباح إذا أوى الى بيته المقفر الجديب :

وقالوا كيف حالك ؟ قلت خير تقضى حاجة وتفوت حاج<sup>(١٢)</sup>  
نديمي هرتي وأئيس نفسي دفاتر لي وممشوق السراج

وقد يستظرف دفاعه عن البخل والحرص إذ يذكر أن المال المضنون به بسخر الحق لخدمة صاحبه : فقد يكرم الرجل لفناه قبل أن يكرم لفضله . وفي هذا المعنى يقول :

يا ليت لي ألف دينار موجهة وأن حظي منها فلس إفلاس<sup>(١٣)</sup>  
قالوا فما لك منها قلت تخمني لها ومن أجلها الحق من الناس

وقد يستجاد قوله في التغاضي عن هفوات الصديق :

عتبت عليه حين ساء صنيعه وآليت لا أمسيت طوع يديه<sup>(١٤)</sup>  
فلما خبرت الناس خبر مجرب ولم أر خيرا منه عدت اليه

ومن ظريف الإشارة الى ضعف حجج النعاة قوله في فحور الجفون :

مرت بنا هيفاء مقدودة تركية تنمى لترك<sup>(١٥)</sup>  
ترو بطرف فافر فافن أضعف من هجة نحوي

(١) ص ٢١٨ ج ٢ من القيمة . (٢) ص ٢١٩ ج ٢ (٣) ص ٢١٩ ج ٢

(٤) ص ٢٢٠ (٥) ص ٢٦٩

٧ — لابن فارس مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا القليل . والذي يعبئنا هو (الصاحبي) الذي قدمه الى صاحب بن عباد ، وهو كتاب متوسط الحجم يقع في ٢٣٢ ص بالقطع الكبير طبعته المطبعة السلفية في سنة ١٩١٠ طبعاً جيداً نقلنا عن نسخة صحيحة بخط المرحوم الشيخ الشقيطي من مكتبته بدار الكتب المصرية وقد نقلها رحمه الله عن نسخة في إحدى مكاتب القسطنطينية قرئت على المؤلف في سنة ٣٨٢ هـ ، وعلى ظهرها بخطه ما يفيد إجازة القراءة والنسخ . قال المرحوم الشقيطي ” وكانت مقابلتي إياه صفحة صفحة : لا أبتدئ الصفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التي كتبها قبلها فتمت كتابته ومقابلته في آن واحد والله الحمد “ .

أما قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فستظهر حين نناقش ما فيه من مختلف الأبحاث .

٨ — يحار الباحث في تحديد حياة ابن فارس العقلية : ومرجع هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه الحيرة فهو إغفال المتقدمين تاريخ آثار هذا اللغوي الأديب فقد عرف أنه راجع كتاب الصاحبي في سنة ٣٨٢ ولكننا لا نعرف في أي سنة من سني حياته العلمية وضع رسالته في الرد على محمد بن سعيد الكاتب . والفرق بعيد جداً بين رسالته هذه وكتابه ذلك : فهو في ” الصاحبي “ رجل حذر هيب يحسب مسaire العقل جريمة ، ويمتد التفكير من جملة الذنوب . ولكنه في رسالته الى ابن سعيد باحث مملوء بالنيرة والحمية لكل حق ولكل جديد .

نظرات ابن فارس في كتاب ” الصاحبي “ كلها جود وكلها ذهول . وقد يصحح أحياناً فيرمي بالقول السديد . وحسب الفارئ في الدلالة على إغراق كتاب الصاحبي في «الرجعية» أن يعرف أن ابن فارس يفضل العروض على الفلسفة . ويقول في وصفه ” علم العروض الذي يرى بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يتبع به الناسيون أنفسهم الى التي يقال لها الفلسفة “ .<sup>(١)</sup>

ومن هذه العبارة أخذ الشيخ بجيت فيما نظن قوله في رينان ” ذلك الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف “ .

وحقا إن الفلسفة لا تريد عن أنها « التي يقال لها الفلسفة » وربنا لا يزيد عن أنه « الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف » وسبحان من أغنا عما ترك المبدعون في العلوم والفنون !!

وأغرب من هذا أن يستنكر ابن فارس أن يكون للفلاسفة مؤلفات في النحو والإعراب وأن يستبعد أن يكون لهم شعر جميل . ويقول في ذلك « وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو<sup>(١)</sup> ، ثم يقول « وهذا كلام لا يعرج على مثله . وإنما تشبه القوم آتفا بأهل الاسلام فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك الى قوم ذوى أسماء منكورة بتراجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها . وأدعوا مع ذلك أن للقوم شعرا . وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن » ثم يقول في وصف العروض « ومن عرف دقائقه وأسراره وخفياه علم أنه يرى على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين يتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التي لا أعرف لها فائدة . غير أنها مع قلة فائدتها ترقى الدين وتنتج كل ما نمود بالله منه<sup>(٢)</sup> » .

وكذلك كان يرتاب أكثر المتقنين في العلوم العقلية . ويرونها خطرا على العقائد : كما يفعل المتأخرون اليوم . وهذا كله هرب من البحث وإخلاد الى الغموض . وإلا فكيف يبعد الناس عن دينهم كلما توغلو في درس حقائق الأشياء ؟

٩ — ترك هذه الناحية من عقلية ابن فارس التي تمثل لنا رأيه ورأى أمثاله في فهم ما نوحى به العقول . وانتقل الى الجانب المشرق من حياته العقلية ففراه يمثل لنا تقاسم أهل ذلك العصر الى طائفتين تقتلان . تدعو إحداهما الى الاكتفاء بما ترك المتقنون من الآثار الأدبية . وتدعو أخراهما الى الإبداع والتجديد في عالم الآداب . ويكفى أن يعرف الباحث أن من رجال ذلك العصر من أنكز اختيار الشعر اكتفاء بديوان الحماسة ليرى أن (الرجعية)

(١) ص ٤٢

(٢) ص ٤٣

كانت تفنك بأحلام أولئك الناس وأن الصراع بين القديم والجديد يكاد يتصل بالحياة الفكرية في جميع الأجيال .

وفي رسالة ابن فارس الى محمد بن سعيد صورة لهذه الخصومة العقلية التي شهدها رجال القرن الرابع . فلتنكره يتكلم ولتنظر كيف يدافع عن شعراء عصره المبدعين إذ يقول في خطابه الى ابن سعيد ” ألهكم الله الرشاد؛ وأصبحك السداد، وجنبك الخلاف، وجب اليك الانصاف ! وسبب دعائي هذا لك إنكارك على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتابا في الحماسة وإعظامك ذلك وإمله لو فصل حتى يصيب الغرض الذي يريده ، ويرد المنهل الذي يؤمه لاستدرك من جيد الشعر وبقية، ومختاره ورعيه ، كثيرا مما فات الأول . فما ذا الانكار ولم الاعتراض؟ ومن ذا حظرك على التأخر مضادة المتقدم؟ ولم تأخذ بقول من قال ”ما ترك الأول للآخر شيئا“ وتدع قول الآخر ”كم ترك الأول للآخر“ وهل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه ، ويجمع مثل جمعه ، ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟

وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ؟

أو ما علمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره ولم يحز أن يؤلف مثل تأليفه؟ ولم هجرت واسما وحظرت مباحا وحرمت حلالا وسددت طريقا مسلوكا ؟ وهل (حييب) الا واحد من المسلمين له ما لم وعليه ما عليهم ؟ ولم جاز أن يمارض الفقهاء في مؤلفاتهم ، وأهل النحو في مصنفاتهم ، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم ، ولم يحز معارضة أبي تمام في كتاب شذ عنه في الأبواب التي شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدرك قدره !!

ولو أقصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أهام  
ثاقبة، ولكت ألسن لسنة، ولما توشى أحد خطابة ولا سلك شعا من شباب البلاغة  
ولجت الأسماع كل مردد مكر، وللفظت القلوب كل مرجع مضغ . وحام لا يسام  
(لو كنت من مازن لم تسفح إلى) وإلى متى "صفحتنا عن بنى ذهل" - إلى أن قال "وهلا  
حثت على إثارة ما غيبته الدهور وتجديد ما أخلقته الأيام وتدوين ما تحته خواطر هذا  
الدهر وأفكار هذا العصر؟ على أن ذلك لو رآه رائم لأتعبه ولو فعله لقرأت ما لم يحط عن  
درجة من قبله من جد يروعك، وهزل يروقك، واستنباط يسجك، ومزاج يلهيك"<sup>(١)</sup>.

١ - تلك هي الناحية المشرقة من حياة ابن فارس العقلية وهي كما يرى القارئ تختلف  
عن سابقتها أشد الاختلاف. وقد ذكر صاحب البيعة جزءا كبيرا من هذه الرسالة فطرح إليها من  
يطلب المزيد. ولكننا نرى من البر بالأدب أن نذكر نماذج من الشعر المحدث لعهد ابن فارس  
وكانت تضيق به نفوس الرجعين إذا ذاك. وهو يستجيد قول يوسف بن حويه المعروف  
بالمنادى وكان من أهل قزوين :

جج مثل زيارة الخمار	واقثنائي المقار شرب المقار
وقارى اذا توقر ذو الشيد	بة وسط الندى ترك الوقار
ما أبالي اذا المدامة دامت	ضل ناء ولا شناعة جار
رب ليل كأنه فرع ليل	ما به كوكب يلوح لسارى
قد طويناه فوق خشف كحيل	أحور الطير فاتن سمار <sup>(٢)</sup>

(١) ص ٢١٥ و ٢١٦ ج ٣ بيعة .

(٢) وردت هذه الأبيات في ديوان أبي نواس مع اختلاف قليل، وربما كانت مما أخيف إلى شعر أبي نواس  
لاتصالها بضم المسروق في الفزل والشراب، وهي في الديوان طويقة تصل إلى خمسة عشر بيتا آخرها هذا البيت  
الحكم :

بقى يطلع الفقى وهو إن را ح مسكرمان غدا فى خمار

ويستجيد قول أحمد بن بندار :

زارني في البقي فقم عليه طيب أردائه لدى الرقباء

والقريا كأنها كف خود أبرزت من غلالة زرقاء

ويستجيد قول بعض رجال الموصل :

فديتك ماشيت عن كبرة وهذي سني وهذا الحساب

ولكن همرت غل المشيب ولو قد وصلت لعاد الشباب

الى هنا وقف القارئ على شيء من حياة ابن فارس يقربه اليه بعض التقريب ان لم يمثله

كل التمثيل . فلنأخذ في نقد آرائه في فقه اللغة العربية والكشف عما فيها من مغالطات الخطأ

ومواقع الصواب .



## ٤ - نقد آراء ابنه فارس في فقه اللغة العربية

١ - الفقيه المسلم بالشئ والفهم له والفتنة . وغلب على علم الدين لشرفه . كما في القاموس المحيط . وفي أساس البلاغة (قال أعرابي لمسى بن عمر شهدت عليك بالفقه : أى بالفهم والفتنة . وفي الحديث (من أراد الله به خيرا فقهه في الدين) وقضت فلانا كفا وأقضته آياه فهمته ففقهه وتفقهه . وقال عمر بن الخطاب كنت سيدا في الجاهلية وقضيا في الإسلام . قال الزمخشري وتقول فلان بين الفراهة : في أبواب الفقاهة . وغلب فقيه عالم بذوات الضيع وذوات الحمل<sup>(١)</sup> .

فالفقه كما ترى دقة الفهم ونفاذ البصيرة في التفريق بين حقائق الأشياء . وعجاجة " فقه اللغة " لم يكده يتفق القدماء على إفراغها بمداول خاص . وإنما نجد فيها تعابير الكتاب والمؤلفين على سبيل الاختيار لاطل وجه التمين . والتألي يحدنا بأن كتابه (فقه اللغة) إنما سمى بهذا الاسم وفقا لاختيار الأمير الذي أهداه اليه فعل ذلك على أن المنحى الذى سلكه فى تأليفه لم يكن جريا على خطة آتفق عليها الباحثون فى ذلك الحين . فسا هو المقصود من عبارة (فقه اللغة) فى العصر الحديث ؟ ذكر السنيور جويدي فى محاضراته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٣٦ أن كلمة (Philologie) تصعب ترجمتها بالعربية وأن لها فى اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب . فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو وقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يذهب الى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها . وأنا سمع هذا فمن الممكن أن يدخل فى دائرة " الفيلولوجى " علم اللغة وفنونها المختلفة كإخراج اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلم البلاغة وعلم الأدب فى معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم

من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينه في المجموعات والمجلدات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية ، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذي نشأت فيه تلك الآثار الأدبية “ .

ويترتب على هذا التعريف كما ذكر السنيور جويدى أن يصبح هذا العلم من أوسع العلوم دائرة وأن يصبح « الفيلولوج » مضطرا الى البحث عن أوائل الأدب حين يدرس درجة التمدن عند شعب من الشعوب ، وإلى تأمل العلاقات التي كانت بينه وبين غيره وما أثر فيه من الحوادث السياسية والتاريخية . ثم لا يكفى لمن يريد درس كتب المحجوس الدينية مثلا أن يقف عند معرفة اللغات الإيرانية بل عليه أن يطيل النظر في كل وجوه الحياة عند القوم وما تأثر به هذا الدين مما اتصل به من العقائد والديانات .

هذا هو اتجاه السنيور جويدى الذي كان أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب . وهو كما يرى القارئ يحمل مهمة الباحث في هذا العلم شاقة عسيرة ويرد ما تميز واستقل من علوم اللغة الى علم واحد تنوء به عزائم الآحاد . وقد شعر الأستاذ نفسه بهذا فقرّر أنه لا يمكن للباحث أن يحيد إلا جزءا واحدا من ذلك العلم الكثير الأجزاء !

٢ — على أن من الحق أن تقرّر أن كلمة “ فقه اللغة ” التي اختيرت لترجمة كتاب الثعالبى لم يرم بها قائلها من غير أن يكون لها في نفسه مدلول خاص : فقد وردت هذه الكلمة في فاتحة كتاب ابن فارس إذ قال “ هذا الكتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها ” وهو بالطبع كان يعرف ما ترى إليه هذه التماير . فلم يبق إلا أن يكون الباحثون في علوم اللغة العربية لذلك المهيد قد فكروا في فن جديد غير ما عُرف من علوم البلاغة وما اصطُلع عليه من مسائل النحو والصرف والاشتقاق . وهذا الفن الجديد الذي كاد ينفرد به رجال القرن الرابع والخامس لم يحيد من يُعنى بتدوين أصوله ، وتحقيق فروعه ، حتى يستقل عن غيره بعض الاستقلال . وإنما ظل كما ابتدأ مسائل متفرقة يتقصها الترتيب والتفصيل

ويسوزها النقد والتميز، وما الى ذلك من أنواع العناية بختلف الفنون . وعندى ان أهم ما يؤخذ على المؤلفين في فقه اللغة هو إهمال المصادر وإهمال التاريخ ولنضرب لتلك الأمثال :

جاء في الفصل الثالث من الباب التاسع عشر من كتاب النعالي أن "الارتكاض" حركة الجتين "والنوس" حركة النفس بالريح "والتلدلل" حركة الشيء المتدلى - و"الترجج" : حركة الكفيل السمين والغالودج الرقيق . و"النسيم" : حركة الريح في لين وضعف . و"الذماء" : حركة القتيل . و"النودان" حركة اليهود في مدارسهم . وكان يجب أن يذكر بجانب هذا التنوع ما يؤيده من الشعر الموثوق بصحته وأن يدلنا على العصر الذي استعملت فيه كلمة "النودان" مثلا وأن يبين أعربية هي أم عبرية .

وجاء في الفصل السابع عشر من الباب الرابع والعشرين أن الانسان إذا شرب فهو نشوان وإن دب فيه الشراب فهو ثمل . فإذا بلغ الحد الذي يوجب الحدة فهو سكران . فإذا زاد امتلاء فهو سكران طالع . فإذا كان لا يتماكس ولا يتماكك فهو ملتغ . فإذا كان لا يعقل شيئا من أمره ولا ينطق لسانه قيل سكران بات وسكران ما يت<sup>(٢١)</sup> . وكان من الواجب أن يذكر لنا النعالي شيئا عن أصول هذه التماير وأن يرى متى وقعت كلمة (سكران طالع) وكيف وقعت : في شعر أوفي ثر . وإذا كان مصدرها الشعر فن يدرينا لعل للوزن والغافية دخلا في صيغتها بصيغة التاكيد . وكل ما عمله النعالي أن دلنا على أن كلمة (ملتغ) منقولة عن الأحمى وأن (سكران بات وسكران ما يت) كلاهما عن الكسائي ولم يتمتض لأيهما الراجح وأيهما المرجح .

وهذا المأخذ يسرى على جميع الأبواب التي روعى فيها حصر الأوصاف والصوت . فإن أكثر ما جرى عليه النعالي في "فقه اللغة" وأبن سيده في "المفصص" وأبن الأجدابي في "كفاية المتحفظ" لم يلحظ فيه اختلاف اللغات . وإنما كان الفرض منه جمع الأشياء والنظائر في الصفات والأسماء .

٣ — قلت لك إن المتقدمين لم يفرّدوا هذا العلم بموضوع خاص ، والآن أشير إلى أن منهم من غلبت عليه صنعة الكتابة فكان من همّه أن يزيد في مادة الإنشاء بجمع ما يتبدّد من الألفاظ والتعابير، وكان منهم من غلب عليه النحو والتصريف فكان من همّه أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب إذ وجدتم ( لا يبنون ما أقلب في الألف من الياء مما أقلب الواو فيه عن الياء ولا يحتمون الموضع الذي انقلاب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميّزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لنتان . وذلك يكذب وجبذ . ويُسّ وأيس . ورأى وراء ... وكذلك لا ينبهون على ما يسمعون غير مهموز مما أصله المعز على ما ينبغي أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا وما يعتقد منه بدلا سماعيا ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع <sup>(١)</sup> .

وهذا الاتجاه يسير إلى ما رمى إليه ابن جني في "الخصائص" وإن كان دونه .

فإن ابن جني أراد أن يسمو على ما شغل به الكوفيون والبصريون وأن يعمل في أصول النحو ما عمله الذين سبقوه في أصول الفقه <sup>(٢)</sup> . وهذا وذاك سعى إلى غاية واحدة هي إنشاء فن جديد يجمع بين أسرار اللغة وأسرار الإعراب . ولا تزال الحاجة شديدة إلى فهم ما حاوله الثعالبي وابن جني وابن سيده من دقائق هذا الفن العجيب ، والبحث عن المصادر الأولى التي مهدت لهم السبيل إلى التعمق في بعض الأبواب ، وتعقب الآثار الأدبية التي تعين على تصحيح ما وقعوا فيه من الأغلاط . وذلك يتطلب كثيرا من الجهود .

٤ — في كتاب ابن فارس طائفة من الأبحاث يتصل بعضها بأسرار اللغة ويرجع بعضها إلى مسائل عرضية كانت مما يشغل الناس إذ ذاك . من هذا كلامه عن الخط العربي وأول من كتب به وهو ينقل في سذاجة أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة . كتبه في طين وطبخه فلما أصاب الأرض الفرق وجد

(١) راجع مقدمة المخصص . (٢) ص ٧ من الخصائص .

كل قوم كتابا فكتبوه فأصاب اسماعيل الكاتب العربي . ويرى كذلك أن الخط توقيف لظاهر قوله عز وجل : « إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ويرى أنه ليس بعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء على كتاب ويقول « فاما أن يكون غشيع اخترعه من تلقاء نفسه فشيء لا تُسلم محنته إلا من خبر صحيح »<sup>(١)</sup> .

ويبالغ في إثبات أن لغة العرب توقيف لاصطلاح . ويرى كما رأى في زعمه ابن عباس أن الأسماء التي علمها الله آدم " هي هذه التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحار وأشبه ذلك " ويقول في سذاجة " ولعل ظانا يظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد وليس الأمر كذلك بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نيا نيا ما شاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فأتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة . ثم قرأ الأمر قراره فلا تعلم لغة من بعده حدثت ، فان تعمل اليوم لذلك متعمل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده " وهذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وإنه خطأ مبين . وقد خطر له أن النحاة يقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لا تجمع بين ساكنين ولا تبدئ بساكن ولا تنقف على متحرك وأنها تسمى الشخص الواحد بالاسماء الكثيرة وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد ، وهذا دليل على أن للعرب شيئا من الاختيار في كيفية التمييز وهو يدفع ذلك بقوله . " إن العرب تفعل كذا بعد ما وطأناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهي الأمر إلى الموقف الأول " ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ في تأييد هذا الرأي إلا عند الكلام عن منشأ اللغات فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الاصطاح والأقاليم تأثيرا في تكوين اللغة وأن لم يسط هذا الوجه حقه من البيان .

٥ - وقد عُني ابن فارس وهو يتكلم عن الكتابة والقراءة والخط بمسألة تتعلق برسم المصحف وقراءته : فذكر بسنده أن عثمان أرسل إلى أبي بن كعب كتف شاة فيها "لم يمتن" و "فأمهل الكافرين" و "لا تبدل الخلق" فدعا بالدواة فما إحدى اللامين وكتب "خلق الله" وعا "فأمهل" وكتب "فهل" وكتب لم "يمتته" ألحق فيها هاء .

ونقل عن الفراء أنه قال (إتباع المصحف إذا وجدت له وجهاً من كلام العرب وقراءة القرآن أحب إلى من خلافه) .

وأنه قال (وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ «إف هذين لسأحران»<sup>(١)</sup> ولست أجد على ذلك قرأ «فأصدق وأكون» فزاد واوا في الكتاب ولست أستحب ذلك) .

وكان على ابن فارس أن يكشف عن مغزى هذا التغير في رسم المصحف وأن يبين إلى أي حد يقبل تصحيح النسخة لقراءات القرآن . ولكن يظهر أن رغبة الجماهير في الكف عن التعمق في درس ما يتصل بالدين حالت بينه وبين الإنصباح عما لمحاولات النسخة من القرض البعيد . ونحن أيضاً نكتفي بالإشارة إلى هذا البحث الخطير<sup>(٢)</sup> .

٦ - المعروف أن العلوم العربية لم تنشأ إلا في الاسلام : فالنحو من وضع أبي الأسود الدؤلى . والعروض من وضع الخليل بن أحمد . والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجاني . إلى آخر ما يحس به أدعياء التاريخ . وقد تنبه ابن فارس إلى استبعاد هذه البداية للعلوم العربية فذكر أن علم العروض أقدم من عهد الخليل . قال : والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الخطيئة التي أولها :

• شاتك أظمان لليل دوت ناظرة بواكر

ف نجد قوافيها كلها عند التزم والإعراب نجيء مرفوعة ولولا علم الخطيئة بذلك لأشبه أن يختلف اعرابها : لأن تساويها في حركة واحدة أنفاً من غير قصد لا يكاد يكون<sup>(٣)</sup> .

(١) ص ١٠٩ و ١١٠ (٢) القرآن يجب أن يقرأ له نحو خاص ، وكذلك الأدب الجاهل والأموى ، ولغات العالم كله تصرف بما يسمى "النحو التاريخي" ونحن في حاجة إلى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذاً من تنابير القرآن . (٣) ص ١١٠ و ١١١

وهنا يجب أن نشير إلى غلطة وقع فيها ابن فارس وهو يذكّر أن علم العربية وعلم العروض كانا قبل الدولة والحليل . فقد نص على "أن هذين العلمين قد كانا قديما وأنت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس ثم جتدهما هذان الإمامان" .

ومعنى هذا أن النحو الذى نعرفه علم مجدد لا مبتكر، وكذلك العروض . وهذا خطأ إن أردنا أن النحو والعروض كانا قديما على مثل هذا الوضع . والحق أنه يبعد أن لا يكون العرب فكروا في ضبط لغتهم منذ اليهود القديمة . ولكنه يبعد كذلك أن يكون ما عرفوه وتواضعوا عليه من الضوابط والقواعد ماثلا لما عرف بعد الاسلام . لأن النحوى الذى نعرفه هو نحو اللغة القرشية فكلمة "العرب" في عبارة ابن فارس تحتاج الى تحديد .

٧ - ولابن فارس رأى في التمايز الأدبية نفد قتل لنا تمايز كثيرة ضاعت مغازيها من أذهان المتكلمين وبقيت خلوا من المدلول . وهو يرى أن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله وأنت علماء اللغة يختلفون في كثير مما قاله العرب فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والامكان، وأنه لا يعرف أحد منهم حقيقة قول العرب في الاغراء (كذب كذا) وما جاء في الحديث من قوله (كذب عليكم الحج) "وكذبك السبل" .

وقول القائل :

كذبت عليكم أو وعدوني وعلاوا      بنى الأرض والأقوام قردان موطبا

وقول الآخر :

كذب العقيق وماء شق بارد      انت كنت سائلي غبوقا فاذهي

ونحن نعلم أن قوله (كذب) يبعد ظاهره عن باب الإغراء . وكذلك قولهم (عنتك في الأرض "عنتك شيئا" وقول الأقوه :

عنكمو في الأرض إنا مدحج      ورويدا يفضح الليل النهار

ومن ذلك قولهم "أعمد من سيد قتله قومه" أى "هل زاد؟" .

وقال ابن ميادة :

وأحمد من قوم كفاهم أخوهو صدام الأعدى حين قلت نيوها

قال الخليل وغيره "معناه هل زدنا على أن كفتنا" قال ابن فارس فهذا من مشكل الكلام الذي لم يفسر بعد . وقول أبي ذؤيب :

خضب الشوارب لا يزال كأنه نصب لآل أبي ربيعة مسبح

قال ابن فارس : فقوله "مسبح" لم يفسر حتى الآن تفسيراً شافياً .

ومن هذا الباب قولهم "ياعيد مالك" و"ياهي مالك" و"ياثي مالك" ولم يفسروا قولهم "صه" و"ويك" و"إنيه" ولا قول القتاتل :

• بناتيك الحق يهتفون وي هل •

ويقولون "خائبك وخائبكم" . فأما الزجر والدعاء الذي لا يفهم موضعه فكثير كقولهم "دعي" و"دعي هلا" و"وبين ما أرينك" في موضع اعجل . و(هج) و(هجا) و"دع" و"دعا" و"لما" للعائر يدعون له وينشدون :

ومطية حملت ظهنر مطية . خرج تنى مل حثار بدعدع

ويروى عن النبي أنه قال "لا تقولوا دمدع ولا لمع . ولكن قولوا اللهم ارفع واقع" قال ابن فارس : فلو أن للكلمتين معنى مفهوماً عند القوم ما كرهها النبي . وكقولهم في الزجر "أمر" و"أمرى" و"دها" و(هلا) و(هاب) و"ارحي" و"عد" و"عاج" و"ياعط" و"يباط" وينشدون :

وما كان على الخبي ولا المحى ابتاجيكا

وكذلك "إجد" و"وأجدم" و"حجج" .

(١)

قال ابن فارس : لا نعلم أحداً فسر هذا .



تأمل أجب: القارئ في هذه التباير المجهولة ولقد ذكر أنها لم تجهل إلا لأنها كانت متصلة بقبائل تناسها المخدنون . ولو كانت هذه التباير متصلة في لغة قريش لقيت معرفة المدلول . وهنا يشير إلى أنه لا بد من وضع قاموس يراعى فيه جانب التاريخ . فإن المعاجم العربية جمعت الألفاظ والتباير من هنا وهناك من غير أن تعين ما عُرِف في عصرهم جهل وما استعمل ثم تجاهاه الاستعمال . وقد نجد من كُتب العصر الحاضر من يظن المعاجم صورة صادقة لما كان يذهب إليه العرب في طرائق التعبير وهو خطأ لو يعلمون شئ !

٨ — وقد تنبه ابن فارس إلى التباير التي لا يمكن الوصول فيها إلى تعيين المراد . والمتشبه الذي لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتال وما هو بغير اللفظ ولكن الوقوف على كنهه متعاص . وذكر من ذلك قولنا (الحين) و(الزمان) و(الدهر) و(الأوان) فانك لا تدري إذا قال الخائف «واقه لا كلمته حينا أو زمانا أو دهرا» إلى أي حد يتصل الإعراض وكذلك «بضع سنين» مشبه . قال ابن فارس وأكثر هذا مشكل لا يقصر شيء منه على حد معلوم ومن هذا الباب على رأيه قولهم في النقي والفقر وفي الشريف والكريم والشم إذا قال «هذا لأغنياء أهلى» أو «فقرائهم» أو «أشرافهم» أو «كراهم» أو «لشاههم» وكذلك إن قال «امنوه سفهاء قومي» لم يمكن تحديد السفه .

قال ابن فارس : ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضيا يريد حجرا على رجل مكتهل فقلت وما السبب في حجره عليه ؟ فقلت يزعم أنه يتصيد بالكلاب وأنه سفیه . فقضى على القاضى قوله جل ثناؤه «وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلموهن بما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم» . فأمسك القاضى عن الحجر على الكهل .

٩ — وقد أراد ابن فارس أن يثبت للغة العرب خصائص ليست لغيرها من سائر اللغات فزعم أنها اضررت بالبيان : لقوله جل ثناؤه (وإنه لتزِيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) .

ثم أعقب هذا الشاهد الذى لا يقيم حجته بهذه العبارة « فان قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لفته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان : لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلماً فضلاً عن أن يسمى بيناً أو يليقاً .

”وان أردت أن سائر اللغات تبن إبانة اللغة العربية فهذا غلط : لأننا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد . ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة . وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟“<sup>(١)</sup> .

وهذا كما يرى القارئ كلام أجوف لا طائل تحته وهو يدل على أن ابن فارس كان قليل العلم بما عُرف لمعهد من آثار الفرس واليونان . وإلا فكيف جاز له أن يظن أنه لاحظ لغير العرب في البلاغة والبيان! ثم ما هو الدليل على انفراد العرب بالإفصاح؟ لا شيء إلا أن للأسد خمسين ومائة اسم، والسيف خمسمائة، ولحية مائتين، وما شاء الله كان! وقد شاع هذا القلط عنة قرون وكان من آثاره أن سأل الرشيد الأصمعي عن شعر لابن حزم العكلى ففسره فقال الرشيد :

يا أصمعي ! إن الغريب عندك لغير غريب ! فقال ”يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً“ وكان من آثاره أيضاً أن أفرد صاحب ابن عباد هذه المترادفات بـ **كتاب !**

ولقد جرى ذكر هذه ( الثروة اللغوية ) في دوس الدكتور طه حسين فأشار الى أن هذا غير طبيعى أو أنه على الأقل إسراف . وهو يرجح أن كثرة المترادفات الى هذا الحد ليست إلا أثراً من عبث الرواة ولعبهم بالجاهير . ويرى أنها ترجع الى السياحات العديدة التي كان

يرى بها الرواة واللغويون الى جمع ما تفرق في أحشاء البادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا الى الحواضر مثقلين بمادة المكثرة والتعجيز ثم لا يتحرجون من أن يقولوا إن العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم والسيف خمسمائة ولحية مائتين .

فمن هم هؤلاء العرب أيها الناس؟ اليسوا في أنفسكم كل من أقلت الجزيرة العربية من شتيت القبائل وعديد الأحياء؟ ولكن ألا تذكر أننا حين نذكر لغة العرب لا نريد غير لغة قريش التي نزل بها القرآن؟ أقستطيعون أن تثبتوا أن قريشا عرفت للجعر سبعين اسما والكلب ما لا ندرى كم تعدون من الأسماء؟

١٠ — وقد غفل ابن فارس عن تأثير الإقليم في اللغة العربية فظن التعابير التي انفرد بها العرب — لما تأثر به أسماعهم وأبصارهم — فضلا تطول به لغتهم سائر اللغات . وكذلك يرى أنه لا يمكن لغير العربي أن يعبر عن قولهم (رحب المعطن، وغمر الداء، ويخلق ويفرى، وهو ضيق المحم، قلق الوضين، وهو ألوى بعيد المستمر، وهو شراب بأقع، وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، وعى بالاستاف) .

ولو تأمل ابن فارس قليلا لعرف أن هذه التعابير ليست إلا تمثيلا لما يراه العرب في باديتهم من الحيوان والنبات والجناد، وأنه من المعقول أن يكون للهند والفرس والروم تعابير كهذه أخذت مما تقع عليه أبصارهم من أنواع الموجودات ولا يستطيع العرب أن يصفوها لأنها وقعت على غير ما يلقون .

## ٥ - النقد الأدبي عند ابن شهيد

مر اليان — خصومة ابن شهيد وحققده على الملمين في قرطبة — مذهب الجاحظ في تعليم اليان — كيف تكون ملاحاة النحو وضاعة الغريب — الأنساب والقرابات بين الحروف — ربط القوافي والأوزان بالغماني — كيف كان الشريعة المجتدين عند البقائين والقضاين — هل في مقدور كل بلغ أن يصل الى كل غرض — البلاغة ميازة نفسية من المتكلم للعاطف — أثر الطبع في البلاغة — هل جمال الأعضاء دخل في جمال النفوس ؟ — وهل كان الجاحظ لدماءه من أهل الفلفة والحق ؟ — كيف وزن أقدار الرجال ؟

١ — أشرنا عند الكلام على رسالة "التوايح والزوايح"<sup>(١)</sup> الى ما كان يراه ابن شهيد من أن البيان نعمة سماوية ولا مصلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب، فلنذكر الآن أن هذا الرأي كان من المسائل التي شغل بها ابن شهيد وأخذ يبدئ فيها ويعيد كلما تكلم عن النقد والبيان. ومن الخير أن نتص هنا على أن ابن شهيد لم يكن في درس هذه المسألة مخلصا كل الإخلاص، فقد تبين لنا بعد مراجعة ما كتبه في ظروف مختلفة أنه كان حريصا على تحقير جماعة من اللغويين والنحويين الذين طاصروه في الأندلس وناصبوه الخصومة والعداء. وقد اجتهد في أن يخفي علينا تعامله على رجال النحو والتصريف والغريب ويصنع أحكامه بصيغة التعميم، ويبعد عن أذهاننا ما يريد من التخصيص، ولكنه غلب على أمره فصرح بشكواه من قلة انصاف النحويين له وتسلمتهم عليه وإسرافهم في ثلبه. فلفظهم هذا جيدا قبل عرض آرائه لتدرك أن أقواله مشربة بالضعف والحدق وأنه لا ينبغي أن نتخذها أساسا صالحا لتقدير العلوم العربية من نحو وصرف واشتقاق: لأن تلك العلوم ضرورية، وليس من النفع أن نوافق ابن شهيد على الاستهانة بها وتحقير أهلها، وإن كنا نعرف أنها لا تكفي وحدها لمنح طلاب الأدب ملكة البيان.

• (١) راجع تحليل رسالة التوايح والزوايح في باب « الأغبار والأفاميس » من الجزء الأول.

٢ — يَحْتَسِبُ ابن شهيد أن قوما من المعلمين في قرطبة ممن أتوا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة يفتنون عن قلوب غليظة كقلوب البهران، إلى فطن حثة، وأذهان صلبة، لا متغذ لها في شعاع الرقة، ولا مدب لها في نور البيان، سقطت اليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهم الفرد الجاني من الرقص على الايقاع والزمر على الألحان، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ولم يكن له آلة الصناعة، كالحمار الذي لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رُسغه واستدارة حافره، وأنه لو جاز لحمار أن يفنى :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك  
لما جاز أن يوقع بالمضارب على الأوتار، ويرنى الوتر في مجرى السبابة والبنصر فيليل  
بنشيد، ويولول في ضربه، وكذلك حال المتعلمين في قرطبة على رأى ابن شهيد<sup>(١)</sup>.

٣ — وفي موطن آخر نراه يتند بالمعلمين ويصفهم بأوصاف منكزة ثم يقول :

”وما علم من خلق هذه العصاة إذا محتا أبصارهم قابلوها بالحق، وهم متطوون على الحسد والحق، فإذا جمعتا المحافل، وضمتا المجالس، تراهم اليئا مبصبين، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني واقفين، وإنما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز، إذا اصطكت الركب<sup>(٢)</sup> وازدحمت الحلق، واستعجل المقال ... الخ“.

٤ — ولا يكتفى ابن شهيد بمثل تلك الحملات في تحقير المعلمين، بل يضيف قول الجاحظ :

”إننا إذا أكثرنا من يعلم صبياننا النحو والغريب قطع منا بشرين درهما في الشهر، ولو أكثرنا من يعلمهم البيان لما قطع منا إلا بألف درهم“ وقد أمكنت هذه الكلمة ابن شهيد من إعلان رأيه في كتاب البيان والتبيين الذي ألّفه الجاحظ وهو في رأيه كتاب لم يكشف فيه ”عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج“ ليرى القارئ كيف يكون وضع الكلام وتزليق البيان :

(١) النسخة ص ١٢٢ ج ١ (٢) ص ١٢٤ (٣) ١١٨

وكيف يكون التوصل الى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء . ومن رأى ابن شهيد أن الجاحظ "استمدك بغائده، وضمن بما عنده غيرة على العلم، وشحا بثمره الفهم" لأنه عرف «أن النفع كثير والشاكر قليل» ولذلك كان كتابه في البيان موقوفا على أهله ومن كرع في حوضه، أما الجاحل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه على الإطلاق .

• — ونحن لانوافق ابن شهيد على ما رآه في كتاب البيان، ونفهم أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد، وإنما تفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ في التأليف : فهو ينتقل من فن الى فن، ومن كلام الى كلام، جريا على طريقته في تسطير كل ما يمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات . وما نكاد نتصور أن التعلم كان من مبتغيات الجاحظ حتى يتم بالترتيب والتبويب، وإنما تتخلله رجلا يكتب لنفسه قبل كل شيء، ويرضى شهرته في تلوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا ينجشون على العلم من الضياع ويكنهم أن يدوتوا ما يسمعون أو ينقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال .

٦ — وليس إنحاء ابن شهيد على النحو والفريب معناه أنه ينكر قيمة ذلك في البيان ، كلا، وإنما يحتم أن يختار الكاتب ألمع النحو وأفصح الفريب . وملاحظة النحو هذه لم أرها عند أحد غير ابن شهيد، وهو يريد بها اختيار الوضع النحوي الذي يساعد على أداء المعنى، فقد يكون الكلام مستقيا من الوجهة النحوية ولا يكون مستقيا من الوجهة اليبانية ، فان البلاغة في الواقع تنبئ على سلامة التركيب .

والتركيب السليم لا يراد به التركيب الخالي من النلط حين يراد وزنه بالموازين النحوية، وإنما هو التركيب الذي يستوفي الدقائق المعنوية التي يتم بتقيدها علماء المعاني . أما فصاحة الفريب فهي عند ابن شهيد وضع اللفظة الفريبة في موضعها بحيث لو وضعت مكانها كلمة مألوفة لتطرق الى المعنى شيء من الإخلال . ولنتظر كيف يقص طينا ابن شهيد بعض ما كان يقع له مع تلاميذه في هذا الباب :

« جلس إلى يوسف الإسرائيلي وكان أنهم تلميذ مرّ بي وأنا أوصي رجلا عزيزا على من أهل قرطبة وأقول له : ان لفروفا أنسابا وقرابات تبدو في الكلام . فإذا جاور النسب النسب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفاظ وحسنت الصيغة ، وإذا ركب صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخاير ، أفهمت ؟ قال :

إي والله ! قلت له : وللمربية إذا طلبت ، وللصباحة إذا التفتت ، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال : نعم . قلت : وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه . قال : أجل . قلت : أفهم شيئا من عيون كلام القائل :

لمعرك إني يوم بانوا فلم أمت      خفانا على آثارهم لمصبور  
غداة التقينا إذ رميت بنظرة      ونحن على متن الطريق نسير  
ففاضت دموع العين حتى كأنها      لناظرها غصن يراح مطير

فقال : إي والله ! وقعت (خفانا) موقعا لذيذا ، ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا ، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا . فقلت له : أرجو أنك تنسيت شيئا من نسيم الفهم فأغد على بشيء تصنعه .

قال ابن شهيد : « وكان ذلك اليهودي ساججا بي ما أقول فنذا ذلك القرطبي فأنشدني :

حلفت برب مكة والجبال      لقد وزنت كروبي بالجبال  
في أبيات تشبه وجاء اليهودي فأنشدني :  
أيحم ركبناهم منعجا      وقد ضمنوا قلبك المودجا

وأستمر إلى آخر القصيدة فآنى بكل حسن ، فقال لي ذلك القرطبي : شعر اليهودي أحسن من شعري ! قلت ولا بأس بفهمك إذ عرفت هذا . ولم يزل يتدرب باختلافه إلى حتى ندى ثربه ، وطلع عشبته ، ثم تفتح زهره ، وضاع عقبه . ورآني أستعمل وحشي الكلام

في موضعه ولم يشعر بحسن الموضع فأستعمل شيئا منه وعرضه على . فقلت : استره ! فقال : يتجل على به ! وعرضه على ابن الإظليل فقال له : سكب هذا الكلام . فقال له : إن أبا عامر يستعمله ! قال : يضمه في موضعه وهو أدرب منك <sup>(١)</sup> .

وهذا كلام جيد ، وأجوده مانص فيه على أن للحروف أنسابا وقربات تبدو في الكلام ، فإذا جاور النسيب النسب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة . وهذه الفكرة الدقيقة ليست من مبتكرات ابن شهيد فقد رأيناها قبله منسوبة إلى ابن العميد حين حثنا الصحابي في مقدمة كتابه عن مساوي المتنبي أنه لم يحسد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتغيير القافية والوزن » <sup>(٢)</sup> .

وبذلك تكون كلمة ابن العميد أسبق وأشمل من كلمة ابن شهيد ، لأن ابن العميد يربط القوافي والأوزان بالمعاني ، فليس كل وزن يصلح لكل معنى ، لأن بعض القوافي والأوزان أرق أو أظخم من بعض ، كما أن بعض الألفاظ والمعاني ألطف أو أجزل من بعض ، وفطنة الشاعر والكاتب هي التي تؤلف بين المعنى وبين كبروسه من ألفاظ وحروف وقواف وأوزان .

٧ - ويرى ابن شهيد أن البلاغة تختلف باختلاف أقدار المخاطبين ، ومعنى هذا أن البلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب ، فهي ترجع إلى فهم المتكلمين لنفوس المخاطبين ، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقى إلى جميع الناس في جميع الأحوال ، وإنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذي يرى إليه عند الخطاب . ويقول في ذلك : « وربما لا بدنا المستطعم باسم الشعر ممن يحبط العامة والخاصة بسؤاله فيصادف منا حالة لا تنسج في كبير مرة فتشاركه وتنتزله ، وربما أفتاده بأبيات يعتمد بها البقالين ومشايخ القصايين ، فإذا فارقت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم ، در حلهم ، وألحمت عقدهم ، وجل شخص

(١) ص ١١٨ و ١١٩ من القنطرة . (٢) مقدمة كشف مساوي المتنبي .

(٣) الخطب : السؤال ، من خبط الشجرة شقها ثم قض ورقها لتسقط منها القرة .



ذلك البأس في عيونهم: فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بها كفه ، وبقية سميكة تدفن في غلاته ، ومن كوز قفاز يصب في فمه ، وثينة رطبة يسد بها حلقه ، وسنو سمكة وذكة تدس تحت لسانه ، وفالو ذجة رطبة يحثك بها حنكه ، فلا يكاد البأس يستم ذلك حتى يأتينا فيكتب على أيدينا قبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغبا في أن نكشف له السر الذي حرك العامة فبذلت ما عندها له وبادرت برفعها إليه <sup>(١)</sup> .

وتلك قصة نعرف منها كيف كان الشعر الفصيح ينفع من يستجدون البقالين والقصابين في الأندلس ، وكيف كانت تلين اللغة لمثل ابن شهيد حتى يخاطب بها في بلاغة جميع الطبقات .  
والهم أن نعرف رأي صاحبنا أبي عامر حين طُلب منه كشف السر الذي حرك العامة بطاقت بعد بخل ، وهشت بعد جمود ، وهو يقول في الجواب :

”وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشخذ لا نستطيعه : لأن هذا الذي يريد منا تعليمه هو البيان وبين فكره وبينه حجاب . ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان“ .

٨ - وأبن شهيد يرى أنه ليس في مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض : فهناك ناس بخلاء من الكبراء يصمرونهم الى البذل بحيث لا ينجح فيهم تزيظ ، وإذ ذاك ”يحتاج الى أنقرب ما يكون من الذهن وأوسع ما يكون من الحيلة . إلا أن هذه العصاية لا يمكن لدى النباهة تحريكها ولا بد لها من طبقة يكون لها في العين بعض التصويب والتصديق ، ولهذا صار سب الاشراف عسيرا عويضا فانك تجدهم يتدرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعفهم خبيث الكلام ، لقوة بنيانهم وثبات أركانهم ، فهذه بنيان هؤلاء صعب“ <sup>(٢)</sup> .

وهذا الذي يقوله ابن شهيد يحتاج الى تعديد : فنالحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ وقد تبدو البلاغة في بعض الأحيان لو أن من اللغو والفضول ، لحجز الكاتب والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن في تلك المواطن وحدها يحتاج الى بيان الكاتب والخطباء

والشعراء، وبمقدار فهم البليغ لما تمقّد واستبهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه في درك ما يتعسر على سواد المنثيين، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها وخبيث ولؤم جوانب من الضعف ينفذ إليها القول حين يتصل المنثي بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود، وسر البلاغة لا يظهر إلا في المواطن التي تبدو مفروغا من الكلام فيها، وميثوسا من فائدة السود إلى شرحها وتفصيلها، فإن المنثي لا يعجز إلا حيث يكون الجوّ بداهة وظهور بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مرّد معاد، عند ذلك يعرف البليغ الموفق كيف يحوّل المسائل الظاهرة إلى مشاكل عقلية وروحية واجتماعية، فيقلّ قلوب الحاسدين وعقولهم إلى حيواء من البحث والتفكير ويفقه موقف الحيرة والتردد بين الخير والشر والبر والعقوق. فليس البليغ هو من يأتي فقط بالبدع الطريف، ولكن البليغ هو من يحوّل الموضوعات العادية إلى شئون جديدة طريفة تتخلل فيها عزائم أهل الشح أو تنهض ضماث أهل الجلود. وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجون بمحاول محطمة من الهجو القبيح.

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس إلى مكان من الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوقنون أمام دعوات الخير والبر والاحسان، ففي كل نفس مهما لؤمت جوانب خيرة غافية يقدر على إيقافها البارعون من أهل البيان.

وجملة القول في هذا المعنى أن البلاغة ضرب من السياسة النفسية، ومن السياسة من تكون نظراتهم أشدّ خطراً على أعدائهم من الجيوش والأساطيل، وكذلك البليغ يكون في أحيان كثيرة شرا مستطيرا على المماندين من يخاطبهم أو يرأسهم أو يحاورهم في جدّ أو في هزل، من قرب أو من بعد، لأن البلاغة ليست إلا قلّ ما في الروح من حب أو حقد، أو عتب، أو ملام، وصبّ ذلك كله في رفق أو عنف في أفئدة من تخاطب أو تكتاب من عدوّ أو صديق. وذلك يفرض أن تفيض عنا البلاغة ونحن في أعلى درجة من درجات التيقظ والقوة، وفي أسمى أوج من الغضب أو الحنان، بحيث تكون أنفاسنا شواظا يتلفى حين نهجم

وفتك ، ونسباً يتأرجح حين نحنو ونعطف . أما وضع الكلام في ذهول ومن غير درس لأخص المخاطبين فهو إلى الذي استعاض منه الخطباء ، والإيغام الذي تهب عواقبه الشعراء . ومن الناس من يظن أن البلاغة ليست إلا سواد المداد في بياض القراطيس !

٩ - على أن ابن شهيد لم يفكه أن يقرر أن سر البلاغة يرجع إلى الطبع قبل أن يرجع إلى استيفاء مسائل النحو وحفظ كثير الغريب . وعنده أن البلاء يتفاوتون بقدر ما يتفاوت تركيب أنفسهم مع أجسامهم :

”فن كانت نفسه مستوية على جسمه كأن مطبوعاً روحانياً يطبع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها وأروق لباسها . ومن كان جسمه مستويلاً على نفسه من أصل تركيبه كان ما يطبع من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الروق .

”فن كانت نفسه هي المستوية على جسمه فقد تأتى منه في حسن نظام صور رائعة تملأ القلوب وتبشئ النفوس ، فإذا قششت لحسنها أصلاً لم تجده ، ولجمال تركيبها وجهها لم تعرفه ، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن ، كقول امرئ القيس :

تورثها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها فظفر على

فهذه الديباجة إذا تطالبت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده ، ولكن لها من التماق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى<sup>(١)</sup> .

وهذا الكلام يمثل جانباً من جوانب البلاغة عند ابن شهيد ، وهو جانب الطبع . ومعنى ذلك أنه قد يتفق لنا أن نحب بفكرة من الثمر ، أو بيت من الشعر ، بدون أن يكون لنا أعجبنا به معنى غريب ، وإنما سر إعجابنا يرجع إلى ما طبع به الكلام من شرف الطبع وسمو الروح . والجانب الثاني عند ابن شهيد هو المعنى ، أما اللفظ فهو عنده قالب وآبوس لا قوام له بشئ المعنى ، وهو لذلك يوصي الناقد بأن ”يفتش عن شرف المعاني ، وينظر مواقع البيان ، ويختصر من حلاوة خدع اللفظ“<sup>(٢)</sup> .

ويقدر أن البليغ "إنما يستحق اسم الصناعة بتعمم بحور البيان، وتعمد كرائم المعاني" ولا يتم له ذلك إلا بأن "يمتلى الفصل ويركب الحد، ويطلب النادرة السائرة وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته"<sup>(١)</sup>.

وكل هذا جدير بالتأمل والدرس فيه شرح لما استغرق على النقاد أزمانا كثيرة، ألسنا نرى في بعض الرسائل والخطب والقصائد نماذج فائقة، وهي مع ذلك خلو من غرائب المعاني؟ فلنعرف الآن أن السر في إعجابنا بمثل تلك النماذج مرجعه إلى الطبع والروح. ونحن نستطيع تحليل ذلك بدرس من تعرف من الناس، فهناك أفراد غناؤهم قليل، وعصوهم ضئيل، ومع ذلك فتنهم أحيانا وزاهم أهلا للعب والإعجاب. وهذا هو سر ذبوع كثير من الآراء الخفيفة الوزن، القليلة العمق، فانها قد تصدر عن فطر سليمة، وطباع شريفة، ينقصها العمق ولكنها غنية بالنبل والصفاء.

١٠ — ولا يقف ابن شهيد عند اشتراط شرف النفس، وكرم الطبع، بل يتعدى ذلك إلى الصفات الجسمية: وهو يرى الأجسام من صور النفوس. يوضح ذلك قوله في المعالين بقرطبة: "يتركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة. وتقصرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة الروحانية، وإلحاح آلات الفهم، الباعثة لرقيق الدم في الشريان إلى القلب وزيادة غلظ أعصاب الدماغ وتقصاتها عن المقدار الطبيعي، وما يبين على ذلك بالحس وطريق القراسة من فساد الآلات الظاهرة كقرطحة الرأس وتسقيطه، وتنسوء القمحودة<sup>(٢)</sup>، والتواء الشدق، وخز العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة. فنستفيد بالله أن لا يشوه خلقه قلوبنا وجرم أجبادنا".

وهذه الأحكام متصلة أوتى اتصال بعلم النفس وطلم منافع الأعضاء، فليس من شك في أن الجسم تأثيرا شديدا على الروح حتى في صورته. والصور المقبولة تبعث في أصحابها روح الثقة بالنفس. وليس من المجازفة في شيء أن نتخذ من ذلك تعليلا لحفوات العطاء: فهم في الأكثر أصحاب أهواء وشهوات، وذلك مظهر من مظاهر الانساق بين عافية البدن وشباب الروح.

١١ - وابن شهيد وفي لمبده في ربط الصلة بين النفس والأعضاء، وقد حمّله ذلك على النيل من الجاحظ والفض من قيمته العلمية والأدبية، ورميه بالفظة والحق . وقد خطأ أبا القاسم الأنطلي في تقديمه الجاحظ على سهل بن هارون . ومن رأى ابن شهيد أن حرمان الجاحظ من شرف المتزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس إما أن يكون لأنه كان مقصراً في الكتابة وجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط المهمة ، أو لأن إفراط بحوظ عينه بعد به : لأنه لا بدّ لذلك من كاتب مقبول الصورة تقع عليه عينه ، وأذن ذكية تسمع منه حسه ، وأنف ذكي لا تَمُت أنفاسه عند مقارنته له . ولذلك استحسنوا من الكتاب أن يكون طيب الرائحة ، سليم آلات الحواس ، نقي الثوب ، ولا يكون ويح الضرس منقلب الشفة ، مكمل الأنفوس ، وضر الطوق .

وقد شعر ابن شهيد بأنه من التحامل أن يرمى مثل الجاحظ بنقص في أدوات الكتابة فقال :

”ر بما أنكر قولنا في شرطه جمع أدوات الكتابة قليل : وأى أداة قصفت الجاحظ ؟ فنقول : أول أدوات الكتابة العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل ، وقد نجد عالماً غير عاقل ، وجدلياً غير حصيف ، وفتياً غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل إلى سهل أكثر من ينسب إلى الجاحظ ، ولو شاهد الجاحظ سهلاً يخادع الرشيد ملكاً ويدبر له حراً ، ويعانى له إطفاء جمره فتنة ، ناهضاً في ذلك كله بعقله وتجربة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال ، في صفة غراميل البقال ، وغير الكلام في الجردان ، وبنات وردان ، ولم أن بين العالم والكاتب فرقاً“<sup>(١)</sup> وهذا الكلام يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة ، فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والحظوة لدى الملوك ، وبمقدار نجاح الكاتب في دنياه يكون فضله . وهذا خطأ مبین .

قد تكون دمامة الجاحظ هي التي قصدت به كما قصر ابن شهيد نفسه ثقل سمه ، وكما تخلف صاحبه الأنطلي لورم أنفه . وإذا ذلك يكون للجاحظ عنده المقبول .

ولكن هل خطريال ابن شهيد أن هناك اختلافا بينا في تركيب النفوس ؟ إننا نعرف  
 بالتجربة أن للمقول شهوات، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمو اليه أمثال سهل بن هارون  
 ولكن لا ريب في أن العلم أيضا شهوة، وكان الجاحظ مفتونا أشد الفتنة بدرس علم الحيوان،  
 وكان كذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم في مختلف الطبقات . فليس من العيب أن  
 يهتم بالصغائر في العلوم لأن العلم في أصغر جزئياته لا ينال من العالم غير الإكبار والإجلال . إن  
 من العدل أن وزن الأمور يميزان آخر غير النجاح المؤقت الذي يظفر به الكتاب السياسيون؛  
 يجب أن وزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود في أعمالهم الأدبية والعلمية، وإذ ذلك تمكن  
 الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون في ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ في ميدان العلم،  
 أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية قباب من الضلال . وياويل أهل الفضل إن قيسست  
 أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات !

## ٦ - أبو بكر الباقوني<sup>(١)</sup>

١ - لم يصل إلينا من آثار أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني إلا كتابه «إعجاز القرآن» وفي بقاء هذا الكتاب مع ضياع سائر ما وضعه المؤلف دليل على أن معاصره كانوا اهتموا بنسخه ومدارسته فلم بذلك من الضياع . ونحن وإن لم نر من مؤلفات الباقلاني غير كتابه . في إعجاز القرآن فانا نستطيع الحكم بأنه خير كتبه : لأنه في موضوع خطير جدا كان يستوجب من مثله حماسة واستعدادا بالفين . فقد كان بعض الناس في عصره يرتابون في إعجاز القرآن وكان في ارتيابهم ما يسوقه إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه ، ودفع الشبه التي كان يذيعها الملحنون في الحواضر الاسلامية . وإنه ليمثل لنا الأزمة العقلية التي أطبقت على معاصريه إذ يقول :

« ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواما، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما، وعلى صدق نبيهم برهانا، ولمعجزته ثبنا وحجة . لا سيما والجمل ممدود الرواق، شديد التفاف، مستول على الآفاق . والعلم إلى غفاء ودروس، وعلى خفاء وطموس ، وأهله في جفوة الزمن البهيم، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشميم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك متاهجه، والأخذ في سبيله . فالتناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشيد ، وآثر مصدود عن نصرته مكبود في صمته، فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين . وقد قل

(١) ولد الباقلاني في البصرة، وسكن بغداد، وبها كانت وفاته يوم الأحد لسمع يقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ وكان من كبار أهل السنة . ورواه بعض معاصريه بقوله :

أنتظر إلى جبل تسمى الرجال به  
وأنتظر إلى درة الاسلام متهددا  
وأنتظر إلى القبر ما يحوى من الصالح  
وأنتظر إلى درة الاسلام في الصدف

والباقلاني : نسبة إلى الباطل تشديدا للام وقصر الألف . وفيها كلام تحجده في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٠

أنصاره، واشتغل عنه أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره : فمن قائل إنه صحر، وقائل يقول إنه شعر . وآخر يقول إنه أساطير الأولين ... الخ<sup>(١)</sup> .

وليس في هذه الفقرة شيء جديد فإن شكوى الزمان من الظواهر الانسانية التي يجدها المطلع في أكثر ما اثر عن القدماء والمحدثين . ورجال الدين خاصة يكثر من التبرم بمعاصريهم . ووصفهم بالزيف والاحاد والفسوق . فليس معنى هذا الكلام أن أهل القرن الرابع كانوا أكثر الناس شبهات وأضاليل ، ولكن معناه أنهم كانوا كذلك في نفس المؤلف ، وفي هذا ما يدفعه الى التأهب لمناضلة المرتابين في إعجاز القرآن .

٢ - ونحب في بداية هذا الفصل أن نتخذ موقفا في درس كتاب الباقلاني عن الإعجاز . ونقوّر - في صراحة - أننا لا نزيد عرض مسألة الإعجاز على بساط البحث من جديد . وإنما يهنا أن تبين كيف كان القدماء يفهمون النقد وكيف كانت مذاهبهم في وزن الكلام البليغ . فكتاب الباقلاني في نظرنا صورة للحياة الأدبية في أخص الناقد من رجال القرن الرابع . وليس حجة في تقدير القرآن . لأن وزنه أخف من أن يفصل في تلك المسألة الدقيقة : مسألة الكلام المعجز الذي يسمو ببلاغته على ما يتطلع اليه فرسان الفصاحة والبيان . وهناك جانب آخر لا نذكر أن من الباحثين من أشار اليه : وهو جمع المحاولات الأدبية التي جاولها خصوم القرآن ، ففي تلك المحاولات صورة من صور النقد لها قيمة في أنفس من يتعنون بتاريخ الآداب . ونحن كؤرخين للأدب يهنا أن نستقصى جهد الطاقة ما تآثرنا وهناك من محاولات الناقد بدون تفرق بين الخطأ والصواب . فان ذلك في حمله يمكننا من درس الحياة الأدبية دراسة علمية بعيدة عن مطارح الأوهام والظنون .

٣ - من ذلك ما حدثنا الباقلاني أنه قلّ اليه أن من خصوم القرآن من (جعل يمدله ببعض الأشعار وبوزن يئنه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضل عليه)<sup>(٢)</sup> - ففي



هذا الخبر ظاهرة أدبية خطيرة ينبغي أن نعيد أنها وقعت في القرن الرابع. ولو أن الباقلاني بين لنا كيف كانت تلك المعادلات والموازات لاستطعنا أن نعرف إلى أي حد كانت تلك المحاولات تتصل بتاريخ النقد الأدبي، ولكن ما صمته الباقلاني نفسه في نقد امرئ القيس والبحرئى يحد لنا ذلك المنهج بعض التحديد: فقد عرض لأشهر قصيدة نسبت إلى امرئ القيس وهي المعلقة فنقدتها بيتا بيتا بعد أن أشار إلى أنه لا يرتاب في جودة شعر امرئ القيس ولا يشك في براعته وفصاحته وما أبدع في طرق الشعر من أمور أتبع فيها كذكر الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من التشبيه الذى أحدهم والتلميح الذى يوجد في شعره والتعريف الكثير الذى يصادف في قوله والجوهر التى يتقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومثانة ورقة . ولم ينقد الباقلاني معلقة امرئ القيس إلا ليبين للقارئ أن تلك القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبيتها تفاوتا بيتا في الجودة والرياء والسلاسة والانقناد والسلامة والانحلال والتمكن والتسمل والاسترسال والتوحش والاستكراه: فهي على ذلك كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة. ويتلون تلوّن الحراء، ويختلف اختلاف الأهواء، ويكثر في تصرفه اضطرابه ويتقاذف به أسبابه . ومثل هذا الكلام لا يقارن بالقرآن الذى يصفه بأنه "قول يجرى في سبيله على نظام ، وفي وصفه على منهاج ، وفي وضعه على حد ، وفي صفاته على باب ، وفي بهجته ورواقه على طريق مختلفة مؤلفة، ومؤلفة متحدة، ومتباعدة متقاربة ، وشاردة مطبوع، ومطبعة شاردة، وهو على متصرفاته واحد : لا يستصعب في حال ولا يتعقد في شأن" .

٤ - ونتيجة هذا - من وجهة تاريخية - أن الباقلاني ومعاصره رأوا أنه في الامكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن. وإن لم يتخذ الموضوع وسيل ذلك أن تين محاسن القصيدة ومساوئها ويشرح فيها المبتذل والطريف والمقبول والمردول ثم يقابل ما سلم فيها بالسورة التى توازيها في الكمية ليظهر ما في السورة من المحاسن التى لم يشنها ضعف ولا تهاقت ولا فضول .

وهذا النحو من النقد يمدّ من المحاولات البارعة في الأدب العربي . ولا عيب فيه إلا التعامل والإسراف . فان خصوم القرآن كانوا يابون إلا الوصول إلى شواهد يحكون لها بالفضل . والباقلاني كان يعمد إلى القصائد التي يعرف فيها الضعف ليصل دائماً إلى الحكم للقرآن بالفضل . وقد بلغ به التعامل أن طعن في قول البحتري :

ما الحسن عندك يا سعاد بحسن      فيما آتاه ولا الجمال بجمال  
وزعم أن أسلم منه وأبعد من الخلل قول كشاجم :

بحياة حسبك أحسنى وبحق من      جعل الجمال عليك وقفا أجمل

مع أن الذي يفهم الشعر ويتذوقه يحكم بأن بيت كشاجم هذا لا يصح أن يقارن بيت البحتري إلا عند ثلث القلوب . وأغرب من هذا الشطط أن ترى الباقلاني يأخذ في نقد بيت البحتري فيقول :

قوله "عندك" حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة . والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه منكر على لسان الشعراء : وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسننا لم يحسن في تهيج وجده وفي تهيج قلبه . وضد هذا المعنى هو الذي يميل إليه أهل الهوى والحب .

هـ — هذا كلام الباقلاني . وهو كلام سقيم يدل على أنه لم يفهم بيت البحتري على الإطلاق ! وعلى هذا الخط من التعامل أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة : موازنة قصيدة من الشعر بسورة من القرآن . وكيف تنتظر العدل من حكم يكتب صحيفة الاتهام على هواه ؟ إن الذي يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مستعداً للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لنا قد يرى من همه أن يبحث عن مساوئ القصيدة ويطمس محاسنها أو يتجاهلها أو يفض من قيمتها . وهو في مقابل ذلك يمدّ في البحث عن محاسن السورة القرآنية وإبراز مزايها ولا يستبيح لنفسه التفكير في وضع ألقاظها أو معانيها أو أغراضها أو أسلوبها موضع النقد . وهذا كاف في تجريح ما هموا به قديماً من الموازنة بين اثنين : أحدهما من الشعر، وثانيهما من القرآن .

٦ - وقع بعد ذلك مسألة شغل بها أكثر الباحثين في إعجاز القرآن .

وهي إعجاز غير القرآن من كلام الله كالنوراة والإنجيل والصحف الرأية .

ويجب الباقلي بأنه لا شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف وإن كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الأخبار بالنبوء . ويضيف إلى ذلك أنه لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع التحدى إليه كما وقع التحدى إلى القرآن<sup>(١)</sup> .

ومعنى ذلك أن الباقلي يرى أن غير القرآن من كلام الله لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بذلك . وتكون النتيجة أن نسبة الكلام إلى الله لا تعطيه صفة الإعجاز إلا إذا وصف الله كلامه به وتحدى المراضين إليه كما تحداهم إلى القرآن .

ونحن نسأل : لماذا لم يصف الله التوراة والإنجيل بالإعجاز ؟ ولماذا لم يمنح تلك الكتب المزية التي منحها القرآن ؟ ؟

وقد توقع الباقلي أن يوجه إليه هذا السؤال . وكذلك عرض لنا رأيا له قيمته في فهم القدماء لخطر اللغة العربية ومقارنتها بما سبقها أو عاصرها من اللغات . وهو يرى أن اللغات التي كتبت بها التوراة والإنجيل لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي يتهى إلى حد الإعجاز . وانما يقع فيها التقارب في البيان<sup>(١)</sup> .

فان سأل القارئ : أكان الباقلي يصرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من الحكم بأن اللغة العربية انفردت من بين سائر اللغات بالتفاضل في وجوه الفصاحة ؟ فأنجب بالنفى .

وهو نفسه يحتج بأنه رأى أصحابه يذكرون هذا في سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يضمن التقديم المعجب<sup>(١)</sup> .

٧ - وهنا يتطوع الباقلي بشرح أسرار تفوق اللغة العربية فيقول :

«ويمكن بيان ذلك بأننا لا نجد في التقدير الذي نعرفه من الألسنة للشئ الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على نحو ما تناوله العربية<sup>(١)</sup>» .

وهذا المعنى عرض له ابن فارس إذ قال :

«انا لو احتجنا أن نبرعن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فإين هذا من ذاك وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب<sup>(٢)</sup>» .  
والفكرة في ذاتها صحيحة : لأن فضل اللغة العربية لا يرجع الى ما فيها من كثرة المترادفات إذ كانت هذه المترادفات من الثروات الضائعة التي لا يحتاج اليها الا عند الفحو والتطويل .  
والقرآن نفسه الذي اتفقوا على سموه لم يعتمد على المترادفات في كثير ولا قليل وإنما هو كلام طلق يجرى الى غاية في غير تعمل ولا اعتساف .

٨ - ومن غرائب المقارنات أن المسيو مرسيه استفاد من إجماع علمائنا القدماء على أن كثرة المترادفات من أهم خصائص اللغة العربية بغاء أخيراً وطعن لفتنا طعنة دامية في تقرير مطول قدمه الى وزير المعارف في باريس زعم فيه أن اللغة العربية لغة « مائعة » لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات<sup>(٣)</sup> .

والمسيو مرسيه غير منصف في هذا الموضوع لأنه في تقريره اهتم بجمع الهنات والعيوب وكان الظن به أنه لا يتناسى أن المترادفات التي كان منها يحسون اسماً للحجج ومائة السيف ونحوها لا لاسد ليست مترادفات جمعت من اللغة القرشية وهي أساس لفتنا العربية وإنما هي كلمات « تصيدها » الرواة من مختلف أرجاء الجزيرة حبا في المبالغة والإغراب .

فن يبلغ الباقلاني وابن فارس ان ما كان غرة في زمانهم أصبح في زماننا من أعراض الأمراض ؟

(١) ص ٣٤ (٢) الصاحبي ص ١٢

(٣) كان ذلك في خريف سنة ١٩٣٠ ونشر التقرير في أحد مطبوعات وزارة المعارف الفرنسية .

وفلك المتعلم من جانب البلاغاني ساقه الى تقرير « أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها البديع ما يمكن ويتأتى في العربية وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية » .

٩ — وهذه التهم التي كان يوجهها القدماء الى اللغات الأجنبية يقدمها الأجانب اليوم الى اللغة العربية : فلفتنا في أذهان كثير من أهل الغرب والشرق لا يتأتى فيها الشعر على ما قد اتفق في الإنجليزية والفرنسية والألمانية مثلا « وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة » فما أعجب ما يشابه التهم على اختلاف الأجيال ! .

على أن كلام البلاغاني له دلالة ومعناه : فهو صريح في اعتزاز القدماء باللغة العربية . وإنما لنجد عند الملاحظ أصلا لهذا القول . وهو يحشد بأثر الفرس والهند والروم كانت لهم خصائص لم يتفق مثلها للعرب وأن العرب في مقابل ذلك انحدروا بالفصاحة والبيان<sup>(١)</sup> .

١٠ — وللقارئ أن يذكر أن هذا « الغرور القومي » كانت له مضار ومنافع ، فمن مضاره أنه صرف العرب عن نقل الشعر الفارسي واليوناني ظلنا منهم أن في شعر امرئ القيس مثلا غنى عن شعر هوميروس . ومن منافعه أنه أغراهم بالاعتزاز بشعرهم ولفتهم حتى ظنوا أن الاعجاز لا يتأتى وقوعه في غير اللغة العربية التي حسبوها تفوقت بالتصرف في الاستعارات والاشعارات .

وقد يكون حظ القدماء أجمل من حظنا في هذا الباب . فتحن اليوم قومن بأن اللغة العربية كسائر اللغات لا يتفق فيها الاعجاز لذاتها . وإنما يقع الاعجاز حيث تكون العبقرية في القلوب والمقول .

وؤمن بأن في اللغات ضروبا من التصرف في القول قد لا يتفق مثلها أحيانا للغة العربية ولكنها لم تنقل من الشعر الأجنبي شيئا يقارب ما نقله أسلافنا من الفلسفة الأجنبية وتصرف

كثير من شبانتنا عن دراسة الشعر القديم فحرموا من تراث الأسلاف وكان لهم فيه معين من الفن لا ينضب ولا يفيض .

ووقف المجددون في الشعر موقف التردد والحيرة : فلا هم عرب ينسجون على منوال الفرزدق والبحتري والمتني ، ولا هم في طبعهم فرنجة يمجيدون عماكاة يرون وجوت ولا حريتين .

١١ — وقد جاء في كتاب « إعجاز القرآن » ما يفيد أن القرآن ليس من جنس كلام المصرب ؟

فأهي حجة الباقلاني ؟ حجة أن العرب لم يأتوا بمثله وأن منهم من خضع له بدون أن يدرك معناه . ومن أمثلة ذلك أن جماعة بعثوا بعتبة بن ربيعة إلى الرسول — وكان عتبة حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام — فلما وصل إلى الرسول طمعا في أن يأتي أصحابه بما عنده قرأ عليه النبي سورة ( حم . السجدة ) من أولها حتى انتهى إلى قوله : ( فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ) . فوثب عتبة مخافة العذاب .

قال الباقلاني " فاستحكه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى بلجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد . فقال له عثمان ابن مظعون " تعلموا أنه من عند الله إذ لم يتد بلجوابه " .

ذلك ما قرره الباقلاني . وما نحسب أحدا يرتاب في أن هذا محض اختلاق : فانه لا يعقل أن يؤمن الرجل بما لا يفهم . ومن المرجح أن مثل هذه الأقاويل مما وضعه الرواة والقصاص .

ويقول الباقلاني في موطن آخر :

" قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولعنهم فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن ... وقال تعالى : ( ولو جعلناه قرآنا أعجميا

لقالوا لولا فصلت آياته أَعْجَمِي وعَرَبِيٌّ)، فأخبر أنه لو كان أعجمياً لكانوا يمتحنون في رده إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يتحدرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتيقن لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وأنه إذا عجزوا إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم<sup>(١)</sup>.

والقارئ يرى تناقضاً بين هذه الفقرة وبين الفقرة التي نقلناها آنفاً . وهذا التناقض وقع بين سياقين فصل بينهما بنحو ما نرى صفة فلباقلاني منزه حين غلب عنه هنا ما أثبتته هناك . خلاصة الفقرة الأولى أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لأنه انفق لأحدهم أن خشع له بدون أن يستطیع حكاية لفظه أو معناه .

وخلاصة الفقرة الثانية أن القرآن من جنس كلام العرب . ولولا ذلك لاحتجوا في رده بأنه خارج عن عرف خطابهم، أو اعتذروا بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتيقن لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

١٢ - ونحب أن نفصل رأينا في هذه المسئلة ونحن نرى أن الفوارق بين اللغات تنحصر في الألفاظ والأساليب: فاللغة تكون غير عربية إذا كانت ألفاظها أو أساليبها أعجمية . وقد يتفق مثلاً أن فتح كتاباً تركياً أو فارسياً فترى إحدى صفحاته تغلب فيها الكلمات العربية أو تكون بعض الجمل في ألفاظ عربية ولكننا لا نفهم شيئاً لأن الأسلوب غير عربي .

وقد تكون جملة وضعت في ألفاظ أعجمية ورتبت في وضعها على الأسلوب العربي . ولكننا لا نفهمها لأن ألفاظها غير عربية . ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلا جدال ألفاظ القرآن ومعانيه لانه عربي اللفظ والأسلوب . ولا عبرة بما حكاه الباقلاني من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من آي القرآن . لأن هذا يخالف المعقول والمقول ويتناقض ما من به القرآن على منكره من أنه بلسان عربي مبين .

١٣ - يقي نوع آخر من وجوه التفاضل في الكلام وهو المعنى : ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما في المعنى من قوة وروح . ومن المتفق عليه أنه لا يكفي أن يكون المعنى صحيحا ليكون الكلام بليفا . ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول من قال :

كأنتا والماء من حولنا      قوم جلوس حولم ماء

ولكن من الذي يقيم وزنا لصديق هذا الكلام ؟ إن هذا الصديق هو التفاهة بعينها . وقد رأى بعض النحاة أن البليغيات لا تسمى كلاما . ومن رأى ذلك البعض أن من يقول " السماء فوقنا والأرض تحتنا " لم يقل شيئا ولا يضاف ما يلفظ به إلى الكلام المفيد .

وعلى هذا لا يكفي أن يكون الكلام صادقا ليكون بليفا . وإنما يجب أن يكون مع صدقه طريفا يستهوى العقل والقلب . ومن امثلة ذلك قول قريظ بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تستبح إلى	بنو القتيعة من ذهل بن شيبانا
إذنت لقام بنصرى معشر حُشَن	عند الحفيظة أن ذلولته لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدا
لا يسألون أخلم حين ينسبهم	في النسبات على ما قال برهانا
لكن قسوى وإن كانوا ذوى مدد	ليسوا من الشرفى شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغيرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق نخشيته	سواهم من جميع الناس إفسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا	شتوا الإغارة فرسانا وركبانا

وهذه القطعة من بدائع الشعر العربي . وهي قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقي في العالم ناس يفهمون سر العربية . ومع هذا لا نستطيع أن نجد فيها ألفاظا يمز على غير فاعلها الوصول إليها ، أو أسلوها في التمييز يتميز من غيره من الأساليب . وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخير الألفاظ تحيرا يجعلها تختل مع المعنى كلمة واحدة . فقولته مثلا :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم      طاروا إليه زرافات ووحدا



هذا البيت يمكن رجح طرائقه الى كلمة "أبدى ناجذيه" وكلمة "طاروا" وهاتان ليستا كلمتين وإنما هما المعنى تجسم في لفظين فرضهما السياق . وقوله :

لكن قبوى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا .

فقوة هذا البيت ترجع الى قوله "وإن كانوا ذوى عدد" وقوله — "وإن هانا" وفيهما أيضا يتجسم المعنى في قوة وروح . وقد بلغ هذا الشاعر أقصى غايات التهمك في قوله :  
كأن ربك لم يخلق لحشيتة سواهم من جميع الناس إنسانا

١٤ — وقد تجدد من الشعر ما تخلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة . ولكن قوة الروح تصل به الى أسنى غايات الابداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعلى يشكو فقره وما وضع القدر في رجله من قيود الأهل والذرية :

أنتزى الدهر على حكمة	من شاخ عال الى خفيض
وغالى الدهر يوفى النفسى	فليس لى مال سوى عرضى
أبصكاني الدهر ويأربما	أضجكنى الدهر بما يرضى
لولا بنيات كزغب القطا	رُددت من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسع	في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا	أصكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم	لا تمتعت عيني عن الغمض

وقوة هذا الشعر ترجع الى الشاعر لا الى اللفظ ولا الى الأسلوب : ومن ذلك يتضح أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئا من أسرار الإعجاز . ولذلك نراه يدورون حول الظواهر والمحسنات اللفظية : فيقول بعضهم إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الأمثال فبهزم القرآن لأنه جاء على نمط غير الذى كانوا يعرفون من أنماط الأمثال والأمثال . ويقول آخرون : إن العرب كانوا تارة يسجمون وتارة يترسلون بخفاء القرآن فجاء القرآن بجمع بين السجع والترسل في نظام بدیع . ويقول مؤلفو كتاب "المجمل" الذى قررت الوزارة

تدريسه بالمدراس الثانوية : إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الشعر وفنونه وأوزانه وأغراضه بقاء القرآن ففاجأهم بلون من الأدب جديد<sup>(١)</sup> .

١٥ - وهذا كما يرى القارئ يرجع الى الناحية اللفظية أو الفنية . ونحن نرى غير ذلك فترى أن عهدا عليه السلام اجتذب العرب لأنه نبي ولم يمتنعهم لأنه فنان . فالتقن الكلاسي لم يكن جديدا عند العرب وإنما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل والوجدان غير التي كانوا يألفون . ولو رجعنا الى حرب المعارضة لمهد الرسول لرأيناه لا ينكر إلا ما جاء به القرآن من ممان وأغراض . ولم يتعرض مطلقا لما جاء به من ألفاظ وأساليب . فالمعركة كانت تدور رحاها حول ما في القرآن من الدعوة الى توحيد الله عز شأنه وإفراجه بالقدرة والجبروت . ولو تأملنا قليلا لرأينا أن الذي يروى من الشاعر الواحد هو ما تنفرد به بعض قصائده أو أبياته من دقة المعنى أو طرافة الخيال .

ومن هنا صرح للقداد القدماء أن يقولوا عن بعض الشعراء :

”لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس“ .

وصح لم أيضا أن يقولوا :

”أشعر الناس النابغة إذا رغب . والأعشى إذا شرب . وامرؤ القيس إذا طرب . وعمرؤ

ابن كلثوم إذا غضب“ .

وهذا كلام دقيق جدًا لأنه يضيف قوة الشعراء الى خصائصهم النفسية والروحية : فالشاعر شاعر لأنه يتحدث عن ذات نفسه وعن ضميره وروحه وجدانه ، فهو فيما يرجع الى جوهر نفسه أفصح منه فيما يتعلق بتوافل الأغراض .

ولذلك كان هذا الشاعر أبلغ إذا مدح . وذاك أنصح إذا شَبَّ . وذلك أغفل إذا تمحس . ولو استقرينا المناظرات الأدبية في الأمم التي نعرفها لرأيناها ترجع الى المعاني والأغراض لا الى الألفاظ والأساليب . فالنزاع في فرنسا مثلا بين الكلاسيك والرومانتيك كان نزاعا حول الفكرة .

فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية (objectif) والرومانتيك يفضلون أن تكون الاغراض ذاتية (Subjectif) .

١٦ - وفي مصر والشرق العربي كانت المنازعات الأدبية تدور حول الفكرة فالنزاع الأدبي القديم بين محمد عبده ومعاصريه كان نزاعاً حول فكرة . والنزاع بين قاسم أمين ومعاصريه كان يدور حول فكرة . والخصومات العنيفة التي وقعت بين علي يوسف وعبد العزيز جادوئش كانت حول فكرة . والنزاع القريب جداً بين الجديد والقديم كان نزاعاً حول فكرة . وما نحسب أحداً ممن هاجموا المنفلوطي كان ينكر أن أسلوبه جيد ولكن الذين هاجموا ادّعوا أنهم يحاربون في شخصه فكرة المحافظة على قديم التقاليد .

ولا جدال في أن الألفاظ والأساليب تتوزن وتشكل بلون الفكرة التي تسيطر عليها . وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعاني لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فإذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فرجعها إلى الفكرة لأنه شاعر وديع يعبر عن معاني وديعة بلهم أمثالها أصحاب الوداعة والرقة من الشعراء المترفين . وإذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبي فرجعها أيضاً إلى الفكرة لأنه شاعر طامع في أسمى ما يطمح إليه فحول الرجال وهو الملك والتغلب والسيطرة والسلطان .

أبعد هذا البيان يدesh ناس ما أشرت إليه مرة من أن السلامة والتقييد والرقة والجزالة والوضوح والغموض كلها صور للنفس الإنسانية التي تفصح عما يطيف بها من معان وأفكار وأراء وأغراض ؟ .

١٧ - وبعد هذا وذاك : أكان القرآن كلاماً من جنس كلام العرب أم كان لونا من التعبير يختلف عما عرفوه وألقوه كل الاختلاف ؟ .

هو كلام من جنس كلامهم ومن جوهره ومعناه . ولكنه يمتاز بقوة المعنى وقوة الروح . فارت قيل : ولم تمدر عليهم أن يأتوا بشيء من مثله ؟ فانا نجيب بأن القرآن نفسه فصل

في هذه المسألة حين قال ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مقتريات وآدموا من آستعظم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

فلتأمل جيدا عبارة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فضعوا الجواب كل الجواب . وهل كان في مقدور العرب أن يكونوا جميعا أنبياء حتى يصلوا الى ماوصل اليه مواطنهم وزعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذي صدف كلبهم فيه قبل نبوته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟

١٨ — وقد كان من القدماء من يرى أن البلاغة لا ترجع الى المعاني : لأن المعاني في رأيهم يسرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وإنما ترجع البلاغة الى جودة اللفظ وصفاته .

ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعاني فقط . لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الافهام وإن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد ، وإذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا دخل في جملة المستهجن الملقوط<sup>(١)</sup> .

١٩ — أما نحن فنفق العجم والقرويين جانباً ونحصر البلاغة في جمهور المثقفين . ثم نقرر أن الألفاظ ملك للجميع يحدونها حيث أرادوا في المعاجم والدواوين ، ولا يبقى موضعاً للجهد والمنت أو العبقرية إلا المعاني والأغراض . ومن البعث أن نظن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية . فإن هذا إسراف في تقدير الزخرف وامتنان لصولة العقول . إن الألفاظ في مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب . ولكن المعجز حقاً هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزناً للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تهيء أولاً ويمهئ الورق ثانياً كما يقول الفرنسيون .

وقد رأى ناس قول الباقلاني "ليس القرآن من جنس كلام العرب" فقررُوا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى (الأسلوب) لجزوا عجزاً مينا ، لأن الأسلوب في رأيها هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب

وروحه وفكره وصرماه، وليس في مقدور أحد من المتفوقين في علوم البلاغة أن يحمد الأسلوب تحديدا منطقيا يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق إليه من غريب الأوصاف ، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والنموض ، فإن ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربي مبین لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والفرض والروح .

فإن أراد أحد شاهدا . على ما نقول فانا نفتح المصحف عرضا بدون تحريم ثم ننقل آيات لنسأله أن يبين ما جاء فيه غريبا عن الأساليب العربية . ولنختار خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء : ﴿ أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أن أنذرتهم وأنتم تبصرون . قال ربى يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ .

فأين تكون غرابة الأسلوب في هذه الآيات الخمس ؟ وأين يكون السياق الفني الغريب عن الأعراب ؟ اليس مرجع الروعة في هذه الآيات إلى المعنى والروح ؟ أثرونها تمتاز بالسجع ؟ وكيف والسجع كان معروفا قبل القرآن ؟ أثرون ألفاظها متغيرة متقاة ؟ هو ذلك . ولكن كيف يدور اختيار الألفاظ ؟ أثرون لاختيار الألفاظ مدارا غير موجبات المعاني والأغراض ؟ فإن كانت هذه الآيات الخمس لا تكفى فالى الفارئ شواهد أخر من القرآن المجيد . يقول الله عز شأنه : ﴿ ولا يحرمكم شأن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ .

وأنا أشهد صادقا أنى ما فكرت في هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النصح النبيل . فأين يكون جمال هذه الآية ؟ أثرونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم البلاغاني ؟ هيأت ! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشيء عن غيره من التركيب .

ولكن الجمل هنا في المعنى الشريف الذى قضى به القرآن وذلك المعنى هو الدعوة الى إظهار العدل في جميع الأحوال من غضب وسكون وحب وشتان . وقد راجعت صديقا ادبيا في هذه الآية فأراد أن يلتمس الجمال الفني في كلمة (ولا يحرمكم) فان مع اقتراض ذلك الصديق

فانا نسأل أيضا ومن أين ظفرت تلك الكلمة بمعنى الإعجاز. أليس مرجع ذلك الى ربطها بالمعنى الذى اقتضاه السياق ؟ على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض :

﴿ ولا يحرمكم شأن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

ألا ترون إن أنصفتم أن كلمة (اعدلوا هو أقرب للتقوى) تحمل في قوتها عن كلمة ﴿ ولا يحرمكم شأن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ فسا هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب فان القرآن تنوّد في رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتعبير، فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى يكرّلا يجرى إلا على السنة الحكاء والأنباء . على حين نرى عجز الآية يؤدى معنى مفهوما لدى جميع الناس .

ثم لننظر قوله جل شانه ﴿ ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين ﴾ . هذه من غرر الآيات القرآنية : فإين يقع منها الحسن ؟ أترونه في اللفظ ؟ أترونه في الأسلوب ؟ وكيف وهى ألفاظ يحدها من يريد في أسلوب واضح يدركه جميع المخاطبين ويستطيعه جميع الكاتين . ان الجمال هنا في الروح العالى : حيث يخاطب الله الآمين وقد ألقى بهم في نار الجحيم .

٢٠ — ترك شواهد القرآن جانبا لأنها من المواطن الشائكة . ونوضح نظريتنا بشواهد من النثر الجيد والشعر البليغ .

قبل لأعرابى يسوق مالا كثيرا : لمن هذا المسال ؟ قال : لله في يدي !

تأملوا عبارة " لله في يدي " لتروا انها من نواذر الكلام الجيد البليغ ، ثم انظروا أترونها في شيطا غير جمال المعنى ؟

ان الأدباء جميعا يحفظون كتاب عمرو بن مسعدة، كتاب التوصية الذى ضربت ببلاضته الأمثال، فلنذكر به القراء :

”تأني هذا كتاب معنى من كتب له ، وائق بمن كتب إليه ، وأرجو أن لا يضيع حامله بين الثقة والعتاة . والسلام“ .

أفترقون هنا جديدا في لفظ أو في أسلوب ؟ إن الطرافة كلها تنحصر في المعنى لو تنظرون . وكتب أحد الأمراء يوصي بعض قواد الجيش :

”وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك“ .

وهنا كلام نادر قلما تجود بمثله القرائح . فأي يكون جماله ؟ أترونها في شيء غير المعنى ؟ وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري :

”عذ مرضى المسلمين ، وأشهد جنائزهم ، وبأشر أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أقلهم حملا“ .

وهي نصائح عادية وأبلغها جميعا قوله ”فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أقلهم حملا“ .

أفترقون الجمال هنا ، جمال البلاغة ، في شيء غير المعنى ؟

٢١ — والشعر ؟ ما جماله وما عذوبته ؟ أنظروا قول ابن الأحنف :

أأذنوب لصب في زيارتكم فنندكم شهوات السمع والبصر

إن صدر هذا البيت عادي لا طريف فيه ولكن تأملوا عجزه حيث يقول ( فنندكم شهوات السمع والبصر ) ألا ترون أنه معنى نادر نفيس وفيه وحده جمال البيت ؟ ألا ترون أن لفظة ”شهوات“ لم تكن أوفى ولا أدق إلا حيث قرنت بالسمع والبصر وتحاشت ما عداها من نعم الحواس ؟

وانظروا قول قيس بن ذريح :

إلى الله أشكو فقد بُني كما شكا إلى الله بعد الوالدين يتيم

وهذا من الكلام الجيد : فهل كانت جودته في غير معناه ؟ أليس كل ما هنا من روعة يعود إلى تشبيه الزوجة الصالحة بالأم الروم ، وتشبيه العاشق المهجور بالطفل اليتيم ؟

وانظروا قول جميل بن معمر :

فلو أرسلت يوما بثينة تبني	يبنى ولو عزت على يبنى
لأعطيها ما جاء يبنى رسولها	وقلت لها بعد اليمين سلقى
سلقى مالي يا بئس فأنمي	بين عند المال كل ضنين
فألك ما خبر الناس أني	أسأت بظهر الغيب لم تسلي
فألي عذرا أو أجي بشاهد	من الناس عدل أنهم ظلموني
لما الله من لا ينفع الود عنده	ومن حبله أن مده غير متين
ومن هو ذلوني ليس بدائم	على تمة خوان كل أمين

وقد يقولون : إن جمال هذا الشعر في رفته وعذوبته . ولكن أثرون الرقة والعذوبة  
إلا صورة طاهرة لروح الشاعر وما يضممه لمشوقته من عطف وحنان ؟ ألم أقل لكم إن  
الرقة والجلافة هي صفات للمعاني تمثل في أشباح الألفاظ !

٢٢ — ولو أننا عدنا إلى كتب النقد لرأينا أن القدماء كانوا يحصلون المعنى أساس  
الصورة بحيث يعد الشاعر سارقا للمعنى وإن غير من صورته . ومن ذلك قول البيهقي :  
أترجو كليب أن يجمع حديثها      بخير وقد أعيأ كليباً قديمها  
أخذه الفرزدق فقال :

أترجو ربيع أن يجمع صفارها      بخير وقد أعيأ ربيعاً بكارها

وهذا ليس بشيء في جانب المعاني التي تؤخذ من المدح إلى الهجاء ومن التسيب إلى الرثاء  
وهي كثيرة جداً، ومع ذلك تبه النقاد إلى أنها سرقة، وتبه الشعراء إلى جرائمهم حتى روى عن  
الأخطل أنه قال : "نحن معاصر الشعراء أسرق من الصاعقة"<sup>(١)</sup>.

٢٣ — وأنا مع هذا كله من أعرف الناس بقدر الألفاظ والأساليب فلبست أنكر أن  
الشعراء والكتاب والخطباء يتفاوتون في الصياغة الفنية، ولكنني أومن قبل كل شيء بالمعنى



والروح . وأرى الألفاظ على لسان الشاعر والكاتب والتخيل تشبه أدوات الحرب وأسلحة القتال في أيدي الرجل : فالسيف هو السيف في يد البطل وفي يد الجبان ، ولكنة في يد البطل موت أزرق التاب . على حين نراه في يد الجبان أقل غناء من العصا في يد الوليد . والتخيل هي الخيل ، ولكن الجواد لا يكون جوادا إلا اذا اعتلى صهوة فارس مفوار ، وهو تحت الرجل الرخو أشبه شيء بالحمار . "تحت الفلاح العييط" والمرأة هي المرأة ، ولكنها بين يدي الرجل الغزل أنضر منها في حضرة الرجل البليد ! والكاتب المحيّدون الذين أجمع الناس على احترامهم تتفاوت أيامهم تفاوتاً شديداً : فهم في بعض الأيام من فرسان البلاغة وأعيان البيان ، وهم في أيام آخر يُسقون ويتهاقون . فما سبب ذلك ؟ السبب معروف فان روح الكاتب يتأثر بمزاجه وظروفه وموضوعه تأثراً يلبغا . فلو كان الأسلوب هو سر البلاغة لتحتم أن يكون الكاتب يلبغا في جميع أحواله ، وهذا محال . فلم يبق إلا أن يكون للبلاغة سر آخر غير الأسلوب . وذلك السر هو المعنى والروح . وليست المعاني الجيدة بطائفة للكاتب في كل لحظة ، ولا الروح القوي بمواتية في كل حين . أظنهم قوم الآن أن القرآن من جنس كلام العرب في اللفظ والأسلوب ؟ أظنهم الآن أن القرآن يمثل النثر العربي في العصر الذي نزل فيه وأن سر إعجازه راجع الى روحه ومعانيه ؟

٢٤ — ومن أغلاط الباقلاني قوله بنى السجع من القرآن ، وهو يتابع في هذا أبا الحسن الأشعري وأصحابه ، ويعارض جمهوراً كبيراً من أهل العلم والأدب ، منهم من سبقه ومنهم من عاصره ، وحجة مخالفيه أن السجع مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجتناس التي يقع بها التفاضل في القصيدة والبيان . ومن أقوى ما يستدلون به على وجود السجع في القرآن أن المسلمين اتفقوا على أن موسى أفضل من هارون ، ومع ذلك قيل في موضع "هارون وموسى" مراعاة للسجع ، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل "موسى وهارون"<sup>(١)</sup> .

والواقع أن السجع موجود في القرآن في مواطن كثيرة ، ولا ينكره إلا معاند لا يفقه ما يقول ، ومن أمثله : ﴿ والسماء ذات الريح ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل <sup>(١)</sup> 〉 .

ومن أمثله أيضا : ﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود <sup>(٢)</sup> 〉 .

وكذلك : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيِّرت ، وإذا المشار عطلت ، وإذا الوجوش حشرت ، وإذا البحار سجَّرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا المودة سلت ، بأى ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلقت ، علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالجنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما منا حيكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين <sup>(٣)</sup> 〉 .

ولا أطيل في سرد الآيات المسجوعة ، ففي السور المكية شواهد كثيرة على السجع والازدواج .

٢٥ — والمهم أن نعرف ما هى حجة الباقلاني على تقي السجع من القرآن لقدر وزنه للسجع والبيّنات ، وهو يقول :

” لو كان القرآن سجما لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز ، بل لازم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يالف الكهان من العرب ، وفيه من الفرقان أجدر بأن يكون حجة من تقي الشعر ، لأن الكهانة شافى النبوات ، وليس كذلك الشعر <sup>(٤)</sup> .

(١) سورة الطارق . (٢) سورة البروج . (٣) سورة التكويد . (٤) ص ٦٠

وهذا كلام ساقط ضعيف، فالسجع موجود في القرآن، ولكن الرجل يأتي أن يتعرف به، لأن الاعتراف بوجوده في القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب، والاعجاز في رأيه يقتص في الأسلوب، وما دمتا مسلمتا بأن القرآن معجز فانه يجب أن تؤمن بأنه غير مسجوع، وإلا ساويتا بينه وبين سائر الكلام !

ونحن لا ندرى كيف اتفق الباقلائي وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم المقيم ولا ندرى كيف سمح له أن يحتم في السجع من القرآن قياسا على نفي الشعر، بل يزيد على ذلك أن نفي السجع أوجب لأنه كان أسلوب الكهان . والمسألة كلها لعب في لعب وضلال في ضلال : لأن اختصاص السجع بالكهان حديث نرافة ، والمعقول أن السجع كان عند أهل الجاهلية لونا من الزخرف الفني يلجأ اليه الكاتب والخطيب رغبة في التأثير، ولم يندب السجع على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدبا ، إذ كانوا قادة الجماهير في الجاهلية . والسجع في القرآن لا يمنع من إعجازه، لأن الاعجاز كما أسلفنا مرجعه الى سمو المعنى وقوة الروح، والرسول رجل من القرب تفرد من ينهم بتبليغ الرسالة الى قومه ، فمن الواضح أنه ينقلها اليهم في أجمل ما عرفوا من الأساليب . ونفي الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير صالح للإعجاز كما توهم الباقلائي، ولكني أرجح أن الشعر لمهد النبوة لم يكن من تقاليد الاهتمام بالشؤون الجدية، وخاصة المسائل الروحية والدينية، ولذلك نجد القرآن يعرض بالشعر ويهتم الشعراء باللفو والفضول والخيال . والشعر مع هذا في أسلوبه لمهد النبوة كان أضيئ من أن يتسع لشرح المشاكل الدينية والاجتماعية التي أطال في شرحها القرآن، ومن هذا يبين أن عدم تبليغ الرسول رسالته شعرا لم يكن معناه أنه تعاضى الشعر لئلا يشارك العرب في أساليبهم كما ظن الباقلائي وأصحابه الأشعريون .

٢٦ — على أن الباقلائي لا يقف عند هذا الخطأ بل يتعمده الى خطأ أشنع في فهم

السجع فيقول :

”والذي يقدرون أنه صحيح فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن مجعاً ، لأن ما يكون به الكلام مجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بالفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى متظلاً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إضافة السجع كإضافة غيره ، ومتى ارتبط المعنى نفسه دون السجع كان مستجاباً لتجسس الكلام دون تصحيح المعنى“<sup>(١)</sup> .

وخلاصة هذه الفكرة أن الكلام لا يكون مجعاً إلا إذا كان المعنى فيه تابعاً للفظ ولا ندرى من أين أتى الباقلاني بهذه القاعدة . والعنبر أن خير السجع ما كان اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، كما أشار إلى ذلك غير واحد ممن كتبوا في فنون البيان ، ونحن إذا تأملنا السجع في القرآن رأينا اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، وزرى القرآن في مواطن كثيرة يصحى بفواصل السجع في سبيل المعنى ، لا كما يفعل المتكلمون حين يضحون بالمعنى في سبيل السجع .

وهناك خطأ آخر تورط فيه الباقلاني إذ يقول :

”لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه مجعاً لكان مذموماً مرفولاً ، لأن السجع إذا تلاوت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحاً من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل في كلامه ونسب إلى الخروج على الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن الملهود كان مخطئاً وكان شعره مرفولاً ، وربما أخرجه عن كونه شعراً ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه مجعاً متقارب التواصل متداني المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا في السجع غير مرضي ولا محمود“<sup>(٢)</sup> .

ووجه الخطأ هنا أن الباقلاني يحاكم القرآن الى قواعد وضعها المتأخرون ، وكان أولى به أن يفهم أن القرآن هو الأساس ، ونخرج القرآن على السجع من حين الى حين من دلائل سلامته وبلاغته ، لأن الترام السجع باب الى القلو والإغراق ، ولم يقبح السجع على السنة المتأخرين إلا لأنهم الترموا به ما لا يلزم في الترين والتجميل . والذين قالوا بوجود السجع في القرآن لم يفرضوا التزامه في جميع الأحوال ولا وقفوا في مثل ما وقع فيه الباقلاني من الخطأ حين نقاه على الإطلاق<sup>(١)</sup> .

(١) يحسن بقارى أن يرجع الى الفصل الذى بسطنا فيه «أحوال السجع» في الجزء الأول .

## ٧ - أبو القاسم الأمدى

١ - لم يصل إلينا من أخبار الحسن بن بشر الأمدى شيء كثير . وكل ما نعرفه أنه ولد بالبصرة - ولا ندري متى - وأنه انتقل إلى بغداد فلقى النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السراج ، وأنه عاد إلى البصرة فكتب لأبي الحسن أحمد وأبي أحمد طلحة بن الحسن بن المنثي . وكتب بعدهما للقاضي أبي جعفر بن عبد الواحد . ثم لأخيه أبي الحسن محمد بن عبد الواحد ثم لم يمت به بالبصرة إلى أن مات نحو سنة ٣٧١ هـ<sup>(١)</sup> .

٢ - وليس فيما قرأنا من أخباره ما يبين مذهبه في الحياة . ونستطيع فقط أن نتخذ من مؤلفاته دليلاً على أن حياته العقلية قصرت أو كادت على اللغة والنقد . يؤيد ذلك مجموعة كتبه التي أشار إليها ياقوت ومنها : كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء . وكتاب ثر المنظوم . وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري . وكتاب في أن الشاعرين لا تنفق خواطرهما . وكتاب ما في عبار الشعر لابن طباطبأ من الخطأ . وكتاب فرق بين الخاص والمشارك من معاني الشعر . وكتاب تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين . وكتاب تبين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر . وكتاب معاني شعر البحتري . وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام . وكتاب فعلت وأفعلت<sup>(٢)</sup> .

وهذه المجموعة تبين اتجاهات ذهنه في حياته الأدبية : فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر وقد ما كتب عنه . وهو بنوع خاص مغرم بدرس البحتري وأبي تمام ، وتعقب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . ولو بقيت مؤلفاته لاستطعنا أن نصلي إلى شيء كثير من المعارف الأدبية التي كان يملكها رجال القرن الثالث والرابع ، ولأمكننا أن نعرف

(١) راجع ترجمته في سجع الأدباء ج ٣ ص ٥٤ - ٦١ (٢) ياقوت ص ٥٨ ج ٣

الى اى حد كان أولئك القوم يعرفون من الدقائق الفنية التى تسبق الى أذهان الشعراء فتضيق أو تختلف وفقاً لاختلاف الأحوال أو توافق المشاعر والأذواق .

وهناك شواهد تدل على أنه فى حياته الاجتماعية كان حريصاً على نفع أحوال معاصريه وربط ما يسمع من أخبارهم بما نُقل اليه من أخبار السالفين وتقييد ما عرف عن أهل عصره من النوادر والفكاهات .

٣ - وكان فوق ذلك كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهراً بالتشبيهات - كما قال يا قوت - ولكن شعره ضائع وما بقى منه يدل على أنه كان جيد المعانى فى أسلوب ينقصه الزواء . من ذلك قوله :

يا واحداً بان فى الزمان	ممن يحاريه أو يدانى
دعنى من فائل جزيل	يسجز عن شكره لسانى
فلست والله مستميحاً	ولا أحمأ طامعاً ترائى
وهب اذا كنت لى وهو با	من بعض أخلاقك الحسان

وقوله فى عالم تتمام :

لا تنظرون الى نعمته اذا	رام الكلام ونفذه المتعاص
وانظروا الى الحكم التى يأتى بها	تشفيك عند تطلق وخلاص
فالدر ليس يناله غواصه	حتى تقطع أنفاس الفواص

ومن الشعر الفكاهى قوله فى أحد القضاة :

رايت فلنسوة تستحي	ث من فوق رأس تنادى خنوفى
وقد قلقت فهى طورا تبي	مل من عن يسار ومن عن يمين
فطورا تراها فوق القفا	وطورا تراها فوق الجبين
فقلت لها أى شىء دهالك	فردت بقول كئيب حزين
دهانى أنى لست فى قالى	وأخشى من الناس أن يصبرونى

وَأَنْ يَعْشُوا بِمَزَاجٍ مَعِي      وَإِنْ قُلُوا ذَلِكَ بِي قَطْعُونِي  
قُلْتُ لَهَا مَرَّةً مِنْ تَعْرِيفِنِ      مِنَ الْمُنْكَرِينَ لِهَذِي الشُّؤُونِ  
وَمَنْ كَانَ يَشْتَقِي إِمَّا رَأَاكَ      وَيَخْرُجُ مِنْ جَوْفِهِ كَالرَّيْنِ  
وَمَنْ كَانَ يَصْفَعُ فِي اللَّهِ لَا      يَلُ وِيشْتَدُّ فِي غَيْرِ لَيْنِ  
وَيَسْلَعُ مَلَكَ كَيْلِ التَّمَامِ      إِمَّا عَلَى صَحَّةٍ أَوْ جُنُونِ  
فَفَارَقَهَا ذَلِكَ الْإِنْزِعَاجُ      وَعَادَتْ إِلَى حَالِهَا فِي السُّكُونِ

٤ - وأهم ما بقي من آثار الأمدى هو كتابه "الموازنة بين أبي تمام والبحتري" وهو كتاب يضعه في الصف الأول ويقدمه على كثير من الناقدين .

وأسلوبه في ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفها وأبعدها من اللغو والفضول، وآراؤه في نقد الشعر آراء جيدة سديدة تنجب لها اليوم أشد الإعجاب وبيننا وبينه عشرة قرون .

٥ - وأمن ما يصل بيننا وبين ذلك الرجل - على بعد العهد - معرفته لنفسية الأدعياء أدمعاء الأدب والبيان : فهو يقرر أن الناس يتقنون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء يجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر . لأن الذي يعرف منهم من الذهب والفضة والرقيق والخليل والصلاح والثياب والطيب أكثر مما يعرف من الشعر لا يتهم نفسه في المعرفة بالشعر تهمة إياها في المعرفة بتلك الأشياء : لأنه يرى الترس فيعجبه ملاحه سبيه، واستدارة كفله ، وبريق شعره، وصحة قوائمه، وسلامة أعضائه، وبرامته من العيوب الظاهرة والباطنة، ولكنه لا يقدم على اقتباصه حتى يشاور في أمره أصحاب البصر به . ويرى السيف فيبهذه منه جلاؤه، وصاله، وصفاء حديثه، ولكنه لا يمتدح فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضاهه . ويريد اقتباص ثوب الوشي فيروقه منه حسن طرزه، وكثرة صوره، وبديع قوشه، واختلاط ألوانه، فلا يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رقعته وصحة نسجه وصحة إبريسمه . ولكنه لا يجرى على هذه القاعدة في الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها



أودقة معانيها أو ما أشققت عليه من مواعظ وآداب وحكم وأمثال : فيُصْجَل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمهِ ووضع ألفاظهِ في مواضعها، وغير ذلك من الأنظار الدقيقة التي لا يدركها إلا أرباب الصناعة<sup>(١)</sup>.

٦ - ومن الدقائق الغريبة أن نرى الأمدى منذ عشرة قرون يفهم أن هناك حاسة فنية يرجع إليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان : فهو يحدثنا أنه كما قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما مائزات علامات التق والجلودة والنجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر فربق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة، وتكون الجاريتان بارعتين في الجمال سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يحصل في الثمن بينهما فضلا كبيرا بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق وإنما يعرفه بطبعه وكثرة درسته وطول ملبسته، فكذلك الشعر : قد يتقارب البتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناه واحدا، وأيها أجود في معناه إن كان معناه مختلفا<sup>(٢)</sup>.

٧ - وهذه النظرية البعيدة في تقدير الحاسة الفنية لم تكن مما انفرد به الأمدى : فقد سبق إليها ولكنه استغلها أحسن استغلال . وأجمل ما جاء في هذا الباب ما حكاه إصحق الموصلی : "قال لي المتعمم أخبرني عن معرفة النغم وبينها لي - فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤتيها الصفة".

قال : "وسألت محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكنني التبيين ، ولكنهما يتقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان". وقيل تلفظ الأحمر : إنك لا تزال تزد الشيء من الشعر وتقول هو رديء والناس يستحسنونه فقال :

"إنما قال لك الصيرفي : إن هذا الدرهم زائف فليس بتافك قول غيره إنه جيد"<sup>(٣)</sup>.

ولكن كيف السبيل إلى كسب النوق الأدبي أو الحاسة الفنية ؟

هنا يجب الأمدى بأن ذلك لا يكون إلا بكثرة النظر في الشعر، والارتياض فيه، وطول الملازمة له والاقطاع إليه، والانكباب عليه، والجد فيه، والحرص على معرفة أسرارهِ وغوامضهِ .

٨ — والأمدى مع هذا يقتر بأنه ليس في مقدور كل إنسان أن يصل الى كسب النوق الأدبي بطول الممارسة : لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله وما في طاقته تعلمه . وليس كل طبع قابلاً لفهم أسرار الأدب والبيان ومن هنا سمح له أن يقول :

« واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذي تسأله ليس في وسعه أن يحطك في العلم بالصناعة كنفسه . ولا يجد سبيلاً الى قذف ذلك في نفسك ولا في نفس ولده ومن هو أخص الناس به، ولا أن يأتيك في ذلك بطلاة قاطعة ولا حجة باهرة . على أن العلم الذي لا يستقر في الفهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملازمة لا يمكن أن ينتقل الى ذهن آخر يعجز القول والصفة . إلا إذا استطاع صاحب البصر بالسيف أن يصف لك عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر، بحيث يحملك مشاهدا لما أكلها في لحظة واحدة، عالم بكل علة، محيط بكل حجة .

”وبعد فاعلم الذي غرك في دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك نزاعة كتب تستمل على عتة من دواوين الشعراء تُصنفها أحيانا وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تنته هذا الاقتدار فيما يتعلق بتياب بدتك، وأثاث بيتك، وطرق تفقته؛ لأننا لا نترك يتاج وشيا ولا آلة ولا تصرف دينارا ب درهم ولا درهما بدينار، حتى ترجع الى من يعرف ذلك دولك قسطين به على حاجتك مخافة أن تنفج في مالك . فكان خليقا بك أن تسلم أمر الشعر الى أهله مخافة أن تنفج في عقلك . ومصيبة القن في العقل أكبر من مصيبة القن في المال“ .<sup>(١)</sup>

٩ — والأمدى يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع . ويجب على الشعراء طلب الإغراق والإبداع والميل الى وحشي المعاني والألفاظ، وإن كان ذلك مما يروى ويستجاد

للأعراب "لأن الأعرابي لا يقول إلا على قريحته، ولا يتعمق إلا بخاطره، ولا يستقى إلا من قلبه . وأما المتأخر الذي يطبع على قوالب ويحذو على أمثلة ويتعلم الشعر تعلمًا ويأخذ تلقينًا فمن شأنه أن يتجنب المذموم ، ولا يتبع من تقلده إلا فيما استحسّن منهم واستجيد لهم واختير من كلامهم ... فإن الشاعر قد يعاب أشدّ العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره، وبالإبداع جميع فنونه ، لأن مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة مخرجة سهل التأليف الى سوء التكلف وشدة العمل . ولكل شيء حدّ إذا تجاوزته المتجاوز سمى مفرطًا . وما وقع الإفراط في شيء إلا شأنه ، وأعاد الى الفساد صحته ، وإلى القبح حسنه وبهائه » .

وخلاصة هذا الرأي أن الأعراب ينفر لهم ما لا ينفر للشعراء المثقفين لأنهم معذورون على غير مثال، وهذا أحلّ في النفوس، وأشهى الى الأسماع، وأحق بالاستجابة مما يورده المحتذون على مثال .

وهذه مسألة فيها نظر : لأن أكثر ما روى عن الأعراب دخلته الصنعة إذ كانت جمهورته من صنع الرواة . ونحن نفهم أن الأعراب يخطئون ويصيبون ، وهم حين يخطئون قد يكونون خاضعين لفطرة هي أجدى على اللغة وأنفع من جهود المثقفين في الصقل والتجميل .

فإننا نرى للأعراب حرية في الحذف والإيصال لا نجد لها ظلاً عند الشعراء الحضريين وتلك الحرية في الحذف والإيصال هي أخص سمات اللغات الحية . وفي اللغة الفرنسية لذلك ألف شاهد وألف دليل .

١ - وظاهر من النصوص المختلفة في كتاب الموازنة أن الامدى يريد بالذات مسألة العمل والتكلف والإغراب بإيثار وحتى المعاني والإكفاظ . فهذا يقبل من الأعراب : لأنه من وحى الفطرة، ويرفض من شعراء الأمصار : لأنه نتيجة التكلف . ومعنى هذا أنه كان هناك رأى يدمو الى تهذيب اللغة وتصفيها وتخليصها من عنجھية الأعراب . وقد يستخلص من هذا أيضاً أنهم كانوا يفهمون أن عيش الحضارة مما يوحى التأنق والتخير

في المعاني والألفاظ والتماير . فالشاعر الحضري لا يُقبل منه التورع لأنه خروج على فطرته ، وقد يقبل من البدوى لأنه يجري فيه على مجيئه ، فكان الفطرة هي الميزان . وهذا كما يرى القارى من أدق الأحكام .

وقد يكون لهذا الاتجاه دخل في أعمار الألفاظ ، فبعضها عُمر طويل لأنه وافق هوى في أنفس الحضريين وبعضها هجرات لقلة الاستعمال : ومن هذه الناحية فضل الأمدى البحرى على أبى تمام : لأن البحرى كان يعتمد حذف القريب والوحشى من شعره ليقوّبه من فهم من يتدسه . إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة في موضعها من غير طلب لها . وكان من أمره في ذلك أنه كان يكنى أبا عبادة ، فلما دخل الصراق تكنى أبا الحسن ليزيل التحجية والأعرابية ويساوى في مذهب أهله الحاضرة ويقرب بهذه الكنية الى أهل النباهة والكتاب من الشيعة . فهو بذلك بدوى تحضر فراج شعره في البدو والحضر . ولا كذلك أبو تمام فانه حضري تشبه بأهل البدو فلم يتفق بالبادية ولا عند أكثر الحاضرة .

١١ — والأمدى لا يستبعد الخن بل يقزر أنه " لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحذنين ولا يسلم منه شاعر من الشعراء الاسلاميين . وأنه قد جاء في أشعار المتقدمين ما لا يقوم المذرفيه إلا بالثأويلات البعيدة . وأن ما عيب على البحرى من مخالفة المقاييس والبعد عن الصواب قد جاء كثير مثله في أشعار القدماء . والأعراب الفصحاء " .

والواقع أن الخن قديم . ومن الخطأ أن يُظن أن العرب لم يلحنوا إلا حين اختلطوا بالأعاجم . ولكنه من الواجب أن يلاحظ أن لطبايع الشعراء والكتاب دخلا في ما أثر عنهم من الخن : لأن بعض الأذهان طرائق خاصة في التعبير قد تمتد انحرافا عن الصواب . في حين أنها تنحصر عن أغراض اصحابها أتم الافصاح — ولو ترك الناس على فطرتهم لكان من طرائق تعبيرهم مادة صالحة لعلم النفس : لأن الأساليب الكتابية صور للاتجاهات العقلية ، والوجدانية ، والنفسية . وفي القول كما في الأساليب وضوح وغموض وخطأ وصواب .

## بين صاحب أبي تمام وصاحب البحرى

اخترع الأمدى مناظرة طريفة تمثل التراع الذى قام بين أصحاب أبي تمام وأصحاب البحرى . وهى مناظرة طويلة يجدها القارئ فى صدر كتاب "الموازنة بين الطائيين" ورأينا أن تثبت طرفا منها فى هذا الفصل ليرى القارئ كيف لآن الثر وعُذِب على قلم الأمدى وهو يصوغ هذا الحديث :

صاحب أبي تمام — كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحرى أشعر من أبي تمام ، وعن أبي تمام أخذ ، وعلى حذوه أخذى ، ومن معانيه استقى : حتى قيل الطائي الأكبر والطائي الأصغر .

صاحب البحرى — أما الصحبة له فما صحبه ، ولا تتلذذ له ، ولا روى ذلك أحد عنه ولا قتله ، ولا أرى قط أنه محتاج إليه .

ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف التنرى وقد دخل عليه البحرى بقصيدته التى أولها :

• أأفاق صب من هوى فافيقا •

وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتا كثيرة فلما فرغ من الانشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ! ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعري وينشده بمحضرقى حتى اليوم ! ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فهبت البحرى . ورأى أبو تمام الإنكار فى وجه أبي سعيد فحينئذ قال أبو تمام :

"أيها الأمير واه ما الشعر إلا له وإنه أحسن فيه الاحسان كله" وأقبل يقرظه ، ويصف معانيه ، ويذكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضغف له الجائزة . فن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره ، وفاتر كلامه ، قبل أن يعرف أبا تمام ، جدير به

(١) اكتفينا فى إثبات هذه الصفحات بما أورده المرحوم مصطفى لطفى المفلوطى فى مختاراته . ومن أراد الشواهد فليجأ إليها فى صدر منتخب الموازنة فهى هناك أدق وأمتع .

أن يستغنى عن أن يصحبه، أو يتلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أنى لا أنكر أنه استمار بعض معاني أبي تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحرى من شعره . وليس ذلك بمقتضى أن يكون أبو تمام أستاذ البحرى ولا مانع أن يكون البحرى أشعر من أبي تمام . فهذا كثير قد أخذ من جميل واستقى من معانيه، فما رأينا أحدا قال إن جميلا أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام — إن البحرى نفسه يستوفى أن أبا تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبى تمام : « فقال إن جيده خير من جيدي » وجيد أبى تمام كثير .

صاحب البحتى — إن كان هذا الخبر صحيحا فهو للبحترى لا عليه، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف، وشعره شديد الاستواء، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر، وقد اجتمعنا نحن وأتم على أن أبا تمام يعلو علوا حسنا ويخط الخطا قبيحا . وأن البحرى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يسف أفضل من يسقط ويسف .

صاحب أبى تمام — إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماما متبوعا وشهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره، وهى فضيلة عرى عن مثلها البحرى .

صاحب البحرى — ليس الأمر على ما وصفت، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق إليه، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد وأخذى حذوه وأفرط في ذلك وأسرف حتى زال عن التهج المعروف، والسنان المألوف، بل إن مسامحا غير مبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البدع متفرقة في أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر في شعره منها . ولكنه حرص على أن يضعها في مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل أنه أول من أفسد الشعر بقاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف، فسلك طريقا وعرا، وأستكره الانقراض

والمعاني استكراها : ففسد شعره ، وزهبت طلاوته ، ونشف ماؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه اليه . وكل ما في المسئلة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه . أما البحرى فانه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سببا في إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله . وتفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلامه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبي تمام — إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

صاحب البحرى — لا يستطيع أحد أن ينكر متزلة ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني ودعبل بن علي الخزازي من الشعر ومتزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام واذدراهم بشعره . حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال ، وثلث مسروق ، وثلثه صالح . وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنشور أشبه منه بالشعر . وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام : أن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل ! وهذا محمد بن يزيد المبرد ما علمناه دقن له كبير شيء .

صاحب أبي تمام — إن دعبل كان ليثا<sup>(١)</sup> أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور ، فلا يقبل قول شاعر في شاعر . وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابه مذهب ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا مسئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيسئل إلى الطعن عليه . ولا مانع أن يكون جيع من تذكروته على هذا القياس .

(١) يثا : بغض .

صاحب البحرى — لا عيب على ابن الأعرابي في طبعه على شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب الى الاستمارات البعيدة المنخرجة للكلام الى الخطأ والإحالة . والعيب في ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحبة الى طريقة يحملها ابن الأعرابي وأمثاله من المضطلمين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام — إن العلم في شعر أبى تمام أظهر منه في شعر البحتى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحرى — كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً ، وكان الأصمى شاعراً عالماً ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن جيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل في شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحرى فلم يقصد هذا ولا أعتمد ، ولا كان يعده غضبيلة ولا يراه عالماً ، بل كان يرى أنه شاعر لا بد له أن يقرب شعره من فهم سامعه فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له في اللفظة بعد اللفظة في موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذى تؤثرون به أبا تمام لم ينفعه : فقد كان يلحن في شعره لحناً يضيق العذريه ولا يبعد المتأول له غريباً منه إلا بالحيلة والتحمل الشديد .

صاحب أبى تمام — لسا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم في بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه . وغير غريب على فكر تتج من المحاسن ما نتج ، وولد من اللبدائع ما ولد ، أن يلحقه الكلال في الأوقات ، والزلل في الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يساع في سهوه ويقبأ وزله عن خطاه . وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ والغلن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه . وما كان أحد من



أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجهود الفضل بل عفى إحسانهم على إساءتهم، ويجوز يعلم على تقصيرهم .

صاحب البحرى — أما أخذ السهو والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين فى البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مفسداً أو مُعجلاً أو عادلاً عن السنن أو مستعيراً أستمارة قبيحة أو مخطئاً للعين بطلب الطباق والتجئيس ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبى تمام — إنكم تتكرونى على أبى تمام من الفضل ما يعترف به البحرى نفسه فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحرى — لم لا يفعل البحرى ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متعاضدين وأخوين متصافين يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه ، ويحمله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يُعطى فى تأبينه من التقرىظ والوصف وجمل الذكراضاف ما كان يستحقه .

صاحب أبى تمام — كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفخوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبى تمام لا يتماق به جيد أمثاله . وإنما كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديشه وأطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب فى أنه أشعر شعراء عصره والبحرى واحد منهم .

صاحب البحرى — إنما صار جيد أبى تمام موصوفاً ومذكوراً لندرتة ووقوعه فى تضاعيف الرذية فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه . وجيد البحرى بكيد أبى تمام إلا أنه يقع فى جيد مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

## ٨ - أبو هرون المسكري

١ - في الأدب العربي رجلان باسم المسكري يشتهان كثيرا على الباحثين، لأن كلا منهما الحسن بن عبد الله المسكري . وكان من أسباب هذا اللبس أن أخطأ صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه "الأعلام" <sup>(١)</sup> فأزخ وفاة أحدهما بوفاة الآخر اعتادا على فهرس دار الكتب المصرية .

قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغني منها شيء غير أني وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه (وفرغنا من املاء هذا الكتاب لمشرخلت من شعبان سنة ٣٩٥) وقد ظن جورجي زيدان أن هذا تاريخ الوفاة .

والفرق بين ذينك الشخصين أن أحدهما يكنى أبا أحمد وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد المسكري ، وتانهما يكنى أبا هلال وهو الحسن بن عبد الله بن سهل المسكري ، وقيل إن أبا هلال كان ابن أخت أبي أحمد <sup>(٢)</sup> .

والمسكري نسبة الى عسكر مكرم، وهي مدينة من كور الأهواز ، ومكرم الذي تنسب اليه مكرم الباهلي وهو أول من اختطها، كما يقول ابن خلكان <sup>(٣)</sup> .

٢ - وكان أبو أحمد المسكري من رجال اللغة والرواية . وكان صاحب ابن عباد يؤد الاجتماع به ولا يجد اليه سبيلا ، فقال لمخدومه مؤيد الدولة بن بويه : ان عسكر مكرم قد اختلت أحوالها، وأحتاج الى كشفها بنفسى، فأذن له في ذلك، فلما أتاها توقع أن يزوره أبو أحمد المسكري فلم يزره . فكتب صاحب اليه :

ولما أبيت أن تزوروا وقتمو ضعفتا فلم تقدر على الوعدان <sup>(٤)</sup>

(١) ص ٢٢٩ ج ١ (٢) ياقوت ص ١٣٧ ج ٢ (٣) وفیات الأعيان ص ٢٢٥ ج ١

(٤) الوعدان : سعة الخطو، كالوعد والوعد .

أنتنا كومن بعد أرض زوركم      وكم مثل بكم لنا وعوان  
نساظكم هل من قرى لتريلكم      بلء جفون لا بلء جفان

وكتب مع هذه الأبيات شيئا من الترجمان أبو أحمد عن الترجمان مثله، وجاوبه عن الشعر بهذه الأبيات :

أروم نهوضا ثم يثنى عزيمتي      تصوذ أعضائي من الرجان  
فضممت بيت ابن الشريد كأنما      تصمد تشبهي به وعاني  
”أهم بأمر الحزم لو أستطيعه      وقد حيل بين العير والتزوان“

فلما وقف صاحب على الجواب عجب من اتفاق هذا البيت له وقال : « والله لو علمت أنه يقع مع هذا البيت لما كتبت إليه على هذا الروي » .

وقد رأى أبو أحمد أن هذا لا يقع صاحب وأنه لا بد من الحمل على النفس، فركب بغلة وقصده فلم يتمكن من الوصول إليه لاستيلاء الحشم، فصعد ثلعة ورفع صوته بقول أبي تمام :

مالي أرى القبة الفيحاء مقفلة      دوني وقد طال ما استفتحت مقفله  
كأنها جنة الفردوس ممرضة      وليس لي عمل زالك فأدخله

فناداه صاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السابقة الأولى ! فتبادر إليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه فسأله عن مسألة فقال : أنخير صادفت ! فقال صاحب : يا أبا أحمد ! تقرب في كل شيء حتى في المثل السائر ! فقال : تفاعلت عن السقوط بحضرة مولانا . وأصل المثل (على أنخير سقطت) وكانت وفاة أبي أحمد العسكري سنة ٣٨٢<sup>(١)</sup>

وانما كتبنا هذه الكلمة عن أبي أحمد لأنه كان أستاذ أبي هلال، ونترشد القارئ إلى أن أبا هلال حين يقول في الصناعتين : « أخبرنا أبو أحمد » فإنه لا يريد رجلا سواه . ومن

كتاب الصناعتين معروف شيئا كثيرا عن أبي أحمد السكري من الوجهة الأدبية، فقد نقل عنه أشياء كثيرة في أغلب ضروب البيان، واختار شذرات من شئ تمثله من أوساط الكتاب<sup>(١)</sup>.

٣ - أما أبو هلال فهو شخصية قوية جذابة لها أثر عظيم في اللغة العربية، ولولم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكانت دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عني به من درس الشعر والثروة تحقب مذاهب الشعراء والكتاب.

كان أبو هلال أبن النفس، قوى القلب، يترفع عن الدنيا وينأى بنفسه عما يرتطم فيه أدعياء الأدب من كسب العيش عن طريق التزلف إلى الأسماء والرؤساء. وقد رأينا أن أستاذه وخاله أبا أحمد السكري كان قدوة له في ذلك، إذ كان صاحب يستدعيه إلى حضرته فيعتذر بالضعف والشيخوخة فرارا من أن يحشر في زمرة الأتباع وطلاب المغام وأرباب الغايات.

كان أبو هلال يتجبر في الثياب احترازا من الطمع والدناءة والتبذل، ولكنه كان قوى الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه، فكان يفر بمثل قوله :

جلوسى في سوق أبيع وأشتري      دليل على أن الأناام قروء  
ولا خير في قوم يذل كرامهم      ويعظم فيهم نظم ويسود  
ويجوهمو عنى رثانة كسوقى      هجاء قبيحا ما طيله مزيد

وقوله :

إذا كان مالى مال من يلقط المعجم<sup>(٢)</sup>      وحالى فيكم حال من حاك أوجهم  
فأين انتفاعى بالأصالة والجمعا      وما ربحت كفى على السلم والحكم  
ومن ذا الذى في الناس يصرحالى      فلا يلن القراطس والجبر والقلم<sup>(٤)</sup>

٤ - وقد كان أبو هلال مع هذا التأبى متصل الحبل بالصاحب بن عباد، وليس في كتب التراجم ما يشرح لنا صلته بذلك الوزير الذى استعبد معاصريه من الكتاب

(١) أنظر ص ٣١٩ مباحثين - (٢) ص ١٣٥ ج ٣ ياقوت - (٣) المعجم : النوى .

(٤) ص ١٣٦

والشعراء ، ولكني رأيت في كتاب الصناعتين ما يدل على أن صلته به كانت قوية ، ولذلك مظهران :

الأول إشارته بأدب الصاحب ، والثاني تعامله على المتنبي ، وكان ابن عباد يكره المتنبي كرها شديدا لترفه عن مدحه ، فكان لذلك يدفع النقاد إلى النيل منه والوقوع فيه ، والفض من شعره .

أما إشارته بأدب الصاحب فتظهر في استشهاده بكلامه ، كقوله في باب السجع والازدواج : ” ومثله قول الصاحب : لكنه عمد إلى الشوق فأجرى جياحه غرا وقرحا ، وأورى زناذه قدحا فقدحا ... وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك ، وتظلمه كلفا بأهل بلدتك ، ... وقوله : وقد كتبت إلى فلان ما يوجز الطريق إلى تحلية نفسه ، ويخيز وعد الثقة في فك حبسه <sup>(١)</sup> “ .

ورى أبا هلال في مكان آخر يقول : ” روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضي الله عنه :

\* تشط غدا دار جيراننا \*

فقال ابن عباس :

\* وللدار بعد غد أبعد \*

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك ... وإذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي أرض واحدة فإن خواطرم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وسمائلهم تكون متضاربة ... وأشدت الصاحب إسماعيل بن عباد :

\* كانت سراة الناس تحت أظله \*

فسبقني وقال :

\* فغدت سراة الناس فوق سرائه \*

وكذلك كنت قلت ، فلي هذا جائز ما يدعى لهم <sup>(٢)</sup> .

وفي هذه العبارة تظهر جمالة أبي هلال للصاحب، فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من النعم التي قد يهبها الله للناس !

ونراه في باب الفصل والوصل يقول : " وهكذا يفعل الكتاب الحذاق، والمتراولون المبرزون ... ألا ترى ما كتب الصاحب في آخر رسالة له : فأت حثت فيما حلفت ، فلا خلوت لتحصيل مجد، ولا نهضت لاقتناء حمد، ولا سميت الى مقام نخر، ولا حرصت على علو ذكر ... وهذه اليقين التي لو سمعها عامر بن الطرب لقال هي الغموس<sup>(١)</sup>، لا القسم باللات والعزى ومئة الثالثة الأخرى ... فأني بأيمان ظريفة ومعان غريبة .

وكتب أيضا في آخر رسالة : وأنا متوقع لكاتبك ، توقع الظمان لساء الزلال ، والصومام لهلال شؤال .

وكتب آخر أخرى : وسئل أن أخلفه في تمشيم مولاي الى هذا المجمع ، يقرب علينا تناول البدر بمشاهدته، ولمس الشمس بفرته .

فاظن كيف يقطع كلماته على كل معنى يدعي، ولفظ شريف<sup>(٢)</sup> .

• — وأما تحمله على المتنبي فيظهر في مواطن كثيرة من كتابه ، فهو لا يذكره باسمه ، ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففي باب تميز المعاني ينشد قول السيد الحيري :

أيارب إني لم أرد بالذي به مدحت عليا خير وجهك فارحم

ثم يقول : " فهذا كلام عاقل يضع الشيء في موضعه ، ويستعمله في إبانته ، ليس كمن قال وهو في زماننا :

جفخت وهم لا يحفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل<sup>(٣)</sup>

فأشمت عدوه بنفسه .

(١) إيمين النوس بالعين المهيمة التي تنمس صاحبها في النار .

(٢) ص ٣٥٤ و ٣٥٥

(٣) لم يذكر أبو هلال بحر البيت (ص ٤٥) - ص ٢٩٣

وفي باب الكناية والتعريض يقول : « ومن شذيع الكناية قول بعض المتأخرين :

إني على شفى بما في نحرها لأعف عما في سراويلاتها

وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ .

و « بعض الشيوخ » ذاك هو الصاحب بن عباد الذي قيد هذه الملاحظة في آخر رسالته في الكشف عن مساوئ المتنبى<sup>(١)</sup> .

وفي باب الترصيع يقول : « ومن معيب هذا الباب أيضا قول بعض المتأخرين :

عجب الوشاة من الحماة وقولهم دع ما ترك ضعفت عن إخفاؤه

هذا ردىء لتعمية معناه<sup>(٢)</sup> .

وفي باب التوشيح يقول : « ومما عيب من هذا الضرب ... قول بعض المتأخرين :

فقلقت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

وإنما أخذه من قول أبي تمام فأفسده :

طلبك من تسل الجدبل وشقم كوم عقائل من عقائل كوم<sup>(٣)</sup>

٦ — وتحامل أبي هلال على المتنبى هو المطنن الظاهر في أخلاقه ، فقد كان يستطيع أن ينقد شعر المتنبى فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء ، ولكنه سلك خطة واحدة هي النص على السخيف من شعر المتنبى مع التماهى عن معانيه الجيدة ، وخياله الوثاب . فانضم بذلك إلى النقاد المفرضين الذين كلّفوا بالبحث عن عيوب المتنبى ابتغاء مرضاة الوزير ابن عباد ، وما أخط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان !

٧ — ويعدّ ثرأبى هلال من الطبقة العالية . وهو يسجع ، ولكنه لا يترجم السجع ، والتميز المشرق الفصيح من أظهر مميزاته ، ولا يكاد القارئ يرى في ثره عبارة غامضة أو فكرة

(١) مخطوطة في دار الكتب المصرية . (٢) ص ٣٠٠ (٣) ص ٣٠٤ والجديل وشقم لخلان

يحوطها اللبس ، وإنما يمضى في الشرح والإيضاح بلفة سهلة مقبولة لا يعتريها ضعف ولا اتواء . وانظر قوله في جودة الرصف وحسن النظم :

«أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر . وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب . وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً . وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبةٌ من التعمية . فإذا كان المعنى <sup>(١)</sup> سياً ، ورصف الكلام ردياً ، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطاً ، ورصف الكلام جيداً ، كان أحسن موقفاً وأطيب مستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جمل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائماً في المرأى وإن لم يكن مرصعاً جليلاً، وإن اختلف نظمه فضمت الحبة إلى ما يليق بها اقتضته العين وإن كان فاتقاً ثميناً . وحسن الرصف أن توضع الالفاظ في مواضعها ويمكن في أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام ولا يعنى المعنى ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيرها منها وصرفها عن وجوها وتغيير صيغتها ومخالفة الاستعمال في نظمها <sup>(٢)</sup> .

ولا يستطيع وضع لغة التأليف في مثل هذه السهولة وهذه الدقة إلا الكتاب المتفوقون .  
وانظر أيضاً قوله :

”البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة ، ولا على لسان دون لسان ، بل هي مقسومة على أكثر الألسنة . فهم فيها مشتركون ، وهي موجودة في كلام اليونان وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها في العرب أكثر لكثرة نصرتها في النثر والنظم والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز ، وهم أيضاً متفاوتون فيها ، فقد يكون العبد بليفاً ولا يكون سيده ، وتكون الأمة بليسة ولا تكون ربها ، فالبلاغة قد تكون في أعراب البادية دون ملوكها ، وقد يحسنها الصبي والمرأة <sup>(٣)</sup> .

(١) السي ، هنا ، معناه الجيد ، والسية : الفرة . (٢) ص ١٢٠ الصائغين .

(٣) ص ٢١٣ التفضيل بين بلاغة العرب والعجم ضمن مجموعة النسخة البلية طبع الأمانة .



وجمال هذه الفقرة يرجع الى دقتها وسلامتها من الفضول، وفيها صورة لفهم رجال ذلك المهد لمواقع البلاغة، فهي في رأيهم ليست وقفا على أمة دون أمة، ولكنهم يشعرون أن العرب أقدر الناس على الكلام البليغ، ولا يمكن أن يطالب الرجل بفيز ذلك، فن الصعب أن يدرك الناقد أن هناك لغة أبجل من لفته، إذ كان تنوق الأساليب يرجع الى طول الألفة والصدقة الروحية لأسرار الكتاب والشعراء. وفي رأي أن البلاغة كالموسيقا لا تفهم ولا تُداني إلا بطول المعام، فهناك الحان شرقية بديعة لا يدرك بها إلا الشرقيون، ولو سمعها الغربيون لسخروا منها وعدوها من عبث الزماع. وهناك الحان غربية دقيقة لا يقدروا إلا الغربيون، ولو سمعها الشرقيون لستوا آذانهم وقالوا هذه مهمة الأعجم!

٨ — وكان أبو هلال يحمي الشعر، ويضع شعره في طبقة أشعار المغلقين، فينشده في الصناعتين مستشهدا به كما يستشهد بشعر أبي تمام والبحتري، أو النابغة وامرئ القيس، ومن إليهم من القدماء والمحدثين، وهذا يدل على اعتداده بقيمة الفنية، ونحن كذلك نراه من الشعراء المحيدين، فنستحسن قوله — وقد أنشده في باب المطابقة — :

قل لمن أذنيه جهدى	وهو يقصيني جهده
ولمن ترضاه مولا	لك ولا يرضاك عبده
أملح بليح الش	كل أن يخلف وعده
أم جميلٌ يميل ال	وجه أن ينقض عهده
ما الذي صدك عني	ليت ما صدك صد <sup>(١)</sup> عه

ونستعيد قوله في تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة :

إن روح الشتاء خلص روي	من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد المساء والهواء كأن قد	سرق البعد من جوائح خلو

ريعه تلبس الصدور قشنى  
 لست أنسى منه دماءة دجن  
 وجنوبا يبشر الأرض بالقط  
 وغيوما مطر زات الحواشي  
 كلما أرخت السماء عراها  
 وهى تعطيك حين هبت شمالا  
 وليال أطلن مئة درمي  
 وغماماته تصوب فتروى  
 ثم من بعده نضارة صحو  
 ركبا بشر العليل بـبرو  
 بوميض من البروق وخفو  
 جمع القطرين سفلى وعلو  
 برد ماء فيها ورقنة جـو  
 مثلما قد مددن فى عمر لهوى<sup>(١)</sup>

(١) ص ١٣٨ ج ٣ ياقوت .

## ٩ - كتاب الصناعتين

١ - أجل أثر لأبي هلال العسكري هو كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . وقد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج إليه في صناعة الكلام شره ونظمه ، من غير إخلال ولا إسهاب ، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً ، تكلم فيها عن موضوع البلاغة ، وتميز الكلام جيده من رديئه ، والإيجاز والإطناب ، وحسن الأخذ وقبحه ، والتشبيه والسجع والازدواج ، والبديع وفنونه ، الخ .

والغاية من علم البلاغة فيما نص أبو هلال هي أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن . وهي فكرة كثيرة الذبوع عند المتقنين : فعلوم اللغة العربية في عر فهم إنما وضعت لفهم القرآن المجيد ، وهم يريدون أن يطمئن المؤمن إلى إعجاز القرآن اطمئناناً مؤسسا على قواعد من اليان تحمل المصنف على الإقرار بإعجاز ذلك الكتاب . وهناك غايات ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء . وقد أشار أبو هلال إلى أن الكتب المصنفة في ذلك الفن كانت لعهد قلة وأن أشهرها كتاب اليان والتبيين للمحافظ ، وهو في رأيه كتاب جم المنافع لما أشتمل عليه من جيد الفصول والفقر والمخطوب والأخبار ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلاء ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام اليان والقصاحة مبنوثة في تضاعفه : فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفيح الكثير .

٢ - كتاب الصناعتين كتاب جيد ، تشعر وأنت تقرؤه أنه كتاب نادر المثال ، والمؤلف قوى الشعور بذلك ، فإننا نراه يقول بعد أن شرح نموت البلاغة ووجوه اليان والقصاحة : « ولم يسبقني إلى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما أقصر من كان قبل على ذكر تلك النموت عارية مما هي مفترقة إليه من إيضاح غامضها ، وإنارة مظهرها ،

فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز، فسقطت عنه مصرفة كثير منها، وأنت أيدك الله تستمد ما ذكرته من ذلك؛ وإنما بما شرحت منه، وتستدل به على ما ألقيته من جنسه اذا عثرت به، لتستغنى عن جميع ما صنف في البلاغة، وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة، إن شاء الله<sup>(١)</sup> .

وزاه يقول بعد أن تكلم عن قبح الأخذ : «وقد أتيت في هذا الباب على الكفاية، ولا أعلم أحدا ممن صنف في سرق الشعر قتل بين قول المبتدئ وقول التالى وبين فضل الأول على الآخر والآثر على الأول غيرى ، وإنما كان العلماء قبلى يبهون على مواضع السرق فقط، فقس بما أوردته على ما تركته، فاني لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد<sup>(٢)</sup> .

٣ - وأول ما يلاحظ في كتاب الصنائع أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد، فان المؤلف يتهمز جميع الفرص ليعرض للقارئ طرائف النثر الجيد والشعر البليغ، وهو لا يكتفى بشاهد واحد، وإنما يندفع فينتقل من رسالة أتيقة الى حكمة بليغة، ومن بيت جيد الى قطعة مختارة . وقد بقى كتاب الصنائع لذلك مرجعا لأجل ما أمتجته القرائح العربية : فيه نماذج من النثر البليغ قد يسندر أن نجددها في كتاب سواه، واليك هذه الدرة التي نقلها عن كثير ابن هراس في وصية ابنه :

”يا بني ! إن من الناس ناسا يتقصونك اذا زرتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمتمهم ، ليس لرضاهم موضع فقصدته، ولا لسخطهم موضع فتحذره، فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودة وأمنهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم وما منعتهم من موضع الخاصة قاطما بحرمهم“<sup>(٣)</sup> .

٤ - ومن أظهر الدلائل على أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد أنه يكثر من الاستطراد، والاستطراد هو المنهج الغالب على كتب الأذنب الخالص، وهو منهج جميل كان يريد به القدماء نشر المعارف الأدبية، أو ما يسمى اليوم بالثقافة العامة، ومن أمثلة

استطراذه أنه أراد أن يضرب مثلا للعلم الكثير في القول اليسير فقال : وسئل بعض الأوائل : ما كان سبب موت أخيك ؟ قال : كونه ! ... وهنا مضى أبو هلال يخبرنا أن الناس تنازعوا هذا المعنى . فقد قيل لأعرابي : كيف حالك ؟ فقال : ما حال من يفنى ببقائه ، ويستقم بسلامته ، ويؤتى من مأمته . وأن النبي عليه السلام قال : كفى بالسلامة داء . وأن حيد بن نورة قال :

أرى بصرى قد رابى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما  
وقال آخر :

كانت فتاتي لا تلبس لفانرا فالانها الإصباح والإساء  
ودعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصعني فاذا السلامة داء  
وقال ابن الرومي :

لمسرك ما الدنيا بدار إقامة اذا زال عن نفس البصير غطاؤها  
وكيف بقاء العيش فيها وانما ينال بأسباب الفناء بقاءها  
وقريب من ذلك قول محمد بن علي : مالك من عيشك إلا لذة تزولف بك إلى حمامك ،  
وتعربك من يومك . فاية أكلة ليس معها غصص ، وشربة ليس معها شرقي ؟ فتأمل أمرك .  
فكانك قد صرت الحبيب المفقود أو الخيال المحترم . وقال أبو النخعي :  
\* أسرع في نقص امرئ تمامه \*

ولم يكتف بهذا أبو هلال ، بل ذكر أن أول من نطق بهذا المعنى النمر بن تواب  
في الجاهلية إذ قال :

يود الفتى طول السلامة والنعى وكيف يرى طول السلامة يفعل  
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء اذا ولم القيام ويحمل  
ثم ذكر من الأمثال : كل من أقام شخص ، وكل من زاد قصص . وأضاف الى ذلك  
شيئا من مختار شعره في هذا المعنى .

(١) في الأصل « الجيب » وهو تعريف ، والتصويب عن الكامل ج ١ ص ٨٧ طبة الخشاب .

(٢) راجع ص ٢٧ - ٢٩

٥ - ومما يؤخذ عليه أبو هلال أنه يحمل أسماء الكتاب والشعراء في كثير من الشواهد، كأن يقول: كتب بعضهم إلى أخ له<sup>(١)</sup> "أما بعد فإن المرء ليسه درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك من بر" وكأن يقول: "كتب بعضهم يصف رجلا فقال: "أما بعد فانك قد كتبت تسأل عن فلان كأنك قد هممت بالتقدم عليه، أو حدثت نفسك بالوفود إليه، فلا تفعل، فان حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله تعالى، والرجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى، لا يرى إلا أن الإقتار الذي نهى الله عنه هو التذير الذي يعاقب عليه، والاقتصاد الذي أمر به هو الإسراف الذي يفضض منه... وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموقفة، وأفضاله عليه إحدى الكبائر المرحقة، وأن الله تعالى لا ينفر أن يؤثر المرء على نفسه وينفر ما دون ذلك لمن يشاء!"

٦ - ويكثر أبو هلال من كلمة "قال الشاعر، وقال الآخر" من غير تعيين، وهذا عيب لم يتفرد به، وإنما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين في اللغة العربية، وصلنا به إلى الجهل المطبق بتمييز المصور بعضها من بعض، ولو نسبت كل كلمة إلى قائلها لعرفنا كثيرا من تطورات المعاني والألفاظ والأساليب.

٧ - وسر البلاغة عند أبي هلال يرجع إلى الألفاظ "وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والمعجمي، والقروى والبدوى، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائمه" ودليله على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإيهام المعاني فقط، لأثر الردى من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإيهام. ودليل آخر عنده أن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد، وإذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا - والفاتر شر من البارد - كان مستهجننا ملفوظا، ومنموما مردودا<sup>(٢)</sup>.

وقد ضرب المثل فيما سبق بالعقد المنظوم : فانه يكون أروع إذا جُمِلت كل خُرزة منه إلى ما يليق بها وإن لم يكن مرتعا جليلا ، وإن اختل نظمه فنسبت الحبة منه إلى ما يليق بها اقتضته العين وإن كان قائما ثميناً .

وقد عرض في باب التميم إلى قول الخنساء :

وإن سحرنا لالتئم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

ويعين أنه مأخوذ من قول الأعشى :

وتدقن منه الصالحات وإن يُسئ يكن ما أساء النار في رأسي كجبا

إلا أنها أخرجته في معرض أحسن من معرض الأعشى . ثم قال : ” وهذا دليل على صحة ما قلناه من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة “<sup>(١)</sup>

٨ — وحسن اللفظ عند أبي هلال موقوف على جمال المعنى ، فلا خير فيها أجيد لفظه إذا تخفف معناه . والكلام عنده بسلاسته وسهولته وتخير لفظه وإصابة معناه وجوده مطالمة واستواء تقاسيمه ، مع عدم ضروراته بحيث يكون المنظوم مثل المتنور في حسن رصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه . وهو يفضل الكلام السهل ، ويراه أدل على قدرة الشاعر والكاتب .<sup>(٢)</sup> وهذا حق : فإن سهولة الكلام تحتاج إلى صنعة ومهارة وحذق ، وليس في مقدور كل كاتب أن يخاطب الناس جميعا بما يفهمون في لغة سهلة تجرى إلى أذهانهم وعقولهم وأذواقهم ، ثم تظل مع ذلك فوق قواهم لا يستطيعون أن يأتوا بشئ من مثل ما فيها من الألفاظ المتخيرة ، والمعاني الشريفة ، والخيال الجليل .

وقد ضرب المثل السهل المتع بقول العباس بن الأحنف :

إليك أشكوب ما حلّ بي من صد هذا التائه المعجب

إن قال لم يفعل وإن سئل يسئل وإن عوتب لم يُعتب

صبّ بمصياي ولو قل لي لا تشرب البارد لم أشرب

وقول البحرى :

أيها العاتب الذى ليس يرضى      ثم هتئا فلست أعلم غمضا  
إن لى من هوالك وجدا قد استمر      ملك نوى ومضجنا قد أفضا  
بخصوفى فى عبدة ليس ترقا      وفؤادى فى لوعة ما تقضى  
بأبى شادف تصلق قلبي      بيجفون فواتر الحظ مرضى  
لست أنساه إذ بدا من قريب      يتثنى ثنى القصر غضا  
واعذارى إليه حين تجلقى      لى عن بعض ما آتيت وأغضى  
واعتلاق تغاح خديه تقيى      لا وثما طورا وشما وعضا

وقول الآخر :

صرفت القلب فانصرفا      ولم تزع الذى ملقا  
وبنت فلم أذب كمدا      عليك ولم أمت أسفا  
كلانا واجد فى الناء      من ممن مله خلفا

ولكن السهولة عند أبى هلال شئ آخر غير الليونة ، فالكلام الذى يسهل حتى يصل  
الى الرخاوة والانهلال ردىء مردود .<sup>(١)</sup>

والكلام الجزل يحىء بعد السهل فى الرتبة ، والجزل فى رأيه هو الذى تعرفه العامة اذا  
سمعته ولا تستعمله فى محاوراتها . والفرق بين السهل والجزل على هذا أن السهل تفهمه العامة  
وتطمع فيه مع عجزها عنه ، أما الجزل فهو ما تفهمه العامة وتشعر مع فهمها له أنها لا تقدر عليه .  
والجزالة عند أبى هلال شئ آخر غير الوعورة ، فهى الجمع بين القوة والسهولة ، كقول  
سعيد بن حيد :

”وأنا من لا يحتاجك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرمه ، ولا يتمس رضاك إلا من جهته ،  
ولا يستدعى برك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك



إلا بالاعتراف بالجرم . ثبت في عنك غيرة الحداثة ، وردتني اليك الحكمة ، وبادتني منك الثقة بالأيام ، وأدنتني اليك الضرورة . فان رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر ، وتجدد النعمة بأطراح الحقد ، فان قدم الحرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة ، فان أيام القدرة وإن طاللت قصيرة ، والمتعة بها وإن كثرت قليلة ، فقلت<sup>(١)</sup> .

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبي للجباج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :  
” أجدب بنا الجناح ، وأحزن بنا المنزل ، واستحلنا الحذر ، واكتحلنا السهر ، وأصابتنا فتنة لم تكن فيها برة أحمياء ، ولا بفرة أهوياء ” ففما عنه<sup>(٢)</sup> .

ومع اهتمام أبي هلال باللفظ نراه ينص في مكان آخر على أن المدار على إصابة المعنى ، وأن المعاني تحمل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة<sup>(٣)</sup> . وهنا ينأقصر رأيه الأول ، فضلاً عن ضعف تشبيه المعاني بالأبدان والألفاظ بالأثواب ، وكان أولى لو شبه الألفاظ بالأجسام والمعاني بالأرواح . وفي رأيه أنه يجب أن يفرق بين المعنى والنرض ، لأن ما جرى عليه أبو هلال وفيه من كآب النقد والبيان يتركز على وحدة البيت في الشعر ، وعلى وحدة الفاصلة في النثر ، مع أنه يجب التفكير في وحدة النرض الذي سبق من أجله الكلام ، وبذلك تنقل النقد الى أفق أوسع ، وتكون المعاني الجزئية وحدات تتكون منها الرسالة أو الخطبة أو القصيدة ، كما ينظم العقد من حبات الجمان<sup>(٤)</sup> .

وهناك أبواب في كتاب الصناعتين تشرك بنفحات الأدب الجميل ، وإن لم تكن في جملتها من مبتكرات أبي هلال . ففي باب الالتفات شواهد بديعة مسندة الى الأصمعي إذ قال :  
أتعرف التفاتات جرير ؟ قلت : لا ، قال :

أتنسى إذ تودعنا سليبي      بعود بـشامة ؟ سُبَيَّ البـشامُ

(١) ص ٤٩ (٢) استحلنا الحذر : اتخذناه حلاً . والجلس بالكسر كما . على ظهر البعير تحت البردة

ويسط الى البيت . (٣) ص ٤٩ (٤) ص ٥١ (٥) انظر المصنعات ٩٣ — ١٠٢

من كتاب ( الموازنة بين الشعراء ) .

ألا تراه مقبلا على شعره (لعل الصواب شأنه) ثم التفت الى البشام فدعا له ؟

وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقى <sup>(١)</sup> لازلت فى علل وأيك <sup>(٢)</sup> ناضر

وفى باب الرجوع يمثل بقول القائل : ليس معك من العقل شيء، بل بمقدار ما يوجب المحجة عليك . وقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها إليك؟ وكلا ليس منك قليل <sup>(٣)</sup>

وفى تجاهل المعارف يحفظنا بهذه القطعة الغيسة من شمه هو — طيب الله ثراه — إذ يقول «سمعت بورود كتابك، فاستفزنى الفرح قبل رؤيته، وهز عطفى المرح أمام مشاهدته، فما أدرى أصمعت بورود كتاب، أم ظفرت برجوع شباب، ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور، أم روض ممتور؟ وكلام منشور، أم وشى منشور؟ ولم أدر ما أبصرت فى أشانه : أبيات شعر، أم عقود در؟ ولم أدر ما حملته : أغيث حل بوادى ظمآن، أم غوث سيق الى هفآن <sup>(٤)</sup>» وقد يلاحظ أن أبا هلال ينال أحيانا فى قده ، فيؤاخذ مثلا أوس بن حجر فى قوله :

ولست بخائى أبدا طعاما حذار غد، لكل غد طعام

لما تكرر فيه من لفظ غد <sup>(٥)</sup>.

ونحن لا نطالب أبا هلال بأن يصيب فى كل أحكامه، فذلك مطلب عسير، وإنما يكفى أن نقول إن كتابه يضع القارئ فى حركة فكرية متصلة. وأنا شخصيا مدين له، فقد قرأته أكثر من عشرين مرة، وأشعر كلما عدت إليه بأنه كتاب جديد يقرأ لأول مرة، وذلك أقصى ما يطلب من الكتاب النقيس .

(١) اللؤلؤ، بالتحريك، الثرب به الشرب تبا . (٢) ص ٣١٠ (٣) ص ٣١٢

(٤) ص ٣١٤ (٥) ص ٤١

## ١٠ - أبو على الحاتمي

١ - أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي من الشخصيات القوية التي غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها منهم إلا القليل : وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت إليه من آثارهم صبايات كافية تميظ اللسان عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول . ونحن من بين الأئمة لا نعرف من أدبنا القديم إلا قليلا ، لأن نهضتنا الحديثة تشبه بقطة المخمور الذي ينظر حوالبه فتراءى له صور وأشباح لا يميزها إلا بجهد شديد . من أجل ذلك قل عندنا من صحت عزيمته على النظر إلى أدب العرب بمثل ما ينظر الأوربيون إلى أدب اليونان والرومان . وسيرى القارئ في هذا الفصل بوارق من ذهن الحاتمي تشعره بأن من الخجل أن يُنسب مثل هذا الرجل في عصر يزعم ناشئوه أنهم طلاب مجد وأنهم حريصون على وصل ما انقطع من تراثهم الفكري المجيد .

٢ - ألف أبو على الحاتمي عدة كتب في اللغة والأدب والنقد ، منها حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، والموضح في مساوي المتنبي ، والمطابقة في صناعة الشعر ، وصر الصناعة في الشعر أيضا ، والحالي والعاقل في الشعر كذلك ، وكتاب المجاز في الشعر أيضا . وهذا الإلحاح في الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين بدرس الشعر وتقده وأنه كان من أئمة زمانه في هذا الباب . وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف الموجه ، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تذكر الحسرة في أنفس من يقدرون قيمة النقد الحق في دلالاته على نقابة الذهن ، ومثانة العقل ، وسلامة الذوق ، وإفصاحه عن تطور الحياة العقلية في مختلف الأجيال .

ولنسارع فبقدم للقارئ كلمة حفظت في "زهر الآداب" تمثل فهم الحاتمي لوحدة القصيد إذ يقول :

”مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، ففي انفصل واحد عن الآخر وابتدأ في صحة التركيب ظاهراً الجسم ذا عاهة تتفوق محاسنه ، وتنفى معالنه . وقد وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون في مثل هذه الحال احتراساً يمنعهم شوائب القصبان ، ويقف بهم على حجة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الاتصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمدحها ، كالرسالة البليغة والخطبة الموجهة لا ينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لثوقد خواطرم ، ولطف أفكارهم ، واعتداهم البديع وأفانينه في أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ، ونهجو دارسه . فاما الفحول الأواخر ومن تلام من المخضرمين والإسلاميين فذهبهم التعامل عن كذا إلى كذا ، وقصارى كل أحد منهم وصف ناقته والتجاة والتجاء ، وأنه استطاعها فأدرع عليها جلابب الليل . وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يقتضيه به إلى غرض لم يعتمد ، إلا أن طبعه السليم ، وصراطه في الشعر المستقيم ، نصا بتاره ، وأوقد بالبقاع تاره . فن أحسن مختص شاعر إلى معتمده قول النابغة الذبياني :

فكفكت عنى عربة فرددتها	على النحر منها مستهل وداع
على حين طابت المشيب على الصبا	وقلت ألى أصح والشيب وازع
وقد حال هم دون ذلك شاغل	مكان الشخاف تبثيه الأصابع
وعيد أبى قابوس في غير كنهه	أناى ودونى راكس فالضواج

وهذا كلام متناسب يقتضى أوائله وأخيره ، ولا يتميز منه شيء عن شيء . ولو توصل إلى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعانى ، وفتحوا أبواب البديع ، واجتروا ثمر الآداب ، وفتحوا زهر الكلام ، لكان معجزاً عجيباً ، فكيف يجاهل بدوى إنما يفتقر من قلب قلبه ، ويستمد عفو هاجسه<sup>(١)</sup> .

أليس في هذه الفقرات دليل على أن الحاتمي كان بعيد النور في نقد الشعر؟ ألا تسمو نظراته هذه الى أدق ما وصل اليه النقاد في العصر الحديث؟ وأي تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض؟ يضاف الى ذلك جرأته في رمي الجاهلين ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين بقلة الفهم لأسرار الصناعة، وقصر ذلك على المحدثين الذين توقفت خواطرهم ولطفت أفكارهم واعتمدوا أفانين البديع . وإنما عددنا ذلك جرأة لأن الرأي القالب في تلك الأيام كان يميل الى تفضيل القدماء واختصاصهم بالإمامة في الشعر وروى من عداهم بالتخلف والإسفاف . على أن الحاتمي لم يفته أن يقرر أن البدوي الجاهل قد يغترف من قلب قلبه ويستمدّ عفو هاجسه فيأتي بالمعجز الذي يمز أحياناً على العارفين بأسرار البيان .

٣ - ولكن هذه البراعة التي يمثلها ما بقى للحاتمي من الشذرات القليلة لم ترفع به كثيراً في الأوساط الأدبية لعصره ولم يتحدث عنه من معاصريه إلا القليل . فما تحليل ذلك؟ إننا نفترض أن تحول الحاتمي يرجع الى انصراف الناس عنه لصلف وكبريائه وذهابه بنفسه الى أبعد غايات الزهو والخيلاء ، وقد حدثنا ياقوت أنه كان مبغضاً الى أهل العلم فهجأه ابن المجاح وغيره بأهـاج مره . ولم يكن لهذا البغض من سبب فيما نفترض غير انصراف الحاتمي في العجب ودعواه التفرد بالحقق واللوزعية والذكاء . والخذلقة من أخطر ما يرزأ به العلماء والأدباء وهي تجلب الى أصحابها من ألوان العداوة والبغضاء ما يذهب بما لهم من وطيد المجد وكرم الصيت . وقد يتفق لأهل العلم والأدب أن يُشغلوا بالإعلان عن مواهبهم وكفاياتهم فيكون ذلك أسرع الى هدمهم وتويز أقدارهم في أئمن الناس . وكيف لا يضيق الجمهور صدراً بخذلقة الحاتمي وهو يقول عن نفسه في مقامة كتاب وضعه في سر صناعة الشعر :

«وقد خدمت سيف الدولة — تجاوز الله عن فرطاته ! — وأنا ابن تسع عشرة سنة  
تميل بي سنة الصبا وتقاد بي أرمحية الشباب بهذا العلم ، وكان كلنا به طليقا علاقة المرم

بأهله، متقباً عن أسراره . وُورِثَتْ في مجلسه نكمة وإدناء وتسوية في الرتبة — ولم تسفر خدائى عن صفاريهما — بأبى على الفارسي وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة، وبأبى عبد الله بن خالويه وكان له السهم الفائز في علوم العربية تصرفاً في أنواعه، وتوسعا في معرفة قواعده وأوضاعه، وبأبى الطيب اللغوي وكان كما قيل حنف الكلمة الشرود حفظاً وتيقظاً، وتازعت العلماء ومُدحت في مصنفاتهم، وُعددت في الأفراد الذين منهم أبو سعيد السيرافي وحل بن عيسى الرمانى وأبو سعيد الملقى، واتخذت بعضاً ممن كان يقع الإيلاء عليه محفزة، وأنا إذ ذاك غزير الغرارة، تيمد بي أسرار السرور، ويسرى على الأقبال، وأختال في ملاءة العز في بلهية من العيش وخفض من النعم، وخطوب الدهر راقدة وأيامه مساعدة» .

فلام يدل هذا الكلام ؟ ألا يدل على أن الحاتمي كان مفتوناً بنفسه أشد الفتنة، ومسروراً في الزهو أشنع الاسراف ؟ وقد نفهم أن يدافع الرجل عن نفسه فيذكر من مناقبه ومحامده ما يشاء حين يرى الجمهور يحسد فضله، ويطمس محاسنه، ولكنا نعرف كذلك أن هذا لا يقع إلا من المشغوفين بالشهرة والصيت : لأنهم يتوهمون دائماً أنهم مغبونون، وأن الجمهور لفضلهم كنود .

٤ — وقد أصطدم كبرياء الحاتمي بكبرياء المتنبي، وكانا متعاصرين بضمير كلامهما لصاحبه أقم ألوان البغضاء . والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان إلى أشنع صور التحامل والعدوان، ولا سيما إذا أصطبغت الخصومة بصيغة سياسية ظاهرها التعصب للأدب وباطنها التحزب الشنيع . وهذا هو الذى وقع في خصومة الحاتمي للتنبي : فقد كان الحاتمي صديقاً أو تبعاً للوزير المهلبى، وكان المهلبى يفيض المتنبي بغضا شديداً لترفهه عن مدحه واتصاله بأنداده من الوزراء والرؤساء، وكذلك تريض الحاتمي وانتظر قدوم المتنبي إلى بغداد لينظره ويؤلب العامة عليه ويذهبهم في شعره، فتم له من ذلك بعض ما أراد .

٥ - ترك الحاتمي رسالتين في نقد المتنبي : أولاهما خلاصة ما جرى في المجلس الذي تلاقيا فيه لأول مرة ، وهي رسالة مفروضة بالطبع ، لأنه تكلم وحده وقصّ ظروف المناظرة على هواه . ولكن ذلك لا يمنع من أن نصدق الحاتمي حين يذكر أنه ضايق المتنبي ، لأننا نعرف أن كل ناقد أقوى من كل شاعر ، لأن كل معول يؤثر في كل بناء ، والناقد يستطيع كل شيء متى استباح لنفسه الظلم واختلاق العيوب . والمتنبي كانت رجلا واسع الشهرة ، والمشاهير في الغالب جبناء : يتوهم أكثرهم أن سوء القالة يذهب بإجمد الأعمال ، ويأتي على أرفع الأقدار . وبعض هذا الوهم صواب .

ولترك الحاتمي يتحدث قليلا لئلا نرى خيلاءه وقد قارع المتنبي :

« كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبر ، وأذال ذبول الله ، وصغر خده ، ونأى بجانبه ، وكان لا يلقى أحدا إلا نافضا مذرويه ، رافلا في التيه في برديه ، يحيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر بحر لم يعترف بنيمائه غيه ، وروى لم يرج نواره سواه ، فدل بذلك مُدبدة ... حتى تخيل أنه القريع الذي لا يقارع ، والتزع الذي لا يجارى ولا ينازع ، وأنه رب القلب ، ومالك القصب ، وتقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام فطأ طأ كثير منهم رأسه ، وخفض جناحه ، وطامن على التسليم له جاشه ، تخيل أبو محمد المهلب أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ولا يقوم لتنبهه بشيء من مطاعنه . وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عذقه رجل فلا يكون في مملكته أحد يأناله في صناعته ويساويه في منزله ، نهبت حينئذ متبعا عواره ، ومتعبا آذاره ، ومطغيا ناره ، ومهتكا أسرارها ، ومقلما أظفاره ، وناشرا لمطاويه ، ومزقا جلباب مساويه ... الخ » .

والرسالة تقع في أربع عشرة صفحة كلها مقارعة ونضال ، وهي تمثل طريقة الحاتمي في الكتابة ومذهبه في النقد ، وفيها فقرات قوية ، كقوله يجب المتنبي وقد سأله عن خبره

(١) المدردان بالكر أطراف الآية ، بلا واحد ، أروهم المنرى ، ومن الرأس ناحيته ، ومن القوس ما يقع عليها طرف الوتر من أجل وأسفل . وجاء بنفس مذرويه بأغيا متهددا (قاموس) .

(٢) باقوت ج ٦ ص ٥٦٥ وقد وردت القصة أيضا في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٢ باختلاف قليل .

في تناقل وتور : ”أنا بخير ، لولا ما جئت على نفسي من قصبك ، وكلفت قدمي في المسير الى مثلك“<sup>(١)</sup> وقدادت الحاتمي في هذا المجلس لا تخرج عن أخذ المتنبي بالسرقات الشعرية وسوء التصير في طائفة من الأبيات اشتهر أمرها بين الناقدين . وقد ختمت هذه الرسالة بفقرات تفصح عن سرور المهلبي ومعز الدولة بهزيمة المتنبي ؛ وهي كذلك دليل ما وصفنا به الحاتمي من الإسراف في التيه وإخلاء .

٦ — أما الرسالة الثانية فهي أعظم أثر وصلنا عن الحاتمي ، وهي رسالة ردّ فيها حكم المتنبي الى أصولها من كلام أرسططاليس ، وقد وضع لها مقدمة صغيرة أراد أن يشعرنا بها أنه في نفسه عف زيه إذ حشّنا أنه يدافع عن المتنبي ”حين أنهم بسرقة ما في شعره من أغراض فلسفية ومعانٍ منطقية“<sup>(٢)</sup> لأن ذلك إن كان وقع من المتنبي ”عن شخص ونظروبحث فقد أغرق في درس العلوم ، وإن يكن ذلك منه على سبيل الاتحاق فقد زاد على الفلاسفة بالإيجاز والبلاغة“<sup>(٣)</sup> وهو في الحالين على غاية من الفضل ، ونهاية من النبل .

وقد رأيت بعد الاطلاع على هذه (الرسالة الحاتمية) أن صاحبنا نال من المتنبي باللطف ما لم ينله بالعنف ، فقد أخذ يسرد كلمات أرسططاليس ثم يعقبها بشعر المتنبي ، فاستطاع بذلك أن يوضح المتنبي فضيحة شتماء . وفي الحق أن هذا العمل كان غاية في اللؤم من جانب الحاتمي ، لأن حكم المتنبي تبدو فطرية لأقل وهلة ، وذلك سر سحرها في أنفس القراء ، ولكنها تبدو متكلفة مصنوعة حين تُقرن الى ما نقلت عنه من كلام أرسططاليس ، وذلك سهم من النقد مسموم .

ومن أمثلة ذلك أن يقول المتنبي :

فان قليل الحب بالقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسدُ

وهو يلت مقبول ، ولكنه أقل قيمة من الحكمة التي أخذ عنها في قول أرسططاليس ”يسير من ضياء المحس خير من كثير من حفظ الحكمة“<sup>(٤)</sup> .

(١) ص ٦ - ٥ . (٢) الرسالة الحاتمية (ص ١٤٤ من مجوعة النجدة البية) . (٣) ص ١٤٦



وقول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأتي الطباع على الناقل  
يسدو للقارئ متنافر المعنى بعض الشيء، ثم يُفصح تناوره حين يُنظر إلى أصله في قول  
أرسططاليس "روم قل الطباع من ردى الأَطَاع شديد الامتناع"<sup>(١)</sup>.

وقول المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تخارقههم فالراجون هم  
أقل عمقا من قول أرسططاليس :  
"من لم يردك لنفسه فهو النائي عنك وإن كنت قريبا منه ، ومن يردك لنفسك فانت  
قريب منه وإن تباعدت عنه"<sup>(٢)</sup>.

وقول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلي  
أقل وضوحا من قول أرسططاليس :  
"وقد يفسد العضو لصالح أعضاء كالكي والفصد للذين يفسدان الأعضاء لصالح غيرها"<sup>(٣)</sup>  
وقول المتنبي :

وما التبه طبي فيهمو غير أني يفيض إلى الجاهل المتعائل  
أقل تعليلا من قول أرسططاليس :  
"إن الحكيم تريه الحكمة أن فوق علمه علما فهو يتواضع لتلك الزيادة ، والجاهل يظن أنه  
قد تناهى فيسقط ببجمله فتمقته الثغوس"<sup>(٤)</sup>.

وقول المتنبي :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله غشافة فقر فالذى فصل الفقر  
مشقول من قول أرسططاليس :

"من أفنى مده في جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم"<sup>(٥)</sup>.

(١) ص ١٢٥ (٢) ص ١٢٧ (٣) ص ١٤٨ (٤) ص ١٥٠

والرسالة الحاتمية تقع في خمس عشرة صفحة قد بها مؤلفها نحو عشرين ومائة بيت من شعر المتنبي، وهي كما أشرنا طعنة نجلاء يهون بجانبها كل ما لقي المتنبي من خصومه المسرفين .  
٧ - ولكن لا يتوهم القارئ أن الحاتمي أصاب في كل ما رى به المتنبي من مرقعة معاني أرسططاليس، فقد يتفق الرجلان أحيانا في المعنى وينفرد المتنبي بجمال الصورة .

فقول المتنبي :

إذا أعتاد الفقى خوض المنايا فأهون ما يمسّره الوحول

أروع بلا جدال من قول أرسططاليس :

”من أسهرت عليه الحوادث لم يألَمْ بحلوطها“<sup>(١)</sup> .

وقول المتنبي :

إنم ولّد فلا مور أوامر أبدا كما كانت لمن أوائل

معنى عاды : فلا قيمة للادعاء بأنه مسروق من قول أرسططاليس :

”كل ما له أول تدعو الضرورة إلى أن له آخر“<sup>(٢)</sup> .

وقول المتنبي :

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بدّ من شربه

أفضل في النفس من قول أرسططاليس :

”كره ما لا بد من كونه عجّز في صحة العقل“<sup>(٣)</sup> .

٨ - ولنا أن نأخذ على الحاتمي وقوفه عند أرسططاليس، كأن المتنبي لم يعرف فيلسوفا سواه، وهذا يشعر بأن أرسططاليس كان معروفا جدا عند العرب لذلك المهد، حتى أستطاع الحاتمي أن يرجع اليه طائفة كبيرة من حكم المتنبي، ويُشعر كذلك بأن الشعراء كانوا يتصرفون فيما يقرءون تصرف الخبرة والعقل، فقد نظر المتنبي إلى قول أرسططاليس : ”ليس جمال الإنسان بتأفقه له إذا كان ميت الحسن من العلم“ .

ثم أداره في نفسه وما زال به حتى أغرقه في بركة من الشرحين قال :

لا يصعب مَضِيّا حسن بزمه وهل يروق دفيناً جودة الكفن

٩ — ولنا أن نلاحظ أن الرسالة الثانية للحاتمي أوفر أدبا من رسالته الأولى عن المتنبي، وقد يكون السبب في ذلك أنها كتبت بعد موت الشاعر: بدليل قوله في أول المراجعة "قال المتنبي رحمه الله !".

ولنا أن نلاحظ كذلك أن الحاتمي كتب رسالته الثانية وقد اكتمل وغلب عليه الوقار وفارقه الترق الذي ساد في رسالته الأولى، وحسبنا أن نقرأ قوله في مقدمة الرسالة الثانية :

"أما بعد فإن أحق ما احتكت إليه نفوس أولى النظر، وانقادت إليه آراء أهل الفكر، وجلت الشبه عنه نواظر المتصفحين، وأمضت به عزائمها قلوب المعتبرين : العدل، فإنه سنخ العقل، وحليف النهى، وصنو الفهم، وعدو الهوى".

١٠ — هذا وكان الحاتمي متين الشعر، كما كان رصين النثر، وهو الذي يقول :

لي حبيب لو قيل لي ما نقيّ ما تعديته ولو بالمنون

أشتهي أن أحلّ في كل جسم فأراه بلحظ تلك الميوت

وهو القائل في قصر الليل :

يارب ليل سرور خلتها قصرا كمارض البرق في أفق الدجى برقاً

قد كاد يعثر أولاه بآخره وكاد يسبق منه بغره الشفقا

وهو القائل في وصف الثريا :

وليل أقتا فيه تُعمل كاسنا إلى أن بدا للصبح في الليل عسكراً

ونجم الثريا في السماء كأنه على حلة زرقاء جبّ مدنراً

ومات رحمه الله سنة ٣٨٨ وكان أبوه كذلك شاعراً أثبت له صاحب اليمامة عدة مقطوعات فليزج إليها القارئ هناك .<sup>(٢)</sup>

## ١١ - أبو عبد الله المرزباني

١ - المرزباني هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد . وأصله من خراسان - كما ذكر ابن النديم <sup>(١)</sup> - وهو من بيت رياضية ومجد : فقد كان أبوه نائب صاحب خراسان بالبواب ببغداد . وقد نسب إلى بعض أجداده وكان اسمه المرزبان . وهو اسم لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقتدر : العظيم القدر . ومعناه بالعربية حافظ الحد <sup>(٢)</sup> .

ولد في بغداد سنة ٢٩٧ وتوفي سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٧٨

وليس لدينا من أخبار المرزباني إلا شئ يسير، وأظهر أخباره أنه كان رجلاً غنيا كريما يُفَضِّل على أساتذته وتلاميذه، وكانت داره مأوى لأهل العلم والأدب يتتولون فيها على الرحب والسعة حين يشاؤون . ولم يكن يؤخذ عليه من الهفوات إلا إدمان الشراب . وكان من عادته في ذلك أن يضع بين يديه زجاجة حبر وزجاجة نمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر والاحساس بين الواقع والخيال . وقد شعر رحمه الله بخطر ذلك على عقله وصحته وظهر أثره عليه حين سألته عضيد الدولة مرة عن حاله فقد أجاب « كيف حال من هو بين قارورتي؟ » يعني قارورة الحبر وقارورة الخمر .

٢ - وكان في حياته العقلية يؤثر مذهب المعتزلة : فقد صنف في أخبارهم كتابا كبيرا . وكان المعتزلة في تلك الأيام يقودون الحركة الفكرية والأدبية في الإقطار الإسلامية . وقد أخذ عليه صاحبه الله شيء من التسامح في رواية الحديث .

وكان في جملة حاله معروفا بصدق اللهجة وسعة المعرفة وكثرة السماع . وكان مما صوره يرويه من محاسن الدنيا، ومنهم من يقدّمه على الملاحظ . ولعل ذلك هو السبب في تحامل بعض المخضين عليه كأبي حيان التوحيدي الذي كان يقارنه بأبن شاذان وابن الخلال ، ممن كان

(١) الفهرست ص ١٩٠ طبع القاهرة . (٢) ابن خلكان ص ٣٢٧ ج ٣

لم جمع ورواية وليس لم فها جمعه قط ولا إجماع ولا إسراج ولا إجماع . ولو بقيت كتب  
المرزبانى كلها أوجلتها لاستطعت أن زن ما كان له من فكر وعقل وأسلوب ، ولكن أكثرها  
ضائع ولم يبق منها إلا التز القليل . غير أننا نجد ابن النديم مفتونا به أشد الفتون . وابن  
النديم حجة في تقدير المصنفين والكتّاب والأخباريين ، وقد حدثنا أنه رأى كتاب المرزبانى  
عن الشعراء المشهورين والمكثرين من شعراء المحدثين . وقد أثبت في هذا الكتاب غزار  
أشعارهم وبين أنسابهم وأزمانهم . وأن له كتاباً آخر اسمه « المفيد » يشتمل الفصل الأول  
منه على أخبار المقلين من شعراء الجاهلية والاسلام وأخبار من غلبت عليه كنية منهم أو شهر  
بكنية ابنه أو عرف بأمه أو نسب إلى جدّه أو عزى إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال .  
ويشتمل الفصل الثانى على ما روى من نعت الشعراء وعبودهم في أجسامهم وصورهم  
كالسودان ، والعمور ، والعميان والعمش والبرصان ، وماثر ما يؤثر في الجسد من شعر الرأس  
إلى القدمين عضو عضواً . ويشتمل الفصل الثالث على مذاهب الشعراء في دياناتهم كالشيعة  
وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصارى ومن جرى مجراهم . ويشتمل الفصل  
الأخير على من ترك قول الشعر في الجاهلية تكبراً وفي الاسلام تدبناً ، ومن ترك المدح ترفهاً ،  
والهجاء تكبراً ، والفزل تعففاً ، ومن أغد شعره في معنى واحد كالسيد بن محمد الحميرى والعباس  
ابن الأحنف ومن جرى مجراهما . وله كتاب آخر اسمه « الرىاض » ذكر فيه أخبار المتيمين من  
الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وفيه ذكر الحب وما يتشعب عنه وذكر ابتدائه  
وأتهائه وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاق تلك الأسماء بشواهد من أشعار  
الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين .

٣ — وليس المهم أن نلخص وصف ابن النديم لمؤلفات المرزبانى فى مقدور القارئ  
أن يرجع اليه فى الفهرست<sup>(٢)</sup> ، ولكن سمنا أن نشير إلى أن مجموعة مؤلفات المرزبانى تدور  
حول نقطة واحدة هى تنظيم الثقافة الأدبية .

قد عُنى الرجل بأن يجمع أخبار الشعراء ويرتبها ترتيباً قد يعجز عنه أدباء اليوم فيضع للجاهلين كتاباً، وللمحدثين كتاباً، وعُنى كذلك بأن يضع مؤلفات مستقلة في أكثر الشؤون الأدبية ككتابيه عما وصف به العرب الصيف والشتاء والخز والبرد والغيوم والبرق والرياح والأمطار والرواء والاستسقاء وما دخل في جعلتها من أوصاف الربيع والخريف، وكتبه عن الزهد والزهاد والمجاهدة والمجاهب والعدل والسيرة وأخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح وذم، وكتابيه عن الأنوار والثمار الذي ساق فيه طرفاً مما قيل في الورد والترجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار، وكتابيه في نسخ اليهود إلى القضاة وكتابيه عن أشعار النساء، الخ.

ومن المدهش أنه ألف كتاباً في أخبار الشعراء سماه "المعجم" تحدث فيه عن نحو خمسة آلاف شاعر وأثبت فيه أبحاثاً لكل من يتحدث عنهم من الشعراء، فمن الذي يعرف اليوم هذا المقدار من أسماء الشعراء مع أننا اجتزنا من تاريخ الأدب نحو خمسة عشر قرناً وكان المرزباني لم يمت منه غير خمسة قرون؟

وبما يوضح ما أشرنا إليه من عناية ذلك الرجل بتنظيم الثقافة الأدبية أنه كان ألف كتاباً سماه "تلقيح العقول" في أكثر من مائة باب جمع فيه كل ما يهم المتأدين الاطلاع عليه مما قيل عن العلم والعقل والأدب وما جالس ذلك<sup>(١)</sup>.

٤ - ولم يطبع من مؤلفات المرزباني - فيما علمنا - غير كتاب الموشح الذي نشرته جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهو كتاب جيد حدثاً المؤلف في مقدمته أنه اهتم يذكر ما أنكر على الشعراء في أشعارهم من العيوب التي سبيل أهل عصره ومن بعدهم أن يمتنعوها ويدلوا عنها. وأنه أودع كتابه ما سهل وجوده وقرب متناوله من ذكر عيوب الشعراء التي نبه عليها أهل العلم وأصحوا الغلط فيها من الفن والسناد والإطراء والإقواء والإكفاء والتضمين والكسر والإحالة والتناقض وأخلاف اللفظ وهلهلة النسخ وغير ذلك من سائر ما عيب على الشعراء قديمهم وعديثهم في أشعارهم خاصة، سوى عيوبهم في أنفسهم وأجسامهم

وأخلاقهم وطبائعهم وأنسابهم ودياناتهم، وغير هذه الخصال من معانيهم التي استقصاها في كتابه الملقب "بالمفيد"، وسوى سرقات معاني الشعر التي أتى بكثير منها في كتابه الذي تحدث فيه عن فضائل الشعر ووصف عمارته ومنافعه ومضاره وأوزانه وعيوبه ونست أجناسه وضرره وعروضه وأعيانه ومختاره وتأديب قائله ومنشديه والبيان عن منحوه ومسروقه، وما يتصل بذلك من مختلف الأغراض<sup>(١)</sup>.

٥ - وقد راجعنا كتاب الموشح عدّة مرات فلم نطفر للؤلؤ بما يميزه عن غيره من مصنفى الروايات والأخبار. وإن كنا نعترف بأن الرجل أجاد الجمع والتصنيف وقدم للقارئ معارض مختلفة مما أخذ على الشعراء. وأكثر ما أثبت لا نحمده اليوم في غير كتابه. وإن كنا نقر على أصوله مبعة هنا وهناك. فأت حين تطلع على كتاب الموشح ترى مواده معروفة لك مستأنسة إليك بطول ما صادفتها في شتى المطالعات. ولكنك لو أردت أن تظهر يجموعة ما قاله النقاد القدماء عن الأخطأ أوجبر مئلا ما استطعت أن تجدها منظمة على نحو ما تجدها في هذا الكتاب. على أن المؤلف كثيرا ما يظهر شخصيته فيعرف رأيه ومذهبه في النقد كقوله مثلا في نقد قول الطائي :

وقد سدت مندوحة الفاصما • منهم وأمسك بالناقصاء

"ولم نعب من هذه الألفاظ شيئا غير أنها من الغريب المصدود عنه. وليس يحسن من المحدثين استعمالها : لأنها لا تجاور بأهناها ولا تتبع أشكالها. فكأنها تشكو الغربة في كلامهم<sup>(٢)</sup>."

ومعنى هذا أن الغريب الوحشي قد يحسن استعماله إذا أطرده في كلام متأبد غريب. أما في الكلام السلس فاستعماله غير مقبول. وهو يوافق بعض الموافقة ما يراه الجاحظ من أن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوق رطانة السوق. والتفاهم عند الموزباني والجاحظ هو الأساس في اختيار الألفاظ، إذ كان الناس لا يقبلون الألفاظ أو يرفضونها إلا موصولة بما يألون.

٦ - ولا يخلو المرزباني - على فضله - من تحامل : فقد رأيت بعض من قيمة غنارات أبي تمام إذ يقول :

”وللطائي سرقات كثيرة أحسن في بعضها وأخطأ في بعضها . ولما نظرت في الكتاب الذي ألفه في اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء . وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه عدّة يرجع إليها في وقت حاجته ورجاه أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقتنوا باختياره لم فني طليهم سرقاته . ولا يندر الشاعر في سرقاته حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي بأجزل من الكلام الأول ، أو يذبح له بذلك معنى يقتضيه ما يتقدمه ولا يقتضيه به ، وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه لا فقير إليه“.

ففي هذه الفقرة تجلّ شديداً على أبي تمام وإزاره بإحسانه في تأليف غناراته . وما أحسب الخاطر الذي مر ببال المرزباني مر ببال ناقد شريف القصد . فهو يرى أن أبا تمام قصر اختياره على الأشعار التي لم يسرق منها ، وأنه طوى الأشعار التي يرجو أن يغير عليها ، وأنه أراد أن يصرف المتأدين بغناراته عن الرجوع إلى الأصول التي سرق منها ما استُجِد من شعره ...

ولا أدري كيف يصح هنا من المرزباني إلا أن أرجح أنه كان من خصوم أبي تمام . وقد كان أبو تمام ابتلى في حياته وبعد مماته بمعارضة شديدة كادت تقتلع مجده من جذوره وترى به في هاوية الفناء . وسبب ذلك أن أبا تمام ظفر بشهرة قوية أنحلت ثبات الشعراء . والشهرة القوية تخلف الخصوم خلقاً وترى صاحبها بعداوات مسمومة لم يجترح في خلقها إنما ولاجتماعه ، حتى صرّ المرزباني على نزاهته أن يتهمه بسوء النية في تأليف المختارات مع أن في الحماسة بابين لم نجد لهما مثيلاً في مجموعة أدبية وهما باب المراثي وباب النسيب .

٧ - ويطلب على المرزباني أن يسوق المأخذ بدون أن يتعقبا بنقد أو تمحيص ، وأحياناً يضيف إليها كلمة صغيرة تعين رأيه . من ذلك أنه نقل الكلمة الآتية بسندنا عن

بعض معاصريه :



”دخلت على أبي تمام العائى وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه وفى الأبيات بيت واحد ليس كسائرهما . فلم أنى قد وقفت على البيت فقلت : لو أسقطت هذا البيت ! فضحك وقال : أتراك أعلم بهذا منى ؟ إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدم ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره ويرى مكانه ولا يشتهى أن يموت . ولهذا العلة ما وقع مثل هذا فى أشعار الناس<sup>(١)</sup> .

وقل بعد ذلك هذه الكلمة . ” قال مقال الشاعر : قلت لأبى تمام تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الردى ! فقال : مثل هذا مثل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعشى فلا يحب أن يموت ” وفى التعقيب على هاتين الفقرتين يكتب المرزبانى بأن يقول . ” وهذه حجة ضعيفة جدا<sup>(١)</sup> .

وأحيانا قليلة يسط القول بعض الشيء فى النقد والمقابلة كما فصل فى نقد قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجل      يصبح وما الإصباح منك بأمثل

فقد بين أن أفضل منه قول الطرّاح بن حكيم :

بل إن للعينين فى الصبح راحة      لطرّحهما طرفيهما كل مطرح

ثم قال ” فأحسن فى قوله وأجل وأنى بحق لا يدفع ، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره ، وإنما أجمع الشعراء على ذلك — أى حضور الهم بالليل ونهايه بالنهار — من تضاعف بلائهم بالليل وثقة كلفهم لقلة المساعد وقد الحيب وتقييد المخط عن أقصى مرأى النظر<sup>(٢)</sup> الذى لا بد أن يؤدى الى القلب بتأمله سببا يخفف عنه أو يطلب عليه فينسى ما سواه ” . وللمرزبانى ملاحظات صغيرة متفرقة قد لا يتنبه إليها القارئ المتصفح ويستجدها المتأمل كقوله فى التعقيب على قول أبى العاتية :

حلاوة عيشك ممزوجة      فما تأكل الشهد إلا بسم

فالغنى صحيح لأن الشاعر جملة مثلاً لبؤس الدنيا المازج لتعبيها . ولكن يلاحظ المرزباني أن العبارة غير مرضية : لأننا لم نر أحداً أكل شهيداً بسم . وأجود من هذا البيت لفظاً وأصح معنى قول ابن الرومي :

وهل خُلة مصولة الطعم تجتني من البيض إلا حيث وائش يكيدها  
مع الواصل الوائش وهل تجتني يد جنى النحل إلا حيث نحل ينودها<sup>(١)</sup>

وتلك ملاحظة دقيقة وهي تذكر بما نقله عن أحد معاصريه وقد سأل أبا تمام : أخبرني عن قواك :

كأن بنى نهبان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر

أردت أن تصف حسن حاتم بعده أو سوء حاتم ؟ فأجاب أبو تمام : لا والله إلا سوء حاتم لأن قرم قد ذهب . فقال المعارض : والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون إلا إذا لم يكن معها قرم<sup>(٢)</sup> .

٨ — وقد أشار المرزباني في غير موضع إلى وحدة البيت فقد تحدث عما أخذ على امرئ القيس في قوله يصف الليل :

فقلت له لما تغطي بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل  
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل صبح وما الإصباح منك بأمثل

فانه لم يشرح ما أراد بالبيت الأول إلا في البيت الثاني . وهذا عيب عند العرب لأن خير الشعر ما لم يحتاج البيت منه إلى بيت آخر . وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض إلى وصول القافية كقول الشاعر :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيقة الرجل

فإن قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه وكذلك باقي البيت . على أن في هذا البيت واو عطف عطفت جملة على جملة وما ليس فيه واو عطف أبلغ . وأجود من هذا قول النابغة الذبياني في اعتذاره إلى النعمان :

ولست بمطيع أخا لا تلمسه . على شعث، أى الرجال المهذب  
فكلامه فى أول البيت مستغن بنفسه وكذلك آخره حتى لو ابتدأ مبتدئ فقال (أى الرجال  
المهذب) لا اعتذار أو غيره لأتى بكلام مستوف لا يحتاج الى سواء .  
وقد أشار الجاحظ فى بعض كتبه الى هذه المسئلة . ومن الخير أن ينبه القارئ الى أن  
وحدة البيت لا تنافى وحدة القصيدة، وإن ظن ناس غير ذلك، فإن الوحدة فى البيت يراد بها  
اتساق النغم والألحان بحيث يصح الوقف فى نهاية كل بيت، ولهذا قيمة فى الزينة الموسيقية التى  
يحرص عليها شعراء العرب أشد الحرص . أما وحدة القصيدة فيراد بها وحدة الغرض، وذلك  
أن يقدر الشاعر لنفسه صورة شعرية يرسمها رويدا رويدا فى نظام وانسجام الى أن يتمها  
بتمام القصيدة .  
ولأجل أن نبين للقارئ أن وحدة البيت ضرورية جدا لحفظ الموسيقى الشعرية تنقل له  
قطعة لايى النهاية خلت من وحدة البيت على نحو ما يخلو منها الشعر الفرنسى مثلا، ولتأمل  
كيف يقول :

يا ذا الذى فى الحب يلجى أما	واقه لو كلفت منه كما
كلفت من حب رخيما	لمت على الحب فذرنى وما
ألقى فاني لست أدري بما	بليت إلا أننى يسما
أنا بياض القصر فى بعض ما	أطوف فى قصرهم إذ رمى
قلبي غزال بهمام فـ	أخطأ بها قلبي، ولعكنا
سهما عينا له كلما	أراد قتل بهما نسما

وهذا النوع من الشعر كان يسميه القدماء "المضمّن" وهو عندهم من الشعر المعيب .  
لأن خير الشعر فى حكمهم ما قام بنفسه وكفى بعضه دون بعض . ولا تزال نحن نتبع أسلافنا  
فيا اطمأنوا إليه من خصائص القوافى والأوزان لأن للآلاف أثرا شديدا فى تكوين الذوق .  
والشعر من الفنون التى تتحكم فى قدرها الأنواق .

٩ - وفي الموشع عبارات تعديده تكاد تبلغ النفاية في دقة الوصف ولينأمل القارئ ما نقله المؤلف في تحديد الشعر الجليد عن محمد بن يزيد النحوي :

” أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبه فيه بعباشته على ما ينبغي على غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب وعدل فيه عن الإفراط“<sup>(١)</sup>.

وهذا كلام دقيق وإن كنا لا نوافق ابن يزيد في استهجان قول بعضهم في النحافة :

فلو أن ما أجبته منى معلق      بسود ثمام ما تأود عودها

وقال الآخر بصف سرعة ناقته :

\* ويمتها من أن تطير زمامها \*

لأن في الإزراء بمنزل هذه الأخیلة إزراء بمواهب الذكاء . فهناك أخيلة شعرية تجافى الحقائق في كثير من الأحيان . ولكنها تظلل مع ذلك مقبولة بحش لها النوق لدلالاتها على ما وهب الشاعر من بارع الذكاء .

وقد استنكر النقاد قول المتنبي :

كفى يجسمي نحولا أنى رجل      لسولا مخاطبتي إياك لم ترنى

وعدوه ظلوا غير مقبول مع أننا قد نستطيع قول بعض المولدين :

عادنى ممرضى فسلم یرمى      فوق فرش السقام شيتا یرأه

قال لى أين أنت قلت التمنى      فبكى حين لم تجمدنى یداه

ولسنا نستطيع هذا لصحة معناه وإنما نستطيع للصورة التي قدمها الشاعر في وصف

آثار التحول .

١٠ - والمرزباني يتم بتقيد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء وتظهر في شأيا كلامه نزعة الحقد على المشاهير وإن اجتهد في إخفاء ذلك وحاول أن يصبح كلامه بصيغة البحث الصرف فقد حدثنا أن أهاجى البحرى للنفاء والملوك أشبه بهجاء سفلة الناس ورعاهم وأنها تجمع بين

صناعة اللفظ وهلهة النسج والبعد من الصواب ، وأنه قد هجا نحواً من أربعين رئيساً من مدحهم منهم خليفتان : هما المتصر والمستعين . وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القوادى ومن جرى مجراهم من أعظم الكتاب والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله في ذلك نبي عن سوء العهد وخيب الطوية ، وأنه قتل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفرو حظه منهم عليها الى مدح غيرهم وأما أسماء من مدحهم أولاً مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

ويقول المرزبانى في التعقيب على هذه المثالب :

” ولم أذكر حاله في ذلك على طريق التحامل مع اعتقاده فضله وتقديمه ولكنى أحبت أن أبين أمره لمن لعله انستر عنه وحسبنا الله ونعم الوكيل <sup>(١)</sup> “ .

وظاهر هذه الكلمة زيه . ولكنها تمثل شهوة خفية طالما التبس أمرها على الناقدين . على أن المرزبانى مشكور على أى حال : فمن أمثال هذه المفقوات تتكشف جوانب من النفس الانسانية . والناقد مسئول عن كشف ما يتعذر كشفه على الجمهور من أخلاق الشعراء والكتاب والباحثين .

ومن يدرى ! فلعل الناس يعيشون في ردائلهم أضما ما يعيشون في فضائلهم ، ولست أريد بهذا كية الحياة ، وإنما أريد روحها وسرها ، فإن النفس لا تجانب الجادة السوية إلا وهي تائرة . والنفس في لحظات الثورة تحيا حيوات طويلة قوية يصغر بجانبها ما تقضيه في هدوء ووقار من طوال السنين . ولو أن المرزبانى قدر أنه قد يحى من رجال الأخلاق من يعلل هفوات البحترى بمثل ما عللنا لرأى أنه ليس مما يشفى النفس أن يبين أمر البحترى لمن لعله انستر عنه ! وما الذى كان يقع لو ظلت صفات البحترى مستورة وظفر بلسان صدق في الآخري ؟

١١ — هذا وقد كنا نحب أن نطيل القول في نقد ما اشتمل عليه كتاب الموشح ، وخاصة ما وقع بين شعراء العصر العباسى وبين رجال اللثة كالأصمى وابن الأعرابى ، فإن ذلك

يمثل التزاغ بين القديم والحديث ، وتلك إحدى المشاكل التي تتجند على اختلاف  
المصور .

وفيما رواء المرزباني طائفة من الطرف والفكاهات كانت تحسن روايتها في هذا الكتاب ،  
ولكننا نرى الاكتفاء بما أسلفناه راسين أن يكون فيه كشف عن منهج المرزباني في إحياء الثقافة  
الأدبية ، ونشر ما تناولوه الناقدون من هفوات الشعراء .  
والموضح مطبوع يستطيع الرجوع إليه من يريد المزيد <sup>(١)</sup> .

---

(١) من أطرف ما نقل المرزباني من أخبار التزاغ بين القويين والشعراء ما جله في ص ٢٩٦  
«حدث العباس بن ميمون قال : سمعت الأصمى يقول : حضرننا مائدة وأبو حمزة خلف الأحمر وابن منذر معنا  
فقال له ابن منذر : يا أبا حمزة ! إن يكن امرؤ القيس والنايسة وزهير ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شمرى الى  
أشعارهم : قال : فأخذ صحيفة مملوءة مرصفا فقرأ بها عليه !»

البَابُ الْخَامِسُ

---

كِتَابُ الْإِسَاءِ وَالْمُلَاهِيَةِ

---





## ١ - أبو حيان التوحيدى

١ - لست اعدو الحق إذا قلت : إن الأدب العالى لا يقع إلا متأثراً بما عطفين اثنين : الحب أو الحقد . ولن نجد في تاريخ الاداب العربية كاتباً مجيداً أو شاعراً يلينا أو خطيباً منطقياً خلت نفسه من رقة الحب ، أو قسوة البغض . فالسرفى عبقرية البحرى مثلا يرجع إلى قوة شغفه بعالم الجمال ، كما أن السرفى عبقرية ابن الرومى يرجع إلى تطيره وحقيقته على من عرف ومن لم يعرف من سمعاء الناس . وكذلك يعود السرفى بفوق عبد الحميد ابن يحيى إلى مروءته ونبل نفسه وعطفه على فقراء الكتاب ، كما يعود الفضل في فصاحة الججاج إلى ما كان يضطرم في صدره من نيران الحقد والضغينة والبغض والموجدة على الثاثرين من أهل العراق .

وأبو حيان التوحيدى الذى نريد أن نفيض في الحديث عنه رجل خلقت له البأساء ، وأنشأه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه . ولن نجد في صميم أدبه إلا رعداً يزجر كلما مر بياله خاطر الفنى والفقر ، والنعم والبؤس ، والنباهة والتمول .

٢ - لا تسأل متى ولد ، ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ في بيئة خاملة لم تكن تطعم في مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد ، ويكفى أن تعرف أنه فارسي الأصل ، وأنهم ترددوا بين نسبه إلى واسط أو نيسابور أو شيراز ، وأنه عاش في القرن الرابع وشهد صدور القرن الخامس ، فقد نص في كتاب الصداقة والصديق على أنه كتبه في سنة ٤٠٠ للهجرة . وجاء في تاريخ شيراز أنه توفي سنة ٤١٤<sup>(١)</sup> وفي هذا ما يرجح أنه من أهل شيراز . وليس بغريب أن يكون هذا حظ التوحيدى في تحديد مولده وتاريخ ميلاده فقد اختلف الناس في مولد الشيخ محمد عبده في مصر مع أنه

(١) حاشاً بذلك المسيو ماسينيون وهو يناقش الرسالة في السوربون . ولم تسطع مع الأسف أن نجد نسخة من مصر

نشأ في عصر مغمور بأسباب البقة والنظام . ولهذا النموض في حياة التوحيدى قيمة في فهم جَدِّه المائر، وحظه المتكود، فلو كان رجلا مجذوبا في ديناه لثقلت الناس اليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه، لكنهم عرفوه شقياً محروماً فأنصرفوا عنه ، وأغفلوا أمره ، حتى عجب يا قوت من أن لم ير أحداً عني به من كتاب السير والتراجم على كثرة من اهتموا بهم من العلماء والكُتَّاب والشعراء .

٣ — قلت إن نبوغ أبى حيان التوحيدى يرجع إلى حقهده وثورته على الحياة والأحياء، فلأذكر أن تلك الثورة شبت في مفتتح حياته ومستهل صباه، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يمرى بين أيديهما من أسباب الرزق والرزق والطمأنينة، فقصد ابن العميد واستظل فيناؤه حيناً، ثم تحوّل الى ظلال ابن عباد، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ما ينقح ظفه، ويطفى صده . هنالك انفجر بركان غضبه وتحوّل إلى أنفون متسرّج يرى باللهب الماحق والشواظ المبيد . وقد حدثنا في كتابه (مثالب الوزيرين<sup>(١)</sup>) أنه لما قدم على الصاحب قدم اليه نجاح بن سلمة ناظر خزائنه كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال: يقول لك مولانا أنسخ هذا فإنه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدى وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضجر وتبرم وأشار إلى أنه توجه من المراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شوم حرفة الوراقة التي لم تكن كاسدة ببقداد ، فوصل ذلك إلى الصاحب فحقد عليه ، وكان رجلاً لا يقبل أن يسعى له أمر، أو يراجع في قول . ثم كانت أيام التوحيدى عنده أيام إهمال ونسيان، فرحل عنه وأصلاه نيران الفحش والسباب . ولنتنظر كيف يقول :

”ماذنبي، أكرمك الله، إذا سألت عنه مشايخ الوقت، وأعلام العصر، فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان ! على أنى قد سترت كثيراً من مخازيه، إما هرباً من الاطالة، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش، وبث القضايح، وذكراً ما يسمع مسموعه، ويكره التحدث به ؛ سوى ما فاتني من حديثه، فاني فارقته سنة ٣٧٠ هـ“ .

”وماذني إن ذكرت عنه ما جرعنيه من مرارة الحلية بعد الأمل، وحملى عليه من الاخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كآني خُصصت بنساسته وحدي، أو وجب أن أعمل بما دون غيري“ .

٤ — وقد ختم التوحيدى كتابه مثالب الوزيرين بكلمة تدل على أنه كاتب يفهم أن الأدب باب من أبواب الرزق وسبيل من سبل الغنى، إذ صرح بأنه يحسد الذى يقول :  
أعدّ نهمسين حولاً ما على يد لأجني ولا فضل لذى رحم  
الحمد لله شكراً قد قنعت فلا أشكولنيا ولا أطرى أأكرم

ثم صرح بأنه كان يتمنى أن يكون ذلك الرجل، ولكن العجز فى رأيه غالب لأنه مبذور فى الطبيعة، ثم استحسن قول الآخر :

ضيق العذر فى الضراعة أنا لو قنعتا بقصمنا لكفانا  
مانا نعيد الأثام إذا كا ن الى الله قفرتا وغفانا  
ثم دعا بما دعا به بعض النساك :

”اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإقتار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، ونبتلى بمجد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم ولئى الإعطاء، وبذلك نرائن الأرض والماء“ .

وهذا نص فى أنه كاتب مشغولاً برزقه، وأنه كان لذلك معنى بمجد الكرماء، وذم البخلاء، دفعا للفقير وطلبا للال، فدرجت نفسه على الحرص والطمع، وألف الحقد على الأغنياء الباخلين، وكان مثله مثل المتنبي الذى تفجر شعره بالحقد على العالم والشورة على الوجود : لأنه لم يجد من ينصره فى طلب الثنى والجلال والملك، ومن هنا قتت فى شعر المتنبي عواطف الحب والإخاء والوفاء : لأن مطامعه المادية حولته إلى رجل لا يدرك غير معانى الأثرة والشح والظن والجحود .

٥ - وما زال التوحيدي يقدم إلى نفسه وقود النيقط والحفيظة حتى غلبه طلبة الجراح في آخريات عمره ، فقدم كتبه طعمة للنار ، حتى لا يكون بينه وبين العالم وشيجة من علم أو أدب أو دين ، ثم كتب في ذلك رسالة مطولة تفيض بالألم اللاذع والحزن الوجيع . وقد حثنا في تلك الرسالة بما يؤيد مذهبنا إليه من أنه كان يتخذ العلم وسيلة إلى الفنى والجاه إذ قال في وصف الغرض من كتبه :

« على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولما لجاه عندهم ، غرمت ذلك كله » .

وفي تلك الرسالة فقرات مرمزة تثير العطش على ذلك الرجل الذى شق كل الشقاء بما رزق من رقة الحس ، ودقة الفهم ، وقوة الإدراك . ولقد صور بلواه بالناس أحصدق تصوير حين قال :

« فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن ، وتفرج جماعتهم بهذا العيب ؟

”بفواى لك : أن يعانى منهم فى الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد المئات . وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطرت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاض عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تماطى الرأى بالسمعة والفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسالك وصباحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وقطعتك ، وشدة ثبلك وضغطك ، وما كان يجب أن ترتاب فى صواب ماقلته وأيته بما قمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقليل “ .

٦ - وهذه الكلمة تعطينا صورة واضحة من النزاع الدائم الموصول الذى كانت تشور محرراته بلا انقطاع بين التوحيدي وبين معاصرة ، فذلك رجل يعرف ماهو الضمير ، وماهى

متانة الخلق، ومامضى الكرامة، ومامدلول الإباء، ولكن أحداث دهره قهرته على المشى فوق تلك الأشواك : أشواك الملقى والمداينة والرياء ، فثنى مجروح القلب ، مقتول النفس ، مطعون الوجدان . وكان اقترافه لمخزيات الضمة والهوان والصفار مما يضرم فى نفسه ثورة الحقد على الرؤساء المسعودين الذين لا ينال فيض ما لديهم بشير أسباب الخسة والدناءة والإسفاف .

٧ - وفى تلك المعركة الدامية التى خرج منها التوحيدى وهو بين الكلاب أجهى وأغش من ابن الرومى بين الشعراء ، لا نجد بدا من الحكم عليه بأنه كان رجلا ظاهرا الطمع والجشع والحرص، قبل فى جمع المال عن طريق الأدب أن يبيع دينه ومروءته وأن يقترب مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم : فى حين أنه كان يستطيع أن يدوس بقدميه ممالك أصحاب التيجان ويُقبل بنفس حازمة غنية على استرداد إحدى الصناعات ليعيش ، ثم يلقى العالم إن شاء بمثل قول أبى هلال :

جلوسى فى سوق أبيع واشترى      دليل على أن الأثام قبرود

ولا خير فى قوم يذل كرامهم      ويعظم فيهم نذلهم ويسود

ولكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه .  
ودليل ذلك ما حكاه فى كتاب مثالب الوزيرين إذ قال :

”جرى بينى وبين ابن مسكويه شئ : قال لى مرة أما ترى الى خطأ صاحبنا - يعنى ابن العميد - فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فىمن لا يستحق . فقلت بسد ما أطلال الحديث وتقطع بالأسف : أيا الشيخ ! إني أسألك عن شئ واحد فأصدق فانه لا مدب للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فىك بهذا المعطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه ، أكنت تحيله فى نفسك عطلا وميذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ! وليته أرى عليه ! فان كان الذى تسمع على حقيقة فاعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد، أو شئ آخر من جنسه، وأنت تدعى

الحكمة ويتكلف فى الأخلاق، وترى الزائف وتختار منها المختار، فأقطن لأمرك، وأطلع على شرك وشرك<sup>(١)</sup>.

ولو أنه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لراى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود، وهو مع هذا يدعى الحكمة ويتكلف الأخلاق .

ويظهر مع الأسف أن الانسان يبالغ فى درس الفرائز ونقد الطباع، فإذا وصل الى نفسه خلا درسه من القوة وخلا نقده من العمق، وأسبغ على خصاله وشماله أثواب الرضا والاعجاب .



٨ — هذا الذى قدمناه عن التوحيدى جعل لنا منه شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف: الشخصية الأولى شخصية الأديب الذى يتحدث عن نفسه وعن أشجانه وعن عتبه على الناس ويبرمه بالحياة . والشخصية الثانية شخصية الباحث الذى ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من ضروب العلوم والآداب والفنون . وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه اليها رجلا فهم التزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية، ثم صورها لنا تصويرا يقرب من الإتيقان فى كتاب المقابسات . وكتاب المقابسات هذا كتاب عظيم، طبع أولا بالهند، ثم طبع أخيرا فى مصر طبعاً متقناً معنياً به من بعض الوجوه . وكتاب المقابسات لا ينفع المبتدئين إلا قليلا، ولكنه نافع كل النفع لمن وقفوا على معضلات الفاسفة الاسلامية . ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لمعهده، وإن كنا نرى فى ذلك بعض البعد عن الصواب، لأنه يحاكي الملاحظ فى أسلوبه الفلسفى والأدبى فيترك السجع ويقبل على الازدواج، غير أنه على كل حال لونه من الكتابة الفلسفية التى تهلبها الناس فى ذلك الحين . وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين فى ذلك العهد، فهم يعرفون كيف تتار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف، فإذا حاولوا

الاجابة والتعليل ظهورا ضعفاء عاجزين . وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات ولعل السبب في ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطيرة لم يتح لهم التقلب عليها ، وكان من أثرها أن كثر الشك والارتباب والاحاد بين طبقات المفكرين .

ومن طريف ما أثاره أبو حيان التوحيدى في إحدى المقابسات ما أطلق به أبا إسحاق النصيبى إذ قال :

”ما أعجب أمر أهل الجنة ! قيل وكيف ؟ قال لأنهم يقولون أبدا هناك ، لاعملم لم إلا الأكل والشرب والتكاح ؟ أما تضيق صدورهم . أما يكونون . أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التى هى مشاكلة لحال البهيمية ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون ؟<sup>(١)</sup>

وفى الجواب على هذا السؤال الخطر أطال أبو حيان إطالة عملة لا تقنع ولا تفيد ، لأنه افترض أن نعيم الجنة بالمقل لا بالحس ، وأن العقل لا يستره الملل ، ولا تصيبه الكلفة ، ولا يسه التئوب . وعلى ذلك بقى الاعتراض حيث وقع : لأن القرآن أعطى اللذات الحسية شأنا غير قليل ، وجعلها من الغايات التى يسمو اليها المؤمنون .

٩ — أما الشخصية الأولى شخصية الأديب فهى الجانب الأقوى من نفسية التوحيدى . وتمثل هذه الشخصية الرائعة فى رسائله الوجدانية ، وفى استطراداته الممتعة التى جرى بها قلمه فى كتاب الصداقة والصدق . والجانب الوجدانى من التوحيدى تكوّن ونشأ فى هجر الفاقة والبؤس ومماناة الأيام . ولا تراه يمجيد إلا حيث يتحدث عن نكد دنياه وسواد لياليه . واثك لترثى له وتبكي لشكواه حين تراه يطالعك بأمثال الكلمة الآتية :

”وسمعت الخوارزمى أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البلخى يقول : ( اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمنى حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم ” وأقول : ” اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخفاء ، وغلب الخفاء ، وطال الاستقار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشفى الرجاء ” والخوارزمى -

هذا الذى يسج به التوحيدى ويتحدث عنه ويتأسى به رجل عانى في دهره مرارة الجور والحيف، ورأى الناس يقدمون عليه بدع الزمان وهو لدن العود غص الألاه، فلا عجب أن يردّد "التوحيدى" شكائته وأنيته وهو الذى رأى كيف تقدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد .

١٠ - ولعل هناك كلمة عن كتاب الصداقة والصديق قاله يرجع الفضل في تصوير الجانب الوجداني من التوحيدى رحمه الله . ابتدأ هذا الكتاب بزفرة وانتهى بزفرة . ابتدأ بالكلمة التي قلناها آنفا عن الخوارزمي، وانتهى بقوله في الاعتذار عن طول تلك الرسالة "فأقبل حاطك الله هذا القدر الذى قد بدأته وأعدته، ونشرته وطويت به، على أنك لو علمت في أى وقت ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أى حال تمت، لتعجبت، وما كان يقل في عينك منها بكثير في نفسك، وما يصغر منها بتدك يكبر بعقلك . والله أسأل خاتمة مقرونة بفنيمة، وعاقبة مفضية الى كرامة، فقد بلغت شمسى رأس الحائط، والله أستعين على كل ما هم النفس، ووزع الفكر، وأدنى من الوسواس " .

وكتاب الصداقة والصديق كتب في أدق وقت من حياة التوحيدى، كتب حين بلغت شمس رأس الحائط كما قال، كتب بعد كتابه مثالب الوزيرين بمدة قد تكون طويلة، فهو أنضج ثمرة من أدب التوحيدى . وليس يمتنا في هذا المقام ما أشغل عليه من الفقرات الجميلة، والمقطوعات البديعة، والأخبار الطريفة، إنما يمتنا بنوع خاص ما صر فيه من الصور الفنية الرائعة التي جرى بها قلبه البليغ، فقد ترك لنا ذلك الرجل الفعل طائفة من النماذج العالية في صور الخواطر والأفكار والتأملات، ومضى بنا في أودية من الخيال ضاحكة الأزهار خفاقة النسبات .

١١ - والصور التي يقيمها التوحيدى ثمراً غالباً على أنها أحاديث . فهو يصور خواطر الناس وآراءهم في فهم الحياة تصويراً عجبياً يفصح عن قدرته أتم إفصاح، وهو يظهر في ثنايا كلامه عبق اللغة قوى الخيال يحيط بالمنع من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يتد منها شيء . ولنتنظر كيف يقول في تشبيب أفضاس الناس في الحب والبغض :



”وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصة : لأنه لا يخلو أحد من جار أو معارف أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو ولي أو خليط . كما لا يخلو أيضا من عدو أو كاشع أو مداح أو مكاشف أو حاسد، أو شامت، أو متافق أو مؤذ أو متباذ أو معاند أو منزل أو مضل أو مقل“<sup>(١)</sup> .

ومثل هذه الفقرة يدل على بصر ذلك الرجل باللغة وقدرته على تصوير ما يشاء من المعاني النفسية والوجدانية التي تعجز أكثر الكتاب . وقد أعطانا التوحيدى عدة صور في الصداقة والحُب . من ذلك قوله في التفرقة بين الصداقة والعلاقة : ”الصداقة أذهب في مسالك العقل ، وأدخل في باب المروءة ، وأبعد من نوازي الشهوة ، وأزهر عن آثار الطبيعة ، وأشبه بنوى الشيب والكهولة ، وأرى إلى حدود الرشاد ، وأخذ بأهداب السداد ، وأبعد من عوارض الغرارة والحدائث . فاما العلاقة فهي من قبيل العشق والمهبة والكلف والشغف والتيم والتهم والهووى والصباية والتدافع والتشاجى . وهذه كلها أمراض أو كلاً أمراض ، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص . ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذكران والإناث وتال منهم وتملكهم وتحول بينهم وبين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق ، ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزواجر والمواظب ليفتتوا إلى ما فقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط“<sup>(٢)</sup> .

وقتل في موضع آخر أنه سمع ابن مانويه القمى يروى عن جعفر بن محمد أنه قال :

مناعة الصديق أعبت بالروح وأندى على الفؤاد من مغازلة المشوق ، لأنك تنزع بمحدث المشوق إلى الصديق ولا تنزع بمحدث الصديق إلى المشوق<sup>(٣)</sup> .

١٢ — وقد علل التوحيدى ميل الرجل إلى أهله وأحبابه فذكر أنه يمن إلى والده للتميز به ، لأن الوالد عضد وركن يماذ به ، ويؤوى إليه ، ويتزع إلى الوالدة لشفتها وعاطفها الذى لا يرجع إلى الله مثله ، ويستاق إلى أخته للصيانة لها والترقح إليها ، وإلى ابن عمه للانتصار به ،

ولابنة عمه لأنها لم على وضء، ويصبو الى عشيقه لأن ذلك شيء يحده بالقطرة والارتياح الذي قلما يخلو منه كريم له في الهوى عرق نابض، وفي المحون جواد راكض. ثم قال: أما الصديق فوجدني به فوق شوق الى كل من نمت له، لأنني أباته بما أجل أبي عنه، وأجبا من أمي فيه، وأطويه عن أختي نجلا منها، وأداجي ابن عمي عليه خوفا من حسد يققا ما بيني وبينه. فأما العشيقه فقصاراي معها أن أشوب لها صدقا بكذب وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظري ونصيب من زيارة، وتحفة من حديث، وكل هؤلاء مع شرف موقعهم مني وانساجهم الى دون الصديق الذي حريمي له مباح، وسارحي عنده مراح، أرى الدنيا بعينه اذا رنوت، وأجد فائتي عنده اذا دنوت، اذا عززت له ذل لي، واذا ذلت له عز بي، واذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة، واذا تصامتنا تاجينا بلسان الثقة، لا يتوارى عني إلا حافظا للغيب، ولا يترأى لي إلا ساترا للغيب<sup>(١)</sup>.

وقد عرض التوحيدي للصداقة والحب والعشق في أتركاب المقابسات بتفصيل واف فليرجع اليه من شاء.

١٣ - ولم أجد فيما قرأت من كتب الأدب صورة فنية تمثل اتحاد القلوب والنفوس كالصورة التي قدمها الينا التوحيدي حين قال:

”قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضى ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، وموادة خلقية، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال: يا بني! اخلطت تقى به بقلته في فاستفدنا طمانينة وسكونا لا يرتان على الدهر، ولا يحولان بالقهر. ومع ذلك فيينا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة ومظاهرة غريبة، حتى أنا تلقى كثيرا في الإرادات، والاختيارات، والشهوات، والطلبات. وربما تراورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد اقترافنا من قبل فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بيني وبينه، أو كأنى هو فيها أو هو أنا. وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها فتراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل، أو بعده بقليل“.

وقال بعد كلام: فقلت هل تجد عليه في شيء، أو يجد عليك في شيء؟ فقال: وجدي به في الأول قد جئني عن موجدتي عليه في الثاني، على أنه يكتفي مني فيما خالف هواي بالجملة الضئيلة، واكتفى أنا أيضا منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة. وربما صابتنا على حال تعرض على طريق الكفاية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا في ذلك مقنع، واليه مفرج، وقبلنا نجتمع إلا ويحدثني عن بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى شفتي، ولا نلت عن صدرى إلى لفتي، وذلك للصفاء الذي تساهمه، والوفاء الذي تنقسمه، والباطن الذي تتفق عليه، والظاهر الذي زجج إليه، والأصل الذي رسوختا فيه، والفرع الذي تشبثنا به. والله ما يسرى بصداقة حمر النعم. وإذا كنت أعشق الحياة لأنى بها أحيا كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجنى لى ثمرتها، وجلب إلى روحها، وخلط بين طيها وسلاوتها<sup>(١)</sup>.

والقارئ الذى ألف تذوق العبارات البليغة في غنى عن تحليل مثل هذا الحديث الشائق الخلاب، وما عسانا نجد في الانصاح عن جمال التعبير في مثل قوله "وقلنا نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى شفتي، ولا نلت عن صدرى إلى لفتي".

هيات هيات، تلك لمحات من بحر البيان لا يوفق إليها إلا الملهمون.



١٤ — وينبى أن نشير إلى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا، ولكنه كان يستتر ائتماءً لسلطه الجمهور، وكانت طريقته في تأييدهم أن ينطق الأشخاص ببارات مربية، كقوله: "الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأمحاء، والأنباء يطبون للرضى حتى لا يترايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط، وأما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أمحائها حتى لا يمتريهم مرض أصلا. وبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأثر مكشوف لأن غاية تدبير المريض أن ينتقل به إلى الصحة — هذا إذا كان الدواء ناجما والطبع قابلا والطبيب ناصحا — وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة وإذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب

(١) ص ٣ و ٤ من الصداقة والصديق.

الفضائل وفرغها وعرضه لاقتنائها، وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى، وقد صار مستحقاً لحياة الآلية، والحياة الآلية هي الخلود والديمومة<sup>(١)</sup>.

١٥ - وبهذه المناسبة نذكر أن رسائل إخوان الصفا ظهرت في القرن الرابع وهي من أهم المصادر للفلسفة الإسلامية، ولا تُعرف أسماء مؤلفيها بالضبط، ولكن يرجح أن التوحيدي كان بينهم. أما لغتها فليست من النثر الفني الذي كلف به مشاهير الكتاب في ذلك العصر، ولكنها لغة وسط بين لغة الكتابة ولغة التأليف، لأن كتابها أرادوا أن يفهموا البهايم ما يرمون إليه من الأغراض السياسية والدينية، وذلك لا يتم في مثل لغة الصابي وابن العميد. فلم يكن لهم بد من أن يخفروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس، ولكن غلبت عليهم النزعة العامية في بعض الأحيان<sup>(٢)</sup>.

(١) ص ١٥ مقدمة المقاييس - (٢) كانت رسائل إخوان الصفا خفيفة بأن تدرس درسا منفصلا في هذا الكتاب. ولتأكد رأينا الباحثين أطالوا فيها القول قديما وحديثا، ورأينا من ناحية ثانية أن النثر الفني فيها قليل - على أننا لم ننفلحنا بجملة، بل كتبنا فصلا عن بعض اتجاهاتها الفلسفية في باب (الأخبار والأفاميس) - راجع «الإنسان والحيران أمام حكمة الجن» في الجزء الأول. وراجع كذلك الشواهد التي أتيتمنا بها هناك في فصل (السمع والازدواج).

## ٢ - أبو علي بن مسكويه

١ - لما أصل إلى التثبت من لقب الكاتب المفكر أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة "مسكويه" وتارة "ابن مسكويه" وقد حدث ياقوت أنه "كان مجوسيا وأسلم" فظن صديقنا الأستاذ الزركلي صاحب "الأعلام" أن هذا صحيح ، فاثبت كذلك أنه كان مجوسيا وأسلم ، وهذا غير معقول ، فإن الرجل "اسمه أحمد بن محمد" والأرجح عندي أن عبارة ياقوت سقطت منها كلمة ، وأن الأصل "وكان جده مجوسيا وأسلم" وقد يكون هذا الترجيح هو الصواب .

٢ - اتصل ابن مسكويه في شبابه بابن العميد واختص به ، ثم ساعده زمانه فاخص بأعلام بني بويه وتولى مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، وكانت دار الكتب في ذلك العهد تسمى "الخزانة" وظل متصلا بأولئك الملوك إلى آخريات عمره . يدانا على ذلك قوله يهني عهيد الملك بانفاق الأضيى والمهرجان في يوم واحد :

قل للعميد عهيد الملك والأدب	اسعد ببيديك عيد الفرس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الفهام ضحى	وقذا يشير علينا بابنة العنب
خلاقٌ خَيْرٌ في كل صالحة	فلودعاها لغير الحير لم تجب
أعدت شرخ شباب لست أذكره	بعدا ، ورُدَّ على العمر من كتب
فطاب لى هرمى والموت يلحظنى	لحظ المريب ولولا أنت لم يطب
فإن تمرس بى خم تعصب لى	وإن أساء إلى الدهر أحسن بى
وقد بلغت إلى أقصى مدى عمرى	وكُلَّ غرْبى واستأنست بالنوب
إذا تملأت من غيظ على زمنى	وجدتنى نائفا في جسدوة اللهب

”جرى بيني وبين أبي علي مسكويه شيء : قال لي مرة : أما ترى إلى خطأ صاحبنا - وهو يعني ابن العميد - في إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة ! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعد ما أطال الحديث وقطع بالأغص : أيها الشيخ ! أسألك عن شيء واحد ، فاصدق فإنه لا مدب لكذب بيني وبينك : لو غلط صاحبك فبك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضاعه أكننت تخيله في تفسك محطنا وميزرا ومفسدا أو أهلا بحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ، ولته أربي عليه ! فإن كان

الذى تسمع على حقيقته فأعلم أن الذى يرد ورد مقالكا إنما هو الحسد أو شيء آخر من جنسه، وأنت تدعى الحكمة، وتكلف فى الأخلاق، وترى الزائف وتختار منها المختار، فافطن لأمرك وأطلع على شرك<sup>(١)</sup> وشرك<sup>(٢)</sup> .

٤ — ونحن نفهم سر هذا التحامل من جانب التوحيدى ، فقد كان شديد الحقد على المجدودين من أهل زمانه ، وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء ، ولنا أن نضيف إلى ذلك نجاح ابن مسكويه فى حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق ، ومثانة الخلق قوة مرعبة يُرعد لها الأدباء المساكين الذين أبطلوا بالطمع فى هدايا الملوك والوزراء ، وألقوا الترف والتؤدد إلى أقطاب الجاه والمال . والأديب الذى يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش فى الأغلب غريباً بين معاصريه من الأدباء ، فليس عجيباً أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالتوحيدى على أديب موقفى مطمئن العيش كابن مسكويه . ولو شئنا لأضفنا أيضاً زعرة ابن مسكويه الفلسفية فهى كذلك من أسباب حقد التوحيدى عليه ، فقد كان التوحيدى واسع الثقافة إلى حد مدهش وكان يطمح فى التفرد بالسعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك الجيل ، ولهذا نراه حين يسترحم تحامله على ابن مسكويه لا ينجح غير هذا التناء الهزيل إذ يقول :

”وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقي اللفظ“<sup>(٣)</sup> .

٥ — ومن دلائل النعمة التى ظفر بها ابن مسكويه فى حياته أن نراه ممدحاً يتلقفه لثام الشعراء والكاتب ، فقد كتب إليه بديع الزمان الهمداني رسالة عتاب تكلف فيها الود والإخلاص ؛ وكان بديع الزمان وقاح الوجه سليل اللسان ، لا يعترف لأحد بفضل ، ولا تصدر عنه كلمة الإتيصاف إلا مدفوعة برغبة أو رهبة ، ويود لو أمكنه المقادير من طمس معالم النباهة والصيت فيما يتر به من مختلف البلاد : حتى لا يذكر بالعلم والنبل إنسان سواه . وتكاد رسائله وقصائده تُقصر على بث ما كان يتلجج فى صدره من حرازات وعداوات

وأضخان وأحقاد، وقد اتصل بابن مسكويه حيناً، ثم سعى بينهما الواشون فكفروا ما كان  
يتظوه البديع من طيب الصلوات، فكتب إلى صاحبه الرسالة الآتية :

ويا عَزَّ أن واش وشي بيَ عندكم      فلا تمهليه أن تقول لي مهلا  
كما لو وشي واش بعزة عندنا      لقلنا ترجح لا قريبا ولا اهلا

بلغني — أطال الله بقاء الشيخ — أن قبضة كلب واقته بأحاديث لم يعرها الحق نوره ،  
ولا الصديق ظهوره، وأن الشيخ أذن لها على حجاب أذنه ، وفسح لها فناء ظنه، ومعاذ الله  
أن أقولها، وأستجيز مقلوها . إلى قد كان بيني وبينه عتاب لا يتزعج كفه ، ولا يجذب  
أفقه، وحديث لا يتعدى النفس وضيمرها، ولا تعرفه الشفة وسميرها ، وصريرة كبريدة أهل  
الفضل لا تتجاوز الدلال والإدلال ، ووحشة يكشفها عتاب لحظة، كفناء بحظة، فسبحان  
من ربي هذا الأمر حتى صار أمرا، وتابط شرا، وأوحش حرا، وأوجب عذرا، بل سبحان  
من جعلني في حيز العذر أشيم باروقته ، وأستخيل صاعقته، أنا المساء إليه، والمجنبي عليه ،  
والمستخف به، لكن من لي من الأعداء كما بليت ، ورمي من الحسدة بما وميت ، ووقف  
من الوجد والوحدة حيث وقفت ، واجتمع عليه من المكارة ما وصفت ، إعتذر مظلوما،  
وأحسن ملوما، وضحك مشتوما . ولو علم الشيخ عدد أبناء الحدد، وأولاد العدد، بهذا البلد،  
من ليس له همة إلا في شكاية أو حكاية أو سعاية أو نكابة، لضن بعشرة غريب إذا بدر،  
وبعيد إذا حضر، ولصان مجلسه عن لا يصونه عما رقى إليه . فهنيئ قلت ما حكي له ،  
أليس الشاتم من أسمع ؟ أليس الجاني من أبلغ ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم صادفوا  
من الأستاذ نفسا لا تستغفر ، وجبلا لا يهز ، وشوا إليه بما أوثقوا به نارهم . ورد علي ما قالوه  
فما لبثت أن قلت :

فان يك حربٌ بين قومي وقومها      فاني لها في كل نائبة سلمٌ

فليعلم الشيخ الفاضل أن في كيد الأعداء مني بحمة ، وأن في أولاد الزنا عندنا كثرة ،  
وقصاراهم ناري شيونها ، أو عقرب يديونها ، أو مكيدة يطلبونها ، ولولا أن العذر إقرار بما



قيل، وأكره أن أستقبل، بسطت في الاعتذار شاذروانا، ودخلت في الاستقالة ميدانا، لكنه أمر لم أضع أوله فلا أندارك آخره .

وقد ختم بديع الزمان رسالته بهذه الأبيات :

مولاى إن عدت ولم ترض لى	أن أشرب البارد لم أشرب
امتط خدى وأتعل ناظرى	وصد بكفى ثمة العنقرب
بالله ما أنطق عن كاذب	فيك ولا أبرق عن خُلب
فالصفو بعد الكدر المفترى	كالصحو بعد المطر الصيب
أن أجتن الغلظة من سيدى	فالشوك عند الثمر الطيب <sup>(١)</sup>

ثم انتظر من ابن مسكويه أن يعتذر عن إعراضه عنه، فأجابه بما نصه بعد الديباجة:

” أما البلاغات التي أومأ إليها فوالله ما أذنت لها ولا أذنت فيها ، وما أذهبتني عن هذه الطريقة وما أبعدني عنها ! وقد نزه الله لساني عن الفحشاء، وممى عن الإصغاء ، وما يتخذ العدو بينهما جمالا<sup>(٢)</sup> “ .

ومثل هذا الجواب يشعر بأن موقف بديع الزمان من صاحبه كان موقف التابع من المتبوع . والمصادر لا تعيننا على تحديد ما كان بينهما من ألوان الصلات، وإن كانت عبارة ياقوت صريحة في أنه كان بينهما قبل هذا العتب وداد .

٦ — شغف ابن مسكويه شغفا بالغا بالفلسفة اليونانية وأطلع على أكثر ما عرف العرب من مؤلفات اليونان، ويرى القارئ في آثاره ظلالات كثيرة لآراء سقراط وجالينوس وأرسططاليس . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق نفسه في وضوح وجلاء فافتنى منهاج اليونان في عرض الآراء وتقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية . وكذلك لم يقف في دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التي كانت يكتفي بها الصوفية

(١) ياقوت ج ٢ ص ٩٢ و ٩٣ (٢) ص ٩٣

والناسكون والزاهدون ، بل سائر العقل وصاحبه وأنس به واطمان إليه ، ثم اتخذه أساسا للأخلاق ، فصار العقل عنده نظيرا للوحى في عرف المتقدمين ، وما زال يدور حول المعقولات في نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفسه من الخلق المنقول : فهو لا يفعل الخير لأنه أمر به ولا يمتنع الشر لأنه نهى عنه ، وإنما يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وفقا لاطمان إليه عقله وأمر به وجدانه في حدود النفع والمتنطق والنوق . وإلى القارئ وصيته — أو دستوره إن شاء — في نظام السلوك :

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما عاهد عليه أحمد بن محمد ربّه وهو يومئذ آمن في صيربه ، معافى في جسمه ، عنده قوت يومه ، لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ؛ ولا يريد بها مرأاة مخلوق ولا استجلاب منفعة ، ولا دفع مضرة : عاهده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره ، فيعف ويشجع ويحكم . وعلامة عفته أن يقتصد في مآرب بدنه حتى لا يسهل الشره على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ؛ وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب في غير موضعه ، وعلامة حكته أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولا نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التي هي العدالة ، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويبتعد في القيام بها والعمل بموجبها وهي خمسة عشر بابا :

إيثار الحق على الباطل في الاعتقادات ، والصدق على الكذب في الأقوال ، والخيبر على الشر في الأعمال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشرعية لزوم وظيفاتها ، وحفظ المواعيد حتى يتجزها ، وأوّل ذلك ما بينه وبين الله عز وجل ، وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال ، ومحبة الجليل لأنه جليل لا لنفي ذلك ، والصمت في أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل . وحفظ الحال التي تحصل

في شيء شيء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والاقدام على كل ما كان صوابا ،  
والاشفاق على الزمان الذي هو العمر ليستعمل في المهم دون غيره ، وترك الخوف من  
الموت والفقر لعمل ما ينبغي ، وترك التواني ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد  
لئلا يشغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتيال الفنى والفقر والكرامة والهوان ،  
وذكر المرض وقت الصحة ، والمهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقل الطغى والبنى ،  
وقوة الأمل وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل وصرف البال <sup>(١)</sup> إليه .

---

(١) سمع الأدباء ص ٩٥ و ٩٦ ج ٢

### ٣ - الاخلاق عند ابن مسكويه

١ - الخلق - كما عرّفه ابن مسكويه - حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . فهو بهذا غير التخلق : لأن التخلق يقتضى شعورا بالكلفة عند إرادة العمل الحسن وعند تجنب العمل القبيح . وقد عرض ابن مسكويه لأراء القدماء في أصل الخلق ، فين أن منهم من ظنوا " أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا بيمالة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التي لا تقمع إلا بالتأديب " وأن منهم آخرين " ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم " وهناك رأى ثالث اختاره ابن مسكويه وهو الرأى الذى يقول بأنه " ليس شىء من الأخلاق طبعيا للانسان " وإنما طبع الانسان على قبول الخلق فهو يتحول وفقا لما يؤثر فيه من أعمال الأخيار والأشرار . وليس لابن مسكويه فى أصل الخلق رأى خاص ، وإنما يتخير من بين الأراء ، ومزيجته أنه يعتمد على المشاهدة والاختبار ، فيقول مثلا " وهذا الرأى هو الذى نختاره لأننا نشاهده عيانا " وحين يشرع فى بيان مراتب الناس فى قبول الآداب يذكر أنها كثيرة ثم يقول : وهى تشاهد وتعاين فيهم وخاصة فى الأطفال ، فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل السام الذى انتهى فى نشوئه وإكله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقيح منه فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه ، أو ما يظهر فى بعضهم من القسوة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم

ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم المتوائى والمنتهج ، والمهل السلس ، والفظ السمر ، والخير<sup>(١)</sup> والشرير<sup>(٢)</sup> .

٢ - والواقع أنه ليس لابن مسكويه غير هذه المزية وهي محاولة الانتفاع من المشاهدات والاختبارات . ولكن هذه المزية نفسها تكررت عليه بسبب حيرته في تحليل ما يمرض له من مختلف الآراء : فهو تارة مع جالينوس وتارة مع ارسطاطاليس ، وطورا مع العقل وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم في كتبه معالم المعقول والمنقول ، ولذلك تراه يرتب أقوال الحكماء ترتيبا سيئا في أكثر الأحوال ، لأنه لا يمشي الى غاية معينة يسوق في سبيلها الحجج والبراهين . وقد يخطب أحيانا في ليل من الظنون والأوهام فيجمع بين الجيد والردى ، والطيب والخبث . ولهذا الخبط قيمته عند من يريدون تبيين ما فعلت الفلسفة اليونانية بالعقلية العربية ، فقد كانت في أذهان كثير من الناس صورة للغباء الذى يشور عند هبوب الرياح ، وكانت الأذهان العربية هادئة مطمئنة بغماتها فلسفة اليونان بزوايج وأعاصير أطارت ما كان أستقر فيها من أمن وسكون . وقد آن أن يعرف الناس أن الآراء التى تأتي من أقطار أجنبية لا تنفع من يتلقونها إلا بعد أن يهضموها ويسلموها من الافتتان بما فيها من طرافة وبريق ، ومثلهم في ذلك مثل من يشرب الدواء لا تصفو نفسه ولا تذكر قريحته ولا يستدل مزاجه إلا بعد أن يزول ما أحدث الدواء بأعضائه وحواسه من قلق واضطراب ، وكذلك وقع لمفكرى العرب حين غزتهم الفلسفة اليونانية . فكان منهم المفتون بكل ما (نقل) عن سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس ، وكان منهم من هضم تلك الفلسفة واستيق لعقله وروحه ما فيها من تنقيف للعقل وتهذيب للنفس وتهويم للوجدان . ونحن نشهد في عصرنا شواهد لذلك ، ففى رجال اليوم من له فى كل صباح رأى جديد ، لأنه لا يأخذ عن نفسه وإنما يتلذذ لعدد من الفلاسفة والمفكرين قد يتوافقون وقد يتناقضون ، وهو لم فى توافقهم ويتناقضهم تابع أمين ، وقد يكون فى المساء صدى لكاتب قرأه فى الصباح ، وكذلك يفعل فلان وفلان !

ومن معاصرينا من خلص من قيود ما قرأ وعاد يفكر ويتذوق ويمس وهو حر العقل والنوق والاحساس .

٣ - رسم ابن مسكويه لنفسه خطة تجدر بمثله وهي التقصد إلى تنقيف الخواص : فهو لا يكتب في الأخلاق للناس أجمعين ، وإنما يتوجه بأرائه وأبحاثه إلى من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون القياس والبرهان . وكان يشعر - فيما يظهر - بأن خواص زمانه كانوا على حافة الشك والارتباك ، لهذا نراه يهتم أولاً وقبل كل شيء بإثبات وجود النفس وجوداً مستقلاً عن الجسم أتم استقلال ، بحيث لا تضعف حين يضعف ولا تزول حين يزول . ولم يضطره إلى مواجهة هذا البحث الشائك إلا اهتمامه بما قلنا بتقويم الخواص ، ولو كان يكتب للعوام لأراح نفسه من أصار هذه المخاطرة العقلية ، لأن العوام مطمئنون أو كالمطمئنين إلى خلود الروح وعودتها يوم البعث إلى بقايا جسمها في التراب . وإقناع الخواص بوجود النفس واستقلالها وخلودها هو حجر الزاوية في جذبهم إلى جمال الأخلاق ، لأنه لا ينشئ على الخواص إلا شر الريب وعدم الاكتراث ، وهم لا يضلون - وما أكثر ما يضلون ! - إلا لياسهم من خلود النفس الإنسانية ، وقولهم مع سائر الدهريين "إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" .

٤ - وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه في جميع الأحوال ، مطمئناً إلى أنه متى صححت المقدمات حققت النتائج . فلنخبر ماصنع في بيان وجود النفس لنعرف مبلغ ما وصل إليه في إثبات ما يريد ، وهو يذكر "أنا لما وجدنا في الإنسان شيئاً ما يضاد أفعال الأجسام بحده وخواصه وله أيضاً أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يسأركه في حال من الأحوال ، وكذلك نجده يباين الأعراض ويضادها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هي من حيث كانت الأجسام اجساماً والأعراض أعراضاً حكنا بأن هذا الشيء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضاً ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضاً فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه تور ولا كلال ولا نقص" (١) .

ومعنى هذا أن الإنسان مركب من شيئين : أحدهما الجسم ، وثانيهما النفس . والجسم محسوس ملموس لا يختلف في تقديره اثنان ، فلم يبق موضعاً للتراع إلا النفس وهي عند تضاد الأجسام في الحدود والخواص .

” وبيان ذلك — كما شرح في كتاب تهذيب الأخلاق<sup>(١)</sup> — أن كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى مفارقة تامة . مثال ذلك أن الجسم اذا قبل صورة وشكلا من الأشكال كالتثيت مثلا فليس يقبل شكلا آخر من التبريع والتدوير وغيرهما إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول ، وكذلك إذا قبل صورة نقش أو كتابة أو أى شيء كان من الصور فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولى وبطلانها البتة . فان بقى فيه شيء من رسم الصورة الأولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداهما على التمام . مثال ذلك إذا قبل الشمع صورة نقش في انطام لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول“ .

هذا هو الجسم ، أما النفس فتقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات ”على التمام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم ، بل يبقى الرسم الأول تاما كاملا وتقبل الرسم الثانى أيضا تاما كاملا ، ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبدا دائما من غير أن تضعف أو تقصر في وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور“ .

٥ — تلك إحدى محاولات ابن مسكويه في استقلال النفس ، وكلامه في هذا الباب كلام الواثق من محبة ما يقول ، وليته تذكر أننا حين نؤمن بوجود شيء لا ينهض إيماننا بحجة على وجود ذلك الشيء على النحو الذى تتصوره وزاده ، فليس اطمئنان ابن مسكويه إلى أن النفس موجودة مستقلة خالدة بكاف في عموما يحيك في الصدور من الرب في استقلالها

عن الجسم وتفردها دونه بالخلود . وأخشي أن يقف قوم في وجه ابن مسكويه فينكروا عليه ما آدعاه من أن النفس "تدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقها قنور ولا كلال ولا قص" فقد شاهد ناس أن النفس تنبع الجسم في الصحة والمرض والقوة والضعف والنشاط والجمول، وإن الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة في وجوه متباينة تبعاً لاختلاف النور والحس والمزاج . ولاحظ ناس كذلك أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا وأن جمهورنا مدين في تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق ، وأنه كذلك مدين إلى من يصادق ويخاصم في تكييف ما يتلج بصدره من ألوان المودات والعداوات . وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الإسلامية حين وضعوا آداب التقضاء، واستعجوا للقاضي أن يتمتع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو القنأ أو الجوع، فليس من السهل الاقتناع بأن النفس معصومة من التحول والتغير والفساد، كما ظن ابن مسكويه وكما توهم متأبعوه .

إن خلود النفس مشكلة قديمة تعبت في حلها العقول ، والقول الفصل هو كلمة القرآن "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" ولو سكت عنها ابن مسكويه لأراح واستراح . ولكنه ظن المنطق والفلسفة يفتيان في كشف ذلك السر الذي لم يحاول كشفه القرآن .

٦ — فإذا تركنا الجوانب النظرية في أساس الأخلاق ومضينا تتعقب جهود ابن مسكويه في شرح الجوانب العملية رأيناه في أكثر الأحوال من الموفقين، من ذلك أنه عرض لشرح القاعدة التي تقول "الإنسان مدني بالطبع" فأخذ يفصلها بأن ذلك معناه "أنه لم يخلق الإنسان خلقاً من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء، لأن كل واحد من تلك خلق مكثفياً بنفسه غير محتاج في بقائه إلى غيره، بل قد أزيحت عنه في جميع ما تم به حياته خلقة وإلهاما . أما الخلقة فلائنه مكثس بما يوافقه من وبر وصفوف وشعر وریش وما أشبه ذلك، وذو آلة يتناول بها حاجته : إن كان لا لاقط حب



فتقار، وإن كان آكل عشب فشفير وأسنان موافقة للقطع والقلع ، وإن كان سبعا أو آكل لحم فثياب أو غلاب أو مناسر ... وأما الإلهام فلا نه يتناول من الأغذية ما يوافقه ويتجنب ما يضره ، ويتقل من مصيفه إلى مشناه ، ويصد مصالحه كلها من القوت ولكن بغير تعليم ولا تدبير، بل بالإلهام المولود معه، فكل واحد منها مكتف بذاته في حياته التي قدرت له . فاما الانسان فانه خلق عاريا غير مهتد لشيء من مصالحه إلا بالمعانة والتعليم ، ولا يكفيه القليل من المعاين حتى يكونوا عدة كثيرة وجماعة وافرة، وإذا كان هذا على هذا وكان سبيل الانسان في حياته وحسن عيشته على خلاف الحيوان كله قيل إنه مدنى بالطبع : أى يحتاج إلى ضروب المعاينات التي تم بالمدينة واجتماع الناس . وهذا الاجتماع للتعاون وهو التمتد سواء كان ذلك في الناس وبراً ومدراً أو على رأس جبل<sup>(١)</sup> .

٧ - ويخلص ابن مسكويه من ذلك إلى نتيجتين عظيمتين :

الأولى : أنه من العدل أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفسهم ونبذل لهم عوض ما بذلوه لنا .

الثانية : أن الذهاب إلى الترهذ وتحريم المكاسب ظلم : لأن الزاهد مضطر لا محالة إلى استجداد الناس في ضرورات بدنه وحاجاته إلى ما يقيم أوده، فهو يطلب معاونتهم ثم لا يعاونهم، وذلك ظلم وعدوان . فان ظن أحد من المترهدين أن مقدار حاجته إلى معونات الناس قليل فيعلم أن ذلك القليل يحتاج فيه إلى استخدام عالم كثير من الناس لا يحصون<sup>(٢)</sup> وإن كان لا يشعر بذلك<sup>(٣)</sup> .

وهذه دقة في فهم الأخلاق ، لأننا قد نحسب أننا نحسن إلى الناس على حين لا نعمل غير قضاء ما علينا لهم من ديون . وكل إنسان في الواقع مدين إلى إخوانه في الإنسانية من قرب أو من بعد، فالصباح الذي نقرأ في ضوئه، ونظام البيت الذي نأوى إليه، والكلاب الذي نهتدي بهديه، والشرائع التي نعيش في حماها، كل أولئك جزء من جهود انسانية عديدة

(١) راجع ص ٦٣ من القورز الأمر . (٢) راجع ص ٦٤

منها القريب ومنها البعيد، وتلك الجهود تظننا ونحن أجنة في بطون أمهاتنا، وترعانا حين نولد، ثم تظل تلاحقنا ببرها طول الحياة، إلى أن تشمل أجسامنا بالكرامة والرعاية يوم نموت. فلنعرف بعض ما أسدته إلينا الإنسانية؛ ولنذكر أن أفضلنا وأكرمنا هو من آمن حق الإيمان بأن الحياة تعاون وتساند وأن المرء بنفسه قليل.

٨ — ولعل أفضل ما كتب ابن مسكويه هو الفصل الذي عقده للكلام عن آداب الصداقة ورعاية الصديق، وهو في هذا مسبق بحدود عظيم من الكتاب والمفكرين، ولكنه بسيط القول في الصداقة بسطاً شافياً ينساب إلى النفس انسباب الماء إلى الأشجار الظلاء، وهو في ذلك الفصل خاصة يتكلم كلام المفكر المحجرب الذي صادق وعادى وعرف كيف تكون مرارة العداوات وحلاوة الصداقات، وهو يشعرنا بأن الاحتفاظ بالصداقة ليس من الأمور الهينة كما يتوهم الأكثرون. وقد تفتح بعد قراءة ما كتب بأن تألف العدو أيسر من الاحتفاظ بالصديق. وتلك مسألة في غاية الدقة: فطالما ضيعنا أصدقاءنا حين ظننا بأن في الصداقة ما يعني عن التلطف والتودد ورعاية الحقوق.

## ٤ - ابنه نبأة الخطيب

١ - اشتهر ابن نبأة في الأدب العربي ثلاثة رجال : أولهم عبد الرحيم بن محمد بن نبأة الخطيب الذي ولد في ميفارقين بديار بكر سنة ٣٣٥ ودفن بها سنة ٣٧٤ ، والثاني محمد بن محمد بن نبأة المصري الشاعر وصاحب "مرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" وهو من ذرية ابن نبأة الخطيب كما أشار إليه في آخر إجازته للصلاح الصفدي وهي مذكورة في خزنة الأدب (٦٨٦ - ٧٦٨)<sup>(١)</sup> والثالث عبد العزيز بن نبأة السعدي أحد الشعراء المحيدين الذين مدحوا سيف الدولة ابن حمدان .

٢ - وابن نبأة الخطيب الذي نحن بصدده رجل موفق رزق ما لم يرزق أحد من الشهرة العريضة بين الخطباء الواعظين . وقد ذكر ابن خلكان أن الاجماع وقع على أن خطبه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته . وقد اهتم النقاد بتعقب خطبه ومناقشتها ، فعرض له ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة وعرض له ابن الأثير صاحب الملل السائر في عدة مواطن في آباءه ، واهتم بشرح ديوانه جماعة من المشاهير منهم عبد الله العكبري (٥٣٨ - ٦١٦) وعبد اللطيف بن يوسف البغدادي (٥٥٧ - ٦٢٩) وعثمان بن يوسف القليوبي المتوفى سنة ٦٤٤

ويظهر مما كتب عنه أن الرجل كان قد فنى في الوعظ فناء تاما ، وكان مشغوقا بما يطعمه على مصيره ومصير عمله ، فكان لذلك يتخلى لو يرى الرسول في المنام ، وقد صحت له هذه الأمنية . نقل ابن خلكان عن تاج الدين الكندي باسناده المتصل الى الخطيب بن نبأة أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت في منامى كأني بظاهر ميفارقين

(١) ١٨ مقدمة ديوان ابن نبأة لظاهر الجزائر ومقدمة ديوان ابن نبأة لبنتكي . (٢) ص ٥٠٧ ج ١

(٣) ص ١٤٢ ج ١ (٤) ص ١١٨ و ١٦٢ و ٤٦٠

عند الحبانة فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لي قائل : هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فقصدت إليه لأسلم عليه فلما دنوت منه التفت فرأى فقال : مرحبا يا خطيب الخطباء ! كيف تقول — وأوماً إلى القبور — قلت : لا يخبرون بما إليه آلا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأساً مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم فزة ، وآلى عليهم الدهر ألية برة ، أن لا يجعل لهم إلى دار الدنيا كركة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قرة ، ولم يعتدوا في الأحياء مرة ! أسكتهم والله الذي أنطقهم ، وأبادهم الذي خلقهم ، وسيجدهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يوم يبد الله العالمين خلقاً جديداً ، ويحصل الظالمين لئار جهنم وقوداً ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً — وأومات عند قولي تكونون شهداء على الناس إلى الصباة ، وبقولي شهيداً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — يوم تجدد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

فقال لي : أحسنت ، ادنُ ، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهي وقبله ونقل في في وقال : وفقك الله !

٣ — ومثل هذه الرؤيا يدل على منحة ابن نباتة وفهمه لواجبات الخطيب ، ورؤيا الرسول لا تدل على شيء أكثر من شغل الرأي واتجاهاته الفكرية ، فالرسول حين تراءى له في نومه لم يحدّثه إلا بما يجب هو أن يتحدّث به ، وكان ابن نباتة مفرماً بالكلام على الموت والمعاد ، وكذلك وجّه الرسول اهتمامه في المنام إلى سؤاله عن مصير أهل القبور . وملحقات الرؤيا تعطينا صورة من عقلية الواعظين ، ولا تزال تلك الصورة موجودة إلى اليوم ، فاجتذاب الرسول لوجه الخطيب وقبيله إياه ثم نقله في فقه ، وبقاء الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاماً ولا يشتهي مع غلبة ريح المسك على فيه وموته بعد ذلك المنام بقليل : كل هذا من الصور العقلية التي تردّد كل يوم بين طبقات الواعظين من الخطباء .

ويظهر أن صيت ابن نباتة وسمعته دفعت من بعده إلى تلمس أخباره عن طريق المنام ، فقد قال ابن خلكان : رأيت في بعض المجاليع ، قال الوزير أبو القاسم بن المغربي : رأيت

الخطيب ابن نباتة في المنام بعد موته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : دفع لى ورقة فيها سطران بالأحمر وهما :

قد كان أمنٌ لك من قبل ذا      واليوم أحمى لك أمانات

والصفح لا يحسن عن محسن      وإنما يحسن عن جاني

وهذا المنام الأخير فيه صور غريبة ، فاقه عز شأنه دفع إلى ابن نباتة ورقة ، ولكن أى ورقة ؟ هى صحيفة مكتوبة بالمداد الأحمر ، وفيها بيتان من الشعر . فالرائى صور له وهمه أن المداد الأحمر أدل على القبول ، وأن البراءة حين ترد شعرا تكون أدل على العناية . وهذه الرؤيا تشبه ما قرأته — ولا أذكر أين — أن رجلا رأى أبا نواس بعد موته فقال له : ما فعل الله بك ؟ فأجاب غفلى بقولى :

تكثر ما استطعت من الخطايا      فأنك واجدٌ ربا غفورا

وقد أشرت في كتاب الأخلاق عند الفزائلى الى المتامات التى رآها أنصار الفزائلى وخصومه بعد موته ثم قلت فى التعليق عليها : « وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الفزائلى من أصحاب الكرامات ، كما توهم بذلك مترجموه ، كلا ! وإنما أتخذها دليلا على ماوصلت إليه منزلة الرجل فى قلوب المسلمين ، فإن لما يراه المرء فى منامه صلة قوية بما يلجج به فى يقظته ، وهؤلاء الذين جلدوا فى منامهم لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الفزائلى وهم أيقاظ ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين فى تلك المصور الخواى من سلطة الأولياء ، وتصرفهم المطلق فى عالم الأحياء<sup>(١)</sup> » .

٤ — هذا الجزء الذى أحاط بابن نباتة ، جزئى والتقى والصلاح والزهد ، أثرى خطبه بأبلغ تأثير ، فأنافى فى ذكر الموت والبعث والحشر والميزان ، وأطال فيما سلق المحسنون من الثواب ، وما سيعانى المسيئون من العقاب . وهناك جزأ آخر أثرى خطبه وأعطاه صبغة قوية رهيبة ، فلهذا ذلك الجوهر اتصاله بسيف الدولة بن حمدان ، وكان سيف الدولة كثير الفزوات ، فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد لبعض الناس عليه ويحتم على نصرته سيف الدولة .

٥ - ولكن ما هي قيمة ابن نباتة الذي حثنا صاحب المثل السائر أن خطبه كانت منشورة بين أيدي الناس يفرمون بها ويكون عليها ، وأنها كانت في أنفسهم تساوى مقامات الحريري ؟

من الوجهة الفنية يعدُّ ابن نباتة من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة ، ويحجمه حسن مقبول . وربما كان السجع أقرب فنون البديع الى لغة الخطباء ، فهو أسرع تأثيراً في الجماهير التي لا تفطن إلا إلى الظواهر البراقة من حلية البلاغة والبيان . وربما كان في اختيار الواعظين للسجع اتصال للتقاليد القديمة التي عرفت عن الكهنة ، والكهنة هؤلاء كانوا رجالاً يؤدِّون في البيئات الجاهلية ما يؤدِّيه الخطباء الواعظون في البيئات الإسلامية ، والجمهور واحد أمام الفريقين : فهو دائماً طمة الناس الذين يملكون فيما تحوى السجعات من الألحان والأنغام والأوزان مثيلاً لما لا يدركون من التزعات الانسانية الكامنة التي يبعجها النغم والإيقاع .

٦ - وابن نباتة يجمع بين السجع والموازنة ، وذلك مما يهتم به الحريصون على التفوق في الصنعة اللفظية ، ولنضرب المثل بقوله :

” حتى إذا استحكت فيهم طابعة التخليد ، واستولت عليهم رفاهة التمهيد “<sup>(٢)</sup> .

وهو في هذه الكلمة قابل بين ” طابعة “ و ” رفاهة “ وبين ” التخليد “ و ” التمهيد “ ... وقوله :

” ولكن صال عليهم القضاء فأطرقوا ، وطال بهم المقاء فأخفقوا “<sup>(٣)</sup> .

فقد قابل بين ” صال “ و ” طال “ وبين ” القضاء “ و ” المقاء “ وبين ” أطرقوا “ و ” أخفقوا “ .

وكذلك قوله : ” فسلم عباد الله الى محاسبة النفوس ، قبل مواثبة النحوس ، ومقارنة الرموس ، ومعاينة اليوم العبوس ، يوم غرض الرعوس ، وفض الطروس “<sup>(٤)</sup> .

والموازنة في هذه الفقرات ظاهرة لا تحتاج الى تعيين .

(١) ص ١١٨ (٢) ص ٦٠ من ديوان الخطيب النباتية . (٣) ص ٦١ (٤) ص ٦٢

ومما يحيد به ابن نباتة تضمين آى القرآن ، وإنه ليحكم ذلك إحكاما تاما حتى تقع الآية في سياق الكلام موقعا لطيفا لا يتنبه له القارئ إلا إذا كان من الحفاظ ، وقد اختار له له ابن الأثير العبارات الآتية :

”فأيها الغفلة المطرقون، أما أتم بهذا الحديث مصنفون، فما لكم منه لا تشفقون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون“ .  
وقوله في ذكر يوم القيامة :

”هناك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا ، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سرايا ، يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا“ . وقوله أيضا ”هناك يرفع المجاب ، ويوضع الكتاب ، ويجمع من وجب له الثواب ، ومن حق عليه العقاب ، فيضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب“ .  
وهذه التضمينات كثيرة جدًا في خطبه ، وشهد لها ابن الأثير بأنها من محاسن ما يعنى في هذا النوع <sup>(١)</sup> .

٧ - وبجانب السجع والموازنة والتضمين يوجد فن آخر لا بن نباتة هو الكلف بالخيال . والخيال إذا ورد في أمثال تعابير المقتلة بالزخرف والصنعة والتجويد يقع من أقس الجمال . موقع السحر ، لأن رواد المساجد والمباعد يقبلون عليها غالبا بنفوس صافية سريرة التأثير والقبول . ومن نماذج التخييل البارع قوله يتحدث عن الله عز شأنه وهو يباهي ملائكته بأفواج الجحاج في عرفات :

”يحنون إلى حنين الطير إلى أوكارها ، ويفدون على من يفاج الأرض وأقطارها ، أنضاء على الأنضاء ، خواضا ليج الرضاء“ <sup>(٢)</sup> وأنا مجئني الخيال في قوله ”أنضاء على الأنضاء“ يريد الجحاج الذين أنضاءهم التقي والخوف على المطايا التي أنضاءها السير والسرى . وقوله

”خواضا بلج الرمضاء“ فيه أيضا خيال جميل ، وإن كنت لا أستجيد إضافة المصح إلى الرمضاء، لأن أيام الحج لا تكون دائما في القفط الشديد .

وقد يسموه التخيل الى بعض الصور الطريفة كقوله في بعض خطب الجهاد .

”قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعتنا الدنيا لإطاع السراب ، تهاوش على حطامها تهاوش الكلاب ، ونلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب، تنظر الى المعروف نظر الخنزير القصاب، ونسكن الى المنكر سكون الباني بالخلود الكهاب، وقد أظلنا من العدو صحاب ممتدة الأطناب، ودبت في ديارنا منه عقارب الخراب“<sup>(١)</sup> ؛

وقوله في خطبة أخرى : ”إن اللجنة بابا حدوده تطهير الأعمال، وتشيدته لإنفاق الأموال، ومساحته زحف الرجال إلى الرجال، وطريقه غمضة الأبطال، ومفتاحه الثبات في معترك القتال، ومدخله من مشرعة الصوامر والنبال“<sup>(٢)</sup> .

٨ — أما من الوجهة العقلية فإن نباتة يقف دائما في حدود الأفكار السلطحية، فيبدئ ويبعد في ذكر الموت والمعاد ، ويتكلم على فضائل المواسم والشهور : فيستقبل أول السنة وبين فضل يوم عاشوراء، ثم يخطب في فضل رجب، ثم يودعه ليستقبل شعبان، ثم يودع شعبان ليستقبل رمضان ، وهكذا دواليك من الشئون التي تهتم العوام . وأهم خطبه من الوجهة المعنوية خطب الجهاد ، ولكنها أيضا خطب يملؤها الصخب ويقل فيها الروح المثهب والرأى السديد . وهي دائما دون خطب علي بن أبي طالب التي كانت يحفظها ابن نباتة ويتأثرها في جميع مواقف الخطابية . ومن الصعب أن نجد في خطب الجهاد فقرة تستحق الخلود ، أو تدل على عمق في الفكر أو سمو في الخيال ، وإن كنا نرضى عن مثل قوله : ”فقدّموا مجاهدة القلوب، قبل مشاهدة الحروب، ومغالبة الأهواء ، قبل عمارية الأعداء“<sup>(٣)</sup> وقوله : ”واستمعروا السكينة اذا كشفت الحرب قبابها ، وأطار الإقدام عقابها ، وأحرر اللطام ضرابها ، وأمر الحسام شرايها ، ونزلتم للجهاد متلا قد أشرعت إليه اللجنة أبوابها ،

(١) ص ١٨٠ من ديوان الخطب الباتية (٢) ص ١٨٤ (٣) ص ١٨٣



وطالعت الحور الحسن منه أحبابها ، وقيل هذه عروس دار الآمال فكونوا الآن خطابها ،  
وصرخ الشيطان بطغام أعوانه ، وأرعد وأبرق بأضاليل بهتانه ، وهول باحتشاد عبدة صلبانه ،  
وضمن لهم ما هو غفر في ضمائه ؛ وجاء الحق وبطل التفاق ، وانسدت ببيش العدو الجهات  
والآفاق ، فأنحدوا هنالك بصواعق الزمات وجهه ، وأبطلوا بصوادق الحملات حججه ،  
وأضربوا بيض الصفاح شبحه ، وأركبوا ببذل الأرواح بجهه ، وانهبوا بالموت الصراح مهجه<sup>(١)</sup> .

ومهما يكن من شيء فقد استطاع ابن نباتة أن يملك ألباب الجماهير بخطبه ، وعرف كيف  
تسامح العامة وكيف تفرس في صدورهم بذور التقي والإباء ، واستطاع أن يؤدي الأغراض  
المرجوة من مثله في تعابير فصيحة لو أنها رزقت من العمق ما رزقته من السلاسة لكانت  
مثلا في براعة الإنشاء . وعذر الرجل أنه كان يخاطب طوائف من الناس العمق في مخاطبتها  
عني ، والتبدل في إفهامها إفساح . ولكل مقام مقال .

## ٥ - أبو محمد بن حزم <sup>(١)</sup>

١ - كان الناس يعرفون عن ابن حزم أشياء قليلة من حياته الخاصة، ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس في عصره ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمذاهب الفلسفية والدينية التي تأصلت جذورها عند علماء المسلمين، وكتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد .  
ويعد ابن حزم أفصح كاتب عرقة اللغة العربية في الفقه والتشريع .

ولكن تين أخيرا أنه كان لذلك الامام قلب خفاق ، وأنه حمل راية الحب في زمانه واستهدف على عظمته للقليل والقال . وأول ما عرف ذلك كان في دوائر المستشرقين حين طبع كتابه "طوق الحمامة" في لندن سنة ١٩١٤ بتأية المأسوف عليه الأستاذ يتروف . وقد أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة جدا في أوروبا وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل . وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتابا ألف في "فن الحب" قبل ذلك الكتاب لافي اللغات القديمة ولا في اللغات الحديثة، لأن أوروبا في القرن العاشر لليلاد كانت معارفها قليلة جدا في الشؤون الوجدانية . فكان من المستظرف حقا أن يكتشف الباحثون أنه كان في ذلك العصر كاتب عربي يتناول حديث الحب والعشق والهيام في تفصيل شائق جذاب هو آية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب . وذلك كله يقع من رجل كان إماما من أئمة الدين، ومثالا يُحتذى في أدب النفس، وكرم الطبع، ومثانة الخلق . وما كاد

(١) كان ابن حزم خليفا بأن يكتب في ترجمة حياته فصل خاص، ولكنا راعينا أن نخصيه فلسفة وفقهية قبل أن تكون أدبية، ولولا كتابه في الحب لما عرضنا لثرة الفنى في هذا الكتاب . ولد أبو محمد على بن حزم سنة ٣٨٢ في قرطبة . وتوفي سنة ٤٥٦ ومن جيد شعره :

واف مكاتنا ضائق غنى لضيق \* على أنه فيج مهامه سبب  
واف رجلا ضيق لضع \* وإن زمانا لم أتل خصه جلد

ينشر كتاب (طوق الحمامة) حتى أُقبل على تقديمه وتصحيحه جماعة من كبار المستشرقين أشهرهم : جولدزهيير ، ودوزي ، وبروكلمان ، والدكتور ستوك هو جرنيه ، والمسيو مرسيه . وتسايق للمستشرقون الألمان والنمسيون والمولنديون والفرنسيون والإنجليز والأمريكيون إلى استغلال ذلك الكتاب وتلخيصه أو ترجمته والتعليق عليه .

وكان تصحيحه بعد رياضة أدبية لكبار المستشرقين فما زالوا يبدون ويعيدون حتى جاء المسيو مرسيه فوضع بحثاً هاماً جداً بالفرنسية استدرك به كل ما فات أولئك المصححين من الأغلاط . وقد رأى أحد المصريين وهو في باريس أن يداعب المسيو مرسيه فعاد إلى طوق الحمامة فراجعهم مراحة دقيقة كشف بها طائفة من الأغلاط غفل عنها المسيو مرسيه حين أراد أن ينطق بالقول الفصل في تحرير ذلك الكتاب . ثم قدمت تلك التصحيحات إلى جامعة باريس فأقرها المسيو دي مومبين والمسيو ما سيثيون .

٢ - في كتاب طوق الحمامة كلمة عن غرام ابن حزم ، وهو يحدثنا بأنه كانت له صبوات في عهد الطفولة . وأنه قال قصيدة قبل بلوغ الحلم أولها :

دليل الأسى نار على القلب تالغح      ودمع على الخدين يهيم ويسفح  
إنّا حكم المشغوف سر ضلوعه      فإن دموع العين تبسدى وتفضع  
إذا ما جفون العين سالت شؤونها      ففى القلب داء للفرام مبرح<sup>(١)</sup>

ويرى ابن حزم أن المحبة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهدة وتمسك الأتس . ويقول في ذلك :

”وانى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة . وما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لى دهرًا ، وأخذى معه فى كل جد وهزل . وكذلك أنا فى السلو والتوق : فما نسيت لى ودًا قط . وإن حنينى إلى كل عهد تقدم لى ليغصنى بالماء ، ويشرقى

بالطعام . وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما ملئت شيئا قط بعد معرفتي به ولا أسرعت إلى الأتس شيء قط أول لقائي له ، ولا رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذكنت . لا أقول في الآلاف والأخوان وحدهم . لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ولا فارقتي الإطراق مذقت طعم فراق الأحبة . وأنه لشجا يتادنى وولوع هم ما ينك يطرقني . ولقد نقص تذكرى ما مضى كل عيش أستأنفه . وإنى لقتيل الموم في عداد الأحياء وذئب الأسمى بين أهل الدنيا . والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفي ذلك أقول شعرا منه :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة	ولا وريت حين ارتياح زانها
ولكن على مهل سرت وتولدت	لطول امتزاج فاستقر عمادها
فلم يلد منها عز منها وانتقاضها	ولم يتأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة	ثم سرى عن قريب نضادها
ولكنى أرض عزاً أصلية	منيع إلى كل الفروس اتقيادها
فما فقت منها لبها عروقها	فليست تبلى أن يحود عهادها <sup>(١)</sup>

٣ — ويرى ابن حزم أن دوام الوصل لا يودى بالحب . وله في ذلك كلمة لم أقرأ أبلغ منها في شعر ولاثر . وأنظر كيف يقول :

”إني ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمأ : وهذا حكم من تداوى بدائه وإن رفه عنه سرى . ولقد بلغت من التمكن بن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراعها مرى فما وجدتني إلا مستريدا . ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسأمة ولا رهقني قلة . ولقد ضمني مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أجل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرا عن مرادى وغير شاف وجدى ولا قاض أقل بئانه من بئاني ، ووجدتني كلما ازدت ذنوا ازدت تلذذا ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى . فقلت في ذلك المجلس :

وددت بأن القلب شُقَّ بمِدية      وأدخلت فيه ثم أطبق في صدرى  
فأصبحت فيه لا تحلين غيره      إلى منقضى يوم القيامة والحشر  
تعيشين فيه ما حيت فان أمت      سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

وما في الدنيا حالة تمحل عجيب إذا عدما الرقاء ، وأمتا الوشاة ، وساما من الين ، ورغبا  
عن المهجر ، وبسدا عن الملل ، وفقدا العذال ، وتوافقا في الأخلاق ، وتكافيا في المحبة ، وأتاح  
الله لها رزقا داترا ، وعيشا قاترا ، وزمانا هاديا . وكان اجتباعهما على ما يرضى الرب من الحال<sup>(١)</sup> .

٤ — وكان ابن حزم مفرما أشد الإغرام بتتبع أخبار العشاق والمحبين ممن عاصروه وبخاصة  
الكتاب والشعراء والوزراء . وكان يجد في ذلك متعة نفسية غريبة . ومن تلك الأخبار التي  
عرفها بنفسه أو نقلت إليه عن معاصريه كانت مادة كتابه (طوق الحمامة) فهو يتحدث عن  
الواقع لا عن الخيال . وقد تلمّظ كثيرا من محاسن العشاق ومساوئهم ودون في كتابه أخبارا  
غريبة عن أهل الشوق وأهل المغاف ... ومن ذا الذي لا يستطيع قوله :

”وإني لأعلم من أت دار محبوبة زما ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم  
وأستيفائه حتى دعت نوى ثانية فكاد أن يهلك : وفي ذلك أقول .

أطلت زمان البعد حـ إذا أقضى      زمان النوى بالقرب عدت إلى البعد  
فلم يك إلا كره الطرف قريبكم      وعاودكم هدى وعاودنى وجدى  
كما حار في الليل ضاقت وجوهه      رأى البرق في داج من الليل مسود<sup>(٢)</sup>  
فأخلفه منه رجاء دوامه      وبعض الأراجى لا تفيد ولا تمجدى“

ولننظر بأى رقة يتكلم عن رسائل الحب — وللقارئ أن يسأل نفسه بعد ذلك كيف صحت  
التجارب لرجل كان يعيش للفقه والفلسفة والدين في أواخر القرن الرابع وصدر القرن الخامس — :  
”والكتب آيات . ولقد رأيت أهل هذا الشأن يادرون بقطع الكتب ويملؤها في الماء  
ويحرقونها قرب فضيحة كانت بسبب كتاب . وفي ذلك أقول :

عزيز على اليوم قطع كتابكم      ولكنه لم يلف للسود قاطع  
فأثرت أن يتي وداد ويمتحي      مداد فان الفسح للاصل تابع  
فكم من كتاب فيه مئة ربه      ولم يدره اذ تمقته الأصابع

وينبغي أن يكون شكل الكتاب اللطيف والأشكال وجنسه أملح الأجناس . ولعمري إن الكتاب للسان في بعض الأحيان : إما لخصر في الإنسان وإما لحياء وإما لهيبة ، نعم حتى أن لوصول الكتاب إلى المحبوب وعلم الحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها الحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب والنظر إليه سرورا يعدل اللقاء . ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عيذه وقلبه ويمانه . ولعمري يبعث أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول ويمسح الوصف وبعبر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدة ويمجد النظر ويدقق في الحقائق لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصول ، قريب الدار ، ذات المزار ، ويمحى أنها من وجوه اللذة . وأما سقى الحبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه بحبوه بسقى الحبر بالريق . وفي ذلك أقول :

جواباً أتاني عن كتاب بعثته      فسكن مهتاجاً وهيج ساكناً  
سقيت بدمع العين لما كتبه      فقال محب ليس في الود خائناً  
فما زال ماء العين يحو سطوره      قياماء عيني قد محوت المحاسناً  
غدا بدموعي أول الخط ينسأ      وأضحى بدمعي آخر الخط باشأ

ولقد رأيت كتاب محب إلى محبوبه وقد قطع في يده بسكين له فسال الدم وأستمد منه وكتب إليه الكتاب أجمع : ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت أنه بصيغ الملك<sup>(١)</sup> .

• وفي هذه الفقرات صور لألوان من الحياة الوجدانية التي كان يحياها أهل الأدب والفلسفة وبعض رجال الدين في تلك العصور .

وفي اهتمام آبن حزم بتدوين تلك الأخبار دليل على أن العرب في الأندلس كانوا ينظرون إلى الحب في القرن العاشر بنفس العين التي كان ينظر بها الفرنسيون والانجليز والألمان إلى الحب في القرن التاسع عشر .

(١) ص ٣١ و ٣٢ والاك بالفتح نبات يصنع به وبالضم قه أو عصارة .

ولم تكن تلك النظرة خاصة بعرب الأندلس . وإنما كانت معروفة عند العرب في الشرق . ومن العجيب أن فقهاء الشريعة الإسلامية هم الذين افردوا من بين رجال الأدب العربي بإجادة هذا النوع من التأليف . وخاصة فقهاء الظاهرية كابن حزم ومحمد بن داود صاحب كتاب الزهرة الذي ألفه لمعشوقه محمد بن جامع .

ودراسة الحب باب من علم النفس لا يتقنه إلا الأفالون . والناس يحسبون الكلام في الحب لونا من اللعب . لأنهم ينفلون عن طبائع النفس الانسانية التي لا تخلو من صبوات في كهولة أو شباب .

وقد عرف كتاب العرب وشعراؤه ومفكره قيمة تلك الدراسات النفسية فأضافوا بها الى علم النفس ثروة عظيمة لا تخطر لكتاب الشرق في بال .

٦ — وقد وصل ابن حزم الى نتائج كثيرة من دراسته للحب والجمال ففهمنا منه مثلا أن الحسن يتلون وفاقا لأقنتنا له : فهو يذكر أنه يفضل الشعر الأشقر : لأن الفتاة التي أحبا لأول عهده بالحب كانت شقراء الشعر . وفي هذا يقول :

” ولقد شاهدت كثيرا من الناس لا يهتمون في تميزهم ، ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم ولا تقصير في حديمهم قد وصفوا أحبايا لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ولا يرضى في الجمال فصارت هجيرا لهم وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم . ثم مضى أولئك إما بسلا أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب وما فارقههم استحسان تلك الصفات ولا بأن عنهم تفضيلها على ما هو أفضل منها في الخلقة ولا مالوا الى سواها . بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم الى أن فارقوا الدنيا . وانقضت أعمارهم حينئذ منهم الى من فقدوه وألفه لمن صحبوه .

وما أقول إن ذلك كان تصنعا لكن طبعنا حقيقيا واختيارا لا دخلة فيه ولا يرون سواه ولا يقولون في طي عقدهم بغيره . وإني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص في

(١) في الأصل (الخلقة) . (٢) الوقص ، بالتحريك ، قصر المتى .

استحسن أعيد ولا غيلة بعد ذلك . وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة الى القصر  
فما أحب طويلة بعد هذا . وأعرف أيضا من هوى جارية في فيها قوة لطيف فلقد كان  
يتقذر كل ثم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف من مقوصى الحفظ  
في العلم والأدب ، لكن عن أوفر الناس قسطا في الإدراك وأحقهم باسم الفهم والدراية .  
دعني أخبرك أني أحببت في صباى جارية لي شقراء الشعر فاستحسن من ذلك الوقت  
سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه، وإنى لأجد هذا في أصل تركيبي  
من ذلك الوقت لا تواتيني نفسى على سواء ولا تحب غيره البتة .

وهذا العارض بعينه عرض لأبي رضى الله عنه . وصل ذلك جرى الى أن وافاه أجله<sup>(١)</sup> .  
ومثل هذا الكلام النفيس يفسد بطول الشرح والتعليق فليتأمل القارئ أن شاء . ولعلم  
أن هذا منهج جميل في علم النفس ويمثل هذه الملاحظات الشخصية تتكون حقائق كثيرة  
في تقييد ألوان الطباع والفرايز والنفس .

٧ - ولنعرض لرأى ابن حزم في طبيعة المرأة نرى ما فطرت عليه في علاقاتها مع الرجال  
فقد شق الناس قبلنا في فهم ذلك المخلوق اللطيف الذى يقسم الحفظ في خبث ولؤم ويقضى  
بين المحبين بمثل ما تقضى به الحية العمياء حين تدخل أبراج الحمام .

وفي ذلك متعة عقلية وروحية فإن المرأة تبدو للرجل في صور مختلفة بعضها كره وبعضها  
مقبول، وفقا لما تتلون به من غدر أو وفاء، وهى في حالها سم حلو المذاق ، فهى سر ما تلقى  
في دنياها من رشد ونحى، وبؤس ونعيم .

وليعرف القارئ أولا أن مثل هذه الدراسات لا يراد بها أن تكون عوناً على فهم المرأة  
فستظل معقدة مهما كثرت الشروح والتفسير . ولكن الجميل في مثل هذه الدراسات أنها  
تقدم الى القارئ صورة حية لنفس صدقت في الحب : هى نفس ابن حزم . وهو رجل قليل  
الأمثال بين رجال الوجدان .



ولمى لأعترف بأنى أرى — حين أدرس مثل هذه الآراء — أن نفس الرجل لم تتغير فى تلقوق المرأة وأن المرأة لم تتغير فى حبها للرجل وطفليتها عليه . فتحن نحب أن نفترض أن هناك فروقا جوهرية فى الأدواق والأحاسيس ، وأن الزمن باعد بين القدماء والمحدثين فى فهم طبائع الأشياء . ولكننا حين نستمتع ماقال الأسلاف فى صديق وإخلاص ، نجد الطبيعة الانسانية هى هى لم تتغير إلا بقدر ضئيل . وهنا هو السر فى تعلقنا بالأدب القديم وحرصنا عليه فقد يكون "القدم" لوأنا لنويا يرجع الى طرائق التعبير . ثم يظل الأدب على اختلاف المصور متقاربا جدا فى شرح أسرار النفوس .

كان ابن حزم منذ طفولته مغرما بدرس المرأة ، ولننظر قوله :

"لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرة : لأنى ريت فى مجورهن ونشأت بين ألبين ولم أعرف غيرهن . ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب أو حين تبطل وجهى . وهن علمنى القرآن ، ورويتنى كثيرا من الأشعار ودربتنى فى الخط . ولم يكن وكدى وأعمال ذهنى مذ أتت فهى وأنا فى سن الطفولة إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك ، وأنا لا أنسى شيئا مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن فى جهنهن فطرت به فأشرفت من أسبابهن على غير قليل<sup>(١)</sup> ."

ويستخلص من هذه الفقرة أن تربية الأطفال وتعليمهم الخط والقرآن والأدب كان يوكل أحيانا الى النساء فى الأندلس فى أواخر القرن الرابع . ويستخلص منها أيضا أن النساء فى منازل الوزراء — كما هو الحال فى جميع بقاع الأرض — كانت تقع منهن هفوات تلفت أنظار الأطفال وتعلمهن على الشك وسوء الظن . والطفل كثير التطلع الى أخبار من يعاشرن النساء .

ولم تقف معرفة ابن حزم للمرأة عند تلك الحدود الضيقة التى كان يتلقى فيها الدروس ، بل اتفق له وهو يافع أن أحب جارية كانت له اسمها "نعم" وكانت أمنية المتمنى ، وغاية فى حسن

الخلق والخلق . وقد نجسته فيها الأقدار واخترمتها الآليات وسننه دون العشرين وكانت هي دونه في السن وفي بغيته بها يقول :

”لقد أقيمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي، ولا أفترلي دمية على جمود عيني وقلة إسماعها . وعلى ذلك فوائده ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالذ وطارف، وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد عفا حبي لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده“<sup>(١)</sup> .

٨ — تحمّلت ابن خزم كثيرا عن وفاء المرأة وقدرها، وتلك مسألة لاحكم فيها لنغير الطباع والظروف . وأروع ما حدثنا به القصة الآتية :

”أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمي، وكانت متروجة بمحيي بن محمد بن الوزير يحيى ابن إسحاق فعاجلته المنابا وهما في أغص عيشهما، وأضر سرورها . فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه في دثار واحد ليلة مات . وجماعته أتمر العهد به وبوصله، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها“<sup>(٢)</sup> .

وهذه قصة تستثير الدمع، وفيها أبلغ معاني الوفاء .

ويشبه هذه القصة الموجهة قوله في كلمة ثانية :

”وأنا أخبرك عن أبي بكر أخى رحمه الله وكان متروجا بماتكة بنت قند صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبي عامر . وكانت التي لا مرمى ورامها في جمالها وكرم خلاها . ولا تأتي الدنيا بمثلا في فضائلها . وكانا في حد الصبا وتمكن سلطانه . فيغضب كل واحد منهما للكلمة التي لا قدر لها : فكانا لم يزالا في تفاضب وتماتب منذ ثمانية أعوام . وكانت قد شفها حبه وأضناها الوجد فيه وأنحطها شدة كلفها به : حتى صارت كالتحاليات المتوسيم، لا يليها من الدنيا شيء، ولا تسر من أموالها بكثير ولا قليل إذ فاتها انخافه معها، وسلامته لها، إلى أن توفي أخى رحمه الله : فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام

في اليوم الذي أكل فيه هوت تحت الأرض عاما . ولقد أخبرتنى عنها أمها وجميع جوارها أنها كانت تقول بسده : ما يقوى صبرى ويمسك رمقى في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبدا، فقد أمنت هذا الذى ما كنت أتخوف غيره . وأعظم آمالى اليوم الحلاق به <sup>(١)</sup> .

٩ - والمرأة - كما عرفها ابن حزم - أكثر مواساة وإسعادا في الحب من الرجل ، وعند النساء من المحافظة على مر الحب والتواصى بكتامه مالم يس عند الرجال . ويقول في ذلك :

”وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهى عند النساء محقوة مستقلة . وإنه ليوجد عند المعازن في هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات . لأن الفتيات منهن ربما كشفتن ما علمن على سبيل التغاير، وهذا لا يكون إلا في الندرة . وأما المعازن فقد يئسن من أنفسهن فأنصرف الاشفاق محضا الى غيرهن .

وإنى لأعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على إحدى جوارها أنها تشفق فتى من أهلها ويشفقها، وأن بينهما معانى مكروهة وقيل لها إن جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندنا جلية أمرها . فأخذتها وكانت غليظة العقوبة فأذاقتها من أنواع الضرب والأذى ما لا يصبر على مثله جلدها الرجال رجاء أن تبوح لها بشيء مما ذكر لها فلم تفعل البتة ... وإنى لأعلم امرأة جليظة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بها وكان في غير ملكها فعرفته الأمر فرام الانكار فلم يتبأ له ذلك . فقالت له : مالك؟ ومن ذا الذى عَصِم؟ فلا تبال بهذا فوالله لا أطلعت على سرىكا أحدا أبدا، ولو أمكننى أن أبتاعها لك من مالى ولو أحاط به كله لجعلتها لك في مكان تصل اليها فيه ولا يشعر بذلك أحد <sup>(٢)</sup> .

وهذه الفقرة تشعرننا أن الدنيا تغيرت وأن زمن الخير مضى وراح !

١٠ - وقد فكر ابن حزم في تحليل هذا الخلق وهو يرى أن المرء في تمكن طبع المواصلة من النساء أنهن متفرقات البال من كل شيء إلا من الحب ودواحيه، والفزل وأسبابه، والتأليف ووجوهه . ولا كذلك الرجال : فانهم مشغولون بطلب العلم وكسب المال ومكابدة الأسفار، ومباشرة الحروب، وملاقة الفتن، وتحمل المخاوف، وعمارة الأرض . وهذا كله صافٍ للنفس عن فهم معاني المواصلة والإسعاد . ومن هنا يحدثنا ابن حزم أنه قرأ في سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشغلن بها أبد الدهر لأنهم يقولون ان المرأة اذا بقيت بغير شغل إنما تقتشوق الى الرجال<sup>(١)</sup> .

وهذا الذي يشير اليه ابن حزم هو الحقيقة الباقية : فالقراغ كان ولا يزال هو الأصل في فساد النساء . وهو كذلك الأصل في فساد الرجال : فان العلائق الدنسة المنحطة لا تفتح إلا من الفارغين . ومن أجل ذلك يظن كثير من المفكرين أن النساء اللاتي ينهضن ببعض الواجبات الفردية أو الاجتماعية لا يتعرضن لمثل ما يتعرض له النساء الفارغات مهما زعموا أن الاتصال بالناس هو أصل الفساد وأن التحجب هو أصل الصيانة والعفاف .

ولا يتوهم أحد أن المراد من شغل المرأة هو القضاء على الصلات الجنسية ، فان تلك الصلات أساس المجتمع ، وهي كذلك أصل الحياة ومنها تفرعت البنات والأمهات . وإنما المراد أن تقضى بالرياضات المعقولة على الترقق والعطيش والاسراف في الشهوات . وملاك الأمر في هذا كله الحياء وهو خلق يستفاد من إدراك المسئوليات والتبعات . وذلك لا يتيسر للفارغين العاطلين من رجال أو نساء .

١١ - ومن رأى ابن حزم أن المرأة والرجل سواء في الضعف . وليس أحدهما بأقوى من الآخر على ضبط النفس . فإما من رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم مانع إلا وقع في شرك الشيطان ، ولا امرأة دعاها رجل باسم الحب إلا وأمكنته وإن طال الزمان .

ولكن هل معنى ذلك أن الرجال والنساء جميعا معرضون للفساد؟ اسمع ما يقول ابن حزم في هذا المعنى فإنه خير ما قرأت في الأدب القديم والحديث :

”ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجودا وأعوذ بالله أن أظن غير هذا، وإنى رأيت الناس ينظرون في معنى هذه الكلمة — أخصي الصلاح — غلطا بعيدا . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضُبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع امتسكت . والفاسدة هي التي إذا ضُبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحملت في أن تُتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال لا يداخل أهل الفسوق، ولا يتعرض للناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع بصره إلى الصور البديعة التركيب . والفاسق من معاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة . ويتصدى للشاهد المؤذية، ويجب الخلووات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك . والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء“<sup>(١)</sup> .

١٢ — كان ابن حزم — كما أشرنا — مغرما بدرس المرأة، ونضيف إلى ذلك أنه حدثنا بأنه قضى حياته في البحث عن أخبار النساء وكشف أسرارهن وكان قد أنسن منه بكتان فكان يطلعنه على غوامض أمورهن : فأطلع منهن على عورات كثيرة وعرف من تنبهن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء . ومثل هذا السلوك مهلكة للرجل فإن التحدث إلى النساء والاطلاع على أسرارهن باب إلى الفجوة . ولكن اسمع ما يقول في ذلك :

« ومع هذا يعلم الله وكفى به عليا أنى يرى الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقي الجمجمة<sup>(٢)</sup> وإنى أقسم بالله أجل الأقسام إنى ما حلت مئردى على فرج حرام قط ولا يحاسبني ربي بكيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا . واهه المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقى<sup>(٣)</sup> » .

(١) ص ١١٦ (٢) المجرة ، بالنضم ، مقفد الإنزاع ، ومن السراويل موضع الكفة . (٣) ص ١١٨

والظاهر أن ابن حزم كان يحد حرجا من الكتابة في الحب والحديث عن الجمال وكان أهل زمانه يهتمونه بالليل إلى الإثم والفسوق . بقاء يقسم بالله أنه برئ الساحة سليم الأديم .  
حلفت فلم أترك لنفسك رغبة وليس وراء الله للسر مذهب

وقد يهزئ ناس أكتافهم حين يسمعون مثل هذا القسم من رجل قضى حياته في درس أسباب الهوى وفهم أسرار الجمال لأنهم لا يفهمون كيف يكون الحسن نفسه أهلا للدرس . ومن هنا استبعد جماعة من الفقهاء أن يكون (طوق الحمامة) من وضع ابن حزم : ظنا منهم أنه لا يهتم بمثل هذه الأبحاث إلا الفاسقون . وكان ابن حزم من أئمة الاسلام : فلا يعقل في ظنهم أن يشغل بسفاسف الحب والجمال !

وهذا الغلط يرجع إلى حقيقة ثابتة : فإن الفسق حجاب كثيف يحول دون فهم الحسن والعشق . وأكثر الناس لا يتناولون الحب إلا موصولا بالفسوق . وهؤلاء عذرهم واضح إذا أنكروا على مثل ابن حزم أن يشغل نفسه بالكلام عن الحب والمحبين .

أقسم ابن حزم أنه لم يرتكب كبيرة منذ عقل «والحر مؤتمن وإن لم قسم» وهذا التصون من جانب ابن حزم هو سر عقريته . فإن الجمال أعز وأمنع من أن يدرك أسرارها من يسومونه الهوان حين يطعمون في الدون من ملذات الحياة ؟

الجمال أهل للدرس . وليس بكثير عليه أن تنقضي في درسه أعمار الأئمة وعظماة الباحثين فإنه أشرف وأنفس ما في الوجود .

والذين يستهجنون درس الجمال لا يدركون كيف كانت تكون المصيبة لو أنصرف الباحثون إلى درس ما في وجوههم من دمامة ، وما في طباعهم من عوج ، وما في عقولهم من آثواء . إنما مثل الجمال كمثل النور المشرق الوهاج لا يثبت في مواجهته إلا أحماء العيون . فلا يحسب قوم أننا نرتاب في عى بصائرهم حين نراهم يستكتفون أن يشغل مثل ابن حزم بدراس أسرار الجمال !

## ٦ - أبو منصور الثعالبي

١ - كان عبد الملك بن محمد الثعالبي من أظهر الشخصيات في عصره . وقد صدق صاحب الذخيرة إذ قال فيه « كان في وقته راعى تلمعات العلم ، وجامع أشنات النثر والنظم ؛ ورأس المؤلفين في زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الابل ، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب ، طلوع النجم في الفياهب » .

وعبارة ابن إسام هذه قد تبدو كأنها نوع من المدح الفضفاض الذي يقال بلا حساب . ولكن الواقع أن الثعالبي فوق كل مدح ، وفضله على اللغة العربية أكبر من أن يقدر . وما ظنك برجل لو ضاعت مؤلفاته لفقدت اللغة العربية جزءا عظيما جدا من ثروتها الأدبية ومن الذي يستطيع أن يحدد خسارة الأدب لو ضاعت يتيمة الدهر أو مآثر القلوب ؟

ولد الثعالبي سنة ٣٥٠ وتوفى سنة ٤٢٩ والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب . قيل له ذلك لأنه كان فراء قبل أن يظهر أدبه ويعلو نجمه ، ويبعد صيته . اتصل بطائفة من رجال الأدب والملك في عصره ، منهم عبيد الله بن أحمد الميكالي ، ومأمون بن مأمون خوارزم شاه . وكان فيما يظهر مرضيا عنه من جميع من صهّبهم من الرؤساء والوزراء .

٢ - كان الثعالبي شاعرا وكاتبا ، وإن لم يكن شعره في الطبقة العالية . وقد استجاد قوله في النسب :

لما بعثت فلم توجب مطالعتي      وأمعنت نأر شوقي في ظلهما  
ولم أجد حيلة تبقى على رمقي      قبلت عين رسولني إذ رآك بها

(١) كان مكان الثعالبي بين كتاب النقد الأدبي أثير من مكانه بين كتاب الآراء والمذاهب . ولكنا لاحظنا أن له اتجاهات هسية تحميه من كتاب هذا الباب . (٢) ص ٥٢١ ج ١ وفيات .

أما ثره فبجد، يطلب عليه السجع، ولكنه برئ من التكلف ومن الغموض. وانظر قوله في وصف عبيد الله الميكالي: «ومن أراد أن يسمع سر النظم، ويحضر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الطرف، ونتيجة الفضل، فليستشده ما أسفر عنه طبع مجده، وأقره على فكره، من ملح تخرج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلامتها... وآيم الله مامن يوم أسعفى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالاعتباس من نوره، والاعتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألحظه، وآتتهب فرائد الفوائد من ألفاظه، إلا تذكرت ما آتشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومي:

لولا عجائب صنع الله ما نبئت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامي عنده غير وزآباد، إحدى قراه برستاق جوين، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سبيل القطر! فانها كانت بطلمسه البدرية، وعشرته العطرية، وآدابها العلوية، وألفاظها اللؤلؤية، مع جلائل إنعامه المذكورة، ودقائق إكرامه المشهورة، وفوائد مجالسه المعمورة، ومحاسن أقواله وأفعاله التي يميهاها الواصفون، أنموذجات من الجنة التي وعد المتقون. فاذا تذكرتها في تلك المرايع التي هي مراتع النواظر، والمصانع التي هي مطالع العيش الناضر، والبساتين التي إذا أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طوى لها الدياح الخسرواني، ونفى معها الوشى الصنعاني، فلم تشبه إلا بشيمه، وآثار قلبه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا ومجيا، وخيرا عميا، وإرتياحا مقيا، وروحا وريحانا ونعيا<sup>(١)</sup>.

٣ — أهمية الثعالبي من الوجهة الفنية لا ترجع إلى شغله بأزمات النفوس، وشهوات القلوب، وزروات الرؤس، وثورات العقول. وإن كان يظهر من ثنايا كلامه أنه رجل خبر النفس الانسانية، وعرف ما تُرزأ به من بلايا الحب والبغض، والرغبة والاشفاق، والطمع والاختناق، وتمرس بأحوال الاقبال والادبار، والغنى والفقر، والنعم والبؤس، وعرف كيف يصطرح الشك واليقين، والهدى والضلال.

(١) (انظر مقدمة قه القه).



وإنما هو كاتب شغل بتدوين الفنون الأدبية واللغوية، فقدم لأهل عصره ولقراء اللغة العربية في مختلف الممالك وعلى اختلاف الأجيال غذاء قويا للمقول والمشارع والأنواق، ووضع أمام قرائه صورا مختلفة للقرائح والمقاريات التي عرفها بنفسه أو سمع بأخبارها، أو قرأ آثارها، حتى يمكن الحكم بأن القرن الرابع كان يحى أو يكاد لو لم يظفر بذلك الحافظ الأمين.

٤ - للثعالبي مؤلفات كثيرة . منها كتاب الكليات، وضمه للكناية عما يستحسن ذكره، ويستقبح نشره، أو يستجى من تسميته، أو يطر منه، بألفاظ مقبولة تؤدى المعنى، وتحسن القبيح، وتلطّف الكثيف، فيحصل بها المراد مع العدول عما ينبو عنه السمع، ولا يأنس به الطبع .

وقد ذكر أنه لم يسبق بتأليف مثله . وهذا إن صح كان دليلا على تفوقه في الابتكار . ولكنى رأيت أحمد بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٨٢٤ يذكر في مقدمة كتابه في الكليات أن تصنيفه كذلك مبتكر مخترع لم يسبق إليه، ولم يلاح من قبل عليه، مع أن الثعالبي سبقه بنحو ثمانين سنة، ألا يمكن أن يكون الثعالبي أيضا يدعى السبق آداءً؛ وأن المؤلفين من قبله قد نسخوا ذلك المعنى في جمع أنواع التعريض والكليات؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به، وإن كنا أثبتنا هذا الفرض لمناسبة ما آداه الجرجاني من الابتكار مع أنه مسبق .

كتاب الكليات كتاب جيد مجمع، لا تمل معاودته، ولا تنصرف النفس عن الرجوع إليه . وهو يمثل براعة العرب واقتنائهم في التعبير . ولعل أجهل ما فيه ما يستجى من نقله . ولكننا نذكر بعض الكليات المستملحة التي أودعها الثعالبي كتابه مع الاعتراف بأننا نخيرنا أقل ما فيه روعة، إشارا للحفاظ والوقار .

حكى الصولي عن المكتفى في حديث له قال : سهرت البارحة فذكرت بعض أدوية السهر : فأنست فمنت . قال : فقلنا له : والله ما سمعنا بأحسن من هذه الكناية قط . فقال : والله ما سمعتها قبل وقى هذا وإنما ساقها اللفظ .<sup>(١)</sup>

(١) ودواء السهر كناية عن التلاح وعن السكر .

وكتب صاحب : إن سيدى أمتطى الأثنب فكيف وجد ظهره ، وركب الطيار  
فكيف شاهد جريه ، وهل سلم على حزونة الطريق ، وكيف تصرف ، أفى سعة أم ضيق ؟  
(وهذه قطعة من خطاب كتبه الى صديق دخل على عروسه) .

قال : ومن طريف الكناية عن أخذ العذرة ما قرأته فى أخبار بشار بن برد حين قال له  
يزيد بن منصور فى دار المهدي : يا شيخ ما صنعائك؟ قال : ثقب اللؤلؤ . وأرى صاحب  
أخذ منه قوله لأبى العلاء الأسدى وقد دخل بأهله :

وقد مضى يومان من شهرنا      فقل لنا هل تُثقب الدرُّ  
وله يقول أيضاً :

قلبي على الجمرة يا أبا الملا      فهل فتحت الموضع المقللا  
وهل فككت الكيس عن ختمه      وهل حلت الناظر الأحوال  
ولابن المبرد فى هذا المعنى :

أتم أبا حسن صباها      وأزدد بزوجتك أرتياها  
قد رُضت طرقتك خالبا      فهل استلنت له جمها  
وطرقت متلقا فهل      سئى الإله له أفتاحا

وأنشد أبو الفضل الميكالى لنفسه فى مداعبة كانت له بين أهله :

أبا جعفر هل فضضت الصدف      وهل إذ رميت أصبت الهدف  
وهل جبت ليلا بلا حشمة      لهول السرى سُدفا فى سُدف

قال التعالي : وبلغنى عن ابن عمر القاضى أنه كان لا يجلس لمخضوم حتى يتال من الطعام  
والشراب . ولم بأهله احتياطا على دينه وتعقفا بالخلال عما عساه تنوق نفسه اليه من الحرام  
أذا بدرت منه لحظة لمن عساها تتحاكم اليه من النساء الحسان . فقرأت لأبى إسحاق الصابى  
فصلا فى هذا المعنى بيته من كتاب عهد سلطاني لبعض القضاة تعجبت من حسن عبارته ،  
ولطف كآبته ، وهو :

«وأمره أن يجلس مخصوم وقد نال من المطعم والمشرب طرفا يقف به عند أول الكفاية، ولا يبلغ به إلى آخر النهاية، وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها، وعوارض البشرية بأسرها، لئلا يلم به ملم، أو يطيف به طائف، فيجلائن عن رشده، ويجولان بينه وبين سداذه»<sup>(١)</sup>.

٥ — ومن مؤلفات الثعالبي «كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» وهو كتاب بناه على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة يتمثل بها، ويكثر في النظم والنثر وعلى السن الخاصة والعامية استعمالها، كقولهم غراب نوح، ونار إبراهيم، وذئب يوسف، وعصا موسى، وخاتم سليمان، وحمار عزيز، وكقولهم كثر النطف، وقوس حاجب، وقرط مارية، وصحيفة المتامس، وحديث خرافة، ومواعيد عرقوب، وجزاء سفار، ويوم عبيد، وعطر منثم، ونسر لقمان، الخ.

ونحن نقول بدون تحفظ إن هذا الكتاب من أنفس ما كتب باللغة العربية. ولغة الثعالبي فيه تتمازج عن لفته في مآثر كتبه بالخلو من السجع، والجري على السجية السمعة بلا تشتر ولا التواء. وقد جمع الثعالبي في كتابه هذا أكثر ما عرف لمهده من الطُرف والنوادر والفكاهات والأقاصيص. وهو يصور علم معاصريه وجهلهم أتم تصوير. ولملذه الملاحظة قيمتها، فليس كل ما في كتاب ثمار القلوب حقائق ثابتة، وإنما هو مجموعة من الحقائق والأكاذيب التي قبلها معاصروه، وعدوها من العلم الصحيح.

فإن أغلاطه الكلام عن ثمانين مصر إذ ارتضى قول الجاحظ: الثمانين لا تكون إلا بمصر والها حوّل الله تعالى عصا موسى عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي ثمان ميين﴾، يعني أنه حولها ثمانا. والثمان عجيب الشأن في إهلاك بني آدم، فليس له عدو إلا النفس وهي إحدى عجائب الدنيا، وذلك أنها دوية متحركة، فإذا رأت الثمان دبت منه فينطوى الثمان عليها يريد أن يعضها ويأكلها فتحبس في بطنها ريمًا،

(١) أنظر ص ١١ و ١٢ و ١٣ (٢) طبعه المرحوم محمد بك أبو شادي سنة ١٣٢٦ هـ.

وتزفر زفرة فتقدّ الثعبان قطعتين ، ولولا النمس لأكلت الثعابين أهل مصر . وهى هناك أُنْعِمَ  
لأهلها من القنافذ لأهل مجستان .

وهذه فكرة غير صحيحة ، فالثعابين موجودة فى مصر وفى غير مصر . وليس للثعابين فى مصر  
كل هذا الخطر ، فقد تمضى القرون ولا يسمع بملدوغ . وإن كان فى فطرة الأهل عداوة  
الثعبان ومهاجمته حيث وجدوه ، وهى فطرة الناس فى جميع البلاد .

وقد عرض الثعالبي لصناعة أهل الصين فدلنا على أن معاصريه لم يكونوا بارعين فى النقش  
والتصوير إذ قال : "وأهل الصين مختصون بصناعة اليد والحلق فى عمل الطُرف ، يقولون :  
أهل الدنيا ما عدنا عُمى ، إلا أهل بابل ، فانهم عُور . ولهم الإغراب فى نرط التماثيل ،  
والإبداع فى عمل النقوش والتصاوير ، حتى أن مصوّرهم يصوّر الإنسان ولا ينادر منه شيئا ،  
ثم لا يرضى بذلك حتى يصوّره ضاحكا أو باكيا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك  
الشامت وضحك الخجل ، وبين المبتسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ ، فيصوّر  
صورة فى صورة <sup>(١)</sup> .

وهذا الذى يراه الثعالبي غريبا من أهل الصين عادى لا غرابة فيه عند الأمم التى تُعقِّق  
بالتصوير ، ولكن عذر الثعالبي وعذر معاصريه وأسلافه أن النقش والتصوير كانا مما يحاربه  
رجال الدين ، فبقيت لذلك صناعات اليد خاملة أو ضعيفة عند كثير من الناس .

٦ — ومن دقائق الإضافات فى ثمار القلوب أنها ترىنا فهم العرب لكثير من الطباع  
الانسانية والحيوانية . من ذلك (عرق الخلال) فإن العرب تقول : عرق الخلال ليتام . يريدون  
أن عرق الخلال أنزع من عرق الهم . قالوا : والدليل على أن نصيب الأمهات فى الأولاد أكثر  
وأنها على الشبه أغلب ، أن أكثر ما تلد الأمهات الإناث . وكذلك جميع الحيوان . فإذا  
أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشر دور من يمينك وعشر من شمالك  
وعشر من خلفك وعشر من أمامك ، فانظر أيها أكثر ، رجالهم أم نساؤهم ، واعتبر ذلك فى الإبل

والبقر والشياه . وهم يطلون ذلك بأن الولد لا يتخلق من ماء الأب دون ماء الأم ، والأب إنما يقذف مثل المخطئة أو البصقة ثم يستزل أو يقبب أو يموت أو يكون حاضرا ، والأم منها الرحم وهو القلب الذى يطبع على الولد وتفرغ فيه النطفة كما يفرغ الرصاص المذاب فى القلب . فإذا وقع ماء الرجل وماء المرأة فى القلب وفى قرار الرحم فامتزجا تشعب خلق الولد على قدر تشعب الرحم ، ثم لا يقتضى إلا من دم الأم ، ولا يمص إلا من قواها ، ولا يجذب إلا من الأجزاء التى فيها من لطائف الأغذية . وله ذلك مادام فى جوفها . فإذا ظهر غذته بلبنها ، ولا يشك الأطباء فى أن اللبن دم استحال عند خروجه ، فهى تغذوه بدمها حريتين ، وتريد فى خلقه من أجزائها دفتين ، ولذلك صار حب النساء للأولاد أشد من حب الرجال <sup>(١)</sup> .

وهذا رأى قد يرتاب علماء اليوم فى بعض تفاصيله ، ولكنه فى جملة يدل على دقة الملاحظة عند علماء العرب وعند جمهور العرب نفسه ، فقد نفى الشعراء فى الجاهلية وفى صدر الاسلام بفضل الخال وعذوه من جملة الآباء .

٧ — وفى ثمار القلوب إشارة الى كتيب الثعالبي اسمه (حشو اللوزينج) يبين غرامه بتصيد دقائق الأساليب . وحشو اللوزينج يضرب مثلا للنهى ، يكون حشوه أجود من قشره . وذلك أن حشو اللوزينج خير منه فيشبه به الحشو فى الكلام يستنى عنه وهو أحسن منه . وهو نادر فى كلام العرب ، ومن أشهره قول عوف بن محم :

إن الثمانين وبلتتها قد أحوجت صمى الى ترجمان

ف قوله (و بلتتها) حشو مستنى عنه ، ومعنى الكلام يتم بدونه ، ولكنه أحسن من جملة . قال الثعالبي : سمعت أبا الفرج يعقوب بن ابراهيم يقول : سمعت أبا سعد رجاء يقول : دخلت يوما على أبى الفضل بن العميد فقال لى : إمض الى أبى الحسين بن سعد فقل له : هل تعرف لقول عوف (إن الثمانين وبلتتها) ثانيا فى كون الحشو أحسن من المحشو ؟ قال : فسرته اليه وبلغته الرسالة فقال : سألني عنه محمد بن علي بن الفرات فسألت أبا عمرو غلام ثعلب

فقال سألت عنه تعلبا فلم يأت بشيء، ثم بلغني أن عبيد الله بن عبد الله سأل المبرد عنه فأنشده قول عدى بن زيد لابنته زيد بن عدى في حبس النعمان :

فلو كنت الأسير - ولا تكنه! - اذنت علمت مَعْدَةً ما أقول

قوله (ولا تكنه) حشو مستغنى عنه، ولكنه في الحسن نظير (وبلغتها) .

واستطرد الثعالب فنقل عن كَلْب حشو اللوزينج أن المأمون قال يوما ليحيى بن أكرم : هل تغديت اليوم؟ فقال : لا ، وأيد الله أمير المؤمنين ! فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها ! وذلك أنه لو قال : لا أيد الله أمير المؤمنين ، لكان أشبه بالدعاء عليه لاله ، ولكنه استظهر بالواو وجعلها حاضرة بين "لا" و"أيد الله أمير المؤمنين" حذرا من وقوع الشبهة . وكان صاحب يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ في حدود المرد الملاح .

وعناية الثعالب بالبحث عما عجز عنه أئمة اللغة والأدب واضح الدلالة على شغفه بأسرار البيان ، لا سيما وقد أطال التنقيب عن دقائق التمايز التي وقعت لمعاصريه كالصاحب والميكالي والخواارزمي وبديع الزمان .

٨ - وفي ثمار القلوب تفسير رواي لبعض الأمثال ، كقولهم (ماء عناق) وهو مثل يضرب للداهية . وخلاصة حديثه أن رجلا كان يسقى وبنته تلقاء وجهه فنظر فإذا رجل قد عانق امرأته يقبلها ، فأخذ العصا وأقبل مسرعا ، فلما رآته المرأة أخفت الرجل فيما بين المتاع ، فنظر يمنة ويسرة فلم ير شيئا ، فنظر في الأرض فلم يبصر أحدا ، فكذب بصره وكر راجعا . فلما كان الورد الثاني قالت المرأة : حل لك في أن اكفيك السقى وتزور اليوم؟ قال : نعم إن شئت . فأقام في البيت ، وانطلقت تسعى ، وتحينت منه غفلة ، فأخذت العصا وأقبلت حتى طلت بها رأسه . فقال : ويلك ! مادعالك؟ قالت : أين المرأة التي رأيتك معها معاظا لما ؟ فقال : والله ما كان عندي امرأة ! قالت : بل أنا نظرت إليها بيني وأنا على الماء . فتعافا . فلما أكثرت قال : إن تكوني صادقة فإن ماءكم هنا ماء عناق .

وفي كتاب ثمار القلوب كثير من أمثال هذه الأفايص . وهي فكاهات اخترعها الكتاب تفسيرا للأمثال التي جهلوا مواردها ، وربما اخترعوا المثل والقصة وأذاعوها في الناس ، فيظن من لا رأى له أنها من أثر الواقع لا من صنع الخيال .

٩ - وأشهر مؤلفات الثعالبي "قيمة الدهر" وهو كتاب عظيم أودعه أخبار من عصره من الشعراء . ألفه سنة ٣٨٤ ، ثم استمر في تحريره والإضافة اليه عدة سنين ، فكان يبنى فيه وينقص ، ويحوي ويشيت . وصار مثله فيه كمثل من يتألق في بناء داره التي هي عشه ، وفيها عيشه ، فلا يزال ينقص أركانها ، ويعيد بنيانها ، ويستجدها على أنحاء عدة وهيآت مختلفة ، فان مات فيها مغفورا له انتقل من جنة إلى أخرى وورد من جنة الدنيا على جنة المأوى ، كما قال<sup>(١)</sup> .

وقد قسم الكتاب أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على أبواب وفصول :

القسم الأول في محاسن أشعار آل حمدان وشعراتهم وغيرهم من أهل الشام وما يحاورها ومصر والموصل .

والثاني في محاسن أشعار أهل العراق والدولة الديلمية من طبقات الأفاضل وما يتعلق بها من أخبارهم ونواديرهم وفصوص من فصول المترسلين منهم .

والقسم الثالث في محاسن أشعار أهل الجبل وفارس وجرجان وطبرستان من وزراء الدولة الديلمية وكتبا وقضاتها وشعراتها وسائر فضلائها .

القسم الرابع في محاسن أهل خراسان وما وراء النهر من الدولة السامانية والفزنية والطائرين على الحضرة بخارى من الأفاق والمتصرفين على أعمالها ، وما يستظرف من أخبارهم ، وخاصة أهل نيسابور والفرهاء الطائرين عليها والمقيمين بها .

١٠ - والثعالبي في اليتيمة يؤثر السجع ، ولا يتركه إلا في أحوال قليلة ، ولكن يحجمه على كل

حال مقبول .

وهو قليل التعليل لأحكامه على الكتاب والشعراء . فإذا بدله أن يملأ ويحل وينقد فعل بلا تعمق ولا استقصاء ، ومن أمثلة تعليله قوله في تفضيل شعراء الشام وما يقارنها على شعراء سائر البلدان .

”والسبب في تميز القوم قديما وحديثا على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ، ولا سيما أهل الحجاز ، وبسببهم عن بلاد الحج ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمحاورة الفرس والتبطل ومداخلتهم أيام<sup>(١)</sup>“ .

وفي بعض الأحيان يطيل في ترجمة الشعراء والكتاب ، ولا يفعل ذلك إلا حين يعرض لمن أكثر خصومهم وأنصارهم وتشعب فهم الأقاويل ، كالكتني والصاحب وأبي فراس . وفيما عدا ذلك يلم إلما خفيفا قد يصل به إلى ترجمة كاتب أو شاعر في نصف صفحة . وذلك جانب من الضعف في ذلك الكتاب النفيس .

١١ — الثعالب في اليتمة مقتون بالاسراف في إطراء من يتحدث عنهم من مشاهير الرجال . وله في ذلك تماير تكاد تكون واحدة يدور بها هنا وهناك . فأبو علي الزوزني الكاتب ”يفرس الدر في أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس“<sup>(٢)</sup> .

وأبو الفرج البينا ”ظرف الظرف ، وينوع اللطف ، له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الباقوت بل حب الغم“<sup>(٣)</sup> .

وأبو القاسم الاسكافي ”لسان خراسان وغرتها وعينها وواحدتها وأوحدتها في الكتابة والبلاغة ومن لم يخرج مثله في البراعة والصناعة“<sup>(٤)</sup> .

وبدع الزمان ”نادرة الفلك ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره في ذكاء الفريجة ، وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس“<sup>(٥)</sup> .  
وعبد الرحمن الشيرازي ”روضة مجد وشرف ، وحديقة فضل وأدب“<sup>(٦)</sup> .

(١) ص ٦ (٢) ص ٧٠ ج ٤ (٣) ص ١٧٣ ج ١ (٤) ص ٢٩ ج ٤  
(٥) ١٦٧ ج ٤ (٦) ص ٩٧ ج ٢



١٢ - ومع أن التعالي يميل إلى الطعننة في التعريف بالكاتب والشعراء فإنه لا يلترم هذه الخطة وإنما يعود إليها في الحين بعد الحين، ويغلب على ظني أنه لا يفعل ذلك إلا حين تكون نفسه مستعدة لتتبع الإنشاء، واذ ذلك لا يكون مشغولاً بتقديم الصفات الحقة لمن يترجم لهم، وإنما يشغل بعرض مواهبه هو وقدرته على التصرف في فنون الكلام، فتارة يقول في ابن نباته السمدى "من فحول شعراء العصر وأحاديهم، وصدور مجيديهم وأفرادهم، الذين أخذوا برقاب الفواقي، وملكوا رق المعاني، وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام، ممر النظام، يشتمل على غرر من حر الكلام، كقطع الرياض غب القطر، وفقر كالفني بعد الفقر، وبدائع أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب، وأرق من نسيم الأمطار وشكوى الأحباب"<sup>(١)</sup>.

وحين يقول في محمد بن حامد "يجمع بين قول فصل، وأدب جزل، ويؤلف بين أشنات المناقب، وينظم عقود المحامد، وله خط يستوفي أقسام الحسن، وتركز كثير الورد، ونظم كنظم الدر"<sup>(٢)</sup>.

وأنا يقول في المتنبي "نادرة الفلك، واسطة عقد البهر، في صناعة الشعر، شاعر سيف الدولة المنسوب إليه المشهور به، إذ هو الذي جذب بضيقه، ورفع من قدره، وثق شعره، وألقى عليه شعاع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه في البدو والحضر، وكادت اللبالي تنشده، والأيام تحفظه"<sup>(٣)</sup>.

١٣ - ولتقيد هنا أن التعالي كثير الاستغلال لألفاظ معاصره، فهو لا يملك كل ما في ثره من الاستعارات والتشبيهات. وله عذره في ذلك فقد شغل جميع طرائف التعبير، حتى ليكن الحكم بأن أخيلة غيره كانت تسبق إليه من حيث لا يحتسب، وأن كان لا نبره من قصد المارقة ونية الاتهاب<sup>(٤)</sup>.

(١) ص ١٤٣ ج ٢ (٢) ص ١٦٠ ج ٤ (٣) ص ٧٨ ج ١

(٤) أنظر مقدمة سحر البلاغة ص ١١٤، ١١٥ ج ١ زهر الآداب.

١٤ — وأخيرا نذكر أن من أقل عيوب كتاب اليتيمة إغفال الوفيات، فقد يندر أن يذكر مؤلفه في أى عام مات من يحتشأ عنه، وفي أى عهد لقيه أو سمع به، ولو أن الثعالبي عني بتدوين الوفيات لأدى لتاريخ الأدب حقا من أوجب الحقوق .

١٥ — ومن أهم مؤلفات الثعالبي كتاب "فقه اللغة" وهو كتاب جيد في ثلاثين بابا رتب فيه الألفاظ على حسب المعانى . وليس كتاب فقه اللغة في جملة من صنع الثعالبي، فقد نقل فصولا برمتها عن أمثال ابن دريد والخوارزمي وأبي الحسن الجرجاني ، وابن الأعرابي . ولكن له فضل الترتيب والتبويب . ويزيد هذا الفضل اذا لاحظنا أن المصادر التي نقل عنها ضاعت ولم يبق لها أثر إلا في كتابه . وهو يذكر في الفصول التي ينقلها عن غيره أنه عرضها على مظانها فصيح أكثرها أو قارب الصحة .<sup>(١)</sup> وقد يجد مؤلفا وضع في تفصيل طائفة من المعانى فيعمد اليه فيخرج منه ما يراه أصح لكتابته . وفي الكتاب فصول مهمة فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية والرومية .<sup>(٢)</sup>

ويلاحظ على كتاب فقه اللغة أنه مختصر في موضوعه ، وأنه خال من الشواهد ، بحيث يظن أن المؤلف حكم فيه هواه ، ولو أنه ضرب الأمثال من الشعر والثر لتحديد المعانى التي رى الى تحديدها في كتابه لأصبح ذلك السفر كتاب أدب ولغة، ولكان متعة لا تملها النفس، وأساسا لدرس تطورات المعانى والألفاظ والتعابير.<sup>(٣)</sup>

ونحن — بعدما وجهناه من النقد الى الثعالبي — نصترف بأنه رجل خفيف الروح نقرأ كتبه ورسائله برغبة ولذة وشوق، وهو لذلك عميق الأثر في نشر ما عُرف لعهد من أنواع الثقافة الأدبية . طيب الله ثراه !

(١) ص ٤٣٢ (٢) ص ٤٣٩ (٣) ٤٥٠ — ٤٥٦

(٤) مضت بعض الملاحظات على هذا الكتاب فيما كتبناه عن ابن فارس . راجع ص ٣٩ من هذا الجزء .

## البَابُ السَّادِسُ

---

كِتَابُ الرِّسَالَةِ وَالْعُمَّوِيَّةِ



## ١ - أبو الفضل بن العميد

١ - أبو الفضل بن العميد هو محمد بن الحسين سيد كتاب اللغة العربية في القرن الرابع، وأعرف الوزراء لعهد سياسة الملك، وبنية المجد، وكان معاصروه يسمونه "الملاحظ الثاني" لتوسعه في العلوم العقلية والنقلية، وإطلاعه على ما دون الأقدمون في الأدب واللغة والفلسفة والتشريع. وما أحسبهم سموه الملاحظ الثاني في الكتابة، لأنه أكتب من الملاحظ وأعرف منه بأسرار الكلام البليغ.

٢ - وقد اهتم كثير من كتاب التراجم بالكلام عن أبي الفضل بن العميد: فتحدثت عنه الثعالبي<sup>(١)</sup> وياقوت<sup>(٢)</sup> وابن خلكان<sup>(٣)</sup> بشيء من التفصيل، وعرض له التوحيدي في غير موضع، ولكن أجمل ما قرأنا في ترجمته هو الفصل المنع الذي عقده للكلام عنه أبو علي بن مسكويه في كتاب (تجارب الأمم) بعد أن لازمه ليل نهار في محبة دامت سبع سنين.

٣ - كان ابن العميد باتفاق من ترجموا له أكتب أهل عصره، وأحفظهم للغة والفريق، وأكثرهم توسعا في النحو والعروض واحتذاء إلى الاشتقاق والاستعارات، وأعرفهم بشعراء الجاهلية والإسلام، وأدراهم بتأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه، وأبصرهم باختلاف فقهاء الأمصار، وأفندهم سهما في الهندسة والمنطق وعلوم الفلسفة والآليات.

ولا يحسن القارئ أن من الكثير أن يتصف رجل واحد بكل هذه المزايا. فقد كان ابن العميد خصب الذهن جدا، وكان يؤمن بأن المجد يفرض على طلابه وصل النهار بالليل في الدرس والحصيل وتدير الأمور، ولم تشغله الوزارة عن الاختلاف إلى مجالس العلماء والاستفادة ممن عرفوا بسعة العلم ودقة البحث، وإنهم ليدكرون أنه كان يقرأ كتاب الطبايع

(١) بنية الدهر ص ٢ - ٢٥ ج ٣ (٢) في مواطن كثيرة من (إرشاد الأريب).

(٣) ج ٢ ص ٤٦٣ - ٤٦٦ (٤) ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٨٢

للحافظ على أبي بكر الخياط فاتفق أنه كان عنده في بعض الأيام وقد تزع نسله فأخذه كلب في الدار وأبعده عن موضعه، وأراد أبو بكر الطهارة فقام ولم يره، وطلبه فلم يجده، فرأى ابن العميد أن يقدم إليه نمل نفسه، فعُد ناس ذلك إسرافاً من ابن العميد، فلما بلغته هذه المواقعة قال: كيف أُلأم على تعظيم رجل ما قرأت عليه بيتاً من (الطبايع) إلا عرف ديوان قائله وقرأ القصيدة من أولها حتى ينتهي إليه. ولقد كنت وغيري تهم أبا عثمان الجاحظ فيما يستشهد به من غريب الشعر حتى دلنا على مواضعه ... ألما يستحق من هذه الصفة صفته هذه الكرامة اليسيرة في جنب هذه الفضيلة الكبيرة<sup>(١)</sup>؟

ولهذا الخبر قيمته الأدبية فضلاً عن قيمته الخلقية، فهو من جهة الخلق دليل على تواضع ابن العميد وره بالعلماء، ولكنه من الجهة الأدبية دليل على ميله إلى التعمق وشغفه بالاستقصاء، فكان من همه أن يحفظ دواوين القدماء وأن يستدرك على قاصديه من أهل الأدب والرواية ما يقع في كلامهم من لحن أو حذف أو تصحيف.

٤ — ولم تكن معارف ابن العميد على كثرتها من النوع الذي يقدر بالمكيال، بل كانت في غاية من الدقة ولطف الجوهر: فقد حدثنا صاحب بن عباد أنه لم يجد فيمن يحب من يفهم الشعر كما يفهمه ابن العميد "فانه يتجاوز قد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بهذيب المعنى حتى يطالب بتجوير القافية والوزن" إلى أن قال: "وسمعت — أبده الله — يقول إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر، ويُنشد النسخ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده، والمعنى الذي اعتمده، وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمراراً ومع أي القوافي يحصل أجمل أطراء"<sup>(٢)</sup>.

وهذا كما يرى القارئ فهم دقيق، وسمو بالنقد إلى أبعد مما كان يتطلع إليه الناقدون من وزن المعاني والألفاظ، فالرجل يرى أن جودة الشعر تنصل بوزنه وقافيته ولقطه ومعناه

(٢) أنظر رسالة صاحب بن المتني ص ٨

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٩ و ١٠

وكلماته وحروفه ، ثم تختلف عنده القوافي والأوزان باختلاف المعاني والأغراض ، وتلك نظرة لا يدركها إلا الفحول .

وهناك خبر صغير يبدو قليل الأهمية، ولكنني وقفت عنده طويلا : فقد ذكر يوما أبو بكر الخطيب بحضرة ابن العميد فقال : أفادني في نقد الشعر ما لم يكن عندي : وذلك أنه جاءني يوما باختيار له فكنت أرى المقطوعة بعد المقطوعة لا تدخل في مرضى الشعر فأعجب من إirاده لها واختياره إياها فسألته عنها فقال : لم يقل في معناها غيرها فاخترتها لانفرادها في بابها .  
فهل رأى القارئ أدق من هذه النظرة في تعقب الأشعار والأحاديث ؟

٥ - وكان ابن العميد يجمع إلى سعة العلم أدب النفس ، على قلة ما يتفق من ذلك في طباع الناس ، فكان "قليل الكلام" ، زر الحديث ، إلا إذا سئل ووجد من يفهم عنه : فإنه حينئذ ينشط فيسمع منه ما لا يوجد عند غيره ، مع عبارة فصيحة ، وألفاظ متخيرة ، ومعان دقيقة ، لا يتحسب فيها ولا يتعلم ... وكان لحسن عشرته ، وطهارة أخلاقه ، وتزاهة نفسه ، إذا دخل إليه أديب أو عالم متفرد بفن سكت له وأصغى إليه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به ما يورد عليه<sup>(٢)</sup> .

وهذا أدب لا يصبر عليه إلا كبار النفوس .

على أن أدب النفس في صدر ابن العميد لم يقف عند هذه المعاني السلبية ، بل تعداه إلى الجراءة القاهرة والإقدام الغلاب "فإذا حضر المارك وياشر الحروب فأنما هو أسد في الشجاعة لا يصطلي بناره ، ولا يدخل في غباره ، ولا يتأوه قرن ، ولا يبارزه بطل ، مع ثبات جأش ، وحضور رأي ، وعلم بواطن الفرص ، وبصر بسياسة المساكر والجيوش ، ومكابدة الحروب" وكان إلى هذه الخلل حسن التدبير إلى حد الانحياز ، فقد تولى الوزارة لركن الدولة بعد أن تقدمه قوم غلبهم الجند على أمرهم ، وصارت مملكة ركن الدولة تحت سلطانهم ملعبا للفتن والدسائس وميدانا للفوضى والاضطراب ، فلما تولى ابن العميد الوزارة استقام الأمر ،

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٠

(٢) طبع تحارب الأم ج ٢ ص ٢٧٧ و ٢٧٨

واستطاع بحزمه وقوة نفسه أن ينظم الأمور ويضبط الأعمال "وبسط عدله وأقام هيئته في صدور الجند والزعية حتى كان يكفيه رفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار فترعد الفرائص وتضطرب الأعضاء، وتسترنى المفاصل" كما عبر ابن مسكويه، وهو عندنا صادق فيها وصف به ابن العميد .

٦ - وكان ابن العميد من الوزراء الممدحين، فقصده الشعراء من كل صوب، وساقوا إليه جياذ المدايح، ولتنبي فيه قصيدة رائية يحفظها أكثر الناس .

ولنشرها إلى أن ابن نباتة السعدي ورد عليه وهو بالري وأمنده بقصيدته التي أولها<sup>(١)</sup> :

برح أشياق وادكار	وليب أفساس حرار
ومدامع عبراتها	ترفض عن نوم مطار
له قلبي ما يحزن	من الموموم وما يوارى
لقد أفضى سكر الشبا	ب وما اقضى وصب الخمار
وكبرت عن وصل الصفا	ر وما سلوت عن الصغار
سقى لتفليمي إلى	باب الرصافة وابشكاري
أيام أخطر في الصبا	نشوان مسحوب الإزار
جمي إلى حجر الصرا	ة وفق حداثتها اعتجاري
ومواطن اللذات أوطأ	في ودار اللهو داري
لم يبق لي عيش يلد	سوى معاقره العقار
أحيا بالحنان قمر	تُ بين ألحان القماري
وإذا استهل ابن العميد	تضاءلت ديم القطار
ترقُ صفت أخلاقه	صفو الصيك من النضار
فكانما زفت موا	هبه بأمواج البحار

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٦



وكان نشر حديثه      نشر الخزامى والقرار  
وكان ما تفرق      راحتاه في تشار  
كف بحفظ السرتحسب      صدره ليل السرار  
إن الكبار من الأمور      تال بالمهم العكار  
وإلى أبي الفضل اتبعت      هواجس النفس السواري

ولكن صلة ابن العميد تأخرت عن هذا الشاعر فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقة فلم يزد ابن العميد على الإهمال مع رقة حاله التي ورد عليها إلى بابة فتوصل إلى أن أدخل عليه يوم خميس وهو في مجلس حافل بأعيان الدولة وتعدى أرباب الديوان فوقف بين يديه وأشار إليه بيده وقال :

”أيها الرئيس ! اني لزينت لزوم الظل، وذلت لك ذل النمل، وأكلت النوى المحرق انتظارا لصلتك، والله ما بي من الحرمان، ولكن شماتة الأعداء: وهم قوم نصحوني فأعششتهم، وصدقوني فأتهمتهم، فباى وجه ألقاهم، وباى حجة أقاومهم، ولم أحصل من مديح بعد مديح، ومن تر بعد نظم، إلا على ندم مؤلم، وبأس مسقم. فان كان للنجاح علامة فأين هي وما هي؟ إلا أن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طيبتك، وإن الذين هجوا كانوا مثلك، فزاحم بما بك أعظمهم شأنا، وأتورهم شعاعا، وأمدحهم باعا، وأشرفهم بقاء“ .

فغار رشد ابن العميد ولم يدر ما يقول ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : هذا وقت يضيق عن الإطالة منك في الاستراحة، وعن الإطالة مني في المذخرة ، وإذا تواهينا ما دفعنا إليه استأفنا ما نتحامد عليه . فقال ابن نباتة : أيها الرئيس ! هذه فتنة مصدور منذ زمان ، وفضيلة لسان قد تحرس منذ دهر . والفني إذا مطل لئيم ! فاستشاط ابن العميد وقال : والله ما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى ؟ ... ولست ولي نعمة فأحتملك ، ولا صنيعة فأغضى عليك؛ وإن بعض ما أقررت في مسامي ينقص سررة الحلم، ويبدد شمل

الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحى ولا كلفتك  
تقريظى !

فقال ابن نباته : صدقت أيها الرئيس ! ما استقدمتنى بكتاب، ولا استدعيتنى برسول،  
ولا سألتنى مدحك، ولا كلفتنى تقريظك، ولكن جلست فى صدر ديوانك بأهنتك، وقلت  
لا يخاطبنى أحد الا بالرياسة، ولا ينازعنى خلق فى أحكام السياسة، فأتى كاتب ركن الدولة،  
وزعيم الأولياء والحضرة، والقيم بمصالح المملكة، فكانت دعوتى بلسان الحال، ولم تدعنى  
بلسان المقال !

فثار ابن العميد مغضباً وأسرع فى محضن داره الى أن دخل حجرته، وتقوض المجلس،  
وماج الناس، وسمع ابن نباته وهو فى محضن الدار ماراً يقول : والله إن سف التراب والمشى  
على الجراهمون من هذا ! فلن الله الأدب اذا كان بآئمه مهيناً له، ومشتريه مما كسا فيه !  
فلما سكن غيظ ابن العميد وقاب إليه حلمه ألتهمه من الفد ليعتذر إليه ويزيل آثار  
ما كان منه : فكانما غاص فى سمع الأرض وبصرها، فكانت حسرة فى قلب ابن العميد  
الى أن مات .

وقد قلنا هذا الخبر على طوله لأهمية خاصة سيعرفها القارئ بعد لحظة، فان راويه  
وهو ابن خلكان عاد لحديثنا انه وجد هذه القصيدة وهذا المجلس منسويين الى غير  
ابن نباته، وانه كشف ديوان ابن نباته فلم يرفه هذه القصيدة وانه وجدها فى ( مثالب  
الوزيرين ) للتوحيدى منسوبة لأبى محمد عبد الرزاق بن الحسن البغدادى وهذه المخاطبة  
لشاعر من أهل الكرخ .

ونحن نأسف ومن الأسف على أن لم تتمكن من الاطلاع على كتاب (مثالب الوزيرين)  
ونحنى أن يكون ضاع أبداً الأبدى، مع أنه كان موجوداً بالآستانه منذ ثلاثين عاماً،  
ولو أتبع لنا الاطلاع على هذا الكتاب لاستطعنا تحطئة ابن خلكان، فاننا نجزم جزماً قاطعاً  
بأن هذا المجلس الذى نقلناه آنفاً من صنع التوحيدى، ولا يضيرنا أن النسبة لم تصح بطريقة

علمية ، فانا نعرف التوحيدى معرفة قوية لطول ما صاحبناه وعاشرناه ، ولو أقيمت جملة من كلامه فى أ كداس من الأوراق لميزناها لأوّل نظرة . فليكن الشاعر من يكون ، وليكن المخاطب من يكون ، فان واضح المجلس هو التوحيدى على كل حال ، ولا يبقى إلا أن نرحم أنه أداره على ابن العميد لا على غيره ، لأن هذه الحفيظة من التوحيدى ما كانت لتتو فى هذه القوة على رئيس غير ابن العميد الذى شغل بثله وتجرّجه حيناً من الزمان .

٧ — وكان لابن العميد ولد ذكى القلب ، قوى الحس ، مشرق الذكاء ، فأهتم بتأديبه وأحضر له كبار الأساتذة ، وجعل عليه فى صباه جماعة من ثقافته يشرفون عليه فى منزله ومكتبه وينهون إليه أنفاسه ، فرجع إليه بعضهم انه أشتغل ليلة بما يشغل به الأحداث من عقد مجلس مسرة وإحضار الندماء فى خفية شديدة واحتياط من أبيه ، وأنه كتب إلى من سماه يستهديه شرايا فحمل إليه ما يصلحهم من الشراب والنقل والمشوم ، فدرس ابن العميد الى ذلك الانسان من جاء بالرقعة الصادرة عن ابنه أبى الفتح فلذا فيها بخطه :

بسم الله الرحمن الرحيم

” قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدى ومولائى رقدة من عين الدهر ، واتهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى فى سمط التراب ، فان لم تحفظ علينا النظام ، بإهداء المدام ، عدنا كبتات نكش والسلام<sup>(١)</sup> .“

فاستطير ابن العميد فرحا بهذه الرقعة البديعة وقال : الآن ظهر أثر براعته ، ووثقت بحجريه فى طريقى ، ونيايته منابى . ووقع له بالنى دينار .

ولكن هذا الفرح لم يدم طويلا ، لأن ذلك الوليد أخذ يعنى فى أسباب الزهو والخيلاء فكان يحمل رؤساء الخند وقوادهم على الخيول الفره بالمراكب الثقلا ليسلموا له الرئاسة . ”حتى لا يأنف أحد من تقييل الأرض بين يديه والمشي قدماه إذا ركب ، مما لا يؤثروه

الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته ، وكان يفظه وينهاه عن هذه السيرة ، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق إليه .

قال ابن مسكويه : « ولقد سمعته في كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم في الحسد والجشع ، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم إلى التماسد ، ولا يتكبر عليهم ، ولا يكون إلا في مرتبة أوسطهم حالا ، وأن من دعام واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمتهم ذلك من حسده على نعمته والسعى على إزالتها وترقب أوقات الغرة في آمن ما يكون الإنسان على نفسه منهم فيفتكون به في ذلك الوقت<sup>(١)</sup> .

ولكن تلك المظالم لم تكن شيئا في تهويم ذلك الفتى ، فكان أبوه يأخذه معه في أسفاره حتى لا تكون سيرته سببا في تغيير ركن الدولة على وزيره . واتفق أن خرج أبو الفضل في إحدى سفرائه واستمع مع ابنه أبا الفتح ، فلما كان في بعض الطريق — وكان يركب العاريات ولا يستقل على ظهور المواب لإفراط علة القرس وغيرها عليه — التفت حوله فلم ير في موكبه أحدا ، وسأل عن الخبر فلم يجد حاجبا يخبره ولا من جرت العادة بمسايرته غير ابن مسكويه . فسأله فأخبره أن الجند بأسرهم مالوا مع أبي الفتح إلى الصيد . قال ابن مسكويه : « فاستشاط من ذلك وسأه أن يجرى مثل هذا ولا يستأذن فيه . وقد كان أنكر خلوه موكبه وهو في وجه حرب ، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من المعسكر تتم عليه حيلة . فدعا أكبر حجابيه ووصاه بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح ، وأن يوصى النقباء بمنع الديلم من مسايرته ومخالطته ، وظن أن هذا المبلغ من الانكار سيغض منه وينهى العسكر من اتباعه على هواه فلم يؤثر كلامه هذا كبير أثر . وعاد الفتى إلى عادته واتبعه العسكر ومالوا معه إلى اللعب والصيد والأكل والشرب ، وكان لا يخليهم من الخلع والاطلاف ، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس جدا ، ولم يحب أن يخرج هيئة نفسه بإظهار ما في قلبه ، ولا أن يبالغ في الانكار وهو في مثل ذلك الوجه فيفسد عسكرو ويعطم فيه عدوه ، فدارى أمره ، وتجرع غيظه ، وأداه ذلك إلى زيادة في مرضه حتى هلك

بهذان وهو يقول في مجلس خلواته : ما يهلك آل العميد ولا يبحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعني ابنه) ويقول في مرضه : ما قتلى إلا جرع الغيظ التي تجمعتها<sup>(١)</sup> منه .

وكانت وفاته رحمه الله بالرى سنة ٣٥٩ بعد أن عانى ما عانى من القولنج والقرص بما ودانه صباح مساء . ويقال إنه رأى اكارا في بستان يأكل خبزا يبصل ولين وقد أمن فيه فقال : وددت لو كنت كهذا الاكار آكل ما أشتى ! وكذلك كانت العافية أنقع وأجمل من الملك والجاه والمال . وهل تبسم الدنيا لانسان طليل ؟

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٣

## ٢ - نثر ابن العميد

١ - كان رجال القرن الرابع يقولون : "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد"<sup>(١)</sup>، وهي مبالغه تذكر بما قيل في ذلك العهد : "بدئ الشعر بملك، وختم بملك" يريدون أنه بدئ بمرئ القيس وختم بأبي فراس . وهذه تلك من المبالغات التي تجري على السنة المترلقين من الحواشي والأشباع ، فقد كان لابن العميد أشياح يقولون بإمامته في النثر كما كان لأبي فراس أشياح يقولون بإمامته في الشعر . وكلتا الكلمتين على ما فيهما من مبالغة ظاهرة ترجعان الى أصل من الحق أصيل : فقد كان ابن العميد وأبو فراس من أفذاذ الرجال، ولكل منهما روح قوى قهار يمزج على من رامه ويطول .

والقارئ يعرف أننا ننكر أن تكون الكتابة بدئت بعبد الحميد، ولكننا لا ننكر أن عبد الحميد كان إماما لأهل عصره ، وأنه أدخل في الكتابة أساليب وتساير وتقاليد لم يكن يعرفها الأولون ، وكذلك كان ابن العميد إماما لكاتب القرن الرابع . وما نظن أنه أدخل في فنون الكتابة ما أدخله عبد الحميد، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة : هي إعزاز القلم ورفعته الى أشرف الدرجات : فإننا حين نقرأ ثمره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يخر لها الجارية ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالع بكفه، كما كان يفعل معاصروه، وإنما يطالع قلبه وروحه وعقله بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح يتور . فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفا براقا يلهو به ولا ثروة لفوية يكثر بها الكاتب، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرى بها كما يرى البركان بأقباس الملاك ، وقد يرق فتحسب ثمره نجوى حبيبين في هدأة الليل، وهو في رفته وجزائه ، وغضبه وحنانه، عبقري لا يعبت برجع الحديث المعاد، وإنما يحث بأبداع الرأي الصائب والقول الرصين .

٢ - لم تصل إلينا مجموعة الرسائل التي حفظت عن ابن العميد ، ولكن بقيت منها شواهد تعطي عن ثمة فكرة قريبة من الصواب . وثمة باعتبار موضوعاته يرجع الى فئتين : الأولى رسائله الرسمية التي كتبها بصفته وزيرا لركن الدولة ، والثاني رسائله الشخصية التي عبر فيها عن ذات نفسه وهو يرسل أصدقائه وأحابيه . ولكل من الفئتين في ثمة لون خاص . ولنسارع فنقرر أن الرسائل التي كتبها على لسان ركن الدولة ليست كالرسائل التي كتبها الصابي مثلا على لسان بعض الخلفاء والوزراء . لا ، فإن ابن العميد حين يتكلم عن ملكه يتكلم بقوة وحرية ، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عن يكتب باسمه . ويرجع ذلك الى أن ابن العميد كان كل شيء في الملك الذي يسيطر عليه باسم ركن الدولة ، وكان الى جانب هذا مخلصا إخلاصا قويا يحول مشاكل الحكم عند أمثاله من الوزراء الى معضلات شخصية تنور لها نفس الوزير قبل أن يحس بها صاحب التاج . ولنتنظر كيف يخاطب بعض الخوارج على ركن الدولة فلا تدرى أيرى عن غضب أم يصدر عن عقل :

”وكتابي وأنا مترج بين طمع فيك ، وياس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تمل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرها يوجب رعاية ، ويقضى بحفاظة وعناية ، ثم تشفعهما بمحدث غلول وخيانة ، وتبتهما بأنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويحقق كل ما يرعى لك ، ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلا لصدمك ، وأخرى عن فصلك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، فقد يضرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويضد الزم ثم يصلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكرر الماء ثم يصفو “ .

وفي هذه المقدمة يرى القارئ كيف يتلطف ابن العميد فيستدرج ذلك العاصي وبقفه موقف المتردد بين يومه وأمسه ، وحاضره وماضيه ، ثم يعرض عليه وجوه حاله في الطاعة والعهيان فيقول :

”وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها ، وحليت شطريها ، فشدتك الله إلا ما صدقتني عما سألتك : كيف وجدت ما زُلت عنه ، وكيف تجد ما صرت إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ، ونسيم طيل ، وريح يليل ، وغذاء غذي ، وماء روي ، ومهاد وطى ، وكفن كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، عززت به بعد الفلة ، وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعسرة ، وأثريت بعد المترية ؟ فقيم أنت الآن من الأمر ؟ وما العوض عما عدت ، والخلف مما وصفت ، وما استغدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغسقت في خلافتها يدك ؟ وما الذي أظلك بعد انحصار ظلها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شمس ، لا ظليل ولا يخي من الذهب ؟ قل نعم كذلك ! “.

وابن العميد يعرف قوة نفسه ، وبأس قلعه ، ولذلك يقول وقد بلغ هذه النقطة من الخطاب : ”تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستكرها ، وأمس جسدك وأنظر هل يحس ؟ وأجسس عرقك هل ينبض ؟ وقش ما حنا عليك هل تجدد في عرضها قلبك ، وهل حلى بصدرك أن تظفر بقوة سريح ، أو موت مريح <sup>(١)</sup> ؟ “.

٣ — وهذا الخط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة في أنفس الناس لذلك المهد : فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأقلام تُقدم طلائع السيوف . وهذا في الواقع متابعة موقفة لذلك العرف الذي سنه كتاب الدولة الأموية وأقوه كتاب الدولة العباسية ، وهو أسلوب في الدعاية كان يجري عن طريق الرسائل كما تجري الدعاية اليوم عن طريق الصحف السياسية . والدنيا هي الدنيا والناس هم الناس ، وإن تغيرت طرائق التخويف والترهيب وفقا لتغير وسائل النشر والتبليغ .

٤ — أما رسائله الشخصية فهي فن من الشعر الوجداني البليغ ، هي قصائد متنوعة في موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير القصيد ، وأظهر ما كتب فيه ابن العميد من

(١) راجع بقية الرسالة في القيمة ج ٣ ص ١٢



الوجدانيات : هو العتاب . ولكن أى عتاب ! ان الرجل يتحدث اليوم عن مشاعرنا وعواطفنا وبيننا وبينه عشرة قرون . لقد كان هذا الرجل يفهم الصداقة فهما دقيقا جدا ، والظاهر أنها كانت تتحول في قلبه الى عشق ، لأنه في عتابه ينتفس عن قلب العاشق أضعاف ما ينتفس عن روح الصديق . وهو في عتابه مختلف الأشجان والنوازع : فله أوقات يشور فيها ثورة جارية فيرى بإخاءه من يعاتب في بحيم النسيان ، كقوله وقد مزج بين العتب والمجاء :

”وقد ندمت ... ولكن أى ساعة مندم! بعد إفناء الزمان في ابتدائك، وتصفحي حالات الدهر في اختيارك، وبعد تضييع ما غرسته، ونقض ما أسسته، فان الوداد غرس اذا لم يصادف ثرى ثريا، وجوا غديا، وماء رويا، لم يرج زكاؤه، ولم يجر ماؤه، ولم تتفتح أزهاره ولم تجم ثماره، وليت شعري كيف ملك الضلال قيادى حتى أشكل على“ ما يحتاج اليه المزوجان ولا يستغنى عنه المتآلفان، وهى مازجة طبع، ومواقفة شكل وخلق، ومطابقة خيم وخلق، وما وهبنا حال جمعنا على اتسلاف، وحتنا من اختلاف، ونحن في طرق ضدين، وبين أمرين متبايعين . واذا حصلت الأمر وجدت ما بيننا من البعاد، أكثر مما بين الوهاد والتجاد، وأبعد مما بين البياض والسواد، وأبسر ما بيننا من التفار، وأقل ما بيننا من التضار، أكثر مما بين الليل والنهار، والإعلان والإسرار“<sup>(١)</sup>.

وهذه قطعة من رسالة طويلة يعاتب بها أبا عبد الله الطبري ، ولا يتوهم القارئ أن هذه العبارات الجافية تدل على أن ابن العميد خلص قلبه من علاقات ذلك الصديق : هيات ! فنحن نعرف ما تشير اليه أمثال هذه الثورات : فان المرة لا ينضب مثل هذا الغضب الأسود إلا حين يهاجم من لا يستطيع الخلاص من أسر وداذه، ودليل ذلك أننا نراه يعاتبه في الرسالة نفسها معاتبه المغلوب فيقول :

”ولو بقيت من الصبر بقية لسوت ، ولو وجدت في أثناء وجدى خرجا يتخلله تجلبد لأمسكت ، فقدما لبست الصديق على علامه، وصفحت له عن هنائه، ولكني مغلوب على العزاء

مأخوذ على عاداتي في الاغضاء، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمال جفاء، وذهب في نفسي من ظلمك ما أنزف حلمي بفعله هباء، وتولى على قيع فعلك في هجر يستمر على نسق، وصد مطرد متسق، ما لو فض على الوري وأفيض على البشر لأمثلاث صدورهم ... الخ<sup>(١)</sup> .

وكان ابن العميد فيما يظهر موصول القلب بأبي عبد الله الطبري هذا، وقد غالب نفسه في وداده أعنف مغالبة، واستطاع أخيراً أن يتوهم أنه تعزى عنه فكتب إليه في جواب خطاب: "وصل كتابك فصادفني قريب المهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقي مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق: فإن الدهر جرى على حكمة المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأشكال، وأعتقني من مخائلك عقلاً لا تستحق به ولاء، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجب دركاً ولا استثناء، وزرع من عني رقيقة الذل في إصائبك، وبدي جفائك، ورش على ما كان يضطرم في ضميري من نيران الشوق بالسلو وشن على ما كان يلهب في صدرى من الوجد ماء اليأس، ومسح أثار قلبي فلام فطوري بجيل الصبر، وشعب أفلاذ كبدي فلاحم صدوعها بحسن الغزاء، وتغلغل في مسالك أنفاسي ففوض عن التزاع إليك نزوعاً عنك، ومن المذهب فيك رجوعاً دونك، وكشف عن عيني ضبايات ما ألقاه الهوى على بصرى، ورفع عني غيايات ما سدله الشك دون نظرى، حتى حدر النقاب عن صفحات شيمك، وسفر عن وجوه خليقتك، فلم أجد إلا منكراً، ولم ألق إلا مستنكراً، فوليت منها فراراً وملكت رعباً. فأذهب فقد أقيت حبلك على غاربك، ورددت إليك ذم عهدك!" .

أليست هذه قصيدة رثاء يسكب دمه على جدت الود المفقود؟ إن الناقد ليرى ابن العميد اقتبس أكثر معانيه في هذه الرسالة من روائع الشعر القديم، ولكن لينظر منصفاً كيف اتصلت هذه المعاني بنفسه أشد اتصال، وكيف جرت على أسلّة قلمه وكأنها فيض الفطرة وجود الطبع، حتى ليخفى ما طرزت به حواشيها من آثار الاقتباس .

٥ — ولكن ابن العميد لا يستطيع في كل مرة أن يلقي حبل من يود على غاربه ويرد إليه ذم عهده، فليس القلب في كل لحظة بمطواع حتى يزهد في كل نافر صدوف، وكذلك نجد ابن العميد على قوة نفسه وسعة ماله ورفعة جاهه يقف وقفسة الخاشع الذليل فيعاتب بعض إخوانه بمثل هذا الكلام :

”ما هذا التغالى بنفسك، والتعالى على صديقك؟ ولم نبذتنى نبذ النواة، وطرحنى طرح القذاة، ولم تلفظنى من فيك، وتجننى من حلقك، وأنا الحلل الحلو والبارد العذب، وكيف لا تخطرنى ببالك خطورة، وتصيرنى من أشغالك مرة : فترسل سلاما إن لم تتجشم مكتابة، وتذكرنى فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة . وأحسب كتابي سيرد عليك فتتكزه حتى تثبت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تُذكر، فقد صرت عندك بمنحى النسيان صورته من صدرك، وأسمه من صحيفة حفظك . ولعلك أيضا تتعجب من طمعى فيك وقد توليت، وأستأثرت لك وقد تأبيت، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال، ويلين من هو أقمى منك قلبا فيعود الى الوصال . وآخر ما أقوله أن ودى وقفُّ عليك، وحسُّ في سيلك، ومتى عدت إليه وجدته غضا طريا، بخزبه في المعاودة فإنه في المود أحمد“<sup>(١)</sup> .

ولعل القارئ يسأل : أتصدر أمثال هذه المكاتبات الرقيقة عن وزير؟ ونجيبه بأننا نرجح أنه كتب أمثال هذه الرسائل الغضة في صباه . على أننا لا نستكثر أن تصدر عنه وهو وزير، فلوزراء كسائر الناس جوانب وجدانية تلقى على حياتهم خللا من الرق والحنان، خصوصا إذا تذكرنا أن كلمة ”وزير“ كان يلحظ فيها دائما معنى ”كاتب“ وكان الإبداع في الكتابة من المؤهلات الأساسية في الوصول إلى مناصب الوزراء .

٦ — وما يؤيد ما ذهبنا إليه أن ابن العميد كتب إلى عبد الله الطبرى كتاب نصح يدل على معرفة وبصر بالشؤون السياسية، كتبه حتا بعد أن اتصل بالملوك والرؤساء . والطبرى

هَذَا هو صديقه الذى حَشَنَّاكَ أَنَا عَنْ مَعَاتِبِهِ إِيَّاهُ فِي نَقَطَاتٍ وَجِدَانِيَّةٍ تَمُّ عَنْ وَدِّ رَقِيقٍ ،  
وَفِي هَذَا مَا يَشْعُرُ بِأَنَّهُ مَا كَانَ يَتَوَرَّعُ وَهُوَ فِي أَوْجٍ مَجْدِهِ عَنْ بَثِّ نَوَازِعِ الْقَلْبِ وَالْوَجْدَانِ .

وَأَنَّهُ لِيُشْرِحَ لَصَدِيقِهِ مَا يَجِبُ أَنْ يَحْتَلِيَ بِهِ فِي الْحَيَاةِ الرَّسْمِيَّةِ فَيَقُولُ بَعْدَ تَهْنِئَةٍ :

”وَأَرْكَبُ فِي الْخِدْمَةِ طَرِيقَةَ تَبْعَدُكَ مِنَ الْمَلَالِ ، وَتُوسِّطُكَ فِي الْحُضُورِ بَيْنَ الْإِكْثَارِ  
وَالْإِقْلَالِ ، وَلَا تَسْتَرْسِلْ إِلَى حَسَنِ الْقَبُولِ كُلِّ الْإِسْتِرْسَالِ ، فَلَّانْ تَدْعَى مِنْ بَعِيدٍ خَيْرٌ مِنْ أَنْ  
تُخْصَى مِنْ قَرِيبٍ . وَلَكِنْ كَلَامُكَ جَوَابًا يَحْتَوِزُ فِيهِ مِنْ انْخِلَاطِ الْإِسْهَابِ ، ... وَلَا يَسْتَفْزِكُ  
طَرِبَ الْكَلَامِ عَلَى مَا يَفْسِدُ تَمَيِّزُكَ . وَالشَّفَاعَةُ لَا تَعْرِضُ لَهَا فَانْهَا عَقْلُكَ لِلْجَاهِ ، فَإِنْ أَضْطَرَّرْتَ  
إِلَيْهَا فَلَا تَهْجُمْ عَلَيْهَا حَتَّى تَعْرِفَ مَوْقِعَهَا ، وَتَحْصِلَ زَيْنَهَا ، وَتَطَالُعَ مَوْضِعَهَا ، فَأَنْتَ وَجَدْتَ  
النَّفْسَ بِالْإِجَابَةِ سَمْحَةً ، وَإِلَى الْأَسْهَابِ هَشَّةً ، فَأَظْهَرَ مَا فِي نَفْسِكَ غَيْرَ مُحَقَّقٍ ، وَلَا تَوْهَمَ أَنْ  
عَلَيْكَ فِي الدِّمَاءِ مَا يَوْحِشُكَ ، وَلَا فِي الْمَنَعِ مَا يَغِيظُكَ ، وَلَكِنْ انْطَلِقْ وَجْهَكَ إِذَا دَفَعْتَ عَنْ  
حَاجَتِكَ أَكْثَرَ مِنْهُ عِنْدَ نَجَاحِهَا عَلَى يَدِكَ ، لِيَخْفَ كَلَامُكَ وَلَا يَتَقَلَّ عَلَى سَامِعِهِ مِنْكَ “ .

وَهَذَا الصَّدِيقُ الَّذِي يُوصِيهِ ابْنُ الْعَمِيدِ بِالرَّفَقِ فِي مَصَاحِبَةِ الْأُمَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ هُوَ نَفْسُهُ  
الَّذِي وَصَفَهُ بِالْعَدَمِ عَنِ الْأَوَاصِرِ الْفَرِيزِيَّةِ الَّتِي تُوجِبُ الْمَوَدَّةَ : مِنْ مِمَّا زَجَّجَ الطَّبْعُ ، وَمَوَاقِفَةُ  
الشَّكْلِ ، وَمِطَابَقَةُ الْخُلُقِ . وَتِلْكَ كَمَا قُلْنَا عِلَالَةُ يَوْمِهِمَا ابْنُ الْعَمِيدِ قَلْبُهُ أَنَّهُ خَلَا مِنْ وَدِّ ذَلِكَ  
الصَّدِيقِ ، وَإِلَّا فَقَدْ رَأَيْنَاهُ فِي كَلِمَةٍ ثَانِيَةٍ يَذْكُرُ أَنَّهُ صَوَّرَ نَفْسَهُ يَقُولُ :

”لَكِنْ مَا بَقِيَ أَنْ يَصِفُوا لِي عَيْشَ مَعَ بَعْدِي عَنْكَ ، وَيَخْلُو ذُرْعِي مَعَ خَلْوَى مِنْكَ ، وَيَسُوعُ  
لِي مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ مَعَ أَفْرَادِي دُونَكَ ، وَكَيْفَ أَطْمَعُ فِي ذَلِكَ وَأَنْتَ جِزءٌ مِنْ نَفْسِي ، نَازِلٌ  
لِشْمَلِ أَنْفِي ، وَقَدْ عَلِمْتَ رُؤْيَاكَ ، وَحَرَمْتَ مَشَاهِدَتَكَ . وَهَلْ تَسْكُنُ قَسَمَ مَشْعَبَةِ ذَاتِ  
الْقِسَامِ ، وَيَنْفَعُ أَنْسَ مَيْتَ بِلَا نَظَامٍ؟ “ .

٧ — وَمَا أَمَّا زَيْدُ ابْنِ الْعَمِيدِ لِإِجَادَةِ الرِّسَالِ الْإِخْوَانِيَّةِ ، وَهُوَ فَنِ بَرَجٍ فِيهِ كَتَبَ الْقَرْنَ  
الرَّابِعَ وَصَيَّرَهُ سِتَّةَ يَحْيَى عَلَيْهَا الْأَصْفِيَاءَ وَالْأَلْفَاقَ . وَقَدْ تَأَمَّلْتُ فَرَائِطَ مَعَانِي ابْنِ الْعَمِيدِ صَارَتْ

وردا سائتا لمعاصريه كالميكال والينا وبيع الزمان . وليس غريبا أن يصير قدوة في هذا الباب : فقد كان له بين ضلوعه قلب وفي أمين ، وكان يتحدث في الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح . وقد كما نحب لخال ابن زيدون إذ يقول :

يُدنّ مزارك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك

حتى رأيتاه ممثلا أوضح تمثيل في قول ابن العميد :

”قد قرب — أيدك الله — علك على تراخيه ، وتصاقب مستقرك على ثنائيه ، لأن الشوق يملك ، والذكري يملك ، فنحن في الظاهر على أقرار ، وفي الباطن على تلاق ، وفي التسمية متباينون ، وفي المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح ، لقد تعاقت الأرواح“<sup>(١)</sup> .  
وهو معنى جيد انتهى البيضا في إحدى رسائله الاخوانية<sup>(٢)</sup> .

ولا يقف ابن العميد في ملاطفة إخوانه عند هذا الحد ، بل يتأق في وصف كتبهم اليه فيقرظها في حنان هو أشبه بالنسيب ، كقوله في وصف خطاب وصل اليه من أحد الأصدقاء :

”وصل كتابك الذي وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتمهيدك ، فأرتمحت لكل ما أوليت ، وأبتهجت بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانك في كل فصل الى نظائره التي وكلت بها ذكرى ، ووقفت عليها شكرى . وتأملت النظم فلكني العجب به ، وهرنى التعجب منه . وقد رمت أن أجرى على العادة : في تشبيهه بمستحسن من زهر جنى ، وحل وحل“ ، وشذور القرائد ، في نخور الخرائد :

والمذارى غدون في الحلال البيض وقد رحن في الخطوط السود

فلم أره لشيء عدلا ، ولا أرضى ما عدته له مثلا ، والله يزيدك من فضله ، ولا ينكح من إحسانه ، ويلهمك من براخوانك ما تتم به صنيك لديهم ، ويربّ معه إحسانك إليهم“<sup>(٣)</sup>

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٨٧ (٢) أنظر صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤ (٣) ص ١١٢ ج ١

وقد يُطلب على أمره فيختم خطابه بكلمة تعرف منها صراحه أن إعجابه بالمكتوب صورة لإعزازة للكاتب، كقوله في خاتمة خطاب :

”وقد قرأت كتابك — جعلني الله فداك — فأملت سرورا بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك في لفظك ، وما أقرظهما فكل خصالك مفرط عندي ، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك ، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألتقى على بهري“<sup>(١)</sup>.

هذا ولأغن العميد رسائل في الحب تضارع في روعتها قصائد التشبيب وتتصل برسائله الإخوانية أوثق اتصال، وله في التهانئ رسائل تغلب عليها الصنعة، ولكنها كأكثر ثمره قوية محكمة تدل على صاحبها وتذكر بأدبه البارع وإطلاعه على ما أنشأ الأقدمون من أفانين البيان ، وما نحسب معاصريه أسرفوا في مجاملته حين لقبوه بالأستاذ الرئيس .

### ٣ - أبو حفص به برد

١ - أبو حفص أحمد بن برد الأكبر كاتب أندلسي من أقطاب النثر الفني في القرن الرابع، توفي بسرقة سنة ٤١٨ هـ في الذخيرة وإرشاد الأريب<sup>(١)</sup>، لاسنة ٤٢٨ هـ كما وقع خطأ في كتاب الدكتور أحمد ضيف عن بلاغة العرب في الأندلس . وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل ، مع أنه كان من أشبه الوزراء في الأيام العاصرية .

٢ - ولم نجد على كثرة البحث ما بين مذاهب ابن برد الأدبية . وقد اكتفى أكثر من عرضوا لترجمته بال عبارات الفضفاضة التي لا تحدد شيئاً : فذكر ياقوت أنه كان "كاتباً بليغاً"<sup>(٢)</sup> وذكر ابن بسام أنه كان في زمانه "واسطة السلك، وقطب وحى الملك" وأنه "برز على نظرائه وأشكاله" وأنه "كتب عن عتة من الأمراء فاسمع الصم بيانا ، واستنزل العُصم إبداعا وإحساناً"<sup>(٣)</sup> وذكر صاحب المطمح أنه "غذى بالأدب، وعلا إلى أسمى الرتب" وأنه "بديع الإحسان، بليغ القلم واللسان" وأنه "مليح الكتابة، فصيح الخطابة"<sup>(٤)</sup> ونغر حفيده ابن برد الأصغر بالانتساب إليه فقال :

من شاء خُبري فأنا ابن برد	حدّ حسام قطعة من جدى
وأرفع الناس بناءً جدى	من نظم الأنساظ نظم العقد
ونقد الكلام حق النقد	وكف بالأقلام أيدي الأسد <sup>(٥)</sup>

وهذه كلها صفات تدل على عظمة ابن برد في آنفس من قرأوا له ، وكتبوا عنه ، ولكنها لا تعين متناه في مذاهب البيان .

(١) ج ١ ص ٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٠٦ (٣) ج ٢ ص ١٠٦ (٤) ج ١ ص ٤٩

(٥) انظر فتح الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ (٦) الذخيرة ج ١ ص ٢٥٧

٣ - وعذر من ترجموا لأبن برد أن معظم رسائله كان ضائع ، حتى أن موطنه بن  
بسام على قرب عهده به صرح بأنه لم يجد من رسائله إلا ما لا يكاد يعرب عن فضائله ،<sup>(١)</sup>  
وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتاب التراجم من الخلط بين آثار ابن برد الأكبر  
وآبن برد الأصغر . فانا نجد صاحب المطمح ينسب رسالة السيف والقلم إلى آبن برد الأكبر ،<sup>(٢)</sup>  
وينسبها ياقوت إلى آبن برد الأصغر<sup>(٣)</sup> - والأبيات الآتية :

لما بدا في لازور دى الحسرى وقد هجر  
كبرت من فرط الجسا ل وقلت ما هذا بشر  
فاجابى لا تتكبرن ثوب السماء على القمر

نسبها صاحب المطمح إلى آبن برد الأكبر<sup>(٤)</sup> . ونسبها ياقوت إلى ابن برد الأصغر<sup>(٥)</sup> .

٤ - تولى آبن برد رئاسة ديوان الإنشاء لمحمد بن عبد الرحمن المستكنى ، وكتب  
كذلك لعدد من الأمراء ، فكان لثوليه رئاسة ديوان الإنشاء أثر قوى في حرصه على أدوات  
الكتابة ، وكانت تلك الأدوات مما شغل كتاب القرن الثالث والرابع : فكتب فريق منهم  
كتبا خاصة فيما يجب أن يراعيه الكاتب ، كما فعل آبن المدبر حين ألف "الرسالة العذراء" ، وإنا  
لنجد آبن برد يكتب عن المظفر بن أبى عامر رقعة وجهها إلى التواد والكاتب فيقول :

"ومن أعجب العجب ما يمتري عليه بعض خدمتنا من نبذ عهدونا . ولا أحسب الذى  
غرم بنا إلا ما وهب الله تعالى لنا مع القدرة من الحلم والكظم ، وقد كانت حجة غالبية ،  
وخليفة لازمة ، قرب شمع تحت غيل النماء ، وكم غصص في شهيّ النذاء ، ومن شرق في نير  
الماء ... ونصب أعينك عهد المنصور صدره التوبيخ باستكباب الجهلة بمن قلت معرفته ،  
وأتضعت همته ، ولم يبلغ أن يحكم الخلط فيقوم حروفه ، ويراعى المداد فيجيد صنته ، ويميز  
الرق فيحسن اختياره ، وعزّه العزم النافذ ، والحكم الصادع ، بأن تكون صدور كتب

(١) الخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) راجع فتح الطيب ص ٣٦٧ ج ٢ (٣) ص ١٠٦ ج ٢

(٤) فتح الطيب ص ٣٦٨ ج ٢ (٥) ص ١٠٦ ج ٢



الاعتراضات وعنوانها وتواريخها والأعداد في رؤوس غصونها بخطوط أيدي القواد والبال ، من كان منهم كاتباً فيكتب بيده ، ومن لم يكتب فيخط كاتب معروف بالخط عنه ، وأن تكون تسعة طبقات الأجناد فيها قائمة بالخطوط ، بينة الحروف ... على أنه إن ورد لأحد منهم بعد وصول العهد إليه كتاب اعتراض عمل في رق ردىء ، أو خط فيه لحن ، أو كتاب على بشر في عدد ، أو رسم مالم يخف أو يقع في بشر الكتاب ... فيعاجل بقوة العزل<sup>(١)</sup> .

ولم يكتب بذلك ، بل مضى يقول :

”وإن قوماً منهم عادوا لما نهوا عنه : فكتبوا الخط الرقيق في دنى الرقوق ، رقة من مهمهم ودناءة في اختيارهم ، وجهلاً بأن الخط جاء الكتاب ، وسلك الكلام : به يتظم مشوره وتفصل شؤره ، ونبله من نبل صاحبه ، وهجته لاحقة بكتابه ، إلى ما أقرنوه من العصيان ، وأقدموا عليه من خلاف السلطان ، وأنا أعطى الله عهداً لئن ارتفع إلى بعد بلوغ عهدي هذا أقصى حدود المملكة واتهانه أبعد أقطار الطاعة كتاب على الصفات المذمومة : من رق أو ممداد أو خط لأئيين لصاحبه بما قتم إليه من الوعيد“<sup>(٢)</sup> .

وهذه الفقرات تمثل رأى الكاتب قبل أن تمثل رأى من كتبت باسمه ، وهى مظهر من عناية ابن برد بأدوات الكتابة وأدب الكتاب .

٥ - وقد حفظت عن ابن برد رسائل يتصور ما كان من التزاع بين العرب والبربر في الأندلس . ودراسة ما كان بين هذين المنصرين من الفتن والمنازعات باب من أهم أبواب التاريخ الأندلسى ، ولها كذلك نفع في تحديد الاتجاهات الأدبية في تلك البلاد . والبربر يسمون «العبيد» أحياناً في لغة ابن برد ، ولا نستطيع أن نفترض غير ذلك : لأننا لا نعرف عصبة ناورأت العرب في الأندلس غير عصبة البربر ، وقد كتب ابن برد على لسان سليمان بن الحكم عدة رسائل إلى من سماهم ابن بسام «جماعة العبيد» جاء في إحداها :

”ولم تزل الأئمة مقبلة على موالها مختصة لمييدها تقدمهم في الثقة، وتقزهم بالموثة، وتستهجم لحواشي الأمور، وتقذف بهم في معضلات الخطوب، فيتولون من اجتهادهم لم ما أوجب لهم منهم المحبة، حتى شرف القوم ونبلوا، وسما ذكركم، ونسبوا الى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوتاتهم... وقد أفضى الأمر اليكم معشر الموالى، وهذا اسمكم وقد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم عن رق الملك، وصيركم منا، وخطبكم بنا، وأفضى بأنسابكم إلينا، والولاء لجة، ومولى القوم منهم، ملعون من أتى لغير أبيه، أو ادعى غير مواليه، هذا حكم الاسلام، على لسانه عليه السلام. وأما حكم الدنيا وسيرة أهل السداد والصلاح فيها فلا يجزئ أيضا، إلا أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا وتعصبكم لنا، فنعن أحق الناس بكم، وأجدر أن نعمل عمل آبائنا في أمثالكم من موالهم، فان قمتم حالا فزقت الشمل، أو لقنتم أمرا صدع الجمع، فذاك الفتنة التي يقع فيها الابن أباه، ويقتل لها المسلم أخاه... ولعلنا فيما ساءكم من تلك المنات، وتلك من الفجعات، أوجع قلوبنا، وأشد غموما، فسبحان من لو شاء لأطلمكم على غيبنا وعرفكم إشفافنا عليكم. وكيف لا يكون ذلك كذلك، وما زلتم الشعار والدثار: لا تؤثر عليكم، ولا تنق إلا بكم، فان يكن الشيطان قد نزع بما نزع به بين أبى آدم فن بعدهما من ذنبيته فقد آن أن تتوب الحلوم: فعمود السيوف في أغمارها، والنبال في كنانها. ونحن نعهد الله أن لا تؤاخذ أحدا بذنب، ولا تناله بعقوبة، ولا تطوى على إحنة، بل نفو ونصفح“<sup>(١)</sup>.

ونجد في رسالة أخرى حديثا عن كتاب وجهه زعماء البربر الى سليمان يصرحون فيه بأن خلافة الأمويين مادامت إلا بطبقته، ولا عزت إلا بدعوتهم، ونجد ابن برد يقر عليهم باسم سليمان فيذكر أن طبقته لم تنظر إلا حديثا، وأن عددهم لم يكثر إلا قريبا، وأنه أدخلهم في الدين وأستقنهم من الضلالة، وأخرجهم من الكفر، ثم اصطنعهم وقوه بهم بالتصرف في الخلفة، الى أن يقول:

(١) النسخة ج ١ ص ٥٠-٥٣

(٢) داج ص ٥٣

”وأقسمت على أن من حبسناه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة، فأني لكم ذلك ؟ وإنما أتم مدبرون مسوسون، وأتباع مريويون، وبناء التدبير نازح عنكم، والسياسة القويمة محبوبة دونكم، ومتى بلغكم عن عبد ثرب على مولاه فافطح، أو سمعتم يحنده شغب على مدبريه فأنجح، والله تعالى دينه وخلقه في غنى عن عند عليه وحاده، وأنجر في الاسلام وشاقه، ونخرج عن الجماعة، وشق عصا الإمامة، وأسئف بحق الأئمة، ونزع الأمر أهله . ولولا أن أمير المؤمنين يعلم أن ملائكم لم يجتمع على هذا الكتاب، وأن أهل السداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب، لكان له في ذلك نظريهم الأود، ويعمل الميل... وأعلموا أن السداد والحلم والكظم من أخلاقه، والرفق والأناة من شيمه، فأقبلوا أدبه، وانتقموا بموعظته، فلو كشف لكم الغطاء، واجتلى عليكم الغيب، لعلمت أن أمير المؤمنين لا ينأ عن مصالحكم ولا يني في منافعكم، ولا يسمى إلا بما يرد ألفتكم، ويجمع كلمتكم“ .

وهذا كله كلام طيب، ولكن أين دلالته على قوة ابن برد النفسية ؟ إنه كلام كسائر ما يسطر كتاب الدواوين، فليس فيه اتجاهات فلسفية ولا اجتماعية أكثر مما كان يكتب عادة على ألسنة الأمراء والسلاطين، وقد اتفق لابن برد أن يجهد نفسه في الكلام عن معنى الرعية فلم يزد على أن قال :

”إن الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح، وصلاحيها وفسادها متصلان، ونفاؤها وقصانها متظان : إذ كانت الرعية عنصر المال، ومادة الحياة، وفيهما قوام الملك وعن السلطان، ورزق الأجناد التي بها يقاقل العدو، وينصر الدين، ونجى البرم“ .

وهذا أيضا كلام طيب ولكنه أقل مما سبق إليه في مثل هذه الشؤون .

٦ — وقد اقرن اسم ابن برد في تاريخ الأندلس بكتابة العهد : عهد الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم الأموي، وكان لهذا العهد صدى في كتب المتقنين : فحدثت عنه ابن بسام والمقرئ والقلقيشندي وابن خلدون<sup>(٣)</sup> . وليس لهذا العهد قيمة إلا من الوجهة التاريخية لما

(١) ج ١ ص ٥٣ (٢) ص ٥٤ (٣) يمكن ان تراجع فتح الطيب ص ٢٧٧-٢٧٨ ج ١

فيه من الدلالة على صولة العامرين وضمت الخلفاء ، ولكنه من الوجهة الأدبية والتضسية دليل على أن ابن برد كان من أتباع الغالب على أى حال . ألم يذكر على لسان هشام أنه " بعد أطراح الهوى ، والتجوى للحق ... وبعد أن قطع الأواصر ، وأحطت الأقارب ، لم يجد أحدا أجدر أن يوليّه عهده ، ويفوض إليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مرتبته ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزبه وتقواته : من المأمون النقيب ، الناصح الجليّب ، أبى المطرف عبد الرحمن بن المنصور " .

ولم يقف ابن برد عند هذا ، بل استرسل فزعم ان ذلك القحطاني المتسلط هو الذى أشار اليه الحديث النبوى الذى يقول " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه " فكان ابن برد على هذا من أنصار " التبرج " فى الوضع والتأويل !

٧ — ومن أسوأ ما وقع لابن برد كتابه عن المطرف حين قتل وزيره عيسى بن سعيد<sup>(١)</sup> وهو كذاب فاجرا جاعت فيه هذه الكلمات :

" أيها الناس ! ان من علم منكم حالة الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة ، ورأى النعمة عليه بالمحاضرة ، فقد اكتفى بما شاهد ، وأجترأ بما حاضر ، ومن غاب عنه ذلك من عوامكم : لا تتراح منزل ، أو لا اتصال شغل ، فليعلم أننا أخذناه من الحضيض الأوهد ، وانتشلناه من شظف العيش الأنكد ، فرغنا خبيسته ، وتمننا قبيسته ، وخولناه صنوف الأموال ، وصبرنا حاله فوق الأحوال ، فلم يقم لله بحق ، ولا قابل إحسانه بصدق ، ولا عامل رعبنا برفق ، ولا تناول خدمتنا بحق ، بل أعلن بالمعاصى ، واستنل الأعزّة وذوى المروعة ، ونافرهم ، وأنس بأضدادهم ، ونبذ عهودنا ، وخالف سبلنا ، وكدر على الناس صفونا ، حتى اذا ملكه الأشر ، وتمادى به البطر ، وعلت به الأمور ، وغره بالله الفرور ، حاول شق عصا الأمة ، وهد ركن الخلافة والأمانة ، بما آحجن من حرام المال ، واستمال من طغام الرجال ، فحجته نعمتا عنده ، وخصمته عوارفتا لديه ، وكشف لنا سرّيته حتى صرعه بنيه ، وأسلمه غدره ، وأخذ الله بما اجترم ، وأوبقه بما اكتسب ، فأهملناه عن تديبه ، وصار الى نار الله وسعيه " .

وإنما وصفنا هذا الكتاب بالفجور لأن ذلك الوزير أخذ للقتل من مجلس شرايه وكان فيه أبو حفص بن برد، ولو صدقنا ابن بسام لكان ذلك الوزير من صرعى النائم والوشايات.

٨ — وخلاصة ما سلف أن ابن برد كان قوة أدبية ، وكان من كبار الكتاب في دولة العامين ولكن أدبه ضاع في الدفاع عن الحق حيناً ، والتلف إلى الباطل أحياناً . وكان لا يعرف ما يأتي وما يدع : لأت ظروف السياسة لمهده لم تكن تمكن كاتباً ولا شاعراً من أن يكون أدبه صدى لخلاص النية وطاهر الوجدان . وكان ابن برد كاتباً ووزيراً ، والكتابة والوزارة وسيلتان من وسائل الظلم والبنى عند من تنويرهم منافع العيش ، وتضلهم أباطيل هذه الدنيا القرور .

٩ — وهذا الجانب التضي هو الذي عرفناه أو عرفنا رسومه من ابن برد، لأن من ترجموا له لم يحدوا فيما يظهر غير بقايا من رسائله الرسمية ، أما اللون الجليل من أدب الكتاب الذي يتحدث عن الاخوانيات وعن أنفس الكتبتين في صدق وإخلاص فلم تبق منه بقية شافية ، لأن الأدب السياسي كان طغى على ما سواه من ألوان الأدب في تلك الأيام ، ولأن الشركان استبدوا أكاد بالحديث عن سرائر النفوس ، ودقائق الأحاسيس ، وما كان الناس ينظرون أن يحدسهم الثر إلا عما يصدر عن الخلفاء والأمراء والوزراء من رقاع الإغراء والوعيد . وكذلك استذل الكتاب حيناً لأهواء المسيطرين : فلم يكن أدهم صورة لنفوسهم وقلوبهم وأذواقهم ، وإنما كان في الأغلب صدى بلحظة الاستبداد والظلمة . وآفة الأدب أن يكون صدى لنهر ما يجيش في صدور الكرام من نوازع الصدق واليقين .

## ٤ - أبو المغيرة بن حزم

١ - في الأصل القرنى فصل عن أبى ناضر بن شهيد، وكان لذلك الفصل أثر طيب في تقويم الكتّاب ، لأن ابن شهيد من الأعلام التى لم يتنبه اليها المستشرقون الفرنسيون . أما الرجل الذى أتمدحت عنه في هذا الفصل فهو شخصية قوية جذابة لم يتنبه اليها أحد من الباحثين ، ولم يُعرف عنها كثير ولا قليل ، وهو ابن حزم ! وهنا يلتفت القارئ باسمنا بسمة السخرية : لأن ابن حزم معروف ، طُبّق صيته الشرق والغرب ، فلنسارع إذن بتقرير ما هذان اليه البحث من أن "ابن حزم" يطلق على شخصين أحدهما معروف وهو أبو محمد على بن أبى عمر أحمد بن سميع الفقيه الأديب ، والثانيهما مجهول وهو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الشاعر الكتّاب ، وهما من بيت واحد وابنا عم ، ويمكن الحكم بأن أولها ألقبه وأعلم ، والثانيهما أكتب وأشهر .

٢ - لم أجد من المصادر ما يبنى في تحديد الزمن الذى عاشه أبو المغيرة بن حزم ، ولكن من المؤكد أنه شهد سِرار القرن الرابع وبِحر القرن الخامس ، ومن أخباره أنه تولى الوزارة للمستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام ، وربما كان السبب في محموله أنه اعتبط شاباً "ولو طال به مداه ، لم يذكر معه سواه" كما قال ابن بسام ، يضاف الى ذلك أن شخصيته ابن عمه أبى محمد بن حزم طفت عليه فأغرقت في لجج من النسيان . ومن عجيب المصادفات أن أباً محمد كان يتوقع له هذا الخمول ، ذلك بأنه جرت بينهما مقارعات فكتب اليه أبو محمد يقول :

كفانى بذكرى الناس لى وماترى ومالك فيهم يا ابن عمى ذاكر

(١) أبو المغيرة بن حزم هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن (تقع الطيب ج ٢ ص ١٠٨ طبع لندن) وجاء في الفتح (ص ١٨٥ ج ١) أن أباً محمد بن حزم فارسى الأصل وليس من « بن حزم » وهى أسرة عربية أندلسية . (٢) قال المقرئ في الحديث عن المستظهر : "وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم المعبى كل مذهب كأبى ناضر ابن شهيد المتكلم في طالته ، وأبى محمد بن حزم المشهور بالزلة على العلماء في مقاله ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم التزلز الحرف في حاله" تقع الطيب ج ١ ص ٣١٩ (٣) اعتبط بالياء للمجهول : مات .

عدوى وأشياى كثير كذلك من غدا وهو نفاع المساعى وضائر  
ومالك فيهم من عدو فيتنى ولا لك فيهم من صديق يكائر  
وقولى سموع له ومصتنى وقولك منبت مع الرخ طائر  
وانى وان أذيتنى وعقتنى لحتمل ما جاءنى منك صابر  
وقد أجابه أبو المغيرة بقصيدة لاذعة نكتفى منها بهذه الأبيات :

وغاصب حق أو بقتله المقادر يذكرنى حاميم والرخ شاجر  
غدا يستعير الفخر من خيم خصمه ويجهل أن الحق أبلغ ظاهر  
ألم تعلم يا أخا الظلم أتى برغمك ناه منذ عشر وأمر  
تذلل لى الأملاك حر نفوسها وأركب ظهر النسر والنسر طائر  
وأبست فى أهل الزمان شواردا تؤلفهم وهى الصواب التوافر  
فان أثو فى أرض فإنى سائر وإن أنا عن قوم فإنى حاضر

والذى يوازن بين هاتين القطعتين يتبين أن شعر أبى محمد يشبه شعر الفقهاء، وهو من رجال الفقه والأصول، وأن شعر أبى المغيرة يسمو به الى طبقات الفحول من الشعراء .

٣ — والواقع أن أبا المغيرة كان مفتونا بالدراسات الأدبية، ومصروفا عن الدراسات الفقهية، حتى لنجدته يسخر من علوم ابن عمه فيقول :

” نسيت أبا محمد حاشيتك وشيئتك الى صرت رئيس مدارسهم ، وكبير أحراسهم ،  
تحشهم عما كان فيهم من العبر ، وتجبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر ، فتارة عن  
السامرى والعجل ، وتارة عن القمل والثل ، وطورا تبكيهم بمحدث التيه ، وطورا تضحكهم  
بقوم جالوت وذويه ، حتى كأن التوراة مصحفك ، وبنت الحزان معتكفك “ .

وهذا التعريض يذكونا بما أخذ ابن شهيد على الجاحظ من الاهتمام بفرائب الزواحف والدواب<sup>(١)</sup> .

(١) راجع ص ٧٧ من هذا الجزء .

٤ — وليس هذا كل ما يميز أبني حزم أحدهما عن الآخر في اتجاه الأدواق، بل يحدثنا ابن إسام بأن أبا المغيرة "كان أنه من أبي محمد في حضور شاهده، ودكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة طرفه، وجودة أدبه".

وتلك صفات كان يتميز بها الأديب على الفقيه في أكثر الأحيان .

٥ — تدل أخبار أبي المغيرة ورسائله وقصائده على أنه كان دقيق الحس في اختيار أطايب الحياة، وفي كلامه فقرات في الدعوة إلى مجالس الآس تذكر بأدباء الشرق كالميكالي وابن العميد، ولنتظر كيف يقول :

"فالأرض قد نشرت ملامها، ومحببت ردامها، وليست جلبابها، وتقلدت مهابها، وبرز الورد من كمامه، واهتر الروض لتفريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزت رؤوسها، والدنيا قد أبدت شمسها، وأماطت عبوسها، وكأني بها قد أطلعت من كل ثمر ضروبها، وأبدت من جناها منظرا عجيبا، وإن كالا نشارك في تلك إلا باللسان لا بالعيان، وبالطرف لا بالكف، وللهرق قسم من أقسام اللذة، وصنف من أصناف الشهوة :

شهدنا إذ رأيناهم بأننا على اللذات في الدنيا شهود"<sup>(١)</sup>

٦ — على أنه كان — كسائر من تغوهم شهوات الحواس — سعي الظن بالناس، لأن الخلق لا تسكتف طبائعهم إلا لمن يأنس إليهم في مجالس السلاف وملاعب الجمال، ومن أجل ذلك نراه ينظر إلى العالم نظرة مُشرية بالتحفظ والكتان، ويقرر أن في الاحتواء حسم الداء، وأن لا عدو للإنسان إلا نفسه، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه، ثم يقول :

"وليس في الحيوان أخبث من الإنسان، فالاحتباس كل الاحتباس، والمعاشرة الجميلة للناس، لا تُلدغ من حجر مرتين، وإذا كرم المثل السائر في الملاعب بين وتدين، والماعقل من حمله كل بلد، وتفق عند كل أحد، وأعقل منه من عرف الناس، ولم يعرفوه، فاستراح من أجني متكلف، إلى قريب غير متعصف، ولم يفتقر إلا إلى ربه، ولم يأنس إلا بنور له"<sup>(٢)</sup>.



وهذه الفقرة تمثل كالحكماء لو كانت الى السلامة من شر الناس سبيل . ولكني ما أحسبه دعا تلك الدعوة إلا بعد أن رأى وذاق كيف يكون الفدر والنجاة والمقوق ، لأن الحكماء لا يعطون إلا بعد أن تكوى أيديهم وتشتعل رؤوسهم وهم يقاسون ما تطوى عليه صدور الأصحاب والآلاف والأصدقاء من مظلمات النيات ومنكرات الأغراض ، والطبيعة الانسانية لثيمة تبيح كل شر ، وتسمع بكل بغيض من جنى اللؤم محقوت ، ويكاد الرجل لا يلقى الشر إلا من أصفياه ولا ينجى الشوك إلا حيث يفرس الأزهار والرياحين .

٧ — على أن له — مع سوء ظنه بالناس — كلمات تكشف عن تعلقه بأصدقائه ، وحبته اليهم ، وعطفه عليهم ، فقرأه يقول في بعض رسائله :

”وما أعلم ناثية كفرافك أهد لمن ، ولا نازلة كنبائك أجلب لحزن ، وما كنت أريم ربك لو كان لي الخيار ، أو أبرح متلك لو ساعنى الأقدار“ .

ويقول من رسالة ثانية :

”وان رأيت تأنيبي بكتاب أجتلى منه وجوه البدور ، وجواهر النعور ، ودرر الثغور ، وأجتنى ثمر السرور ، وأرتع منه في رياض العلوم ، ما بين متور ومنظوم ، نفست خناق مشتاق ، وأنست من وحشة الفراق ، منفردا غربيا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين ، كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامى بدار نخلة إلا ك مقام المسيح بين اليهود“

وللقارئ أن يلاحظ أن ما اخترناه من الرسالة الثانية يصرح بضجر أبى المنيرة وتبرمه بالوجود ، اذ يعيش منفردا غربيا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم . وتلك غاية في البؤس والشقاء لأديب لا غنى لروحه عن حلاوة المودة وعذوبة الوفاء .

٨ — وقد حمله شجره على الاكثار من شكوى الزمان ، فتارة يشكو غربة قومه في الأندلس وانصراف أهل الشرق عن علومهم وفنونهم وآدابهم فيقول :

”لقد نادينا لو أسمعنا، وطرنا لو وقفنا، وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرها يطن،  
يتعب أحدا نفسه، ويذهب حسه، ويسارض السيف بفهمه، وألحجر بملسه، والنار  
بذكائه، والزمان بمضائه، ونتائج فكره محجوبة، وبنات صدره غير مخطوبة، إن يسمعو  
رية طاروا بها فرسا، وإن رأوا فضيلة وجها لها ترعا<sup>(١)</sup>“.

ونارة تصحّت عن بلائه بالناس فيقول :

«بأنكاس الزمان، انكست أمثال البيان، كما روى عن الفقي المدعي للكثابة عند عمرو  
ابن مسعدة أنه عاياه بكتاب من صاحب البريد بنجر بقرة ولدت غلاما فأنشأ خطبة مفتتحها  
”الحمد لله خالق الأنام، في بطون الأنعام“ فغضب الرقعة من يده وبالحق في إجزال صفده .  
وإذا تأملت انقلاب الزمان، وما وقع لي مع فلان اقلبت الخطبة فصارت ”الحمد لله خالق  
الأنعام، في بطون الأنام“ وكما قد كشفت عن عوراتها، وما زالت مكشوفة، وعرفت بسواتها،  
وما زالت معروفة، لإخبارا عنه، وتحذيرا منه، وإعلاما بما يستره ذيله، ويشتمل عليه ليله،  
من قبايح يحجبها المار، ويكتبها الليل والنهار» .

وأصرح من هذا قوله في وصف غدرات الأيام :

”نحن شمع الظفر أنقى، واهتر لنيل الأمل عطفي، والدهر يضحك مرا، ويتأبط شرا،  
وقد أذهلني الجذل عن سوء ظني به، وأوهمني تزوعه عن ذميم منهجه، أتت ألوانه، وفسا  
ظريانه، ونادى لي قم من قعد، ويتبه من رقد، انما فترت تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك  
حسرة، وسمحت لك مرة، لتذوق عليها كأسا مرة، فرأيت وقد غطى على بصري، وعقلت  
وكنت في عماية من ظفيري، وقلت هو الذي أعهد من لؤمه، وأعرفه من شؤمه : ما  
وهب الا سلب، ولا أعطى الا ساعة كاجاهم القطا، فياله من قادر ما ألأم قدرته، وفانح  
ما أحذ شفرته“ .

٩ — وقد قاده هذا المزاج الى الإقذاع في الهجاء. وله في النعم فقرات مكشوفة يتقزز منها القارئ، وقد ختم إحدى أحاجيه بهذه العبارة " قبح الله زمانا يقرب الى اللئيم حصانا، والى الكريم اثانا " وربما كان أقبح أحاجيه ما قارع به ابن عمه أبا محمد بن حزم، كقوله يصف كتابا وصل اليه منه "معنى كصدا الأسنان، ولفظ كضحات الأكفان، وأعراض لا مدب فيها لهم مقررطس، وأعلام لا وضع فيها لصبح متنفس، ورطانة تعجها الأسماع، وتخبوها الطباع، فوقت متبدا، وعدت على نفسى وقرمحي مترددا، فقالنا أيها الانسان، لست بالنبي سليمان، متى وعدناك أن نفهمك كلام النحل، وسرار النمل؟ ألم تسلك بك شعاب الكلام فتغللت؟ ألم تسرفى محرواته فأوغلت؟ ألم تجل فى ميدانه فسبقت؟ ألم تسرفى ظلماته فأشرقت؟ هل أحسست بنكول جنان، أو قصور لسان، فيما نظمت كالمقود، على ترائب الفتاة الرود، وتترت كالنجوم، فى صفحة الليل البهيم، فقلت: بل! قالنا: فأعرض عن رطانة الزط، وصغير البط، ولا تعج على طلل بائد، ودار قد آتى الله بنيانها من القواعد! فقلت: لقد أسرفنا طاعتين، إن كاتب الصحيفة لندرة الزمان، ولعالم نوع الإحسان. إلا أنه ربما كذب العنوان. فأعدت النظر فإذا بك — أبا محمد — صاحبه! كتاب بنى على الظلم المبقرى، والبهتان الجلى، ومكابرة البيان، ومدافعة البرهان، قد طمس الله أنواره، وأظهر عوارده، بقاء كالفلاة القوراء: لا ماء ولا شجر، والليللة الظلماء: لا نجم ولا قر<sup>(١)</sup> .

وهذا التهاجى بين أبناء العلم لا غرابة فيه، فان الأدب العربى يزخر بهذا النوع من نظام الأقرباء: لأن نائرة الحقد أشد ما تكون تأججا واضطراما بين الأقربين وهى عند العرب من أقوى بواعث الطموح الى المجد، ومن أشد الحوافز لإيقاد ما تحمد من جذوات النفوس والمقول. ومن هنا نرى أحاجى أبى المنيرة لأبن عمه أمر وأقضى من أحاجيه لغيره، فانه يهجو أبى عمه بحفيظة وحقد على حين لا يخرج هجاؤه لغيره عن المزاج الثقيل، كقوله فى التهمك

(١) النشرة ج ١ ص ٧٨ وفى فتح الطيب ج ١ ص ١٣ فقرات من تهاجى هذين الكاتبين، فترجع اليهما القارئ انت شاء.

بعض المتطيين : " وأشرح لي خبر فلان ، وأين بلغ من تكسبه ، وحيث انتهى من تطيبه ، وكيف ظروفه ونزائنه ، ولمواقته ومواجهته ؟ وهل ينفذ طبعه ، وينفق حبه ؟ وصف لي ما يقوله على المساء ، ويديه من الأدوية ، وأهد إلى ما ينقذ من المقل ، على الكبد والطحال ، ويرقشه من الكلام ، في الفالج والزكام ، فالحمد لمن قرن له ذلك إلى القيام ، بشريعة الاسلام ، والتمهر في الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام ، والفالج عند الخصام <sup>(١)</sup> " .

١٠ — ومع أن أبا المغيرة من الشعراء الفحول فانا نراه يتخذ التراداة للتعبير عن الأبواب الخاصة بالشعر كالغزل والمدح وهو في ذلك يحاكي بديع الزمان الذي يحرص أشد الحرص على أن يؤدي بالثر كل ما يؤدي بالقصيد . وإنما خصصنا بديع الزمان بالذات لأننا نرى في ثر أبي المغيرة فحة همدانية . ويكاد الرجلان يتشابهان ، لولا جزالة ابن حزم ورقة بديع الزمان . والظاهر أن رسائل الهمداني كانت وصلت مسرعة إلى الأندلس ، وأطلع عليها المتأدبون هناك ، وإلى القارئ رسالة لأبي المغيرة تمثل روح الهمداني أصدق تمثيل :

" فكم ليث كان في غابة سمعت صريف أنيابه ، وقرأت في يابه ، إلى عواء ذئابه ، لأمر إلا بالنص المستلب ، ولا ألقى غير الخارب المنتهب ، والشمار عند التائبه ألقاها فأتمططاها ، والنازلة أراها فأتمططاها ، قول أبي الطيب :

فان أسلم فما ألقى ، ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

وأنا أقرب من الزمان صنيعه ، وأتوقع من الحمام وقوعه ، وهو يذهب إلى قبلة الآمال وأنا لا أصتق ، ويسوقني إلى محط الرجال وأنا لا أحقق ، ويؤم إلى البحر الذي لا تحصى فرائده ، والغيب الذي لا يجذب رائده ، حتى أداني إلى الحضرة العليا ، والحلة الشاه ، فكبرت إكبارا لما صرت إليه ، وهلت إعظاما لما سقطت عليه ، وعلمت أن في الحرم الذي لا يضار جنباه ، ولا يطار غرابه ، ولا يخضد شجره ، ولا يمنع ثمره ، ولم ألبث أن نزلت باليفاع الخصب ، وتمكنت من الرشاء والقلب <sup>(١)</sup> " .

(١) الخيرة ج ١ ص ٧٤ و ٧٥ والرشاء الحبل ، والقلب البئر .

ولم يقف تأثره ببدء الزمان عند محاكاته في المذهب والأسلوب ، بل تعداه الى معارضة ما اشتهر من رسائله ، فقد وضع الحمداني رسالة شائقة في إنسان جمع بين اللؤم والجمال ، ثم دالت دولة شبابه فداد من الصغارين ، وهي رسالة مشهورة اهتم بمعارضتها كثير من الكتاب آخرهم المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش ، والظاهر أنها بهرت أهل الأندلس فعارضها أبو المغيرة بن حزم برسالة طويلة تقتطف منها الفقرات الآتية :

”ورد كتابك ينشد خيالة ودنا ، ويرقع خلق عهدنا ، ويطلب ما أفأنته جريرتك الينا ، وذهبت به جنائتك علينا ، أيام غصنك ناضر ، وبدرك زاهر ، لا نجد رسولا اليك إلا نظرة تحرق حجاب الدموع ، وفرة تقيم متأد الضلوع ، فان رما شكوى ينفث بها مصدرونا ، ويستريح اليها مهجورنا ، لقينا دونك أمنع سد ، وأقبح صد ، وأقبح زبد ، وأبرج رد ، حتى إذا طفت تلك التيار ، وأتصف لنا منك الزمان ، بشعرات أعشت هلاكك كسوفاً ، وقلت ديباجتك صونا ، وأعادت نهارك ليلا ، وناحت عليك نهبها وويلا ، وأطار حمامك غرابك ، وحجب ضياك ضياك ، فصار عرسك مآتماً ، وعاد وصلك عزماً :

وبت مداماً قسر الترفيا فاصبحت تمسرع خلا تهفيا

وصرت هجاءاً جديب المحل وقد كنت للطالب الخصب ريفاً

أقبلت تسلسل الينا لواذا ، وتطلب منا عواذا . قد أنساك ذل العزل عز الولاية ، وأولاك طمعاً نسيانك تلك الجناية ، أيام ترشقنا بسهام لحاظك رشقا ، وتقتلنا بسيفوف أفاظك عشقا ، ونميس غصنا ، فتثير حزنا ، وتطلع شمسا ، وتغيب نسا ، فالآن نلقاك بدمع قد جف ، ووجد قد كف . وعزاء قد أبد ، وصبر قد غار وأنجد ، ونظر منك الى روض قد صقح ، وسار قد أصبح ، وأعجم قد أفصح ، ومبهم قد صرح ... الخ“ .

١١ — ترى أبو المغيرة في جملة متين رصين ، لولا ما يتطرق اليه أحيانا من قبح العمل ، ودمامة التكلف ، وهو في الأغلب مسجوع . وفي الذخيرة شواهد على تكلفه ، وهو تكلف محض ، نكتفى بالإشارة إليه ، ولا نعرض له بتحليل ولا تلخيص . ومن المرجح أن تلك الرسائل المتكلفة كانت مما كتبه قبل أن ينضج ويسلس له البيان .

## ٥ - أبو الفرج البغا

١ - البغا هو عبد الواحد بن نصر الخزومي . واما لقب بالبغا للثقة ظريفة كانت ترين لسانه، نشأ في نصيبين وأتصل بسيف الدولة في شبابه، فلما مات صاحبه تنقلت به الأحوال بين الموصل وبنداد، فنادم الملوك والرؤساء، وقضى حياته مقسم الحظ بين النجاح والإخفاق : بنم تارة ويشقى أخرى، حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨ قال التماري : "وأخر ما بلغني من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي يورده من ذكر الثقاة معه عند صدره من الحج وحصوله ببنداد في سنة تسعين وثلاثة ورؤيته بها شيخا على السن ، متناول الأمد، نظيف اللبسة ، بهي الركبة ، مليح الثقة ، ظريف الجملة، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته، ولم تأخذ من ظفره وأدبه ... ثم عرض على القاضي أبو بشر الفضل بن محمد بيجران سنة إحدى وتسعين كتاب أبي الفرج الوارد عليه من بنداد مشتملا من النظم والنثر على ما أثر فيه حال من بلغ ساحل الحياة، ووقف على ثنية الوداع".

٢ - كان البغا من أركان الحياة الأدبية في زمانه، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلا، فكان من نتائج ذلك أن قلت المصادر التي تكفي لتعيين اتجاهاته الأدبية، وإقلال المؤلفين من الحديث عنه يبعث بعض صفاته، لأن المؤلفين يهتمون في الأظلم بتقيد ما يصل إليهم من أخبار المشايخين من الكتاب والشعراء ، فأكثر من عرفت حالهم من رجال الأدب كانوا في حياتهم رجال دسائس ومكائد وسفاهات : وأكثر ما يكونون من طبقات الوزراء أو أمناء الملوك والوزراء .

فإن ظفرت بكتاب خامل الذكر أو شاعر مجهول القدر فلا تنس أن تلاحظ أن هذا لم يكن إلا لأن ذلك المعبود كان في حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال . ومجموعة

ما وصل إلينا من شعر البيضا ورسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل بالصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد .  
وانما كانت صلاته بالملوك والرؤساء عند الحدود الضيقة حدود السمر والأنس حول بساط السلاف .

٣ -- وإنا نراه يدور حول شهواته وأغراضه النفسية في أكثر ما أُرْعِنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص، بحيث نستطيع أن نقدر أنه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه توب القافه والإملاق ، وأن يكون في يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات، وأوابد الأهواء :

وفي هذا الذي تقضي به تحليل لصفاء شعره الوجداني، فقد كان شعر البيضا يُقْنِي به وكان من متع السامعين في الشام والعراق، ولنتظر كيف يقول في محبوب رمدت عيناه :

بنفسى ما يشكوه من راح طرفه      وزجره مما دعى حسنه ورد  
أراقت دمي ظالما محاسن وجهه      فأضى وفي عينيه آثاره تبدو  
غدت عينه كالخلد حتى كأنى      سقى عينه من ماء توريده الخلد  
لئن أصبحت رمداء مقفلة مالى      لقد طال ما أَسْتَشِفْتُ بها مقل رمد<sup>(١)</sup>

ولنتظر كذلك كيف يقول في محبوب فصدّه مضجع الطيب :

بأي النساب الذى لم يغب عني      فأشكو إليه هم الغيب  
بأثرته كف الطيب فلونا      ت الأمانى قبلت كف الطيب  
فلت في ذراعه ظبية المي      ضح أفعال لحظه بالقلوب  
فأسالت دما كأن جفوني      عصفرته بدمعها المكوب  
طاب جسدا فلو به سمع الده      سر لأمنى عطرى وأصبح طيب<sup>(١)</sup>

وهذه معان دقيقة لا يحسنها إلا من يفرغ لأمثالها من شعراء الوجدان .

وإننا لتأمل في شمره فتجده يرتقب فرص زمانه فيقول مثلاً في الورد والربيع والشراب :

زمن السورد أطرف الأزمان	وأوان الربيع خير أوان
أدرك النرجس الخفى وفزنا	منهما بالخدود والأجفان
أشرف الزهر زار في أشرف الدهر	فصل فيه أشرف الإخوان
وأجل شمس العقار في يد بدرال	حسن يخدمك منهما النيران
وأدرها عذراء وأتهز الام	كان من قبل عائق الإمكان
في كؤوس كأنها زهر الخش	خاش ضمت شقائق النمل
وأخذعها عند البرال بالقفا	ظ المشاني ومطربات الأغاني
فهى أولى من العرائس إن زف <sup>(١)</sup>	ت يعزف النايات والعيدان

وللتقارئ أن يتأمل آحشاء الشاعر بالصبا ودعوته الى آخذعها كما تخضع العروس

بالنأى والموود .

٤ - وما يؤكد أن أطاع البيا من الاتصال بالملوك كانت طفيفة لا تمدو مطالب

الرزق أن نراه يقول :

ما النذل إلا تحمل المنز	فكن عزيزاً إن شئت أو فهن
إذا اقتصرنا على السير فما العد	ة في عتينا على الزمن <sup>(٢)</sup>

وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

صحب الدهر في سهل وحزن	وجرت الأمور وجرى بطنى
فلم أرمذ عرفت محل نفسى	بلوغ متى يساوى محل من
ولم تتضمن الدنيا لحظى	منال مسرة إلا بحزن
وليس على غير الجسد فيما	سعيت له لأستغنى وأغنى
فان أحرم قلم أحرم لسجى	وان أبلغ ففنى بلفتى <sup>(٢)</sup>



وأدل من هذا على اهتمامه بالوجدانيات أن التنوخي يتحدثنا أنه روى عنه قول سيف الدولة :

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما عفت منه أيات وسدت مشارع  
فقلت الى أن يرجع الماء جاريا وتعشب جنباه تموت الضفادع<sup>(١)</sup>

وحرص البيضا على رواية مثل هذين البيتين يمثل حسرته على أيامه السوائف ولياليه الخوالي .

٥ - وخلص البيضا من مشا كل دنياه مكنه من أن ينظر الى أهل الأدب نظر العطف والإحاء . ومن شواهد ذلك شوقه الى رؤية أبي اسحاق الصابي ، وقد انفق له أن زار بغداد والصابي معتقل منذ مدة طويلة فلم يصبر عنه فزاره في محبسه ، ولكنه شغل عن معاودته فكتب اليه الصابي :

أبا الفرج أسلم وأبق وأنتم ولا تزل  
مضى زمن تستام وصل غالبا  
وأنسنى في محبى بزيارة  
ولكنها كانت كحسوة طائر  
وأحبك أستوحشت من ضيق محبى  
كذا الكورز<sup>(٢)</sup> الساح ينجو بنفسه  
فوشيت ياقس الطيور فصاحة  
وقد أجابته البيضا بأبيات جاء فيها قوله :

فان كنت بالبيضاء قدما ملقبا  
وبعد فإ أخشى تقص جارح  
فكم لقب بالخور لا العدل مختص  
وقلبك لى وكر ورأبك لى قصص<sup>(٣)</sup>

٦ - وما أحب أن أشغلى الرغبة في الأبحاز عن إثارة بعض ما دار بين الصابي والبيضا من المراسلات ، ولا أكتف بما كان بينهما من وصف "البيضاء" فإن صاحبنا أبا الفرج لما لقب

(١) ص ١٣٤ شوارح المناصرة . (٢) الكرز ، بضم الكاف ، الصقر .

(٣) ص ١٨٧ ج ١ نية . (٤) ص ١٨٨ ج ١ نية .

بالبیضا لثنته استطاع الصابی أن یحاوره بحاوره طریفة فی وصف البیضاء فهو مثلاً یستدر عن إهماله الرجوع الیه لزیارته فی السجن بقوله :

وأحبك أستوحشت من ضیق محبسی  
وللتنظر کیف یقول فی وصف البیضاء :

أنتها صبیحةً ملیحة	ناطقةً باللغة الفصیحة
عُدتُ من الأطیار والسانُ	یوهنی بأنها انسانُ
تُهی الی صاحبها الأخیارا	وتكشف الأسرار والأستارا
سكَّاء إلا أنها سمیة	تعد ما تسمعه طیبة
وربما لُقِّنت العصبیة	فتفقدی بیهةً سفیة
زارتك من بلادها البعیدة	وأستوطنت عندك كالقعیة
ضیفُ قِراءِ الجوز والأرزُ	والضیف فی أبیاتا یعز
تسراه فی مقارها الخلق	كلؤلؤ یلقط بالمقیق
تنظر من عینین كالقصبین	فی النور والظلمة بصاصین
تمس فی حلتها الخضرءاء	مثل الفتاة الغادة المذراء
خریدةٌ خدورها الاحفاص	لیس لها من حبسها خلاصُ
تحبسها وما لها من ذنب	وإنما تحبسها للحب
تلك التي قلبی بها مشغوفُ	كنیت عنها وأسمها معروف
نشارك فیها شاعر الزمان	والكاتب المروف بالیسان
وذاك عبد الواحد بن نصر	تقیه نفمی عادیات الدهر <sup>(١)</sup>

وقد أجاب البیضاء علی هذه الأرجوزة البدیعة بأرجوزة أطول ولكنها نافهة لم یسجنا منها

إلا قوله فی البیضاء :

ومقلة كسج في عسجد	ترهى بدواج من الزمرد <sup>(١)</sup>
كأنما صيغ من المرجان	وحسن مقار أشم قار
بنطقها من فصحاء الانس	صيرها اقارداها في الحس
عن كل مخلوق سوى الانسان	تميزت في الطير بالبيان
من خير تغير لحد أولعب	تحكى الذى تسمعه بلا كذب
لا تشرب الما ولا تخشى الصدى	غذاؤها أركى طعام رعدا
لا ترتضى غير الأرض قوتا	ذات شئ تحسبه ياقوتا <sup>(٢)</sup>
حباية تطفو على عقارها	كأنما الحبة في مقارها
أسكنها في قفص الحديد <sup>(٣)</sup>	إقدامها بياسها الشديد

٧ - وهذا الوصف وصف البغاة الذى أجاد فيه الشاعر ان أتاحه لنا لغة أبى الفرج

التي أبدع في وصفها الصابى حين قال :

وما هجنت منك المحاسن لثقة	وليس سوى الانسان تلقاه ألقا
أتمرفها فيا تقلم خالبا	لمير اذا ما صاح أو جمل رغا
فإلك حرقا زدت فضلا بنقصه	فأصبحت منه بالكمال مسوغا <sup>(٤)</sup>

واللغة تكون أحيانا أملح من النطق الصحيح : فيكون النقص بها فضلا كما أشار الصابى

وان كما لا ترتضى بقية التمثيل .

٨ - ولا يفوتنا أن نعيد هنا أن شعر أبى الفرج تغلب عليه النزعة الوصفية وذلك

يتصل بمذهبه في النثر أشد اتصال، وهو وإن لم يستطع مصالوة فحول القرن الرابع كالارضى والمتنبى وأبى فراس يبدع أحيانا ويروع حتى لنمده في طليعة الشعراء . ولننظر كيف تسدق الحياة في قوله يصف قتل الحرب :

فتركهم صرعى كأنك بالظبا عاطيتهم في الروع كأس مدام

(١) الدواج على وزن دنان وغراب الحاف الذى يلبس (قمارس) . (٢) الشئ كهذى حصل الشعر  
المجان، والشعرانة الجملة منه (قمارس) . (٣) ص ١٩٠ ج ١، نجمة . (٤) ١٩١ ج ١، نجمة .

متهاجرين على الدتو كأنما أضئت رؤوسهم عن الأجسام<sup>(١)</sup>  
 وقوله يخاطب سيف الدولة ويذكر وقعة كانت له مع بني كلاب وعفوه عنهم :  
 إذا استك الجانون أعمدك الحلم وإن كفك الإبقاء أنهضك العزم  
 ومن مختار هذه القصيدة :

ومن لم يؤدبه لفرط عسوه — إذا ما جنى — الإنصاف أدبه الظلم  
 إذا العرب لم تجز اصطناع ملوكها بشكر تعاوت في سياسها العجم  
 أعدوا إلى عادات عسوك محسنا كما عودتها قبل أبائك الشم<sup>(٢)</sup>  
 فإن ضاق عنها المذر عندك في الذي جنته فإضاق التفضل والحلم<sup>(٣)</sup>  
 وله أوصاف حية جدا تكاد تنطق بمعاني الموصوف، من ذلك قوله في وصف معصرة :

ومعصرة أنثت بها وقرن الشمس لم يغب  
 نفلت قزازها بالرا ح بعض مادن الذهب  
 وقد ذرفت لفقد الكر م فيها أمين العنب  
 وجاش صباب وادبها بمنهل ومنسكب  
 وياقوت المصير بها يلاعب لؤلؤ الحب  
 فإعجا لعاصرها وما يغنى به عجمي  
 وكيف يمش وهو يخو ض في بحر من الذهب<sup>(٤)</sup>

وقوله في وصف الخيل على صهواتها الفرسان :

وكل بعيد قرب الحين نحوه سلاهلك الجرد الخفاف قريب  
 تباثر أقطار البلاد كأنها رياح لها في الخالقين هبوب  
 تماشى بفتيان كأن جسامهم خلقتها فرق السروج قلوب<sup>(٥)</sup>

(١) ص ١٦١ تنوار الحاضرة (٢) ص ٥٦ تنوار (٣) ص ١٩٥ ج ١ بقية .

(٤) ص ٢٠٣ ج ١ بقية .

## ٦ - نثر أبي الفرج البياض

١ - يمتاز نثر البياض بعدة ميزات : أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية، ويمثل الكاتب في ميوله الذوقية والوجدانية . فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه القطرة حيناً ويسوده التكلف أحياناً . وهو من جهة الموضوع يتصل في أكثر نواحيه بما يمس الكاتب من حيث هو رجل مودات ومجاملات ، وقيل أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية، على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع . ولذلك قرأ نثر البياض في طمأنينة وسكون تترامى أمام خيالاته أشباح المشاكل الطريفة التي تشغل بال الرجل المهذب الذي يحرص على مجاملة الأوتقاء والأصدقاء والرؤساء، بدون أن يعنى كثيراً بما تصطرع حوله الأفكار وتتصاول في حماء العقول .

٢ - وأقل ما يطالعنا من نثر البياض هو رسائله الإخوانية، كما كان يعبر القدماء، وهي الرسائل التي بث فيها شوقه إلى أصحابه وألأفه وإخوانه ، بطريقة وجدانية تقرب في روحها من قصائد النسب، كأن يقول :

”شوق المملوك إليه شوق الظمان إلى القطر، والسارى إلى غرة الفجر“<sup>(١)</sup>.

أو يقول :

”شوق إليه شوق من فقد بالكه سكنه ، وفارق بالضرورة وطنه“ .

وقد يحاول تحليل صبره على بعد مودوده فيقول :

”ولولا أن المملوك يجتد نار الاشتياق، ويرد أوار الفراق، بالتخيل المثل لمن فأت علته، والتفكر المصور لمن بعدت شقته، لألمبت أنفاسه، وأسعرت حواسه، وحمّت دموعه ، وأنقضت ضلوصه . والله المحمود على ما وفق له من تمازج الأرواح، عند تباين الأشياء“<sup>(٢)</sup>.

وله في هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس ، وتسكن إليها الروح ، وأنظر كيف يقول في رفق أشبه بتناجى المحيين :

”إن تزايلت الأشباح ، فقد تواصلت الأرواح ، وإن زحلت الأغصان وبعثت ، فقد دنت الأنفوس وتقاربت ؛ فلا تَمُضُّ الفرة وتؤلم ، وتنقص النوى وتكلم . وقد ينال بتناجى الضيائر ، وتحاور السرائر ، مالا تصل إليه الإشارة ، ولا تدل عليه العبارة ، إذ الأنفوس البسيطة أرق مسرى ، وأبعد من الألسنة مرعى“ .

ونحن نفهم هذا : فقد نميش على صلة الأرواح مع أصدقاء أقصتهم الليالي عيشا لانجده في وجوه من نساكنهم وتلاقيهم صباح مساء . والود ود القلوب .

٣ — وفي رسائل البيغا تفسير لبعض الجوانب الاجتماعية ، وتأكيدها عرف عن العرب من بعض الخلل ، من ذلك رسالته في التهئة بمولودة : فهي تأكيد لما درج عليه العرب والهند من بنض البنات . ولهذا نراه في هذه الرسالة يقف موقف الواقظ لا موقف المهني ، فيقول :

”لو كان الانسان متصرفا في أمره بارادته ، قادرا على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة ، وأستحالت حقائق الصنعة ، ودرست معالم الآمال ، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال ، غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعا ، وعلى ما عنه ظهر في الابتداء مطبوعا ، كان المخرج له الى الوجود من العدم ، فيما أرتضاه له غير متهم . ومولانا — أيده الله ! — مع كمال فضله ، وتاهى عقله ، وحيدة فطته ، وثاقب معرفته ، أجل من أن يجهل مواقع النعم الواردة من الله تعالى عليه ، أو يتسخط مواهبه الصادرة اليه ، فيرمقها بنواظر الكفر ، ويسلك بها غير مذاهب الشكر . وقد اتصل بي خبر المولودة ، كرم الله عزها وأطال مدتها ، وعرف مولانا البركة بها ، وبلغه أملها فيها ، وما كانت من تغيره عند آتضاح الخبر ، وإنكار ما اختاره له سابق القدر ، فصحب الملوك من ذلك وأستنكره ، من مولانا وأنكره : لضيق الصدر في مثله عليه . وقد علم

مولانا أنهن أقرب إلى القلوب، وأن الله تعالى بدأ بهن بالترتيب فقال جل من قائل ﴿يحب لمن يشاء إنانا ويحب لمن يشاء الذكور﴾ وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى، وبجس التفضل أخرى، ولكم نسب أفدن، وشرف استحدثن، من طرق الأصهار، والاكتمال بالأخيار، والمتمس من الذكر نجاسته، لا صورته وولادته، ولكم ذكر الأئمة أكرم منه طبعاً، وأظهر منه نقلاً، فولانا بصور الحال بصورتها، ويمتد الشكر على ما وهب منها، ويستأنف الاعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته، والأولى بمثله، أن شاء الله تعالى<sup>(١)</sup>.

ويظهر أن هذا النوع من التهاني كان من الموضوعات الملحوظة في القرن الرابع، فقد عقد له الحمصى فصلاً في زهر الآداب. ومن طريف ما جاء فيه تفضيلاً للأئمة على الذكر قول بعض الكتاب:

”الدنيا مؤنثة والرجال يخدعونها؛ وإناث مؤنثة والذكور يعبسونها؛ والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية؛ والسما مؤنثة وقد حليت بالكواكب، وزينت بالنجوم الثواب؛ والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان، وملاك الحيوان؛ والحياة مؤنثة ولولاها لم تنصرف الأجسام، ولا عرف الأنام؛ واللجنة مؤنثة وبها وعد المتقون، وفيها ينعم المرسلون“<sup>(٢)</sup>.

ويتصل بهذا المعنى ما اقترحه سيف النبوة على البيهقي من الكتابة إلى من تزوجت أمه وكان العرب يكرهون أن تزوج أمهاتهم كرها شديداً. وقد آفق لعمر بن مسعدة أن سأل سائل: كيف تكتب لمن تزوجت أمه! وهذا دليل على أن كتاب القرن الثاني كانوا يعدون ذلك من فنون الانشاء. أما في القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهراً أشد الظهور، وفصل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب: فذكر أن من الحق ما يستحسن تركه، ويستحسن عمله، وأشار إلى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه، وأنه عرف من تزوجت أمه

(١) صبح الأضنى ص ٦١ و ٦٢ ج ٩

(٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية.

(٣) صبح الأضنى ص ١٤٥ ج ٩

فَعظَمَ لَذلكَ هَمَهُ ، وَأَفَرَدَ عَن أَوْدَانِهِ ، وَتَوَارَى عَن أَصْفِيَانِهِ . وَكَرِهًا تَهَنَّتُهُمْ  
أَوْ عَزَاثُهُمْ . ثُمَّ بَيَّنَّ نَمَاجِجَ مَا يَكْتُبُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ . وَإِلَى الْقَارِئِ . نَصَ رِسَالَةِ الْبَيِّنَا الَّتِي  
اقْتَرَحَهَا سَيْفُ الدَّوْلَةِ بَنُ حَمْدَانَ :

”مَنْ سَلَكَ الْيَكْ — أَعَزَّكَ اللَّهُ ! — سَبِيلَ الْإِنْسِاطِ ، لَمْ يَسْتَوْعِرْ مَسْلَكَ مِنَ الْمَخَاطِبَةِ فِيمَا  
يَحْسُنُ الْإِقْبَاضَ عَن ذِكْرِ مِثْلِهِ . وَاتَّصَلَ فِي مَا كَانَ مِنْ خَبَرِ الْوَاجِبَةِ الْحَقِّ عَلَيْكَ ، الْمُنْسُوبَةِ  
بَعْدَ نَسَبِكَ إِلَيْهَا الْيَكْ — وَفَرَّقَهُ صَيَاتُهَا — فِي اخْتِيَارِهَا مَا لَوْلَا أَنَّ الْأَنْفُسَ تَتَنَازَعُ ، وَشَرَعَ  
الْمُرُوءَةُ يَحْظَرُهُ ، لَكُنْتُ فِي مِثْلِهِ بِالرَّضَا أَوْلَى ، وَبِالْإِعْتِدَادِ بِمَا جَدَّدَهُ اللَّهُ فِي صَيَاتِهَا أُخْرَى ، فَلَا  
يَسْخَطُنُكَ مِنْ ذَلِكَ مَارِضِيهِ وَجُوبُ الشَّرْعِ ، وَحَسَنَةُ أَدَبِ الدِّيَانَةِ ، وَمَبَاحُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يَتَّبَعَ  
وَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ عَمَّنْ لَمْ يَدْعُ خِيَارَهُ تَسْخِطُ اخْتِيَارَ الْقُدْرَةِ ، وَالسَّلَامُ“ .<sup>(١)</sup>

وَلَا يَفُوتُنَا أَنْ نَذْكُرَنَّ الْبَيِّنَا تَأَثَّرَ فِي رِسَالَتِهِ هَذِهِ خُطُوبَاتِ ابْنِ الْعَمِيدِ فِي نَفْسِ الْفُرْصِ ، وَلَكِنْ  
رِسَالَةُ ابْنِ الْعَمِيدِ أَكْثَرُ وَحْشِيَّةً وَأَدْلَى عَلَى كَرِهِ الْغَرَبِ تَتَرَوَّجُ الْأَمْهَاتُ . وَإِذَا وَحْشِيَّةً أَخْشَنَ  
وَأَغْلَظَ مِنْ أَنْ يُخَاطَبَ مِنْ تَزَوَّجَتْ أُمُّهُ بِمِثْلِ هَذِهِ اللَّهْجَةِ يَقُولُ :

”وَهَناكَ اللَّهُ الَّذِي شَرَحَ لِلتَّقْوَى صَدْرَكَ ، وَوَسَّعَ فِي الْبُلُوِّ صَبْرَكَ ، مَا أَلْهَمَكَ مِنَ التَّسْلِيمِ  
بِمَشِيئَتِهِ ، وَالرَّضَا بِقَضِيَّتِهِ ... وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى حُدُودَ مَا مَجَزَعَتْهُ مِنْ أَنْفٍ ، وَكَطَمَتْهُ مِنْ أَسْفٍ  
مَعْدُودًا يَعْظُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ أَجْرُكَ ، وَيَجْزِلُ بِهِ ذَنْبُكَ ، وَفَرَّقَ بِالْحَاضِرِ مِنْ آمْتِمَاضِكَ لِفَعْلِهَا ،  
الْمُنْتَظَرِ مِنْ آرْتِمَاضِكَ لِدَفْنِهَا ، وَعَوَضَكَ مِنْ أَسْرَةِ فُرْشِهَا ، أَعْوَادَ نَمَشِهَا ، وَجَعَلَ مَا يَنْعَمُ عَلَيْكَ  
بَعْدَهَا مِنْ نِعْمَةٍ ، مَعْرُوفٍ مِنْ تَقَمَّةٍ ، وَمَا يُؤَلِّيكَ بَعْدَ قَبْضِهَا مِنْ مَتْعَةٍ ، مَبْرَأً مِنْ مَحْنَةٍ“ .<sup>(٢)</sup>

وَنَحْنُ حِينَ نَصِفُ ذَلِكَ بِالْوَحْشِيَّةِ مُتَأَثِّرُونَ بِرُوحِ الْمَصْرِ الَّذِي نَمِيشُ فِيهِ ، وَلَوْ خَلَوْنَا إِلَى  
فَطَرْتَنَا لَرَأَيْنَا ابْنَ الْعَمِيدِ يَمُورُ عَنْ فَوَازِجِ إِنْسَانِيَّةٍ ، وَلَا يَقُولُ شَرْقِيَّةً ، لِأَنَّ الْغَيْرَةَ عَلَى الْأَمْهَاتِ غَيْرَةُ  
فَطَرِيَّةٍ لَا يَسْلُمُ مِنْهَا إِنْسَانٌ وَلَا حَيَوَانٌ ، فَلْتَقَفْ عِنْدَ تَدْوِينِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْأَدَبُ مِنْ مَظَاهِرِ

(١) زهر الآداب ص ٦٢ و ٦٣ ج ٢ الطبعة الثانية . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ٧٩

(٣) الارتماض : الحزن . (٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٣



الاجتماع والأخلاق وقفة التزاهة والحياد . وما خصصنا العرب والمهود بكرة النبات إلا لظهور ذلك في أدهم ظهوراً قوياً ، وإلا فقد استجوبنا الناس من جميع الأجناس فرأيناهم يؤثرون البتين على النبات . وما نحن على الفطرة الانسانية بمسيطرين .

٤ — ومن النواحي الطريفة في ثرالبغا رسائله في استهزاء الشراب . وكان هذا الفن من الكتابة مما يؤثّر كتاب القرن الرابع ، ولم فيه فقرات حسان تدل على فتوة القلوب ، وشباب الأرواح . وفي طي ذلك الاستهزاء معنى لطيف : فقد كان المستهذى يشير غالباً إلى أن لديه "زائرين أعضاء" يسره أن يجمع شملهم حول بساط السلاف ، وقد يومى إلى أن لديه (محبوباً) أسعده زيارته وأنه يجب أن لا يكون المجلس محروماً من قعدة الصبياء . وأنظر ماذا يقول أبو الفرج سامحه الله :

"من كان للفضل نسباً ، ولفلك الفتوة قطباً ، لم تنزع القلوب من الهم إلا إليه ، ولم تعزل الأنفس في استراحة المسائر إلا عليه . وقد طرقني من إخواني من كان الدهر يماطلي بزيارته ، وينفس على يقربه ومشاهدته ، فصادفني من المشروب معسراً ، ووجدت الانبساط في التماسه من غيرك على متعذراً ، وإلى تفضلك تنزع مروءة في الاسعاف منه بما يلم شعث الألفه ، ويجمع شمل المسرة . ويحملنا لك في ورق الاعتداد بالمنة ، ويقضى عنى بتفضلك حقوق المودة"<sup>(١)</sup> . وفي المعنى نفسه يقول من كلمة ثانية :

"ألطف المنن موضعاً ، وأجلها من الأنفس موضعاً ، ما عمر أوطان المسرة ، وطرد عوارض الهم والفكرة ، وجمع شمل المودة والألفه ، وأدى إلى اجتناء ثمرة اللذة . وبذخاؤك من المشروب مع هذه الأوصاف ما يسترق حُ الشكر ، ويمرّز قصب السبق إلى الثناء وجمل الذكر ، فإن رأيت أن تتجدد بالمكن منه مروءة ، على قضاء حق من أوجب على المنّة زيارتي ، فلت"<sup>(٢)</sup> .

(١) بنض العرب لسان معروف وقد جعله القرآن ، أم بنض المهود لسان في بيانه قول مؤلف كلية ودعة "وكان يقال : إن العاقل يدأ به أصدقاء ، والأغرة رفاقاً ، والأزواج أهلاً ، والبتين ذكراً ، والبات خيلاً ، والأقارب غرباء ، ويدقه فريداً" . (٢) ينس : محمد . (٣) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣ (٤) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

وعلام يدل هذا النوع من الاستهزاء ؟ يدل أولاً على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروءة — كما عبر أبو الفرج — في السهرات الاخوانية ، ويدل ثانياً على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يحمله الراغب حيث شاء ، كما يقع ذلك اليوم في أكثر الحواضر الشرقية ، وانما كان مما يدخره المترفون ، حتى أستطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستبدونه وينفقون في طلبه الرسائل الملاح . والاستهزاء والاستجداء كلمتان متقاربتان في الرسم والنطق المدلول<sup>(١)</sup> .

• — وهناك استهزاء أظرف وأشرف : وهو استهزاء الدواة والمداد ، ونحن نعلم قيمة ذلك في أنفوس الكتاب . وقد استهدى البها دواة فقال :

”أنفوس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضل نسباً ، وللصناعة والحظوة سبباً ، وبالدوى تجنى ثمرة الصناعة ، ويحتلب دُرُّ الكتابة ، وقد أوحش المملوك الدهر مما كنت أقتنيه من نفائسها ، وضايقه في وجود الرضى على الحقيقة منها ، فان رأى مولانا أن يميظ ببعض ما يستخدمه من حالها أو عاظها سمة عطلة المملوك ، ويسمح بإهدائها الى أهل تصرفه ، ويقابل بالتجمل والتقبل رغبته ، فل ، إن شاء الله تعالى“ .

واستهدى مداداً فقال :

”التنافس — أيدك الله ! — في أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر في ظهور الصمة ، والتخير لبيان الإمكان والقدرة . وإلا فاسائر الدوى سواء فيما تصدره الأقلام عنها ، وتستمتد بطون الكتب منها . وأولى آلائها بأن تتوفر العناية عليه ، وينصرف الخير بالضرورة اليه ، المداد الذي هو ينبوع الآداب ، وعناد الكتاب ، ومادة الافهام ، وشرب الأقلام ... ولا معدل بي عن استماتة خزائنك — عمرها الله ! — الممكن من جيده ، فان رأيت أن تستنقذ دواتي من تحول العطلة ، وتتره قلبي عن ظمأ الغلة ، وتكشف عنها سمة التقصان والخلّة ، فلت إن شاء الله تعالى“<sup>(٢)</sup> .

(١) في هذه الفقرة شيء من الحق ، وكل ما بين الكلتين من الفرق أن الاستجداء يكون فيما يحتاج اليه المعززون كالعلماء وأن الاستهزاء يكون فيما يحتاج اليه المترفون في أذواقهم وان كانوا فقراء .. (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢١

ولنلاحظ أن البيغا لا يستهدى دواة كيف وقعت، ولا مدادا كيف كان، وإنما يستهدى دواة (نفيسة) ولو كانت عاطلة، ويستهدى مدادا (جيذا) يتره قلبه عن ظمأ الغلة، وهذا تعبير يتنفس عن شعر بلخ. واختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضح الدلائل على أذواق الكتاب. وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جدا في بحث نشاط الكاتب. وكذلك تفعل الأفلام الجيدة. وهذا كلام فصلناه في المقدمة الفرنسية التي صدرنا بها (الرسالة العذراء) فليرجع إليه القارئ هناك<sup>(١)</sup>.

٦ — وقد لاحظنا أن البيغا يكتب في الموضوع الواحد غير مرة، وفقا للظروف. من ذلك رسائله في التهنته بالزواج<sup>(٢)</sup> والتهنته بولاية عمل والتهنته بالقدوم من سفر والتهنته بالمواسم والاعياد.

وهذا كله طبيعي ومقبول، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه في التهنته بالصرف عن الولاية، فقد نفهم أن بينا المرء بولاية عمل، ولكنا لا نفهم كيف بينا بال عزل، وما ننكر أن يقع ذلك، ولكنه في رأينا من التكلف الممجوج، وإن كان يدل على لباقة وذكاء. ولننظر كيف يحمال البيغا في مثل هذه الحال :

”من حل عمله — أيده الله تعالى! — من رتب الرئاسة والتبيل، كان معظما في حالي الولاية والعزل. لا يقدح في قدره تغير الأحوال، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقل الأعمال، إذ كان استيعابها للفتات من بركات نظره، بحسب أنسها — كان — بما أفادته من محمود أثره<sup>(٣)</sup>“.

”لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما آخضك به من كمال الفضل، ومأثور التبيل، لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك، وتحوطه (١) ولقارئ أن يراجع كذلك ما أثبت صاحب زهر الآداب من (أوصاف آلات الكتابة واليدى والأفلام) ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية. (٢) أثبت له صاحب الصبح أربع رسائل ص ٥٥٤ و ٥٥٥ ج ٩ (٣) أثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٤) أثبت له أربع رسائل ص ٣٤ و ٣٥ ج ٩ (٥) الصبح ج ٩ ص ٧٧

بناظر تراحت وصياتك، ... فلاأصف فيا تنظر فيه عليك لا منك، والفائدة فيا سقله بك لا لك : ولذلك كنت بالصرف مهنا مسرورا، كما كنت في الولاية محمودا مشكورا<sup>(1)</sup> .

٧ - وهذا الاستطراف لا يفارق البين: فقد كتب عدة رسائل في التهنئة بالشفاء من المرض، يدور أكرها حول معنى واحد: هو أنه يشارك صديقه في العلة والشكوى. ومبجنا من ذلك قوله:

”ما كنت أعلم أن عافيتي مقرونة بعافيتك، ولا سلامتي مضافة لسلامتك، إلى أن تحققت ذلك من مشاركتي إياك في حالي الآلم والصحة، والمرض والمحنة، فالحمد لله الذى شرف طبيعى بتناسيتك، وجعل خلقى بسلامتك، فيما ساء وسر، وإياه تعالى أشكر على ماخصنى به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك، وصرعة إقائك“<sup>(٧)</sup> .

ولكننا نبتمم حين نراه ينفى صديقا بالمرض فيقول :

”في ذكر الله سيدي بهذا العارض — أماطه الله وصرفه ، وحمل صحة الأبد خلفه — ما دل على ملاحظته إياه بالناية، إيقاظاً له من سنة الغفلة، إذ كان تعالى لا يذگر بطروق الآلام، وتبیه الغفلات، غير الصغوة من عباده، الخيرة من أوليائه، فهناك الله الفوز بأجر ما يسانيه وحمل عنه بالطافه تعل ما هو فيه“ (٣).

ولكن لا عجب فالمرض والمرض من الطوارئ التي تحتاج الى التلطف في المواجهة، وإخراجها مخرج التهبة فيه طرافة تفرى بالعزاء .

٨ - وقد يتفق للبعض أن يكرر العبارات والألفاظ حين يساود الكتابة في موضوع واحد كقوله في التزمية :

”اتصل بي خبر المصيبة : بفقد الحصرة ، وسكب العبرة ، وأضرم الحرقرة ، وضاعف  
اللوعة“<sup>(٤)</sup>

فأراه يعيد هذه التماير في كلمة ثانية فيقول :

”اتصل بي خبر المصيبة : فأضرم الحسرة ، وسكب العبرة ، وقدهح اللوعة ، وامترى<sup>(١)</sup> الدمنة“ .

وله في هذا عذره : فإن اللغة محدودة ، وبعض المعاني يعبر الافتنان في تلويها أحيانا .  
على أنه استطاع أن يخفي فقره قليلا حين قال (أضرم الحسرة) مقابل (جدد الحسرة) وقال  
(قدهح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقه) وإن كان كرر (سكب العبرة) بلفظها في الرسالتين .

وكذلك كرر المعنى والعبارة في قوله تنزيه لصادق :

”أحسن الله في العزاء هدايته ، وحرس من قتن المصائب بصيرته“<sup>(٢)</sup> .

وقسوله :

”وحرس يقينك من اعتراض الشبهة ، وأحسن الى جميل الصبر هدايتك ، وتولى من  
قتن المحن رطابتك“<sup>(٣)</sup> .

وبلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار والتهنئة بالمتزل الجديد ، وإن كان  
في هذا يكرر المعاني أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ — لقد ضاعت رسائل البيضا ولم يبق منها إلا القليل ، وما حفظه منها الفلقشندى  
غير موشع بالشعر ، ولكن ما حفظه التعالي رصع بالمستجاد من أبياته الحسان ، حتى نجده  
يترجم لرسائله فيقول :

”فصل في بيان غرر من رسائله الموصولة بحاجس شعره“

لهذا نرجح أن يكون الفلقشندى اختصر ما اختار من رسائله فأسقط ما وصلت به من  
الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على ثره أن يرصع بالشعر على عادة بعض الكتاب من  
الشعراء . وإلى القارئ نموذجاً من رسالة له في مدح سيف الدولة<sup>(٤)</sup> .

(١) ٩٧ (٢) ٩٦ (٣) ص ٩٧ (٤) ١٧٠ ، ١٧١ (٥) ٧٢ ، ٧٣

ص ٩٧ ج ٩ (٦) راجع ما اختار صاحب البيت من رسائله ص ١٨٢ — ١٩٢ ج ١

”الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، يُطرق الدهرُ إذا نطق ، وينطق  
المجد إذا انتصر، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف إليه ، نهض بما قعدت الملوك  
عن ثقله ، وضعف الدهر عن معاناة مشله ، بهم سيفية، وعزائم علوية، فرد شمل الدين  
جليداً، وذم الأيام حيدا، بحق أوصفه، وخلل أصلحه، وهدى أعاده، وضلال أباده .

فلا أترع الله الهدى عن بابه      ولا أترع الله الوغى عن نصره  
وأحسن عن حفظ النبي وآله      ورغى موام الدين توفير شكره  
فما تترك الملاح أدنى حقوقه      باغراق منظوم الكلام وثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر، وأيسر منة تخوت المبالغة في جميل الذكر ... الخ .

١٠ — هذا ولا ننس أن نذكر القارئ بأن فضل البينا في رسائله لا يقاس الى  
فضله وبراعته في ثرة المرسل الذى دمج به قصصه الغرامية ، وقد حُفِظَ له منها شاهد يعز  
على من رامه من أئدى الكتّاب قلما وأسماءهم بيانا<sup>(١)</sup> .

(١) تجد هذا الشاهد في باب «الأخبار والأناجيس» بالجزء الأول من هذا الكتاب .

## ٧ - الصاحب بن عباد

١ - في ذى القعدة سنة ٣٢٦<sup>(١)</sup> للهجرة ولد إسماعيل بن عباد في الطالقان - وهي ولاية بين قزوين وأهر - في بيت معروف بالعلم والفضل ، فهو ابن عباد بن العباس أحد المتفوقين في عصره في علوم اللغة والدين . وكانت الطالقان فيما يظهر من كلام ياقوت في معجم البلدان من البقاع التي غلب على أهلها العلم وعرفت بالسبق في فنون الآداب . ولستأ نعرف من بداية ابن عباد شيئاً كثيراً ، ولكن يظهر من المصير الذي انتهى إليه أنه كان شاباً ذكياً أعد نفسه لمنازل العظمة والجبروت . حدثت عن نفسه قال : حضرت مجلس ابن العميد عشيّة من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للناظرة ، وأنا إذ ذاك في ريمان شبّابي ، فلما تقوّض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الإنطار نكرت ذلك فيما بيني وبين نفسي وأسقطت إغفاله الأمر بتطهير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت أن لا أخلّ به إذا قمت يوماً مقامه . وقد تمّ له ذلك فكان لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائنًا من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده ، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مقطرة فيها ، وكانت صلّاته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة<sup>(٢)</sup> .

٢ - وأوّل ما نعرف من نباهة شأنه هو اتصاله بأبي الفضل بن العميد ، فقد كان يخدمه خاصة ، ثم ترقى به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، ومؤيد الدولة

(١) هكذا ذكر ياقوت في معجم الأدياء ، وفي بنية الرواة سنة ٣٢٤ (ص ١٥٦) . (٢) في بنية الرواة أنه كان في الصغرى إذا أراد المنفى إلى المسجد ليقرأ تحليته والله دياراً في كل يوم ودرهما ويقول له تصدّق بهذا على أول فقير تقاه فكان هذا دأبه في شبابه إلى أن كبر وصار يقول لقراش كل ليلة : اطرح تحت المهرج دياراً ودرهماً ثلاثاً . (٣) ص ٣٦٦ ج ٣ قيمة الدرهم .

يومئذ أمير، فلما مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصبهان أستوزر ابن عباد وحكّه في أمواله، وكان لقبه الصاحب في حياة أبيه أنسابه . فلما مات مؤيد الدولة أحضر الصاحب نحر الدولة أخا مؤيد الدولة - وقد كان هرب من أخيه عضد الدولة والتجأ الى الساسانية بخرا-ان - وملكه البلاد، فأقر الصاحب بن عباد على أمره، فبقى الصاحب نافذ الحكم تقدم كلمته على كلمة نحر الدولة الى أن مات في ٢٤ صفر سنة ٣٨٥

قال السيوطي في بغية الوعاة<sup>(١)</sup> : ولى الصاحب الوزارة ثمانى عشرة سنة وشهرا لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه وأخيه نحر الدولة ، وهو أول من سمى الصاحب من الوزراء لأنه محب مؤيد الدولة من الصبا وسماه الصاحب فقلب عليه هذا اللقب، ولم يعظم وزيراً محنومه ما عظمه نحر الدولة .

ويظهر من كلام السيوطي أن نحر الدولة كان يعظم ابن عباد لفضله ، ونحن نرجح أنه كان يوقره أختاه لشرو !

٣ - كان تكوين الصاحب من الوجهة العلمية تكويناً جيداً ، فقد أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد وسمع من أبيه ؛ وحُدث وقعد للإملاء ، وأزدهم الناس على درسه ، بحيث كان له ستة من المستملين<sup>(٢)</sup> . أرسل إليه في السرنوح بن منصور ملك خراسان يدعوهُ ليلقي إليه مقاليد ملكه ويعتمده لوزارته ويحكمه في ثمرات بلاده ، فكان فيما اعتذر به الصاحب أن نقل كتبه خاصة يحتاج الى أربعمائة رجل<sup>(٣)</sup> . وأشاعره ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه وأنه كان من أوفى الناس حفظاً في دقة الفهم وبراعة القول وسعة الإطلاع .

٤ - أما أخلاق الصاحب فكانت مذبذبة بين الحسن والقيح : كان كريماً ولكن كرمه كان نفاً ينصب لشرائطين الشرء والكتاب . قال التوحيدى : قلت لأبى السلم نجبة بن على

(٢) ص ٣٥ ج ٣ من قيمة الدهر .

(٢) بغية الوعاة ١٩٦

(١) ص ١٩٦



القوطاني الشاعر : أين ابن العميد من ابن عباد ؟ فقال : زرتهما جميعا وكان ابن العميد أعقل وكان يدعى الكرم، وابن عباد أكرم ويدعى العقل، وهما في دعواهما كاذبان<sup>(١)</sup>.  
 وكان صاحب مفتونا بنفسه لا يرضيه أن يعترف لغيره بفضل أو يوفق سواه الى حق.  
 قال يوما لجلسائه : ما صدر قول الشاعر :

• والمورد المذنب كثير الزحام •

فسكتت الجماعة، فقال ابن الداري :

• يذبحم الناس على بابہ •

فأقبل عليه بغيط وقال : ما عرفتك إلا متعجرفا جاهلا، أما كان لك بالجماعة أسوة !<sup>(٢)</sup>  
 وورد إلى صاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه : رسائل من تُحسّرأ  
 عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابي . وغزوه أحد  
 جلسائه ليقول رسائل صاحب فل يفتن ، ورآه صاحب فقال : تفرح حمارا لا يحس !<sup>(٣)</sup>  
 وكان صاحب يحب الفخر وأتخاها الفضائل التي ربما قصر عنها، كذلك يقول ياقوت،  
 ويدكر في تأييد ذلك أن صاحب حدث أنه عند دخوله الى بغداد قصد القاضي أبا السائب  
 عتبة بن عبيد لقضاء حقه فتناقل في القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضعف حركته وقصور  
 نهضته ، فأخذ صاحب بضبعه وأقامه وقال : نعين القاضي على قضاء حقوق إخوانه !  
 فغجل أبو السائب وأعتذر إليه . والقصة وقعت لغير صاحب ولكنه اتحلها لنفسه وحكاها  
 في مجلس أنسه فشاعت عنه<sup>(٤)</sup>.

وُثِّع صاحب يقول : ما بقي من أوطاري وأغراضي إلا أن أملك العراق وأنصتر  
 ببغداد وأستكتب أبا إسحاق الصابي ويكتب عني وأغير عليه . وهي شهوة قاهرة أن يسيطر  
 على الصابي أحد أعلام ذلك الزمان. والشواهد على ضعف عقل صاحب وخلقه كثيرة جدا

(١) ٣٠١ ج ٢ باقوت . (٢) ٣٠٠ ج ٢ باقوت . (٣) ٣١٥ ج ٢ باقوت .

(٤) ٣٣٨ ج ٢ باقوت . (٥) ٣٣٧ ج ٢ باقوت .

يراها الفارزئ مشوئة في معجم الأدباء ، ولكن أكثر ما أخذ عليه مكتوب بقلم أبي حيان التوحيدى ، والتوحيدى غير عدل في هذا الباب لأن كلامه على الصاحب كلام مورتور يحمله حقه على الكذب والافتراء ، ومع هذا فقد قال التوحيدى عند ما قارب الفراغ من كتابه أخلاق الوزيرين الذى وضعه لخط من قدر ابن العميد وابن عباد : « ولولا أن هذين الرجلين كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازددت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرًا ، والتقيح يؤثر عنهما أثرًا ، لكنت لا أنسكع في حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحد ، ولكن النقص ممن يدعى القيام أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقرة ، والجهل من العالم منكر ، والكبرية ممن يدعى العصمة جاحقة ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب . ولو أردت مع هذا كله أن نجلد لها ثالثًا في جميع من كتب للجبل والديلم الى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم نجد<sup>(١)</sup> .

هـ - وما اختلفه التوحيدى على ابن عباد يدل على أمرين : الأول أن ابن عباد كان شخصية بارزة جدًا ، شطرت الناس شطرين فشطر عدو وشطر صديق ، فاستطاع ابن عباد لذلك أن يذكر وهو مفتون انه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية .

واستطاع التوحيدى وأضرابه من الطامعين الحاسدين أن يفتنوا في ذمه وثبه وأن يجدوا آذانًا تستطيع ما يقال فيه من الاتهام والبهتان . الأمر الثانى تفوق أهل ذلك الزمان في الهجاء . ففى ما كتبه التوحيدى شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يعرفون كيف تكون السخرية وكيف يكون التعريض اللذاع . فمن ذلك ما عارضه التوحيدى في التدليل على غرام الصاحب بالمدح وتهافت أصحابه في إرضاء شهوته الى التناء . قال : ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوى فكان اذا سمع منه كلاما يسجع فيه وخبرًا يتفقه يلقى عينه وينشر منخريه ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فاذا أفاق قيل : ما أصابك ؟ ما عراك ؟ ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاي يروقني ويؤففسني حتى

فارتقى لي، وزاينى عقلى، وانشرت مفاصلى، وتخاذلت عرى قلبى، وزهل ذهنى، وحبل  
بنى وبين رشدى . فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضحك غمجا وجهلا .  
ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميع بنى أبيه وعمه .<sup>(١)</sup>

والتوحيدى بعد أن يقص هذا يقول : ” ومن يخضع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه .  
وبالصبيان الضعاف أمثل “ ونحن لانستبعد أن يقع ابن عباد في مثل هذا الضعف الخلقى ،  
فان الرؤساء كثيرا ما يؤخذ عليهم انحلال الخلق من هذه الناحية، وهم يفارون غيرة شديدة على  
نفوذهم ومكانتهم الاجتماعية ، ويعملون خبثا أو جهلا على التحدث بمواهبهم والإشادة بما  
يزعمون أنهم أفردوا به من قوة البأس وفصاحة المنطق وذكاء الختان . ولكن السجيب حقا  
هو هذه الصورة التى وضعها التوحيدى للتلحق السخيف المردول الذى يقع فيه المفلسون من  
الأتباع السخفاء .

٦ — ومن الصور التى وضعها التوحيدى لفرور ابن عباد القصة الآتية :

” ناظر ابن عباد بالرى اليهودى رأس الجالوت فى إعجاز القرآن ، فراجعه اليهودى فيه  
طويلا حتى أحتد وكاد يتقد، فأحتال اليهودى فى مخائنه وقال :

أيها الصاحب ! لم نتقد وتستشيط وتتهب وتخلط ؟ كيف يكون القرآن عندى آية  
ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه . فان كان النظم والتأليف بديعين وكان البلاء فيما تدعى  
عنه عاجزين وله مدعين فهأنا أصدق عن نفسى وأقول ما عندى : إن رسائلك وكلامك  
ويقرك وما تؤلفه وتباده به نظما وترا هو فوق ذلك، أو مثل ذلك وقريب منه، وعلى كل  
حال فليس يظهر لى أنه دونه، وأن ذلك يستعمل عليه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من  
مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هذا فترنخمد وسكن عن حركته وقال : ولا هكذا يا شيخ ! كلامنا  
حسن وبلغ وقد أخذ من الجزالة حظا وافرا، ومن البيان نصيبا ظاهرا، ولكن القرآن له

المزية التي لا تجهل، والشرف الذي لا يخل، وأين ما خلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف .

وهذا كله يقوله وقد خاب حبه وتراجع مزاجه وصارت ناره رمادا مع إعجاب شديد قد شاع في أعطائه ، وفرح غالب قد دب في أسار ووجهه لأنه رأى كلامه يبدو لليود وأهل الملل شبيها بالقرآن<sup>(١)</sup> .

فهذه أيضا صورة جميلة من صور التوحیدی، وليس يضيرها أن تكون مختقة . فقد تكون صور الواقع أظلم من صور الاختلاق ، والمهم أن التوحیدی أعطانا على حساب ابن عباد صورة متقنة من صور الضعف واللؤم التي زأها غالبا في الرؤساء المفتونين ، وربما كان الصاحب أقرب من غيره الى طهارة القلب لأنه يتخدد ، وقد يتخدد الكريم ، على حين نرى من الرؤساء من يطرب ويرقص لثناء أتباعه عليه ، وفنائهم فيه ، ولكنه لا يزال يتشبث بأذيال التعقل فيدرك أنهم يشنون عليه راغبين أوراهاين ، ويبعث لهم من الحقد والضغينة والكيد ما قد ينكشف عن قاصمة الظهر أو مُنْدية الجبين . وأمثال هؤلاء صفار في أنفسهم ، إذ يبعث أحيانا أن يمدحهم الناس صادقين ، فيظنون لهوانهم على سرائرهم أن ما يوجه اليهم من المدح ليس إلا ضربة من ضروب الخلخلة والخذاع .

٧ — وللتوحیدی مفتریات كثيرة على ابن عباد تدل على حذق بالغ وخيال عجيب ، وقد أراد التوحیدی أن يداري تحامله فأضاف الى ابن عباد بعض الأجوبة المضممة ، في شؤون كثيرة ، بعضها مما لا تصلح روايته ، ومنها الفكاهة الآتية :

” قال قوم من أصحابنا لابن عباد : لو كان القرآن مخلوقا لحاز أن يموت ، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلي التراويح في رمضان ؟ فقال ، لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا ، ويقول : لا حياة لي بمدك ، ولا نصلي التراويح وفترج ! “<sup>(٢)</sup>

(١) ص ٢٩٧ ينصرف قليل . (٢) ص ٣٩٦ ج ٢ ياقوت .

وهذه الفكاهة تمثل روح الارتياب الذي كان يدب في صدور أهل ذلك العصر .  
والتوحيدى هنا متسامح مع صاحب لأنه يريد أن يصلح عن طريقه الى نشر هذه النكتة  
برفق ولطف ، ولا ينس القارىء دقة الخيال في كلمة : لو مات القرآن في آخر شيان بماذا  
كما نصلى التراويح في رمضان ! مع أن التراويح ليست كل شئ في الاسلام ، وانما أراد  
الكاتب أن يصل الى أن رمضان كان يموت ! ورمضان عند كتاب القرن الرابع شئ ثقيل ،  
هجاه من بينهم بدع الزمان وأبو الفصل بن العميد .

٨ — ومن دلائل عظمة صاحب أن المؤرخين أطلالوا الخلاف في تقرير فضله ، فبينما  
التوحيدى يلح في ثلثه وتتقصه والزبابة به ، والإنشاء عليه ، يقوم الثعالي من جانب آخر  
فيقول فيه :

”ليست تحضرنى عبارة أرضاها للانفصاح عن علو محله في العلم والأدب، وجلال شأنه  
في الجود والكرم ، وفقرده بغايات المحاسن ، وجمعه أشنات المفاسر، لأن همة قولى لتخفص  
عن بلوع أدنى فضائله ومعالیه ، وجهده وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساغیه ، ولكنى  
أقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج  
في مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق ، وكانت أيامه  
للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحلم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالم ،  
وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمة في مجد يشيده ، وإنعام يحقده ، وفاضل  
يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطارد في البلاغة ، واسطة  
عقد الدهر في السباحة ، جلب إليه من الآفاق وأقصى البلاد كل خطاب جزل ، وقول  
فصل ، وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه  
مجما لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودور القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعتد في السحر ،  
ويكاد يدخل في حد الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب ،  
واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من ربي عديم

على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ بوقاب التوافي، وملك رق المعاني، فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من نقول الشعراء المذكورين. (١) الخ.

وهنا مضى التالي يسرد أسماء الشعراء والكتاب والخطباء الذين قدموا على الصاحب أو كاتبوه: كأبي الحسن السلامي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي طالب المأموني، وأبي الحسن البديسي، وأبي سعيد الرستمي، وأبي القاسم الزعفراني، وأبي العباس الضبي. الخ. الخ. (٢).

٩ - ونحن لو تعمقنا من اتصلوا بالصاحب ممن ورد ذكرهم في كتب الأدب لرأيناهم نحو المائة أو يزيدون من مشاهير الرجال الذين أثروا في عصرهم وفيما تلاه من المصور أبلغ تأثير، ولهذا الذين عرفوا الصاحب فرضوا عنه، أو غضبوا عليه، أثر كبير فيما نسب إليه من المناقب، أو حمل عليه من المثالب. ولم كذلك أثريا عرف من طبش، وغروره، وصلفه، ونحامله، أو بره، وجوده، وفضله، وتطوله، فان إقبال الرجال المشاهير على الرجل العبقري يهرف حواسه ومشاعره، ويوقظ ما غفا فيه من كريم الشائل، وسي الطبائع. والانسان في جلته مجموعة مختلفة من الحسن والقبح، والتسامي والإسفاف، وإقبال الدهر وإدباره يكشفان عن أسرار الفرائز والميول، وقبلنا تظهر محاسن الناس ومساوئهم إلا حين يرتفعون، أو حين يخفضون، أما الرجل الذي يعيش عيشة وسطا لا مجال فيها للزهو أو الحقد فانه يظل مستور النواز والخلال، وكذلك تأثر الصاحب بمحاشيته فاولع بالاغراب، وكلف بالظهور على معاصريه من الكتاب والشعراء، وجرت له مع قاصديه من أرباب الحاجات نكت سارت سير الأمثال. فقد ذكروا أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة في حاجة، فوقع فيها، ولما وردت إليه لم يرفها توقعا، وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها. فعرضها على أبي العباس الضبي فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة، وكان في الرقعة: "فان رأى مولانا أن ينعم بكذا فصل" فأبى الصاحب أمام "فصل" ألفا، يعني (٣) «أفصل».

وكتب بعض العمال رقعة اليه في آفتاس شغل ، وفي الرقعة : "إن رأى مولانا أن يأمر  
بإشغالي ببعض أشغاله" فوق تحتها : "من كتب إشغالي لا يصلح لأشغالي"<sup>(١)</sup> .  
ورفع الضرابون من دار الضرب قصة الى الصاحب في ظلامة لم مترجمة بالضرايين  
فوقع تحتها : "في حديد بارد"<sup>(٢)</sup> .

١ - وقد وصل به الإغراب الى أن يكتب في معان بعيدة عما ألفت الكتابة فيه من  
شئون العقل والوجدان . قال التالي : "سمعت أبا جعفر الطيب المعروف بالبلاذري يقول  
إن للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زاد عليها ، فسأله أن يعينها  
إن كانت عنده ، فذكر أنها في جملة ما غاب عنه من كتبه ، فأستغربت وأستبعدت ما حكاه  
من تطيب الصاحب ، ونسبته في نفسى الى التريد والتكثر الى أن ظفرت في نسخة الرسائل  
المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر ووجبتها تجمع الى ملاحه  
البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر  
في علمه وقوة المعرفة بدقائقه"<sup>(٣)</sup> .

والمهم في هذا هو آرتياب التالي فيما نسب الى الصاحب من التطيب وظنه أن ذلك قد  
يكون من التريد والتكثر . ففي هذا اشارة الى أن الصاحب كان مبتلى بحاشيته يتقولون عليه  
الأقوال . أما أنا فأرجح أن رسالة الصاحب في التطيب لم تكتب الا معارضة للحوارزمي  
في رسالة كتبها الى أحد تلامذته في نفس المعنى ، وفي هذا دليل على أن الصاحب تأثر بمن  
اتصل به من الكلاب كما أثر فيهم .

١١ - وهنا ملاحظة لا بد منها : ذلك أن الحوارزمي والصاحب حين كتبوا في الطب  
استطاعا أن يقيما البرهان على أن الكاتب القدير يستطيع أن يضع المسائل الجالفة في لغة جميلة  
تفيض بالعدوبة واللين ، مع أن في بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغة السجع  
والتورية والجناس ، واليك نموذجاً من رسالة الصاحب الى صديقي شكا اليه علة أملت به :

”قد عرفت ماشرحه مولاي من أمره، وأتينا عنه من أحوال جسمه، فدلثني جلته على بقايا في البدن يحتاج معها الى الصبر على التقية، والرفق بالتصفية . فاما الذي يشكوه من ضعف معدته، وقلة شهوته، فلأمرين : أحدهما أن الجسم كما قلت آثقا لم يبق فتفتق الشهوة الصادقة، وترجع العادة السابقة، والآخر أن المعدة اذا دامت عليها المطفيات، ولزت بها المبردات، قلت الشهوة، وضعف الهضم، ومع ذلك فلا بد مما يطغى ويفذى، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها، ويزيل العارض المكتسب عنها ... والأفقراس في آخر الحيات خير ما تقيت به المعدة، وأصلحت به العروق، وقوى به الطحال، ليتمكن من جذب العكر، لا سيما والذي وجده مولاي ليس الذنب فيه للمحميات التي وجدها، والبلدة التي وردها، فلو صادف الهواء المتغير جسدا نقياً من الفضول لما أثر هذا التأثير، ولا طول هذا التطويل ... الخ . وهي رسالة طويلة“<sup>(١)</sup>.

واليك قطعة من رسالة الخوارزمي الى تلميذ له وقد ظهر عليه الجدرى :

”هذه العلة وان كانت موجعة، وفي رأى العين فظيعة شنة، فإنها الى السلامة أقرب، وطريقها الى الحياة أقصد، لأن عين الطبيب تقع عليها، ويد المرض والمعالج تصل اليها، وإنما هي قريح نبهة الطبيعة، ودم أثارته الحرارة، وظاهر الداء أسلم من باطنه، وبارز الجرح أهون من كائنه، وهذه بعد علة تم الأبدان، وتشمل الصبيان، واذا كانت العلة عامة كانت أكثر طلبا ودواء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح الى المشاركة وتأنس بالجماعة كما تستوحش من الوحدة . ولعمري إنها تورث سواد اللون، وتذهب من الوجه بدياجة الحسن، ولكن ذلك يسير في جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفي الشر خيار، ومن المحنة الى المحنة صروف وأقدار ... الخ“<sup>(٢)</sup>.

ولخوارزمي رسالة أخرى طويلة كتبها الى بعض الأمراء وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه الجرب، فتنس منها الفقرات الآتية :

(١) أنظر الصفحات ٤٢ — ٤٤ ج ٣ يتيمة . (٢) ص ١٥٣ من رسائل الخوارزمي .



”... الحرب حكمة مادتها يوسه وحرارة ووقود وآلتهاب، زندهما الذى يقتبسان منه طعام وشراب، وفضله فذقتها الطيعة الى ظاهر البدن، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن، وعسكر من عساكر البلاء تمدد القذارة، وتهزمه الطهارة، وتنقص منه البرودة والرطوبة، كما تريد فيه اليوسه والحرارة . ومن داوى ظاهره وترك باطنه، فانما يبل حائطاً وراء النار الموقدة، ويرش على سطح بيت فيه الشرر المشبوبة، ويقعد تحت قول الأول :

خليلى داويما ظاهرا      فن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد، وهى تتوقد فى باطن الكبد ... أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع مرارته، وعلى العطش مع حرارته، وأن يقتصر من الطعام على ما يكون فى أوسط طبقات الرطوبة، وفى أعلى موازين البرودة، ولا بد من هجر اللحم والفاكهة ولا سبيل الى الحرافة . فاما بقول فيجب أن لا ترى ولو فى المنام، ولا تمس ولو بالأوهام، والسماك وما ناسبه بلية، واللبن وما خرج منه منية، ... وهذه علة تكسب صاحبها خراية وحياة، وثورته نجلا واسترخاء، ينظر الى الناس بعين المريب، ويستتر عنهم كستر المعيب، تنفر عنه الطباع، وتستغذره النفوس، وتنبو عن مؤاكلته العيون، ... ولولم يكن من دقائق آفاتهما، ومن عجيب هتاتهما، إلا أنها تشيخ الفتيان، وتمسخ الانسان، وتجعله أميا بعد أن كان غير أمي، وأعجميا وليس بأعجمي، تنفر من نفسه نفسه، وتهرب من فراشه عرسه، ويتباعد عنه أقرب الناس منه، لقد كانت جديرة أن يحشد لدوائها، وتبذل الرغائب فى فئاتها، ثم هى رجع من أرباع الخذلان، وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أعاذك الله من أشياء أربعة      الموت والشق والافلاس والحرب<sup>(١)</sup>

١٢ - ولو أن تلك الرسائل أترخت لاستطعنا أن نعرف أى الكتبتين أسبق الى الكتابة فى المعانى الطيبة التى ظنها الثعالبي بعيدة عن تناول الكتاب . والصلة بين صاحب الخوارزمي

كانت قوية تسمح لأحدهما بأن يقف على ما يكتب الآخر، وإن كانت ضعفت بعد ذلك، حتى كتب الخوارزمي إلى الصاحب يعاتبه :

”...ولقد كانت أيامى بمحضرة الوزير قصارا، وكان ليلى بها نهارا، وساعاتى فيها أمصارا، كما أن أيام فراقه أيام طوال، وليلة فراقه تعدّ ليال، وانى بعد صبرى على فراقه بلجلد على وقع سهام المعجر، واسع المجال فى ميدان الصبر...“ الخ<sup>(١)</sup>.

١٣ - ولم يقف الصاحب فى الإغراب عند حد معقول، وإنما مضى يغرب فى الصنعة شعرا وثقرا، فوضع قصيدة تبلغ سبعين بيتا خالية من الألف، وهى أكثر الحروف دخولا فى المنظوم والمشور، مظهرها :

قد ظل يجرح صدرى من ليس يعلوه فكرى

وقد سارت هذه القصيدة، واستمر الصاحب فعلم عدة قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء، وبقيت عليه واحدة تكون معراة من الواو، فأبهرى أبو الحسين الهمداني وقال قصيدة ليس فيها واو، ومدح الصاحب فى أثنائها . وأولها :

برق ذكرت به الحبايب لما بدا فالسمع صاكب  
أمدامى منهلة هاتيك أم غرر السحاب  
نثررت لآلى أدمع لم يفرعها كف ثاقب<sup>(٢)</sup>

وقد أخطأ المسيو ميتس (Mez) حين ظن أن الهمداني الذى صنع هذه القصيدة هو الهمداني صاحب المقامات. كلا، فهذا على بن الحسين، وذلك يدعى الزمان أحد بن الحسين. والصاحب مسبوق فى هذا النوع من الإنشاء، سبقه وأصل بن عطاء الذى تجنب حرف الراء فى خطبه وأحاديثه مع كثرة دوران ذلك الحرف فى الكلام. لكن ابن عطاء كان مضطورا لذلك، إذ كان أثلث، أما الصاحب فيمضى فى هذا الفن صنعة وتكلفا ليكأثر معاصريه من

(١) من ١٥٢ رسائل . (٢) من ٢٢٣ ج ٣ ينية .

(٣) ترجمة المسوودش الفرنسية التى بفضل أعلما نسة نها قبل أن تطبع .

الكتاب والشراء . ومن المحتمل أن يكون صاحب هو الذي أثار في أبي العلاء فكرة الترام  
مالا يلزم، وهو نوع من التكلف أقبل به ديوان اللزوميات .

٤ - قلت إن صاحب كان شديد الرغبة في استبعاد الكتاب والشراء، وقد نال من  
ذلك مبتغاه . ولكن المتنبي استعصى عليه وترفع عن مدحه والانتساب إليه . فأمرها صاحب  
في نفسه وأخذ يؤلب القناد والكتاب ضده ويحملهم على مهاجمته والنيل من قدره . ويمكن  
الحكم بأن الحملات التي هوجم بها المتنبي وهو حي كان أكثرها بتعريض صاحب والمهلهي،  
وكلاهما كان يطمع في انخياز المتنبي إليه . وقد اشترك صاحب بنفسه في مهاجمة المتنبي  
فكتب رسالة نقد بها شعره . وهي رسالة يقلب فيها التحامل، ولكنها مع ذلك رسالة قيمة،  
تدل على فهمه للشعر وبصره بالنقد . ذكر في مقدمتها أنه كان يذاكر بعض المتأدبين فقال  
عن المتنبي، فأجاب صاحب : أنه بعيد المرمى في شعره، كثير الإصابة في نظمته، إلا أنه  
ربما يأتي بالفقرة الغراء، مشفوعة بالكلمة الموراء . فهاج محاذته وانزعج، وأدعى أن شعر  
المتنبي مُنمَّر النظام، متناسب الأقسام، ولم يرض حتى تحداه فقال : إن كان الأمر كما زعمت  
فأثبت في ورقة ما تنكره، وقيد بالخطبة ما تذكره، لتصفحه العيون، وتسبكه العقول .

قال صاحب : ففعلت، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيعتي، ولا تتبع الزلات من  
طريقتي . وقد قيل : أي عالم لا يهفو، وأي صارم لا ينيو، وأي جواد لا يكيو، وأيما  
فلت ما فلت لئلا يقدر هذا المعترض أني ممن يروى قبل أن يروى، ويخبر قبل أن يخبر،  
فأسمع وأنصت، وأعدل وأنصف، فما أوردت فيه إلا قليلا، ولا ذكرت من عظيم عيوبه  
إلا يسيرا . وقد بلينا بزمن يكاد المنقسم فيه بملو الغارب، وميتنا بأعيار أعمار اعتروا بملاح  
الجهال، لا يضرعون لمن حلب الأدب أفواقه، والعلم أشطره، لا سيما على الشعر فهو فوق  
الثريا وهم دون الثرى، وقد يوهمون أنهم يعرفون فلانا حكوا رأيت بهائم مرسة، وانما  
مفضلة .<sup>(١)</sup>

وهذه الفقرة تدل على أن الصاحب كان ضيق الصدر يؤذيه أن يذكر المتنبي بخير .  
فالمتنبي عنده رجل رفعة الزمن الجائر وأنصار المتنبي عنده أنعام لا يسمعون ولا يفتلون !

١٥ - وقد رأى الصاحب بعد ذلك أن يخبرنا أنه أعد للتقد عذته : بفلاس الشعراء ،  
وكاثر الأدباء ، وباحث الفضلاء ، عشرين سنة ، وأخذ عن رواية المبرد وكتب عن أصحاب ثعلب  
عشرين سنة أخرى . وذكر لنا بهذه المناسبة أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه  
أبو الفضل بن العميد "فانه يتجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى  
بتذهيب المعنى حتى يطالب بتخفيف القافية والوزن " ثم مضى في سرد الأحاديث التي وقعت بينه  
وبين ابن العميد في نقد الشعر ، الى أن قال : "وسمعت أياً الله يقول : إن أكثر الشعراء ليس  
يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويتدا النسيج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الفروض  
الذي قصده ، والمعنى الذي اعتمده ، وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمرا ، ومع أي  
القوافي يحصل أجمل أطراد ، فيركب مرّاً لا يمتشي انقطاعه وألبانه عليه" .<sup>(١)</sup>

ونحن نستعيد رأى ابن العميد في تجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ،  
ونرجح أن ابن شهيد الأندلسي تأثر بهذا الرأي حين قال : " إن للحروف أنساباً وقراءات تبدل  
في الكلام ، فإذا جاور النسب النسب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت  
الصحة" .<sup>(٢)</sup>

١٦ - وليس يهنا أن تلخص ذلك الكتاب ، فلنكتف بما قاله في نقد قصيدة المتنبي  
في رثاء أم سيف الدولة ليكون نموذجاً لبقية المآخذ . قال الصاحب :

" ولقد مررت على مرتبة له في أم سيف الدولة تدل مع فساد الحسن ، على سوء أدب  
النفس ، وما ظنك بمن يطالب ملكاً في أمه بقوله :

\* رواقُ المَرْقُوقِ مَسْبُطٌ \*

ولعل لفظة الأسبطار في مرأى النساء من الخذلان الصفيق النقيق . نعم هذه القصيدة  
يظن المتصنّفون له أنها من شعره بمثابة «وقيل يا أرض أبلى مأك» من القرآن و «أصدع  
بما تؤمر» من الفرقان . وفيها يقول :

وهذا أول الناعين طراً لأول ميتة في ذا الجلال

ومن سمع باسم الشعر، عرف تركه في آتذاك السر .

ولما أبدع في هذه المراثية واخترع قال :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

وقد قال بعض من يغلوفيه : هذه استعارة . فقلت : صدقت ! ولكنها استعارة حداد  
في عرس !

ولما أحب تفرّيط المتوفاة والإفصاح عن أنها من الكريّمات أعمل دقائق فكره ،  
واستخرج زبد شعره ، فقال :

ولما من في جنازتها تجار يكون وداعهم خفق النمل

ولعل هذا البيت عنده وعند كثير من يقول بإمامته احسن من قول الشاعر :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيبُ تراب القبر دل على القبر

وكان الناس يستبشعون قول مسلم :

« شلت وثلث ثم شل شليلها »

حتى جاء هذا المبدع بقوله :

وأفجع من فقدنا من وجدنا قيل الفقد مفقود المثل

فالمصيبة في الرأى أعظم منها في المرى<sup>(١)</sup> .

١٧ - وخلاصة القول أن صاحب بن عباد كان من أعاجيب دهره ، وأكتب أهل

زمانه . وقد بقى من رسائله جزء في المكتبة الأهلية بباريس<sup>(٢)</sup> . وفزهر الآداب ونهاية الأرب

(١) ص ١٢ (٢) في دار الكتب المصرية نسخة جغرافية من هذا الكتاب .

ويتممة الدهر ومعجم الأدباء قطع مختارة من رسائله . وهو يلتزم السجع أو يكاد ، وفي أكثر الأحيان يبدو نثره دون شهرته : لأن غرامه بالصنعة والزخرف يستهلك معانيه ويهوى به في حضيض الغموض والتعقيد . وشعره وسط بين الجليد والريء . ومهما أحتال خصومه في الخط من عقله وأدبه فلا يمكن نكران أنه كان من أظهر الشخصيات في القرن الرابع ، وأنه رفع بجاهه ونفوذه وعبقريته طوائف كثيرة من المتأدين كانت تمضى طعمة الفقر والخلول لولم يسما عنه وإقباله ولم تعتمد على بره الواقف وساعده المتين <sup>(١)</sup> .

(١) هذا الفصل أفسر من أن يحيط بأدب المصاحب بن عباد . وتقرأ كتابنا يجد في غير هذا الفصل جوانب أخرى من المصاحب تم خصيه التاريخية التي كانت من أظهر الشخصيات في القرن الرابع .

## ٨ - أبو بكر الخوارزمي

١ - وهذه أيضا شخصية عظيمة من الشخصيات التي نهضت بالأدب العربي وشغلت الناس عدة أجيال . والكاتب صاحب الشخصية فيا زيد هو الكاتب الذي يمتاز أسلوبه وتفكيره بخصائص وميزات لا يمثلها كاتب سواه . وكذلك كان الخوارزمي فهو في ثرة عقل قوى يمتاز من العقول التي سبقته أو عاصرته . وليس معنى ذلك انه يفوقها جميعا . فهو دون ابن العميد في سمو الغرض ، ودون بدیع الزمان في حلاوة التعبير ، ودون التوحیدی في وفرة المصنوع ، ولكننا نريد أن نقول إن له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال — والتبوع الأدبي هو ذلك : فليس يطلب من الكاتب أو الشاعر أن يفوق جميع معاصريه ليوصف بالتبوع . ولكن يكفيه أن يكون ينبوعا مستقلا يسحر الناس بوجوده الخاص ويحسون قفده إن حجب عنهم فيضُه الثمير . وقد كان الخوارزمي شاعرا ، ولكن ديوانه ضائع . ولم يبق من شعره إلا القليل ، فن الصمب أن نعطى القارىء فكرة عن حياته الشعرية ، وإن كان من السهل أن نجزم بأن نموله في الشعر كان أمرا مقضيا ، لأنه عاصر جماعة من الشعراء الذين لا يشق لهم غبار ، منهم الشريف الرضي والمتنبي والمعري وأبو فراس . على أن ما أثر عنه من الشعر يدل على أن كتابته خير من شعره ، وأن شعره ليس يجيد وإن لم يكن بردي ، من ذلك قوله في بعض الأصدقاء :

رأيتك إن أيسرت خيمت عندي      مقيا وإن أعسرت زرت لما  
فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه      أغب وإن زاد الضياء أقاما  
وقوله فيمن يطلب الصبياء وهو بخيل :

يامن يحاول صرف الراح يشربها      ولا يشك لما يلقاه قرطاسا  
الكاس والكيس لم يقض أملاؤهما<sup>(١)</sup>      ففرغ الكيس حتى تملأ الكاس<sup>(٢)</sup>

(١) أطلرقة شعره في البتمة ج ٤ ص ١٢٧ - ١٤٨

فليس لدينا إذن ما يمثل شخصية الخوارزمي غير رسائله فلنكتف بها في درس ماله من قوة التفكير ودقة الأسلوب .

٢ - لا نعرف بالضبط متى ولد محمد بن العباس الخوارزمي، أما موته ففيه خلاف، فمن قائل أنه توفي سنة ٣٨٣ ومن قائل أنه توفي سنة ٣٩٣<sup>(١)</sup> وسمى الخوارزمي لأن أباه من خوارزم . وقد أقام بالشام مدة وسكن بناوى حلب ثم انتقل إلى نيسابور فأقام بها إلى أن مات . وكان الخوارزمي معروفا بقوة الحفظ . يشهد له بذلك أصدقاؤه وأعداؤه معا ، وانهم ليدكرون أنه قصد الصحاح بن عباد وهو بأرجان فلما وصل إلى أبيه قال لأحد صحابه قل للصحاح : على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول ، فدخل الحاجب فأعلمه فقال الصحاح قل له : قد أزلت قسسى أن لا يدخل على أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك . فقال له أبو بكر : ارجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال ، أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال : فقال الصحاح : هذا يكون أبا بكر الخوارزمي<sup>(٢)</sup> .

٣ - ومن الواجب أن نقف قليلا عند هذه الكلمة إذ كانت محتاج إلى قد : أفكان ممكنا حقا أن يعدد الخوارزمي عشرين ألف بيت من شعر النساء ؟ أم هو غلو وإغراق من رجل عُرِف بكثرة الحفظ ؟ الظاهر أن في هذه الكلمة شيئا من المبالغة فقد وجه نظرنا أستاذنا المرحوم محمد بك المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية ( سنة ١٩١٦ ) إلى أن علماء اللغة وروايتهم سيموا بأشعار النساء ، حتى أن الذين تحمروا الشعر الجيد منهم وجمعوه في ديوان ليحفظ لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لأمرأة لتكون بجانب قصائد الرجال ، وهذا أبو زيد القرشي قد اختار تسعا وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يحن فيها بواحدة لامرأة ، لا من الجاهلية ولا من الإسلام ، وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لامرأة مجهولة من بني حنيفة . غير أن أستاذنا رحمه الله أشار في الوقت نفسه إلى أن

(١) ابن خلكان ص ٣٥٦ ج ٢ (٢) ابن خلكان ص ٣٥٥ ج ٢



المرزباني جمع أشعار النساء في كتاب حافل يوجد منه الجزء الثالث في دار الكتب المصرية بخط أندلسي قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سنة . وفي هذا دليل على أن الرواة سُخِّلُوا أيضا بجمع أشعار النساء ، وإن كان لا ينكر أن حظ المرأة في الشعر العربي ضئيل ، حتى لم يكن القول بأن المرأة العربية لم تسم يوما إلى مافسة الرجل في الشعر ، وها نحن أولاء نعيش في عصر من عصور النهضة في اللغة وفي الأدب ، فأين الشواعر المجيدات ، وكَم عددَهَن في هذا الجيل ؟

ومهما يكن من شيء فقد كان لما حفظه الخوارزمي أثر كبير في أدبه فقوى أسلوبه وتلون خياله وصار من أقدر الكتاب على الوصف ، ومن أعرفهم بضرب الأمثال .

٤ — أما حياته فأظهر ما فيها أحداثا ث : أولها اتصاله بالصاحب بن عباد وثانيهما مناظرته بديع الزمان .

واتصاله بالصاحب بن عباد يفسر لنا غرامه بالنيل من المتنبي والنقض من شعره ، فهجومه على المتنبي لم يكن إذن صادرا عن نزعة فنية تحدوه إلى كشف عيوب المتنبي ومساوئه . ولكنه اندفع في ذلك رغبة للصاحب ابن عباد الذي كان يحقد على المتنبي لترفعه عن مدحه ولإشادته بابن العميد . وأشد ما عرف من هجاء الخوارزمي للتنبي قوله في الرسالة التي كتبها إلى الحلاجب أبي إسحق لما نكبه الوزير ابن عباد :

”ونظرت إلى أبي الطيب وإلى تناقص حكمه ، وتفاوت طرق فعلته ، حيث قال في سيف الدولة :

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأعظام يدا ختموا

ثم قال في كافور الإخشيدي :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقي

فلقد باع من الوفاء علقا خطيرا ، واعتاضني من الطمع ثمتا يسيرا ، وحال ضباب الحرص والرجاء ، بينه وبين المهد والوفاء ، وكان بضايق نفسه في اختبار المتاع ، ويسامحها في اختيار

المتاع، ويخلع خلة من نظمه تساوى بدرة، على عرض من لا يساوى بكرة، ويزن كريمة من كرائم شعره، الى من لم تقم عنده كريمة، ولم تعرف له قيمة، لو رأى الطمع في حجر فار لدخله، ولو أناه الدرهم من است كلب لما غسله، فلا جرم أن الناس كما استحسنا قوله؛ استقبحو فعله، وكما أعجبوا بشعره، تعجبوا من غدره، يشكروم يشكرو، ويمدح ثم يهجو، ويشهد ثم يبرح شهادته، ويعطى ثم يسترجع عطيته . وكم من حرق فضله ثم ثلبه ؟ وكم من عرض كساه ثم سلبه ؟ وكم من مصفة أكل منها ثم بصق فيها<sup>(١)</sup> .

٥ - وهذه الكلمة نص في أن الخوارزمي كان يحب بشعر المتنبي ولا يعيب عليه إلا أخلاقه ويتقله من حال الى حال، وقد جرّه ذلك الى التفتي بخلقه هو، واحتفاظه بالود، ووفائه بالمهد، فقال "ولكن في قصص أبي بكر رجلا اذا أعطى لم يرجع، واذا طلق لم يراجع، واذا بنى لم يهد على بنائه بالهدم، واذا مدح لم يبطأ على عقب مدحيه بالذم، واذا طيب فكيه بالمدح لكرام، لم يطمعهما بمدح للثيم، واذا زوج كرائمه كفؤا محبين أن يتبرجن لإلاديه، ويمتعلن غير عينيه، وإنما القدر من أخلاق النساء، فمن تعلق بطرف منه فقد رغب بنفسه عن كمال الذكران، وجنّبا الى شق النسوان<sup>(٢)</sup> .

فالمتنبي مؤث الخلق لأنه غادر، والخوارزمي مذكر الطبع لأنه وفي !  
هكذا حكم الخوارزمي لنفسه بالنبل، وحكم على المتنبي بالحناسة، لأن المتنبي يتغير ويتبدل، أما الخوارزمي فلا يتلون ولا يحول .

ولكن القدر شاء أن يعاقب الخوارزمي على بغية الأئيم : فسامت الصلوات بينه وبين ابن عباد فتحوّل عنه وشغل بذمه وقدمه بعد أن شغل بتعجيدِه والثناء عليه، وأستطاع أن يرى ممدوحه بمثل هذا السهم المسموم :

لاهمد ابن عباد وإن هطلت يداه بالجود حتى أجمل الدما  
فإنها خطرات من وساوسه . يعطى ويمتنع لا بخلا ولا كوما

وجرى في الناس ذكر الخوارزمي بالقلب والحوّل حتى قال فيه أحمد بن شبيب :

أبو بكر له أدب وفُضِّل ولكن لا يدوم على الوفاء  
مسودته إذا دامت لخلل فمن وقت الصباح الى المساء

وأشدّ الصاحب حين بلغه خبر موته :

أقول لركب من خراسان قافل أمانت خوارزميك قبل لي نعم  
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم!

وقد انصل الخوارزمي بكثير من الرؤساء ، ولكنا لا نعرف تفاصيل ما وقع بينه وبينهم ، وإن كانت طبيعة ذلك العصر تشير الى أن استقامة الخلق كانت نادرة ، وأن تبادل الضغائن والأحقاد كان من الظواهر الكثيرة الوقوع .

٦ — أما الحادث الثاني فهو مناظرته لبديع الزمان ، وهو حادث مشؤم قضى عليه ، ويرجع السرفه الى دسيسة بعض الرؤساء المستوحشين منه ، والراغبين في إسقاطه<sup>(١)</sup> وإلى مكر بديع الزمان ودعائه مع أنه كان لا يزال في غرارة الصبا ، وغفلة الحداثة ، وذلك أنه فطن الى جانب الضعف فيمن يقرودون الجماهير في ذلك الجين ، وهو غلوهم في التشيع فأطلق ييكي القتل من أهل البيت ، ويستمطر الغضب والسخط على أعداء آل الرسول ، وكذلك أجمع على الخوارزمي كيد أعدائه في نيسابور ولؤم مناظره ومكره ، فصاد وهو مقهور "وأنخذل أنخذالا شديدا وانكسف باله وأنخفض طرفه ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره" كما قال ياقوت<sup>(٢)</sup> .

وقد سبقَت تلك المناظرة بطائفة من الرسائل جرت بين الكتّابين مجرى العتاب ، وهي رسائل جيدة تستحقّ الدرس ، كان بديع الزمان فيها يمدّ الحملة ويتأهب للترال ، وكان الخوارزمي يقابل عتبه بأرق من النسيم في بعض الأحيان ، وربما راجعه فذكر أن عتابه قبيح ولكنه حسن ، وكلامه لين ولكنه خشن "أما قبحه فلأنه عاتب بريئا ، ونسب الى الإساءة

من لم يكن سيئاً ، وأما حسنه فلا فاضله الفرد ، ومعانيه التي هي كالدر ، فهي كالديب  
ظاهرها يضر ، وباطنها يضر ، وكالمري على دمن الثرى ، منظره جي ، ومغبره وبى " وربما  
أنشده :

يأبدع القول حاشا      لك من هجو بديع  
وبحسن القول عوذ      لك من سوء الصنيع  
لا يسيب بعضك بعضا      كن مليحاً في الجميع

وقد مضى الخوارزمي يلاين بديع الزمان فيذكر أن شريعة وده اذا وردها صافية ، وأن  
ثياب به اذا قبلها ضافية « هذا ما لم يذكر الشريعة بتعته وتمصبه ، ولم يخترق الثياب بتجنبه  
وتسجبه » وهنالك يذكر الخوارزمي أنه لا يقول :

وانى لمشتاق الى ظل صاحب      يرق ويصفون كدريت طليه

فان قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والاخوان اخوان ، وحسن العشرة سلطان ،  
ولكنه يقول : وانى لمشتاق الى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهدا      يعطى ويأخذ منك بالميزان  
فاذا رأى رجحان حبة خردل      مالت مودته مع الرجحان

٧ — على أننا اذا تجاوزنا هذين الحاديين وأخذنا نتلمس شعور ذلك الرجل بإحباء الحياة  
وجدها يعيش مثقل الظهر بطائفة من التكاليف تذلل لها نفسه ويخرج بها كبريائه ، ألسنا نراه  
يزور أبا الحسن عبد العزيز صاحب ديوان الرسائل طمعا في به ، فيكون هذا عند ظنه ،  
فيكتب اليه رسالة تجيء فيها هذه الفقرة التي تمثل يؤسه أبشع تمثيل :

"ومن أتعذ أنسا من الفقر ، وأنتشله من محالب الدهر ، وفكته من إسار العمر ، فقد  
أعقته من الرق الأكبر ، ونجّاه من الموت الأحمر ، والرق رقان : رق الملك ورق الهوان ،  
والأسر أسران : أسر العدو وأسّر الزمان<sup>(١)</sup> " .

وقد ورد عليه كتاب من أحد تلاميذه ينثنه فيه بأنه عليل؛ فكتب الخوارزمي كتاباً جاء فيه :

”وأظن أني لو لقيتك قليلاً لأنصرفت عنك ، وأنا أعلّ منك ، فاني بحمد الله تعالى جلد على أوجاع أعضائي ، غير جلد على أوجاع أصدقائي ، ينبوعني سهم الدهر اذا رماني ، وينفذ في اذا رمى اخواني ، فأقرب سهامه مني ، أبعد سهامه عنى ، كما أن أبعدنا عنى ، أقربنا منى“<sup>(١)</sup> وهذه الفقرة تمثله جليداً صبوراً ، ولكن الصبر والجلد لا يطلبان الا حين تشتد الكوارث وتقسو الخطوب .

وهذا الشعور بأعباء الحياة أنطقه بالحكمة في تحليل الحزن ، فهو من أسبق الكتاب الى الإفصاح عن علل المواقف والشهوات ، وانه ليجتنب أن الانسان حين يحزن للصيبة تحمل غيره ، انما يحزن لأنه يرى بعينه أن سيكون له مثل ذلك المصير ، اذ كانت المأسى الانسانية كأساً تدور على الجميع . ولنتظر كيف يقول وهو يعزى بعض الرؤساء في شقيق له :

”ورد على“ خبر وفاة فلان فدارت بي الأرض حيرة ، وأظلمت في عيني الدنيا حمرة ، وملا\* الوله والوهل قلبي وسواسا وفكرة ، وتذكرت ما كان يجمنى واياه من سكرى الشباب والشراب ، فعلبت أنه شرب بكأس انا شارب من شرابها ، ورمى بقوس سوف ارمى بها ، فبكيت عليه بكاء لى نصفه ، وحزنت له حزناً لنفسى شطرو“<sup>(٢)</sup> .

٨ — وهذه الحيرة المطبقة التى كان يعانيها الخوارزمي بين احداث زمانه جعلته يتشامم من صحة من يقاسون اإدار الأيام ، ويتفاعل بالتعرف الى من يتعمون باقبال الزمان ، وهو يرى ”أن من تملق بذيل المستقبل أقبلي“<sup>(٣)</sup> ويرى كذلك أن ”أيام المحنة موج من تطاولا له تحطاه ، ومن وقف على طريقه أرداه ، ومن قابل أيام الإيدبار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الإقبال في أيام كرها هزمته“<sup>(٤)</sup> وعنده أن ”الاقبال يستر العيوب ، والدولة تجعل البعيد قريباً ، والجلد يرى المخطئ مصيباً ، والمجدود يمس بيديه ، ما لا يراه المحدود بعينه“ وكلتا الإقبال والإيدبار

يحددهما القارئ في رسائله هنا وهناك : بحيث يمكن الحكم بأنه كان موسوساً من هذه الناحية . وفي هذا الوسواس شيء من الحق والصدق ، فكأن عقل ضائع ، وكأن من عبقرية أحمست وأفلت ، بانصراف المفكر العبقري الى مناصرة فتنة تختصر ، أو الدفاع عن فكرة تهتم بالأقول . وفهم الخوارزمي للحياة على هذا النحو الدقيق أمل على الحرص على الحكمة يسديها الى أصدقائه من حين الى حين ، من ذلك قوله في سياسة النفس : ” ومن غلبت شهوته على رايه شهد على نفسه بالبيسية ، وانخلع عن ربة الانسانية ، وحق على العاقل أن يأكل ليعيش ، لأن يعيش لياكل ، وكفى بالمرء عارا أنت يكون صريح ما كله ، وقتل أنامله ، وأن يعنى ببعضه على كله ، وبين فرعه على أصله ، فكأن من لقمة أنلفت نفس حر ، وكأن من أكلة تمتعت أكالات دهر ، ولم من حلاوة تحتها حرارة الموت ، وكأن من عذوبة خلفها بشاعة الفسوت . وكأن من شهوة ذهبت بنفس لا تقوى لها العساكر ، وقطعت جسدا كانت تنبوءه السيوف البوار ، وهدمت عمرا هدمت به أعمار ، ونحرت بخراجه بيوت بل أمصار ... والمشتمى غاش لنفسه ، قليل البقا على روحه ، وكيف يحفظ اصدقاءه ، من لا يحفظ اعضاءه ، وكيف يبقى على غيره ، من لا يبقى على نفسه ، وكيف يؤتمن على من لا يتمازعه ، من لا يؤتمن على بعض منه <sup>(١)</sup> ” .

٩ — ولنتقل بعد أن ألمنا بشيء من حياة الخوارزمي ووقفنا على شيء من مطوى صدره ومكنون سره ، الى فئة الذي عرف به في اجادة الانشاء ، ولنذكر أولا أنه دلنا على فهمه لسر البيان ، إذ قال في إحدى رسائله في هجاء بعض معاصريه :

”واذا أردت أن تعلم أني في ذمك جاد ، وفي مدحك لاعب ، وأنني في الشهادة عليك صادق ، وفي الشهادة لك كاذب ، فانظر الى تهاوت قولي إذ لايتك وجاملك ، والى اصابع الفرض وحزى المفصل إذ كاشفتك وصدقتك ، وذلك أن الصادق معان وماخوذ بيديه ، والكاذب مغنول مغضوب عليه <sup>(٢)</sup> ” .

فسر البلاغة عند الخوارزمي يرجع الى الصدق، وهذا دليل على أنه كان مأخوذاً بفنه مفتونا به، فلو يكون للشاعر أو الكاتب وصول الى سحر البلاغة وسر البيان الا اذا صدق، وفي الصدق وحده سر العبقرية والنبوغ، ومن هنا سقطت آثار المتكلمين من الكُتّاب والشعراء الذين سجنوا أقلامهم وعقولهم، وابعوا ضمائرهم ونفوسهم، ورضوا بأن يكونوا أبواقاً تردد أصوات الآخرين والناهين من أرباب الملك وأصحاب الجاه. وحين يصدق القلب والحس والعقل يصبح الأدب جنوة خالدة تلهب ما تمس من أوتار المشاعر والمواطف والأحاسيس على مر القرون وتتابع الأجيال، واذ ذاك لا يقوم الأدب بالأحجام والأوزان والمقادير كما يتوهم من يقيسون القصائد والرسائل والمؤلفات بالعرض والطول من أهل هذا الجيل، وإنما يقاس نبوغ الكاتب وتوازن عبقرية الشاعر بما فيها من نار ونور، وما تمجّل من عناصر القوة الخالدة التي تجعل ربها أبا وأخا وأستاذنا وزميلاً لكل من يبرون بعده بهذه الأرض مهما باعدت بينه وبينهم ظروف الزمان والمكان. فالصدق هو المهادى الأمين الذى يسير بناً في اودية الغرائز الانسانية، فلا تعرف شر الزيف ولا تقاسى ضر الضلال، وحين نصدق وتقنى في الصدق تتغنى وأدعين بأحلام الانسانية المبعوثه في ضمير الوجود، فلا يغلق عنا سمع، ولا يعزف عن أغانيها أحد من الموقنين، وإنما تفتح لنا صدور الناس وقلوبهم وأرواحهم فنسكب فيها ما صدقنا في الإيمان به من أصول الشر والخير، والظلمات والنور، والبر والفجور. فان الحياة كما تعلم، مجموعة من حلم الانسان وجهله، وضلاله وهدهاء، والكاتب الانسانى هو الذى يصدق ويقنى في صدقه حين يواجه ما فى الانسانية من مشاكل عقلية، وأزمات روحية، وثورات نفسية، ثم يتغنى بما فى الطبيعة الانسانية من نبل وسماحة ورفق وجمال، أو يصرخ مما فيها من شح ولؤم وجور وطفان.

فانا لا أريد إذن بصدق الكاتب أن يكون مشغولاً بالخير وحده لا يتنى إلا به، ولا يتحدث إلا عنه، وإنما أريد أن لا يتكلم الكاتب أو الشاعر إلا صادقاً، يتغنى بالخير حين يؤخذ به، ويتغنى بالشر حين يفتن به، وفي صدقه السر كل السر في فتح ما ألقى من

سرائر النفوس وضائر القلوب ، فليصدق الفنان : إن خيرا خفيرا ، وإن شرا فشر ، فإن الصدق أساس النبوغ . أما الكاتب المنافق فصيده الى فناء ، لأن النفاق أكبر مظهر من مظاهر الإخفاق ، ولا يتناقف إلا الضعيف المخبول الذي لا يشعر لنفسه بوجود خاص ، ومن فقد شخصيته وأطمأن إلى الاعتماد على سواه بخديربه أن يئاس من أن يروى له قول ، أو يوزن له رأى ، أو يرجى له برجه بقاء .

١٠ - ونود فندكر أن الخوارزمي يضعف حيناً ويقوى أحيانا ، يسمو ويحق حين يصدق ، ويهوى ويسف حين يمين . وليس ضعفه بمحتمل ولا مقبول ، لأنه يلتزم الصنعة والزخرف والسجع ، فيبدو شره الضعيف ثقيلًا مجوجًا كالمرأة الفانية حين تتزين وتختال . ومن ذا الذي يسبق قوله في وصف رجل :

”إذا نظره العربي صار أعجميا ، وإذا نظره الأعجمي صار عربيا ، وإذا رآه المعجب بنفسه طلق كبره ، وفارق غفره ، فهو رفيق الجود وخليله . وزميل الكرم وزيله ، وغرة الدهر وتحصيله ، حضرته حضرة الآجال والأموال ، لابل حضرة الأقوال والأفعال ، لابل حضرة الرجال ، تنصب إليها موارد الرغبات ، وتنشد فيها خيول الطلبات“ .

وأثقل من هذا ورود الجناس في قوله من كتاب إلى محمد العلوي :

”أذكرك وإن كنت لا أنساه ، وألقاه بقلبي وإن كنت لا ألقاه ، وأسأل الله تعالى أن يرينا سلامته سليمة ، وأستقامة أحواله مستقيمة ، فلا شئ أحوج من السلامة إلى السلامة ، ولا إلى الاستقامة من الاستقامة“ .

والحرص على السجع في مثل قوله : ”لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، ولا تمهل نفسك في شغل السبت إلى الأحد“<sup>(١)</sup> فإن كلمتي السبت والأحد لم تقما هنا إلا ابتغاء السجع .

والقارئ يجد أمثال هذه الفقرات الضعيفة في مواضع كثيرة من رسائله . وعذر الخوارزمي أنه حمل نفسه ما لا يطبق من التزام الصنعة والسجع في جميع رسائله ، حتى في الموضوعات التي لا تحتمل التكلف ، فكان من الحتم أن يقع في مهاوى الضعف والإسفاف .



١١ - والحوارزى حين يحيد يسمو سموا عظيما، ويقدم من صور الجند والهنزل ما ينع النفس ويطرب الروح . وقد نراه يمزج فيستخفنا الطرب وتقبل عليه بنفس لعبوب . وله كلمة ما قرأناها إلا نذكرت الصديق القديم الشيخ محمد عبد المطلب حين كان يفتقر شوارع القاهرة على ظهر حمار، فقد آتفق للحوارزى أن شكا وروده إلى بعض النواحي بعد مافاس السير والسرى وخاض غمار المهالك والردى ونظر إلى الآخرة وهو في الدنيا . قال "وأول ما صر بي سوء الدخول على ظهر الحمار، ومعاشرته الحمار، على أن الحمار أيضا حمار، إلا أنه قصير الأذنين، يمشى على رجلين، وكأني كنت بين حمارين، إلا أني كنت بين جنسين" (١) .

وله رسالة عن بستان ذكر أنه مرتع ناظره، ومتنفس خاطره، ومجال بصره، ومدار فكره، إذ ليست فيه زاوية إلا وقد صب عليه فيها كأس، ونام في حاقها وجه صديق، وتقلب في أطرافها قد ملج . إلى هنا يعنى الكلام فتذكر به بعض ما قصه فرانك هاريس عن أوسكار ويلد، ولكن الحوارزى يفاجئنا بأن بستانه ليس بذلك، ثم يقول "وإنما أذكر قُبعة طولها باع، وعرضها ذراع، أعنى باع البقة، وذراع الذرة، وأقل من لا، وأصغر من الجزء الذى لا يتجزأ، لو طارت عليها ذبابة لفظتها، أو دخلتها نملة لسقتها، تسقى بالمسقط صباحا، وتكت بالخلال مساء، أشجارها مائة إلا تسعة وتسعين، وأنهارها خمسون إلا تسعة وأربعين" (٢) .

١٢ - ولكن أمثال هذه الفكاهات تمر كالطيف فيما ترك ذلك الكاتب المجيد، فذلك فقرات تصيدنا هاهنا رسائله، وهيات أن يكون لمثله طبع مرح وهو الذى قضى حياته يتعثر بين أحداث البؤس والموان، فالفكاهة حين تقع تحت سن قلبه لا تزيد عن عبث الالفاظ، وتظل نفسه خاملة لا تطرب ولا تجذل ولا تعرف سر الدعابة ولا روح المزاح . ألسنا

(١) ص ١٠٣ (٢) ورد ما يشبه هذا في كلام أبى الفتح بن السيد إذ قال : « وردت قصة الشيخ أصغر من عصفه بقة، وأصغر من أملة نملة » (ص ٣٣٥ ج ٥ باقوت و ٣٤٦ غمار القلوب) . وقال الميكال : تخاك أصغر من بقة، وأصغر من بقة، وأخون من ذرة، وأخفى من ذرة (ص ٣٥٥ ج ٤ بقية) . (٣) ص ١١

نستقي أدبنا مما نرد من موارد الحياة وتقدم لقراءتنا صوراً من أنفسنا وعواطفنا ومشاعرنا وأحجاثنا وأحزانتنا؟ وهذا لا يمنع أن لبعض المحزونين فكاهة ودعابة ، غير أن الخوارزمي لم يكن من هؤلاء ، فقد وقع بين قوتين تحولان دون حلاوة المزاج : الأولى عيشه الضيق ، والثانية مهنة التعليم . أما ضيق عيشه فقد عرفناه من قلبه وحيرته بين أبواب الوزراء والرؤساء ، وأما مهنة التعليم التي احترقها واكتوى بناهارها وكابد ما تقضى به من التجمل والتوفر والاستحياء فقد عرفنا أخبارها من رسائله الكثيرة التي جرت بينه وبين تلاميذه . ومن عسى أن يكون أولئك التلاميذ ؟ إنهم في الأغلب قوم ممن بسط الله لهم في الرزق ، واستطاعوا أن يفلأوا عنق ذلك الرجل شيء من المال يقدمونه إليه ثمناً لعلمه وفضله . وتلك محنة تنصّورها خطرة بشعة ونكاد نحكم بأن لأوزارها وأهوالها أثراً في كبت ذلك الروح وحسبه في حدود الحد والزمانة ، وحرمانه من نسبات اللهو المباح .

١٣ — فإذا تركنا تلك الصور الفكاهية القليلة وانتقلنا إلى جد الخوارزمي وجدناه جتاً رصبنا ينبئ عن نفس سامتها الأيام سوء العذاب ، وأول ما يطالعنا منه غيرته على الأدب وتوجهه لأن يراه مما يتال اللثام ، وإنه ليدكر أن "البخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه ، ومعرفة لفضله" وأنه يضار على الأدب الكريم ، من المتأقرب للثيم ، وينشد في ذلك :

وأرى له من موقف السوء عنده  
كبرئيتي للطرف والمليح راحكه

ويود أن يكون الأدب في جبهة الأسد ولو أصبحت الدفاتر في أنياب الأسود ، ويتنقّى لو بيعت الورقة بدينار ، أو كتب الدقتر بقطار ، فلا يتأدب إلا شجاع كمي ، ولا يبرز الدفاتر إلا جواد محي<sup>(١)</sup> .

وفي مثل هذه الصرخة دليل على أن الرجل كان يعاني آلاماً كثيرة من معاصريه ، ويستكثر على فريق منهم أن يوسم بالأدب أو تصل يده إلى كتاب نفيس ، وفيها كذلك إشارة إلى قلقه من بعض الطبائع الدينية التي يورثها العلم والأدب ألواناً من العظمة البيضاء والكبرياء المحقوت ،

وهذا الصنف من المخطوطات هو الذى حل بعض الناس على أن ينسب الى الرسول هذا الحديث الذى نراه يدور على ألسنة الجاهيل «لا تعلموا أولاد السفلة العلم» وكذلك كان طلاب الشهرة في عصر الخوارزمي يلجأون الى التحرش بالشخصيات الكبيرة ليتم لهم ما يبتغون من الظهور كما يفعل الخاملون في عصرنا هذا حين يهاجمون الثابنين والعقريين طمعاً في أن تدفع أسماءهم ويرفعوا بصمة ألقابهم، وقوة التقدير، وسعة الاطلاع .

١٤ - ويظهر أن الخوارزمي ما زال يهاجم حتى وقع في رُوعه أنه مضلوب . فله فقرات تشعير يمجده وجنونه من إقبال بعض الناس عليه ، فقد طلب منه أحد معاصريه نسخة من رسائله فكتب اليه في الجواب :

”طلب الشيخ نسخة من رسائل فرجاً بأنجح طالب ، وأكرم خاطب ، ومن سعادة الصبر كرم أختانه ، ومن إقبال الكاتب والشاعر شرف من نظري في ديوانه . ولو قدرت بلحمت الورق من جلدي ، بل من محني خدي ، والقلم من بناني ، والمداد من ماء أبقائي ، ولأملت هذه النسخة على السفرة البررة ، ليكتبه بيد العصمة ، ويخلده في بيت الحكمة ، بل لو علمت أن مثل الشيخ يطلبه ، وأن مثل يد الشيخ بسطها الله بالخيرات تكتبه ، لحاسبت عليه بقلبي ولساني أدق حساب ، وطالبت شيطاني بهذيبه وتقيحه أشد طلاب ، ولقلت لخاطري دقق طرزك ، وجود برك ، فإن المبتاع كريم ، والثمن عظيم ، وقد قيل : الراوية أحد الشاعرين ، وأنا أقول الراوية أحد الشعرين<sup>(١)</sup>“ .

ويمكن أن يقال إن التواضع في مثل هذه الفقرة مقصود لأنه أرسل ذلك الجواب الى رجل يرجو بزه وهو أبو العباس كاتب محمد بن ابراهيم ، ولأنه في مواطن أخرى يتعالى فيقول في عتاب أبي محمد العلوي : ”إن قوما أنا أصغرهم لكبار ، وإن أمة أبو ذر شرها لخيار“<sup>(٢)</sup> . ولكننا مهما قلبنا وجوه الرأي اتينا الى أن الخوارزمي كان مضطرب القول في تهديد أدبه

ووزن فضله؛ وهو في ذلك معذور لأنه كان يعيش من فيض قلبه وهي حالة جعلتنا نرى المتنبي في عظمته وكبريائه يبدو في بعض الأحيان وكأنه تابع ذلول .

١٥ — ولخوارزمي صور فنية يعرض بها الظالمين من أهل زمانه عرضاً بشما رهيباً، مثال ذلك قوله في وصف بعض الولاة :

”ورد علينا فلان ونحن نيام نوم الأمانة، وسكاري سكر الثروة، ومتكئون على فراش العدل والنصفة، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم، ويمتلب فينا ضرعى الدنانير والدرهم، ويسير في بلادنا سيرة لا يسيرها السُّور في الفار، ولا يستخيرها المسامون في الكفار، حتى آفقر الأغنياء، وأنكشف الفقراء، وحتى ترك الدهقان ضيعته، ومجد صاحب الفلاة غلته، وحتى تشف الزرع والضرع، وأهلك الحرث والنسل، وحتى أنحرب البلاد، بل أنحرب العباد، وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا، وحجب الفقر إلى أهل الفنى، وحتى لقب بالجراد، وكنى أبا الفساد، وحتى صار الدرهم في أيامه، أقل من الصدق في كلامه، وصار الأمن في أعماله أضر من السداد في أعماله . فليت إذ أوحش الرجال، حصّل المال، وليت إذ ضيع المال، أرضى الرجال، ولكنه حرم الآتين، فافلس من الجهتين . وواقع ما الذئب في الغنم بالقياس إليه إلا من المصلحين، ولا السوس في الخنز في الصيف عنده إلا من المحسنين، ولا الخجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق إلا أول العادلين، ولا يزدجرد الأثيم في أهل فارس بالإضافة إليه إلا من التبيين والصديقين، ولا فرعون في بنى إسرائيل إذا قابلته به إلا من الملائكة المقربين<sup>(١)</sup>“ .

١٦ — وفي الخوارزمي يظهر جيداً في هذه الصورة، فقد وازن بين الحالين : حال الأمن وحال الخوف، وقابل بين الخطتين : خطة العدل وخطة السف، فأشار إلى أنهم كانوا قبل ورود ذلك الوالى في سكر الفنى وغفوة الأمان، وأنهم كانوا على فراش العدل متكئين، فلما قدم ذلك الوالى أذهم وأذاقهم لباس الجوع والخوف . وفي قول الخوارزمي ”حتى انتقر

الأغنياء، وانكشف الفقراء<sup>(١)</sup> دقة بالغة، فان انكشاف الفقراء غاية ما تصل اليه البأساء والضرراء، إذ كان الفقر المحتمل يداوى بالتجمل والتستر، وتسدل عليه أثواب الحياة. وسين تصبح الهيئة الاجتماعية مقسمة الى غنى افتقر، وإلى فقير ذل وخنق، فهناك اليأس الجائر، والهلول المبين. وكلمات السوس والجراد والسنور والفأر تذكر بقول بديع الزمان في الشكوى من قاض ظالم "وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الزكوع والسجود"<sup>(٢)</sup>. وفي مثل هذا التوافق دليل على أن تخاب ذلك العصر يبالغون في بعض التمايز، وأنهم كانوا يميلون الى التمثيل بعوالم الحشرات والنبات والحيوان. وقوله "حتى صار الدرهم في أيامه أقل من الصدق في كلامه، وصار الأمن في أعماله أضر من السداد في أنماله"<sup>(٣)</sup> من العبارات الجميلة لولا أنه تريد لما وقع من مثل هذه المقابلة في شعر المهجاء. وذكر الهجاء ويزجر دفرعون في الحديث عن الظالمين ليس بجديد، ولكنه ورد في صورة مقبولة تشعب بأنه كان يحسن استغلال ما ورد على ألسنة المتقدمين.

١٧ - ولخوارزمي رسائل نحس فيها طيب النفس وخفة الروح، ولكننا نجد فيها كلمات قلقة نابية هي أثر الصنعة والتكلف والتزام السجع، كقوله في خطاب تلمبه له :

"تجاني هذا ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت، وقدمت من رأيي ما أنعرت، لما أمضى فينا الفراق حكمة، ولا أفخذ فينا سهمه، ولأقننا جميعاً أورشنا معاً. وإني لأظلم الفراق إذا شكوته، وأتعنف الدهر إذا هجوته، ويبدى ضرائي، ومن سهمي ريماني. فإنا كالقاطع يده بيده، والفاجع نفسه بنفسه، ومطرق الفراق الى قلبه، ومتجرع غصص الين وكربة"<sup>(٤)</sup> والفقيرتان الأخيرتان تكرر تقيل. والمعنى كله مأخوذ من أبيات حوِّرها الخوارزمي. وهي في الأصل التي أتبنته القائل :

تطوى المراحل عن حبيبك دأباً      وتظلل تبعك بهدمع ساجم  
كذبك نفسك لست من أهل الهوى      تشكو الفراق وأنت عين الظالم

(١) ١٦٩ رسائل بديع الزمان . (٢) ص ١٠ رسائل الخوارزمي .

ألا أقت ولو على جمر النضا      قلبت أو حد الحسام العاصم

ويقول الخوارزمي في هذه الرسالة يصف الأيام الماضية : " كانت أرق من حاشية  
البرد، وأحسن من طلوع السعد، وأحلى من إنجاز الوعد، وأعذب من القند<sup>(١)</sup>، بل من النقد،  
وأعجب من الورد، وما أردت إلا ورد الخلد، بل من المسك والند، وأطيب من القرب بعد  
البعد، ومن الوصل في أثر الصدد، بل كانت أرق من نسيم الزهر، في السحر، ومن قضاء  
الوטר، على الخطر، بل كانت أقصر من ليل السكاري، أو نهار الحيارى<sup>(٢)</sup> " .

وهذه نماذج كانت تجمل وتظفر بالقبول لو لم يرم بها كاتبها على هذا النحو من الإسراف .

١٨ - بقى أن نسأل هذا السؤال : هل للخوارزمي في جده وهزله فلسفة خاصة يقف  
عندها الباحثون ؟ .

الظاهر أن فهم الخوارزمي للحياة كان واقفا عند حدود أغراضه ومآربه ومطالبه  
الشخصية . وكان فنه واقفا على حسن السفارة بينه وبين أولى الأمر من معاصره، فليست  
رسائله في جملتها إلا شذرات من المدح والعتاب والامتدح والمجاء . وهذا أخطر مقتل  
في تلك الرسائل التي تمتد من ذخائر الأدب العربي، وهو من أجل ذلك لا يصلح أستاذا لكثير  
من المتأدين، فانه لم يجب شطرا من متوره في الدفاع عن فكرة فلسفية، أو زعة وجدانية،  
ولم يرفع الأدب الى أفق من آفاق الحب والمجد والإخلاص، ولم يسم به الى سماء من سموات  
الفن الخالص الذي يسئنا آصار المادة وينقلنا الى عالم الأرواح . وكل ما نجح فيه الخوارزمي  
أنه أشعرنا بوجوده، ووقفنا بجده أمام شخصية قوية لها في الحياة مطامع وأهواء، ولها  
في عصرها وجود ظاهري يحسب له حساب . ونحن لا نستقل هذا، ولكننا لا نكتفى به .  
فإن الزعامة الأدبية مهما دلت على أخطار الزعماء لا ترضى وحدها عشاق الخبير والحق  
والجمال .

١٩ - ولقد آنحاز الخوارزمي الى مذهب الشيعة، وهو مذهب له خصائصه ومزاياه. وفي صف هذا المذهب وقف وقعة غيفة دللتا على أنه رجل جلد ونضال، ولكنه لم يشعرنا بحب ذلك المذهب، ولم يسكب في روحنا قطرة من الحنان نحو من يكلم من الشهداء : لأنه كان يشوب تشيعه بالحق الأ سود على بنى أمية وبني العباس . ونستطيع أن نقول إنه في هذا الموضوع كان داعيا صادقا الى فكرة لما قيمتها في الحياة الإسلامية، وأنه استطاع بالدفاع عنها أن يحترق في زمرة المجاهدين في الحياة السياسية، لولا أنه بسط لسانه بطائفة من العورات والمئات حين عرض لـخلفاء في الفاظ منكرة أخفها الحكم بأنهم جاءوا من نطف السكارى في أرحام القيان .

ومن الحق أن نقول أن الرسالة المطولة التي بعث بها الى الشيعة في نيسابور تبدو لمن يقرأها وكأنها صاعقة تصيب على رموس من عادي من الرؤساء، وفي هذه الرسالة يبدو الخوارزمي وهو أزرق التاب مسموم اللعاب، كالحية النضاض . وفيها كذلك يبدو طيبه وخجبه، وكرمه ولومه، وشهده وصابه، فهو تارة مؤمن متبتل خاشع صبور حين يقول : "فإن أصابتنا نكبة فذلك ما قد تعودناه، وإن رجعت لنا دولة فذلك ما قد آتتظرناه، وعندنا بحمد الله تعالى لكل حالة آلة، ولكل مقامة مقالة : فعند المحن الصبر، وعند النعم الشكر<sup>(٢)</sup> . وهو تارة متحزب حقود يمتد آتام الخلفاء من بنى أمية وبني العباس ويذكر ما آتتفروا من الجرائم في تقريب المنين، وإقصاء الفاطميين، وله في ذلك لذعات مسمومة يعف قلبنا عن تفصيل ما أنطوت عليه من خبيث الذم وفاحش الهجاء .

٢٠ - ولا يفوتنا أن نشير الى أن في تلك الرسالة إشارات الى نواح من الأدب لها أهمية عظيمة : فقد لوح الى إن هناك أشعارا وضعت بعد الاسلام على ألسنة الجاهلية معارضة لأشعار المسلمين، ورواها مثل الواقدي ووهب بن منبه التيمي ومثل الكلبي والشرقي بن القطامي والهيثم بن عدى، وهو بهذا ينص على أن أشعارا وضعت لفظ من علي بن أبي طالب، وعرفنا

منه كذلك أن من شمراء الشيعة مَنْ قُطِعَ لسانه ومُزِقَ ديوانته فضاع شعره وهو عبد الله بن عمار البقي فصار لذلك من الشخصيات المجهولة في تاريخ الآداب . وعرفنا منه أيضا أن عبد الله بن مصعب وهب بن وهب البخري ومروان بن أبي حفصة الأمويّ وعبد الملك ابن قُريب الأصمعي وبكار بن عبد الله الزيري وأبا السمط بن أبي الجون الأموي وابن أبي الشوارب العبسي هؤلاء جميعا كانوا متهمين بالتعامل على آل أبي طالب <sup>(١)</sup> .

وهذا كلام ليس جديدا في ذاته فقد أشار الى مثله كتاب التراجم، ولكن وروده على لسان الخوارزمي مضافا الى ما أفاض فيه من عيوب الخلفاء يوضح أشياء كثيرة لها أهميتها في تحديد الاتجاهات الفكرية والأدبية عند الكتاب والشعراء والمؤلفين، ويدعو الى الاعتراض مما نسب الى كثير من المتقدمين .



## ٩ - قابوس به وشمكير

١ - في سنة ١٣٤١ هـ، نشرت المطبعة السلفية كتابا صغيرا اسمه كمال البلاغة على نفقة المكتبة العربية ببغداد، فمن الواجب في رأس هذا البحث أن نسدي الشكر لحضرتي الفاضلين نهمان الأعظمي ومحب الدين الخطيب على عنايتهما بإحياء هذا السفر النفيس .

وكمال البلاغة هذا مجموعة صغيرة من رسائل شمس المصالي قابوس بن وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ - أما قابوس بن وشمكير فشخصية جذابة شغلت أرفع مكان بين كتّاب القرن الرابع، وسار ذكرها بين أدباء الأندلس حتى عدّه ابن شهيد ضريبا لبديع الزمان . وهو ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان . قام بأعباء الملك سنة ٣٦٦ ولقبه الخليفة الطامع لله "شمس المصالي" . ولكن فتنة نشأت في الشرق بين عضد الدولة بن بويه وأخيه نغر الدولة في السنة الأولى من حكم قابوس كان من نتائجها أن أنهزم نغر الدولة وبلغا إلى قابوس فأكرمه ورعاه، فأحفظ ذلك عضد الدولة الذي أغار على مملكة قابوس فاستولى عليها سنة ٣٧١ ونز قابوس لاجئا إلى خراسان . وبعد سنتين استطاع نغر الدولة أن يعود إلى ملكه وكانت بلاد قابوس في جملة، ففكر قابوس في الاستفادة من هذا الظرف ، ولكنه موطن لنية كان يخفيها الوزير ابن عباد . فلما توفي نغر الدولة سنة ٣٨٧ أعد قابوس حنتين عسكريتين واستردّ ملكه سنة ٣٨٨ ، ولكن عصره كان مملوفا بالقلقل والاضطرابات فاتهى الأمر بخلعه وتولية ابنه . وكانت له نهاية محزنة نشأت عن ثورة الشعب الذي أكرهه على الفرار إلى بسطام حيث قضى نحبه هناك .

٢ - كان قابوس من الملوك الأدباء، وكان للظروف القاسية التي عاناها في حياته السياسية أثر بليغ في طبع مواهبه الأدبية بذلك الطابع المحزن الذي يعلب على شعره وثره . وهو يذكّر بالاعتماد بن عباد الأندلسي ، فكلاهما يكنى ملكه وحظه ومجده ، ولنتظر كيف يقول قابوس حين استولى ابن بويه على بلاده وأخرجته منها حائرا كاسف البال :

لئن زال أملاكى وفات ذخائرى      وأصبح جمعى فى ضمان التفرق  
فقد بقيت لى همة ما ورامها      منال راج أو بلوغ المشرق  
ولى نفس حر تائف الضيم مر بها      وتكسره ورد المنهل المترق  
فان تلتقت نفسى فله دزها      وإن بلغت ما أرتجيه فأخلق

وله هذه الأبيات التى يحفظها أكثر المتأذين وقد وصلت الى أغلب الجماهير لعناية المؤلفين باختيارها فى المجموعات الأدبية :

قل للذى بصروف الدهر حيرنا      هل حارب الدهر إلا من له خطر  
أما ترى البحر تعلو فوقه جف      وتستقر بأقصى قاعه الدور  
فان تكن نشبت أيدى الزمان بنا      ونالنا من تمادى يؤسه الضرر  
فى السماء نجموم ما لها عدد      وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وله أيضا هذه القطعة بعرض بمن رفعتهم الأيام بعد خفض وأعزتهم بعد هوان :

باقه لا تنهضى يا دولة السفلى      وقصرى فضل ما أريخت من طول  
أسرفت فأقصدي ، جاوزت فأنصرفى      عن التهور ، ثم أمشى على مهل  
عتمدون ولم تخدم أوائلهم      محولون وكانوا أرذل الخول

وبمناسبة شعر قابوس نذكر له هذين البيتين وهما من أروع ما قيل فى التشيب :

خطرات ذكرك تستثير مودى      فأحس منها فى الفؤاد ديبا  
لا عضولى إلا وفيه صباية      فكان أعضاى خلقى قلوبا

٣ - أما نثر قابوس فأعجوبة من أعاجيب فن الإنشاء . هو نثر مصنوع صنعة دقيقة جدا لا يدرك كتبها إلا الفحول . وقد غنى بدراسه من المتقنمين عبد الرحمن اليزدادى الذى اختار من رسائله مائة "كمال البلاغة" ودراسة اليزدادى لنثر قابوس جدية بأن يعود إليها الأدباء بالنقد والتحصيل ، لأنها مشكلة لأنواع البديع : فقد استخرج منها أنواعا لم يكن وجدها

قدامة بن جعفر فيا فتش من كلام الفصحاء، ثم تولى تسميتها بما شاكلها من النوت، وهى أربعة عشر نوتا . منها المصحح كقوله :

”صام عن جواب ما نفذ اليه، وتام عما لزمه فى حق الاعتقاد عليه“ .

وسماه مجنعا لأنه شبهه بشيء له جناحان من قبل أن فى أوله سجعا وفى آخره سجعا وبينهما واسطة . فكلمة (صام) فى أول القرينة الأولى تقابل كلمة (تام) فى أول القرينة الثانية . ومنها الممثل كقوله :

”ولا يسجبنى أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول، ويأذن لطوال معاليه بالأفول“ .

وسماه كذلك لكثرة ما فيه من التمثيلات .

ومنها المجانس كقوله :

”أين الطبع الذى هو للصدود صدود، ولتألف ألوف وودود“ .

وسماه كذلك لأن اسمه مشتق من الجنس ولأن بعض الكلام منه جنس لبعض، فالصدود وصدود من جنس واحد، وتألف وألوف من جنس واحد .

ومنها مشابهة الصور كقوله :

”إذا حالف، فأحسبه قد خالف، وإذا أعار، فأحسبه قد أعار“ .

وسماه كذلك لتشابه صور الكلمات فى الخلط : خالف وخالف فى صورة واحدة، وكذلك أعار وأعار .

واليزيدى مفتون فتنة مطبقة بنتر قابوس، وأنظر كيف علّق على قوله :

”قد خلد ذلك فى بدائع الأخبار، وكتب بسواد الليل على بياض النهار“ .

فانه يقول : ( هذا كلام لا أعرف فى جودة صنّعه وغرابة معناه كلاما : لأنه مثل سواد الليل بالمداد، وبياض النهار بالقرطاس، وهما شيّتان ليس لهما نظيران فى البقاء، وهذه القرينة الثانية نتيجة طبع كالماء رقيق، وصنع فى تأليف الكلام دقيق، وليس مما يسمع به

طبع الكتاب ونحى به قرائعهم ، فإني قد أجلت الفكر في عدة ألفاظ رائية الأواخر فلم أجد منها ما يقع موقعه في الواقع . وكان ما أتى وحضر في غاية النغور منه والشذوذ عنه ، ولا يعرف ما أقوله إلا من يعالج التسجيع .<sup>(١)</sup>

وفي مكان آخر يقول :

”وأنا إن رمت العبارة عن بدائع هذه الرسائل عيت به لإعجازها ، ولأنه كلام مبين ، في الفصاحة والعدوبة والبدعة والإيجاز ، للكلام الممهود الجارى على السنة الناس ... ليس ذا من كلام البشر ، ولأن المعرفة البشرية ، والادراك الطباعي ، بل هو إفاضة القوة العلوية“<sup>(٢)</sup>.

٤ - أما نحن فقد راجعنا هذه الرسائل غير مرة ، ورأيناها حقاً من الذخائر النادرة ، ولكننا لا نوافق اليزدادى على تقرير أن هذه الأربعة عشر نوطاً من البديع لا توجد في كلام غير كلام قابوس . فهي في جملة ترديد للصنعة التي عرف بها المتفحمون . وكل ما يمتاز به هو شدة الأسر ، وأطراف الفن في جميع أجزائها بحيث يمكن أن يقال إن هذا الرجل كان يفتح الكلام كما يفتح المثال الصخر ليخلق منه غرائب القاتيل .

٥ - وهنا نقطة يحسن الكلام عليها : هي أن قواد القرب اليوم يأخذون على كتاب اللغة العربية أنهم يجمعون بين الصور المختلفة في الجملة الواحدة بدون أن يلاحظوا ما يجب أن يكون بين تلك الصور من الروابط المعنوية . من ذلك مثلاً قول النعماني في الزوزنى الكاتب :

”يقرس الدر في أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس“ .

فإن هذه أخيلة متنافرة لا جامع بينها ولا رباط . ولو حلت ما فيها من استعارة لأعيالك الأمر وضاق بك المجال ، وهي في جملة شعونة عقلية ، وإن بدت لبعض الناس نهاية في الحسن والرواء .

وقول النعماني أيضاً في أبي الفرج البياض :

”له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الباقوت ، بل حب العالم“ .

فان الانتقال من هذه الصور مضلل للخيال . وكل ما عند الكاتب أنه عرض ما مرّ  
بذهنه من مختلف الأشكال .

٦ — ونحن إذا أردنا أن نقصد رسائل قابوس من هذه الناحية وجدناه يحلّق أحيانا  
ويسفّ حيناً . فمن المستجاد له هذه العبارة :

”ولا يعجبني أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول ، ويأذن لطوال معاليه بالأفول“ .  
فان الصور هنا متقاربة والربط بينها موجود . ولكن أنظر قوله في وصف ثرابن العميد :  
”ولو كنت عرفت تفاضل الكلام ، وميزت بين المنسم والسنام ، لما قابلت بصغيري  
زبيره ، وما ساجلت ببعثي جريره“<sup>(١)</sup> .

فان الربط بين هذه الصور صعب ، لأنه قابل بين المنسم والسنام ، ثم أنتقل فقابل بين  
الصغير والزبير ، وأبعد من هذا انتقاله في قوله ”وما ساجلت ببعثي جريره“ فان القارئ يحتاج  
إلى تأمل وتفكير في تصوّر هذه القرينة الأخيرة ، الى أن يتاح له من يفهمه أنها إشارة إلى  
البعث وجرير من بين الشعراء .

ويستجاد قوله :

”حتى يفر ما أزهى من القول ، ويمطر ما أنشأ من سحاب الفضل“<sup>(٢)</sup> .

لأن الزهر والتمر والمطر والسحاب مما يغلب الجمع بينه في عالم الوجود . ولكن أنظر قوله :  
”الدنيا شجرة ثمرتها النوايب ، وبيضتها مضمونها المعائب“ .  
فان الانتقال من الشجرة إلى البيضة شطط غير مقبول .

ويستجاد قوله :

”أمن صخر تدمر قلبه فليس يلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فلا يميله الإعتاب ، أم  
من صفاقة الدهر يحنّ نبوه فقد نبا عنه غرب كل حجاج ، أم من قساوته مزاج إباطه قد  
أبى حل كل علاج“<sup>(٣)</sup> .

فإن الأواصر وثيقة بين هذه التمثيلات، ولكن أنظر قوله :

”فأما ذلك المهم فما أحرأه بأن يلجم فيه مسرج وعده، ويتج بالنجح ما ضمنه نسج يده<sup>(١)</sup> .  
فإن هذه الأخيصة قليلة الاختلاف .

٧ — ومن الحق أن أقدر أنني أجد صعوبة في البحث عن مقاتل هذا الكاتب الفنان،  
فأكثر صوره وأخيلته وتمثيلاته يسود فيها روح التألف والاتساق . ويمجني قوله :  
”فن أين للضباب، صوب السحاب، وللغراب، هوى العقاب<sup>(٢)</sup>“ .

وقسوله :

”ولم لا يستدّ عازب الرأى فيعلم أنه ما لم يعاود الصلّة مأقون، ويستعيد غائب الفكر  
فيفهم أنه ما دام على الفرقة مغبون، أظنه يقدّر الاستغناء عنى هو الغنى والغناء، ولا يدري أن  
الافتواء على- هو الليل والبلاء، ويخال أنه مكثف بجأحه وعرضه، ولا يشعر أنى كلّ لبعضه،  
وطول في عرضه، وأن قوة الجناح بالقوادم والخواق، وعمل الزماح بالأسنة والموالى<sup>(٣)</sup>“ .

وله أحيانا مبالغات يظهر فيها الغلو والإسراف ، ولكن حلاوة أسلوبه تسحب عليها  
نسمة من القبول . وإليك قوله :

”بل كيف يهون من لو شاء عقد الهواء، وجسم الهباء، وفصل تراكيب السماء، وألف  
بين النار والماء، وأكد ضياء الشمس والقمر، وكفاهما عناه السير والسفر، وسد مناخر  
الرياح الزانح، وطق أجناف البرق اللوامع، وقطع السنة الرعود بسيف الوعيد، ونظم  
صوب النمام نظم الفريد، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل، وقضى بما يراه على الغضاء  
النازل، وعرض الشيطان بمرض الانسان، وكلّل الحور العين بصور الفيلان، وأثبت  
الشب على البحار، وألبس الليل ضوء النهار<sup>(٤)</sup>“ .

(١) ص ٨١ (٢) ص ٧٧ (٣) ص ٥٦ (٤) ليل المواب (مثل) بإقتضيد .

(٥) ص ٥٥

٨ — وهذه القطعة التي نعدّها من المبالغات والتهويلات، ألا تدلنا على شيء؟ إنها تدلنا على أن الإنسان كان يعلم منذ أجيال بالتحكم في الأرض والسماء، والماء والهواء. إن هذا الكلام الذي نراه مبالغة لو قاله امبراطور ألمانيا بالأمس، أو قاله ملك إنجلترا اليوم، لما رأى الناس فيه شيئا من الغلو والاسراف. فقد أستطاع الإنسان في هذا الجيل أن يكبد ضوء الشمس والقمر، وأن يسخر الهواء، وأن يؤلف بين النار والماء، وأن يسد مناخر الرياح، وأن يطبق أجفان البروق، وأن يسدل الطابع من حال إلى حال. وقد ألبس الليل ضوء النهار، ولم يبق إلا أن ينبت المشب على البعار.

إن دراسة الآداب القديمة تعطينا صورة عجيبة من أحلام الانسانية. فهذا الطيران الذي أصبح قوة القوّى في هذا العصر كان حلما يتردّد كثيرا في أخيلة الأقدمين؛ فقد تصورا لسلطان بسات الرّيح، وقدرّوا أن سيكون في الجنة طيارون، ولم يتخلوا الملائكة إلا مجنّحين، لأنهم كانوا يرون القوّة الكاملة في أن يطير الإنسان من أفق إلى أفق، ومن قطر إلى قطر، كلما يشته الدواعي وأهابت به الظروف.

فإنّنا نراه مبالغة في كلام قابوس بن وشمكير ليس إلا وثبة من وثبات الخيال الانساني الذي قدّر ما ينتظره من البأس والقوّة في عالم الوجود. ولننظر كيف يقول في نفس الرسالة التي اقتطفنا منها القطعة السالفة :

”كيف يُزهد فيمن ملك عنان الدهر فهو طوع قياده، وتبع مراده، ينظر أمره ليمتثل، ويرقب نهيه فيمتثل؟ وكيف يهجر من تضاءلت الأرض تحت قدمه، وصارت في الاقياد له نكده؟ إذا رأت منه هشاشة أعشيت، وإن أحست منه بحفوة أجذبت؟ وكيف يستغنى عن خيله العزمات والأوهام، وأنصاره اللبالي والأيام، فمن هرب منه أدركه بمكايدها، ومن طلبه وجده في مراصدها؟ وكيف يُمرض عن مُرض رفاة العيش بإعراضه، وتقبض الأرزاق بأقباضه، وأضاء نجم الإقبال إذا أقبل، وأهلّ هلال الجلد إذا تهلل؟ وكيف يزعم على من تحقر في عينه الدنيا، ويرى تحته السماء العليا، قد ركب عنق الفلك، وأستوى على

ذات الحبك، فتبرجت له البروج، وتكوكت لمبادته الكواكب، واستجارت بعزته المجرة، وأثرت بآثره أوضح الترى<sup>(١)</sup> .

وإني لأنتظر أن يحقق الانسان الحاضر جميع الخيالات التي مرّت بنهن الانسان الفار، فقد كان الانسان يضيف إلى الجن جميع القوى التي تعجز عن إدراكها وسائله المادية، ونظرة في كتاب ألف ليلة وليلة، أو ما شاكله من كتب الخرافات والأساطير، ترى أن الانسان كان يضيف إلى الجن أعمالاً غريبة معقدة هي اليوم أيسر ما يأتي به الانسان في أعوام الحروب . وستبدل تبعاً لتطورات الاختراع أوضاع كثيرة من مصطلحات البلاغة والبيان، فتصبح أكثر المجازات حقائق، وتسمى أكثر المبالغات تماير عادية لا شطط فيها ولا جوح . وسيستقر أن يكون للانسان الحاضر أوهام جديدة، وخیالات طريفة، بقياس إلى ما حققه من أوهام أسلافه الماضين، وستكون الأجيال المقبلة مشغولة بتحقيق الأحلام الجديدة التي يتصورها الإنسان الحديث . ولا يعلم إلا الله ما سيكون من مصير الحلم الأعظم حلم الخلود، فقد تشبث الانسان بهذا الحلم في جميع أدواره التاريخية، وعز عليه أن تكون أيامه في هذه الدنيا هي كل ما يملك من حظوظ الحياة، وليس مذهب تنازع الأرواح الذي تعلق بأهله الأقدمون إلا تعزية لهذا الانسان الفاني الذي يزعمه أن يقصر وجوده على سنوات معدودات . وقد راعت جميع الديانات هذه الأمانة الانسانية فقرزت في ثقة مصحوبه بالرفق والمطف أن سيكون للانسان حياة أخرى هي أعلى وأبقى من حياته الدنيا، وأن سيكون له جنة ونعيم وروح وريحان . ولا أكتف القارئ أنني أعجب كيف يعيش الناس في بعض أنحاء الصين في ظلال المعتقدات الخائفة التي تنذر بأن لا حياة بعد الموت، وأن لا رجعة للانسان بعد فراق دنياه .

إن الانسان ليسى للخلود بوسائل شتى، منها هذه الآثار المادية والمعنوية التي يفي الناس فيها أعمارهم ليكون لهم بعد الموت لون من ألوان الوجود . والذين لا يستطيعون أن يسمعوا



التاريخ صوتهم ، وأن يفرضوا بقاعهم في أذهان الأحياء ، يأملون أن يصلوا بطريق الخير والبر الى ملكوت السموات ، عليهم يعيشون خالدين بين المتقين والأبرار .

إني لأذكر ، وأنا أكتب هذا ، أن دنوتريو شاعر ايطالي أكاد يمس بالجنون حين رأى لأول مرة طيارة تحلق في الأجواء ، ولم ذلك ؟ لأنت الشاعر الذي يحس الحياة ويفهمها ويتذوقها بأكثر مما يتذوقها سائر الناس يدرك القيمة المعنوية لهذه البراعة الانسانية التي حولت الأحلام الى حقائق ، ومكنت الرجال من ناصية السماء . ولا ندرى كيف يكون شعور الانسان حين يكشف له النطاء عن عالم الأرواح . فهذه هي الأمانة الباقية التي يحلم بتحقيقها الأحياء إن طائفة من المخترعات التي يتمتع بها الناس والتي صارت مألوفة لا غرابة فيها ، كانت لأول ظهورها من الغرائب والأعاجيب . وان كشف أسرار الكهرباء ليشر بمستقبل عظيم جدا للانسانية ، فقد يكون ما وصلنا اليه قسوراً من المعارف الأولية في هذا الباب . فليت شعري كيف يحيا الناس بعدنا ؟ بل ليت شعري كيف عاش الناس قبلنا ، وكيف كانت علوم الفراعة يوم بنوا الاهرام ؟ ؟ .

في اللحظة التي أكتب فيها هذه الملاحظات أفاشى بعض الألم في الأسماء ، ومع هذا الضعف أشعر بوحشة شديدة كلما فكرت في قصر حياتي على طائفة من الأعمال الأدبية التي لا تخدم الانسانية إلا بمقدار ضئيل ، وتزيد وحشتي كلما ذكرت أن الإنسان سيحتاج الى أجيال طويلة حتى يبرأ من وحشيته وبدأوته ، ويعرف كيف فضل السلام ، وكيف تكون ثمرات العالم أدوات إحياء ، لا قذائف إقناء . وليس أمامي إلا هذا الأمل الصغير : وهو أني سأعود الى العالم من طريق الذكريات ، كما عاد قابوس بن وشمكير فشغلني به ، وشغل مي جماعة من الأساتذة بجامعة باريس بعد أن فارق العالم بعشرة قرون .

٩ — ونود بعد هذا فندكر أن قابوس بن وشمكير يلتم الصنعة في أكثر ما يكتب ،

حتى في الموضوعات الفلسفية .

وللقارئ أن يسأل : أكان لهذا الملك الأديب فلسفة يكتب عنها بلغة مثقلة بالجمع والموازنة والجناس ؟ .

نعم ! كان لهذا الرجل فلسفة ، منها رأيه في العالم ، وهو يرى من الممكن أن يغير الله هذا النظام الحاضر الذي يفرض بالإنسان الى القضاء ، وليس من المستغرب عنده أن يحول الله هذا العالم القاني الى عالم خلود . وأنظر كيف يقول :

”إننا لا نقدر على علم الأشياء العائبة إلا بما نشاهده من الأشياء الحاضرة ... ولو لم يكن لنا هذا التدريب والممارسة للشاهدات ، ثم القياس بها على المخفيات ، لكنا نأبى قبول قول واصف لحيوان ما على صورة مخالفة لمعهدنا ومعلومنا من جملة الحيوانات التي شاهدها . ولكنا نعلم بهذا القياس المعمول عليه أن كون ما وصفه جائز ، وغير مدفوع أن تأتي القدرة من الباري ببحوان لم نشاهده في صورته الخاصة به . بل نأثر على هذا القياس أن تحدث قدرة الباري جل جلاله صنعا آخر زائدا على الصنع الأول في الشرف والكمال ، فلا توجد في شيء من أحواله حال تنافي الاستقامة ، وتباين الحكمة ، فيكون العالم حينئذ عالم الخلود والبقاء ، مترها عن الزوال والاقضاء“<sup>(١)</sup> .

وفي رأى قايوس أن هذا سيكون أظهر لقدرة الباري عز شأنه ، ولا ينبغي أن يقال : لماذا لم يخلق الله العالم كذلك منذ البداية ، لأنه لا يقال لقادر حكيم تظهر منه القدرة بعد القدرة ، والبدعة بعد البدعة ، وكان لكل متأخر منها على متقدم مزية وشرف ، وفضيلة كمال : ”هلا فعل ذلك في الأوّل ؟“ لأن الفعل كلما كان المستأنف منه أشرف مما سلف ، والأخير خيرا مما سبق ، كان أثقل على قدرة الصانع ، وحكمة المبدع .

١٠ — وقد أتاحت لنا هذه الأمانى أن نمود فتأمل تعليلات المواقف المختلفة منذ نشأتها البعيدة الى وجودها الحاضر . ولكن رويدا ، فإنا أكتب هذا في غرفة مغلقة النوافذ ، مسدولة

السنائر، لا يهديني فيما غير الكتاب والمصباح، وليس لدى من وسائل التحقيق غير الخيال .  
ومع هذا فليسمع القارئ إن شاء :

إن علماء طبقات الأرض ، علماء الجيولوجيا ، يقولون مثلا : إن جزيرة مدغشقر أكبر من أن تكون جزيرة ، إنما هي قارة ، ولكنها مع ذلك ليست مستقلة منذ خلقت ، فإن هناك دلائل جيولوجية تدل على أنها انفصلت من أفريقيا في عهود ما قبل التاريخ ، فهل يدري القارئ في كم مليون من السنين كونت الطبيعة بوظائف موزنيق ؟ وهل يعرف في كم أمد من الآماد استطاعت الطبيعة أن تكون لمدغشقر وجودا خاصا بحيث تفرق في حيوانها ونباتها عن أفريقيا بعض الاقتراق ! إن مدغشقر مختص بنوع فذ من أنواع الغراب ، ففيها وحدها يكون الغراب أسود الظهر ، أبيض الصدر ، كأنه يستعد لحفلة ساهرة ! ففى كم جيل شاب ذلك الغراب الذى جهل الشاعر وجوده حين قال :

إذا شاب الغراب أبيض أهلى وصار القار كاللبن الحليب

ألا يمكن أن يكون هذا التطور البطئ جدا الذى يتناسب بطؤه مع خطورة هذا العالم المتراعى الأطراف ، ألا يمكن أن يكون سنة مطردة من سنن الطبيعة تتحول بها الموجودات من وضع إلى وضع ، ومن حال إلى حال ، في مدى مالا تعرف ولا تفرض من طوال الأجيال .  
اذن فلنسمح للانسانية أن تحلم بأن سيكون من نتائج هذا التطور أن تظفر بوضع آخر من أوضاع العالم : هو الخلود ، وما ذلك على الله بعزيز .

١١ - وهناك نظرة أخرى فلسفية من نظرات قابوس هي تقديره لنفس الحيوان ، فعنده أن قوة الفكر والتمييز الكامنة في جميع الحيوانات ، وما من أجناس الحيوان جنس الا وقد أعطى منها قدر ما كفاه في طلب المعاش ، والاحتراز من المضار والآفات . وأشرف الحيوان عنده ما كانت معرفته من ابتداء كونه إلى انتهاء منه معرفة غريزية ، ولم يكن محتاجا إلى إرشاد وهداية ، وتعليم ورياسة ، ثم ما كان مكثفيا بحوله وقوته في دفع المضار عن نفسه وحريمه ، ومستغنيا في تحصيل مطالبه ومآربه عن مشارك ومعين ، ثم ما كان أصدق وفاء وخلّة لما عرفه

وشاهده، وألفه وأعادته، ثم ما كان يجتته وخلقته نظيفا لا يحتاج إلى الاغتسال بالماء، ولا إلى التزين بزينة متخذة من خارج، وإنما يفتنه حسن شعره في مختلف ألوانه، وأنوار ريشه في صنوف أصباغه، عن الحسن المكتسب والجمال المجلوب، ثم ما كان من ابتداء مولده إلى منتهى أمدّه على طبع واحد: لا يتبدّل حالا بحال، ولا يتغير بين غفوة وأصال ... وما أبعد نظر قايوس اذ يقول :

”كل هذا الذي ذكرته من الأوصاف الجيلة، والخصال المرضية، في سائر الحيوان موجود، وفي الانسان — بحمد الله — مفقود . وماذا يضرهم إن فاتهم علم الفلسفة والهندسة، ومعرفة أفلاطون وأرسطاطاليس، وفيثاغورس وأنبذقليس، وأرشيدس وبطلميوس، وهرمس وباليس، فلا العالم به ينال من العمر مريدا، ولا الشقّ يصير به سعيدا، وكفى شرفا وفضلا بالبهائم، أن يمر الظباء طلب لهذا الحكيم العالم، وما يتولد في أحشاء بعضها من الحجر، دواء وشفاء لأدواء البشر ... ولكن الجاهل ظلوم، والإنصاف في الناس معدوم“ .

ولقايوس آراء في الفلك والتجوم هي صورة لمعارف أهل عصره في هذا العلم، يضيق عن تقديرها الجمل، وحسبنا أن نذكر أن بعض ما سماه أوهاما من تأثير الكواكب هو اليوم موضع عناية علماء الفلك، والعلم يمضي بأقدام راسخة في تحقيق أوهام الأولين، وفوق كل ذي علم عليم<sup>(٢)</sup> .

(١) أنظر ص ٩٧ و ٩٨ (٢) من أغرب ما في آراء قايوس إنكاره للتكنية : فهو عنه منقصة للآباء . ومن رآه أن التكنية رسم حدث في أيام ملوك العم إذ كانت حتمهم وحائن العرب فكان يقال إذا زار أحد الآباء آبيه : جاء أبير فلان وأبير فلان، أي أن هذا والده فلان وذلك والده فلان (ليعرف ولد كل رجل بأبيه، فلا يفترض الاشتباه فيه، فلما دارت الأيام حل ذلك، صارت هذه النسبة دتية لأولئك) ويضيف قايوس الى هذا أن التكنية ”ترتب برتبة أهل الدمة، واستعمال رسوم تلك الأمة - وقبح صبح بالمسلمين، أن يكونوا بسماهم متسقين“ أنظر ص ١٠٩ و ١١٠ والتكنية — كما يرى قارئ كتابنا هذا — صارت من الأمور الشائعة عند رجال القرن الرابع حتى تكاد تنجز بأن لكل كاتب تكنية، والتكنية هي التي ميزت بين الحسن بن عبد الله السكري والحسن بن عبد الله السكري فهما متساويان في النسبة وتفرق بينهما التكنية : فأحدهما أبير أحد، وثانها أبير هلال .

ومن المحتمل أن يكون رأى قايوس صحيحاً في أصل التكنية ، ولكن لا مزية في أنها سارت عادة عربية . فان الملاحظ  
يحدّثنا أن كل من اسمه على صار يكنى بأبي الحسن وكل من اسمه عمر صار يكنى بأبي حفص (الحيوان ص ١٥٩ ج ١)  
ويحدّثنا ابن النديم أن عبد الله بن الحنفية كان قبل إسلامه يكنى أبا عمرو ، فلما أسلم اكتفى بأبي محمد (الفهرست ص ١٧٢)  
وابن أبي الحديد يحدّثنا أن التكنية كانت عند العرب وعند الفرس وأن ملوك بني ساسان لم يكنوا أحد من دعاها قط  
ولا سماها في شمر ولا غلبة وإنما حدث هذا في ملوك الحيرة وأن جفاعة العرب لسوء أديها وغلبت تركيها كانوا إذا أتوا  
النبي صلى الله عليه وآله خاطبوه باسمه وكنيته . (راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ج ٤) .

والتكنية مألوفة في شمر العرب . قال القرطبي :

وقد تطلق الأسماء في الناس والتكنية كثيرا ولكن ميزوا في الخلقات

والظاهر أنها كانت مطردة فبين ليس له والد . من ذلك قول أبي نصر الهذلي :

أبي القلب إلا حبيبا طمرية لها كنية عمرو وليس لها عمرو

والتكنية من تقاليد الناس في العصر الحاضر ، وأهل مصر يكتنون الرجل أحيانا باسم أبيه لا باسم ابنه فيقال  
(أبو عبد السلام) لأن الوالد اسمه (عبد السلام) .

وجرت التكنية مجرى التشريف في مصر : فكان السيد أحمد عبد الخالق السادات رحمه الله يكنى مريده في ليلة من  
ليالي رمضان في غرفة خاصة تسمى (أم الأفراح) وكان المريدون يفرحون بكتابهم المبلغ القسح ، وهو تقليد يدل على أن  
التكنية كان لها في ذلك البيت معنى من معاني التشريف .

فان صح ما ذكره قايوس من أن التكنية كانت رتبة من رتب أهل القمة فان انتقالها الى الجوارح الاسلاني في هذا الوضع  
الشريف دليل على أن التطور قادر على قلب المعاني في كل شيء . وما أكثر ما تلطفت الألقاب والأوضاع باختلاف  
الأجيال !

## ١٠ - أبو اسحاق الصابي

١ - تلك شخصية جذابة أمتحن بالحوادث، وعرفت أسرار الناس وصروف الزمان. فقد كان من حظ الصابي أن رأى الأيام في إقبالها وإدبارها وشهد من ألوان البؤس أضعاف ما شهد من ألوان النعم : فكان لذلك أثر في صفاء نفسه، ودقة حسه . والحظ الذي يعطى ثم يأخذ بالشمال ما أعطى باليمين أجدى على الكاتب والشاعر من الحظ الموافق الذي تتواتر ألطافه وعطاياه . وكذلك عرف الصابي صفو الحياة حين تولى الانشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه سنة ٣٤٩ ، ثم واجه بأساء الحياة حين ملك عضد الدولة بغداد واعتقله في سنة ٣٩٧ وعزم على إلقائه تحت أيدي القبيلة لولا شفاعته الشافعين ، وظل يعاني أحداث الأيام الى أن توفي في شوال سنة ٣٨٤ ببغداد وعمره ٧١ سنة .

٢ - وأول ما يلفت النظر من أخلاق الصابي أنه كان رجلاً ألوفاً حاول الشامل بليل التأثير في أنس معاصريه . كان صابئاً ، وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فأمتنع ، وقيل بذل له ألف دينار على أن يأكل القول فلم يفعل - والصابئون يحرمون القول والجمام - ولكن حرصه على دينه لم يحل بينه وبين التحلي بأكرم الخصال في رعاية الاسلام : فقد كان يصوم رمضان مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه لهم ، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه . وفي هذا أصدق الدلالة على أن الرجل كان سليم النوق ، كريم الطبع ، تجافت نفسه عن معاداة الاسلام وترفع قلبه عن إسمار البغض للمسلمين . وفي حفظه القرآن كفاية لعصمة روحه من وضر الشرك وقبح الزينج ، فأت القرآن أقوى ما عرفنا من الآثار الأدبية في حمل حافظه على الأنس به والخضوع له والتسليم بما يدعو اليه من صدق الايمان . والصدقة الروحية أقوى الصداقات : فقد نجد عند أنصار اللغة العربية من مختلف الديانات

روحا إسلاميا عاليا يسمو بلفظه وكرم جوهره عن أرواح كثير من وقع إسلامهم في ظل الأوضاع والتقاليد . وقد يظن أن لا حاجة إلى مثل هذه الوقفة عند الكلام عن مجاملة الصابي للصائين ، لولا أنى أرى فيها مظهرا كبيرا من نبيل النفس ، وعظمة الروح . فليس باليسير أن يسمو الرجل عن الأحقاد الصغيرة التي يوجبها اختلاف العقائد ، وليس من السهل أن يصل الرجل إلى حقيقة العظمة الروحية حين يرى القرآن أجل من أن يعادى ويراها لذلك جدرا بالحفظ والإجلال .

٣ — وقد جوزى الصابي على هذا الرفق أجهل جزء ، فصحت له صداقة الشريف الرضى إمام الأشراف في عصره ، وأصدق شاعر أفصح عن نوازع الوجدان . ومهما قدرنا الظروف التي جمعت بين الشريف الرضى وبين الصابي وأقترضا ما شئنا من أسباب الوفاق السياسي الذي جعل من الصابي نصيرا للشريف<sup>(١)</sup> فلن نستطيع أن ننكر أن لوفاء الصابي وكرم تحيزه وطهارة قلبه أكبر الأثر في التوفيق بين تينك النفسين العاليتين ، ويكنى أن يعرف القارئ أن الشريف الرضى بكى الصابي حين مات بقصيدة تعد من روائع شعره ، قصيدة طويلة بلغت ٨٢ بيتا ، وهي في طولها محكمة النسيج ، جيدة السبك ، تنبئ عن لوعة صادقة وحزن عميق . ومن الخير أن نشير إلى أن الرضى صور في تلك القصيدة جانين من أهم الجوانب في بكاء مثل ذلك الفقيه : الأول حزنه لفقده ، والثاني نكبة الأدب في ذلك القلم البلج . ولننظر كيف صور حزنه وتضجعه في قوله :

بُعْدًا لِيَوْمِكَ فِي الزَّمَانِ فَإِنَّهُ	أَقْدَى الْعِيُونَ وَفَتْ فِي الْأَعْضَادِ
لَا يَنْفَدُ السَّمْعُ الَّذِي يَكْبِي بِهِ	أَنْ الْقُلُوبَ لَهُ مِنَ الْأَمْدَادِ
أَعَزَّزَ عَلَىَّ بِأَنْ أَرَاكَ وَقَدْ خَلْتَ	مِنْ جَانِيكَ مَقَاعِدَ السَّوَادِ
أَعَزَّزَ عَلَىَّ بِأَنْ يَفَارِقَ نَاطِلِي	لَمَعَانِ ذَلِكَ الْكَوْكَبِ الْوَقَادِ
أَعَزَّزَ عَلَىَّ بِأَنْ نَزَلَتْ بِمِثْلِ	مُقَشَّابِهِ الْأَمْجَادِ وَالْأَوْغَادِ

الى أن يقول :

يا ليت أنى ما أقتنيتك صاحباً      كم قُنية جلبت أسى لغواذى  
برد القلوب لمن تحب بقاءه      مما يحمر حرارة الأكباد  
ويقول من لم يدركنك منهم      قصصوا به علدا من الأعداء  
هيمات أدرج بين برديك الردى      رجل الرجال وأوحد الاحاد

ويقول فى تلليل ما كان بينهما من الود، على بعد ما بينهما من الأصول والأنساب :

الفضل ناسب بيننا أن لم يكن      شرقى مناسبه ولا ميلادى  
ان لم تكن من أسرق وعشيقى      فلائت أعطهم يدا يودادى  
لو لم يكن طالى الأصول فقد وفى      شرف الحدود بسؤدد الأجداد

ويقول فى الحنين الى أيامها الخوالى، وضيق الأرض بالباكى بعد ذهاب الأليف :

ليس التناث بيننا بمعاد      أبدا وليس زماننا بمعاد  
ضاعت على الأرض بذك كلها      وتركت أضيقها على بلادى  
لك فى الحشا قبر وإن لم تأوه      ومن الدموع روائح وغواذى  
سلوا من الأبراد جسمك وأثنى      جسمى يسر عليك فى الأبراد  
إن الدموع عليك غير بخيلة      والقلب بالسيلوان غير جواد  
سودت ما بين الفضاء وناطرى      وغسلت من عين كل سواد  
رى الخلود من المدامع شاهد      أن القلوب من التليل صواد  
ما كنت أخشى أن تضن بلفظة      لتقوم بذك لى مقام الزاد<sup>(١)</sup>

وفى هذه القطع التى اخترناها بيان لتلك الألفسة الوثيقة التى كانت بين ذيك الرجلين،

وقد عتب الشريف على هذه القصيدة ، واستكثر الناس عليه فى دينه وجاهه أن يبكى رجلا<sup>(٢)</sup>

(١) بحجة القصيدة فى الصفحات ٢٩٤ — ٢٩٨ من ديوان الشريف الرضى ج ١

(٢) ص ٢١ ج ١ ابن خلكان .



صابتا بمثل هذا الشعر الحزين، ولكنه أجاب بأنه إنما بكاه لفضله . وأى فضل هذا الذى ينسى الشريف الرضى منزله الدينية والاجتماعية ؟ إنه فضل ذلك الرجل المهذب الذى رأى من حسن العشرة أن يصوم رمضان ويحفظ القرآن .

أما القطعة التى وقعت فى هذه القصيدة وصفا لبلاغة الصابى فهى غاية فى الجودة ، وهى شاهد على احترام الشريف لأسلوبه وإعجابه ببراعته، ولننظر كيف يقول :

ومحائف فيها الأراقم كمن مرهوبة الإصدار واليراد  
تدبى طوائفها اذا استعرضتها من شدة التحذير والإيصاد  
حمر على نظر المدح كاتما بدم يخط بهن لا بمداد  
يقدم إقدام الجيوش وباطل أن ينهزم من هزائم الأجناد  
وتكون سوطا لفرعون إذا ونى وعنان عنق الجائع المتامدى  
ترقى وتلدغ فى القلوب وان يشأ حط التجووم بها من الأجناد

٤ - وما يتصل بنبل الصابى وسموه ورغبته فى حسن الأعدوة ورفعة شأنه بين الناس من معاصره ما وقع بينه وبين المتنبي . ذلك انه راسل أبا الطيب فى أن يمدحه بقصيدتين ووسط بينه وبينه رجلا من وجوه التجار، فقال أبو الطيب :

” قل : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولا أوجب علىّ فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبه، وأنا ان مدحتك شكرك الوزير - يعنى المهلبى - وتغير عليك، لأننى لم أمدحه ، فان كنت لا تبالى هذه الحال فانا أجيبك الى ما التمت ، وما أريد منك مثالا، ولا عن شعرى عوضا“ .

وكان الصابى عرض عليه خمسة آلاف درهم<sup>(١)</sup>، فكان المتنبي بذلك أعرف منه بمقتضيات الأحوال . وفى هذا الخبر بيان لمتزلة الصابى فى صدر رجل كالمتنبي وإشارة الى ما كان يسمو إليه من التطلع الى حظوظ الوزراء والملوك الذين ظفروا بمدائح ذلك الشاعر العظيم .

٥ - وقد نالت الدنيا من الصابي ما نالت، وطعم الصاحب ابن عباد في استقدامه إليه تشوقاً أو تشرفاً، ولكن الصابي أحتمل عنوان زمانه وظلم أيامه، ولم يتواضع للاتصال بالصاحب صلة التابع بالتبوع بعد أن كان من نظرائه في أيام الإقبال<sup>(١١)</sup>.

ومن العجيب أن هذا الإباء لم يغير الصاحب الذي حُرّف عنه الطمع المفرط في استبعاد الكتاب والشعراء، فظل يحنو عليه ويبره ويعترف بأنه أحد أربعة من كتاب الدنيا في عصره. وفي أخبار الصاحب اعتذار رقيق من الصابي عن تحفظه عن حضرة الصاحب<sup>(١٢)</sup>.

تلك الجوانب المشرقة من نفس ذلك الكاتب جعلت منه قيثارة إنسانية كثيرة الريح والحنين. لقد عرف حلو العيش ومره، فكان له بذلك أصدقاء أذناهم منه النعيم وأقصاهم عنه البؤس، وتلك أزمة يعانها كل رجل كريم النفس عرف بأماه الحياة ولينها ورأى كيف تتغير الأخلاق وتبديل النفوس. ولننظر كيف يقول في خطاب بعض الأصدقاء:

”لوحلت نفسي على الاستشفاع والسؤال، لضاق عليّ فيه المرتكض والمجال، لأن الناس عندنا، ما خلا الأعيان الشواذ الذين أنت بحمد الله أولهم، طائفتان: طائفة مجاملة ترى أنها قد وفقت خيرها، إذا كفتك شرها، وأبرزت لك رفقها، إذا أجنبتك كيدها، ومكاشفة تنزوي إلى القبيح تزو الجنادب، أو تدب ديب المقارب، فان عوتبوا حسروا قناع الشقاق، وإن غولطوا تلتذوا بلثام النفاق، والفرقان في ذلك كما قلت منذ أيام:

أيارب كل الناس أبناء طلة	أما تمتر الدنيا لنا بمصدق!
وجوهٌ بها من مضمر الغل شاهد	ذوات أديم في النفاق صفيق
إذا اترضوا عند اللقاء فانهم	قذى ليمون أو شجا لحلو
وإن أظهروا برد الوداد وظله	أسروا من الشحنة حريق
اخو وحدة قد آنستني كأنني	بها تزل في معشر ورفيق <sup>(١٣)</sup>
فذلك خير للفتى من نوائه	بمسبة من صاحب وصديق

(١) م ٧٢٧ ج ١ فهرت. (٢) م ٣٣٦٣٣٥ ج ٢ (٣) م ٣٤١٨٢٤٠ ج ١ فهرت.

٦ - وبمناسبة هذا الشعر قفز أن الصابي يمتاز بين معاصريه من الكلاب برفقة الشعر وعذوبته ، ويكاد يزع على أنه شاعر غزل ، ولهذا أهميته في تقدير كفايته الثرية ، إذا لاحظنا أن النثر الفني الذي أُعْهِم به معاصروه هو نثر شعري<sup>(١)</sup> ، لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن وفي بعض الأغراض .

ومن جيد شعره قوله في القدر الرقيق يشبه بالنصن الرطيب :

إن نحن قسناك بالنصن الرطيب فقد      خفتا عليك به ظلمنا وعدوانا  
النصن أحسن ما نلقاه مكسبنا      وأنت أحسن ما نلقاك عرياننا  
وقوله في أثر العناق :

إلى الله أشكو ما لقيت من الهوى      بمجارية أمسى بها القلب يلهمج  
إذا أمترجت أنفاسنا بالتراما      توهمت أن الروح بالروح يمزج  
كأنى وقد قبلتها بعد هجمة      ووجدى ما بين الجسوانح يلحج  
أضفت إلى النفس التي بين أضلعي      بأقاسها ننسا إلى الصدر توج  
فإن قيل لي أحترأيا شئت منهما      فإني إلى النفس الجديدة أحوج

وبدع الزمان في المقامة الجاحظية يدلنا على فهم أهل ذلك العصر للرجل البليغ ، فهو عندهم : " من لم يقصر نظمه عن ثرد ، ولم يزر كلامه بشعره<sup>(٢)</sup> " وكذلك كان الصابي : فهو يبيد في الصناعتين إجابة لم تتفق لغيره إلا قليلا .

## ١١ - رسائل الصابي

١ - أما تر الصابي فهو في الأغلب موضوعي، لأنه في أكثر الأحيان يتكلم عن شئون خاصة بالدولة التي يخدمها، ويندر أن يتحدث عن نفسه . وهي مهمة دقيقة لا يوفق إلى أدائها على الوجه الأكمل إلا الكتاب الفحول . وأول ما يروعنا من تر الصابي فناء روحه في البيئة الإسلامية التي يعيش فيها، فهو مع بخله عن الإسلام يتحدث بلفته ، وتجري تأميره وأخيلته وكأنما تستمد وحيا من القرآن ، وهو في هذا الباب مسلم أكثر من المسلمين . وإنه ليصف الله عن شأنه فيقول : " لا تحمده الصفات ، ولا تحوزه الجهات ، ولا تحصره قرارة مكان ، ولا يغيره مرور زمان ، ولا تمتلئه العيون بنواظرها ، ولا تنقيه القلوب بنواظرها ، فاطر السموات وما تظلل ، وخالق الأرض وما تقل ، الذي دل بلطف صنعه ، على جليل حكمته ، وبين بجلى برهانه ، عن خفى وحدانه ، وأستغنى بالقدره عن الأعوان ، وأستعمل بالعزة عن الأقران ، البعيد عن كل معادل ومضارع ، الممتنع على كل مطاول ومقارع ، الدائم الذي لا يزول ولا يحول ، العادل الذي لا يظلم ولا يجهور ، الكريم الذي لا يرضن ولا يخل ، الحليم الذي لا يعجل ولا يجهل ، ذلكم الله ربكم فأدعوه مخلصين له الدين " (١).

٢ - ولو أننا قارنا هذه العبارات بأمثالها مما تكلم به الشريف الرضى على لسان علي بن أبي طالب لرأينا الصابي يستقي من نفس المنبع الذي استقى منه الشريف ، ويمكننا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب ذلك المصر كانوا يميلون إلى الكلام عن ذات الله وصفاته وعن رسله وأنيائه خصوصا في المواطن التي يخاطبون فيها الجاهل . وفي ذلك دلالة على أن الروح الدينية كان لا يزال حافظا لبعض سموره الأول يوم كان يغسل ما يشاء بإلحاح الرجال .

٣ - وورود ثر الصابي في شئون ادارية ومشاكل يومية جعله غير صالح للبقاء، وكذلك نرى أكثر رسائله وعهوده مما تنبوه ميول القراء في العصر الحديث . فان الكتابات التي تنفي بمشاكل كل اليوم الحاضر وتشتغل بالمتازعات اليومية يكون حفظها في الأغلب حظ مقالات الصحف التي تصف الأزمات الوقعية ثم لا تصلح بعد ذلك لأن تكون أثرا فنيا، وإنما يقف نفعا على المشتغلين بالتاريخ . ورسائل الصابي كذلك لا تنفع في حملتها إلا من يهتمون بتاريخ ذلك العهد من عهود الدولة العباسية . وهي صريحة في أن الخلفاء كانوا لا يملكون شيئا ، وإنما يستبد بالأمر من يملك باسمهم من الأمراء والوزراء . وأى أثر أدل على ضعف الخلفاء من هذه العبارة التي وردت على لسان الخليفة الى أهل البصرة :

”وأمر المؤمنين بملككم أن عز الدولة يده التي يبطش بها، وعدته التي يعول عليها، وأمركم بالجهاد معه، والنصر له، والكون على كل مخالف عليه ومنازع له . وقد قرن أمير المؤمنين العهد في ذلك عليكم بعهد اليممة الحاصلة في أعناقكم ، وجعلكم في أضيق حرج من التقصير أو التصدير أو المراقبة أو المخاتلة ، وليس لكم صلاة ولا زكاة ولا عقد ولا مناعة ولا معاملة إلا مع طاعته والاختصاص له سرا وجهرا وقولا وفعلًا، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين وأعملوا عليه واعتمدوه واتهوا إليه“ .

٤ - فاذا تركنا ما تنفي عنه المهود التي كتبها الصابي على ألسنة الخلفاء من غلبة الديلم واستبدادهم بمصالح الدولة، وأقبلنا نتلص الحقائق الباقية من آراء الصابي وجدناها قليلة ، وأينا شهرة الرجل قائمة على أنه كان آلة ماضية في يد من كتب لهم من الخلفاء والوزراء ، والظاهر أن تأثيره من هذه الناحية كان قويا جدا، حتى استباح لنفسه أن يقول :

وقد علم السلطان أنى أمينهُ  
وكتبه الكافي السديد الموفقُ  
برأى يريه الشمس والليل أغسق  
يحمد بي نهج الملا وهو دارس  
ويفتح بي باب الهدى وهو مغلق

فيمتأى يمتأه ولقظى لقطه وعينى له عين بها الدهر يرق  
ولى ففر تضحي الملوك فقيرة اليها لدى أحداثها حين تطرق  
أرد بها رأس الجملوح فينتى وأجلها سوط الحرون فيعنى  
فلان حاولت لطفاً فناء مرقوق وإن حاولت عفا فنار تألق<sup>(١)</sup>

وقد أشار الرضى فى رثائه له الى هذه الناحية من قومه فقال :

من للولك يمز فى أعدائها بطيى من القول البلغ حداد  
من للمالك لا يزال يلبها بسداد أمر ضائع وسداد  
من للجصافل يستل رماحها ويرد رطبها بغير جلال<sup>(٢)</sup>  
من للسوارق يسترد قلوبها بزلازل الإبراق والإرعاد<sup>(٣)</sup>

٦ - وفى الحق أننا لانجد فى رسائل الصابي ما يلفت النفس اليه إلا بعض الفقرات الوصفية التى تشبه لنا رجلاً فنأنا يحكم القول، ويمجد الوصف، وهذه الفقرات قليلة أيضاً، وهى غريقة فى بلج إسبابه وتطويله هنا وهناك، فمن ذلك ما جاء فى رسالته عن المعركة التى دارت فى آمد آخر رمضان سنة ٣٦٢ بين المسلمين وبين الروم :

”وتقوم أصحابنا بها (أى بآمد) ريحون، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون، مرة تقدم بهم الآجال، ومرة تجهم بهم الأوجال : ثم تدانى الفريقان، والتقت حلقتا البطان... فثبت الطغاة اغتراراً بوفور عددهم، وعمامة عن صاحبهم وعظيم كفرهم، وأخذ الأولياء منهم بالحق، وصدقهم القتال فى المعتزك الضيق، فلما استمرت الملحمة، وعلت النعممة، ودارت رحى الحرب، واستحز الطعن والضرب، واشتجرت سم الرماح، وتصالحت بيض الصفاق، تدانى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور، وتنادى الكفار بالويل والثبور، فنكسوا على أقدامهم مجدين

(١) البتية ص ٥٠ ج ٢ (٢) الرحة : الجيش الكثير . (٣) ص ٢٩٦ ج ١ دهران الشريف

الرضى . (٤) البطان الحرام يحمل تحت الجبر، ويقال لفت حلقا البطان لا مر اذا اشتد .

في المزمعة، وأعتقوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة، وأستلجمتهم السيوف، واحتكت فيهم الختوف، وأخذ المسلمون منهم النار، وعجل الله بأرواحهم إلى النار<sup>(١)</sup>.

٧ - وقد تصفحنا رسائله غير مرة لثرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلا، ولم يستقر رأينا فيه إلا على فكرة واحدة : هي أنه كان خيرا بنفوس أهل عصره، وكان لذلك موقفا في الوصول إلى مرضاة من يخدمهم من الرؤساء، وإرهاب من يكتب في زجرهم من العصاة والتأثرين، وكان يعرف ما يصح أن يسمى " سياسة القول " يدل على ذلك قوله فيما يجب أن تكون عليه " لغة المنشورات الرسمية " فيما كتب عن المطيع لله إلى الوزير المهلهي سنة ٣٥١ :

" وإذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها، وتجهله العامة بقصور أذهانها .

وكانت أوامره - يريد أمير المؤمنين - فيه خارجة إليك وإلى أمثالك من أعيان رجاله وأمائل عماله، والذين يكتفون بالإشارة، ويحتشرون بيسير الإبانة والعبارة، لم يدع أن يبلغ من تلخيص اللفظ وإيضاح المعنى إلى الحد الذي يلحق التأخر بالتقدم، ويجمع بين العالم والمتعلم، ولا سيما إذا كان ذلك مما يتعلق بعمالات الرعية، ومن لا يعرف إلا الظواهر الجلية، دون البواطن الخفية، ولا يسهل عليه الانتقال من العادات المتكررة، إلى الرسوم المتغيرة، ليكون القول المشروح لمن برز في المعرفة مذكرا، ولمن تأخر فيها مبصرا، ولأنه ليس في الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين في صدورهما، ولا أن يقتصر على اللاحقة الدالة في مخاطبة جمهورها، حتى إذا استوت الأقدام بطوائف الناس في فهم ما أمروا به، وقفه ما دُعوا إليه، وصاروا فيه، على كلمة سواء، لا يعترضهم شك الشاكين، ولا استنابة المستبرين، اطمانت قلوبهم، وأنشروحت صدورهم، وسقط الخلاف بينهم، وأستمر الاتفاق فيهم، وأستيقنوا أنهم موسوسون على استقامة في المنهاج، وعمرسون من جرائر الزيف والأعوجاج، فكان الاتقياد منهم وهم دارون عالمون، لا مقلدون مسلمون، وطائعون مختارون، لا مكروهون

مجبون .

٨ - على أن في الرسائل التي كتبها عن الخلفاء فقرات تعومني الرسائل الاخوانية، وتجري فيها المعاني طليقة رقيقة كأفئاس العتاب، فقد كتب عن الطامع لله الى عضد الدولة يقول :

”أما بعد فإنك من المنزل العالية عند أمير المؤمنين بحيث يقتضيه تأهيله إياك لها، وإنافته بك إليها، ألا يصبر منك على حدوث قطيعة، ولا يفضى لك على اعتراض جفوة، ولكنه يوجب في الحقوق بينه وبينك، والأواصر المتهمة عنده لك، أن يحرم صفوة الحال عما يشوبها، وينفيها مما يسيبها، ويتناك الى أن تعود من ذاك الى ملازمة طبعك السليم، وسنك المستقيم، ويعتقد أنك منه كالعين الناضرة التي تصان عما يهذيها، واليد الباطشة التي تحفظ عما يدويها“ .

غير أني لاحظ أن هذه الفقرة استغلال لقول ابن الرومي في العتاب :

لا أجازيك من غرورك إياي غرورا وقيت سوء الجزاء  
بل أرى صدق الحديث وماذا لك لخل عليك بالإغضاء  
أنت عني وليس من حق عني غش أجهانها على الأعداء

ومن المعاني الوجدانية قوله على لسان عز الدولة وقد نقلت ابنته المزوجة بعدة الدولة أبي تغلب إليه بالموصل :

”قد توجه أبو النجم بدر الحرمي وهو الأمين على ما يلحظه، الوقت بما يحفظه، نحوك ياسيدي ومولاي أدام الله عزك بالوديعه، وإنما نقلت من وطن الى سكن، ومن مفرس الى ممرس، ومن مأوى برّ وانطلاف، الى مثوى كرامة والطف، ومن منته دزت لها نهماؤه، الى منشأ يحود عليها سماؤه، وهي بضعة مني آفصلت إليك، وعمره من جني قلبي حصلت لديك، وما بان عني من وصلت حبله بحبلك، وتنجيت له بارع فضلك، وبزائه المنزل الرحب من جميل خلافتك، وأسكتة الكنف التسيح من كرم شيك وطرائك، ولا ضياع على ماتضمه أمانتك، ويشتمل عليه حفظك ورعايتك“ .



وقد لاحظ مؤلف اليتيمة أن الصابي استمدّ روح هذا الخطاب مما كتبه جعفر بن محمد ابن ثوابة عن المعتضد الى ابن طولون في ذكر ابنته قطر الندى المقتولة إليه<sup>(١)</sup>.

٩ - ومما لاحظناه على الفقرة السالفة وما لاحظناه التالي على الفقرة الأخيرة يظهر بوضوح أن الصابي كان يمتهد في استغلال ما ترك الأولون من بدع المنظوم والمشور بطريقة ساحرة خفى بها على أكثر معاصريه ما أخذ من روائع الأدب القديم.

١٠ - وبالرغم من المؤاخذات التي واجهنا بها ثر الصابي فلنا نتعرف بأنه نجح في ناحيتين :

الأولى - ظهوره بمظهر التفوق في لغته الفنية الزائرة التي وسعت ما وسعت من ضروب التعابير والأخيلة والصور في الموضوعات الكثيرة التي جرى فيها قلمه ، فلنا لا نكاد نجد يكرر معنى أو يعيد لفظاً إلا في أحوال قليلة تفتقر لكاتب يحمل على القول ويساق الى البيان ، وكتابته مع ما فيها من التزام السجع سهلة مقبولة يقل فيها التكلف ويغلب عليها الطبع .

الثانية - سعة حيلته في التوفيق بين الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد كان عصره عصر اضطراب وفوضى ، وكان من السير تحديد ما يصلح في التخاطب بين تلك القوى المختلفة التي كانت تتنازع الجاه والسلطان وتعرف كيف تحاك الدسائس وتنصب الأشرار ، وكان يزيد في حرج الصابي ودقة موقفه أنه كان مسئولاً عما يصدر من ديوان الرسائل ، فكان لذلك الحرج وتلك المسؤولية أثراً قوياً في رياضة نفسه وتوجيهها الى حسن التدبير فيما تقضى به تكاليف منصبه الخطير . على أن ذلك الحزم لم يلزمه في جميع الظروف : فقد وقعت في إحدى رسائله لفظة عثها عضد الدولة تعريضا به ، وأسرعا في نفسه إلى أن ملك العراق غلبه وأستصفى أمواله<sup>(٢)</sup> . وقضى لذلك بقية أيامه في عسر دائم أنشاه ما مر به من طيبات الحياة .

(١) ص ١٩١ ، ١٩٢ ج ١ يتيمة - (٢) ص ٣٢٧ ج ١ يافوت .

## ١٢ - أبو عامر بن شهيد

آل شهيد — حياة أبي عامر وصياوته — خبره من المرض — وصاياه الميزة

١ - "ابن شهيد" اسم يطلق على عتة رجال من أعلام الأندلس ، ينسبون إلى شهيد بن عيسى بن شهيد ، مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وكان من سبي البرابر ، وقيل إنه رومي<sup>(١)</sup> . وأشهر بن شهيد أبو عامر أحمد بن عبد الملك ، وهو حفيد ابن شهيد وزير الناصر عبد الرحمن الأموي ، وكان ابن شهيد الوزير معروفاً بالدهاء وحسن التدبير ، وكان كذلك من أجمع الشعراء ، وهو الذي يقول :

ترى البدر منها طالما فكأتمما      يحول وشاحها على لؤلؤ رطب  
بعيدة مهوى القروط خطفة الحشى      ومقعدة الخللخال مقعدة القلب<sup>(٢)</sup>  
من اللأى لم يرحلن فوق رواحل      ولا صرن يوماً فى ركاب ولا ركب  
ولا أبرزتهن المدام لنشوة      وشدوكا تشدو القيان على الشرب<sup>(٣)</sup>

٢ - ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ ، وقد ورث عن أجداده القرام بمظاهر الصبوة والفتوة ، والشغف بملاعب الحسن والجمال ، ولم يقتله أن يظفر بما ظفر به أجداده من أسباب الجلاء والمسال والمهلك ، لأن ثقل سمعه حجبه عن الاتصال بالملوك والوزراء ؛ ولكنه آفاد لشبابه وهواه ، وأسلم زمامه لفطرتيه وطبعه ، بغاء شعره وتمره فى أعلى درجات البيان .

(١) قتح الطيب ص ٣١ ج ٢ طبع ليدن .

(٢) قتح الطيب ص ٢٤٦ ج ١

(٣) القلب بالضم سوار المرأة ، والمقيم بالثقاف من القيم بالتحريك ، وهو كما نص الفيروزابادى ميل وادخاع فى الألبين ، والمراد هنا وصف السواد بالغبين لامتلاء الحاسم .

ما كنّ يجتمن على الشراب . (٥) أنظر التخرية ص ١٢٣ ج ١

(٤) فى هذا البيت إشارة الى أن الحراز

٣ - كان هم أبي عامر أن " يعيش " ولذلك أجمع من عرضوا لذكره على وصفه بالتهتك<sup>(١)</sup>.

والعيش في عرف أبي عامر بن شديد، هو مجموعة من الحسن والنمر والأديب؛ فالحياة عنده وجه أصبغ، أو كاس مترعة، أو رسالة أنيقة، أو قصيدة بديعة، فان خلت الدنيا من بعض ذلك فهي لنور وفضول، وعيش الأديب فيها عبء ثقل.

وماظن القارئ برجل بيت في الكائنات لينم بما فيها من النمر العتيق والحسن الطريف، ثم يقول في وصف القسيس والدير والرهبان :

ولرب حانٍ قد شمتت بديره	نهر الصبا مزجت بصرف عصيره
في قبة جعلوا السرور شعارهم	متصاعرين تخشعاً لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا	يدعو بعود حولنا بزوره <sup>(٢)</sup>
يهدي لنا بالراح كل مخفر	كالخشف خفزه التماخ خفيه <sup>(٣)</sup>
يتناول الظرفاء فيه وشربهم	لسلانه والأكل من خثيره <sup>(٤)</sup>

أو يتعرض بخارية من أهل قرطبة ذهب للصلاة ( وأمامها طفل لما كأنه غصن آس أو طي يرح في كاس ) فتصرف مروعة خشية أن يفضحها بشعره، فيتبعها ويقول :

وناظرة تحت طي القناع	دعاها إلى الله بالخير داعي
سمت خفية تبغى متزلا	لوصل للتبسل والاقطاع
بغامت تهادى كمثل الرعم <sup>(٥)</sup>	تساغى غزالا بروض البقاع <sup>(٦)</sup>
وجالت بموضعتنا جولة	قفل الربيع بتلك البقاع

(١) وصفه صاحب قمع الطيب (بالمتهك في بطلانه) ص ٣١٩ ج ١ وتحقت عنه صاحب النخبة فقال: (أبو عامر ابن شديد في الطرائف، كان قرطبة في دقة وبراعة ظرفه خليما المتهك في بطلانه، وأجيب الناس تفاوتا بين قوله وضله، وأحطهم في هوى نفسه، وأحكتهم لمرسته، وأجرأهم على خالفه) ص ٢٦ ج ١ (٢) المخفر: المتنوع، وانكشف بالتبليط ولد الغلي. (٣) وأجمع قمع الطيب ص ٣٤٥ ج ١ (٤) الرعم: الطية الأثوف. (٥) والبقاع ما ارتفع من الأرض.

أَتَقْنَا تَجَخَّرَ فِي مَشِيمَا      غَلَّتْ بِوَادٍ كَثِيرِ السَّبَاعِ  
وَرَبَّتْ حَذَارًا عَلَى طِفْلَهَا      فَنَادَيْتُ يَا هَذِهِ لَا تُرَاقِبِي<sup>(١)</sup>  
غَزَاكَ تَمَرَّقَ مِنْهُ اللَّيْثُ      وَتَصَاعَ مِنْهُ كِبَاةُ الْمَصَاعِ<sup>(٢)</sup>  
فَنَوَلْتُ وَلِلْسَكِّ فِي ذَيْلِهَا      عَلَى الْأَرْضِ خَطَّ كَذِيلِ الشَّجَاعِ<sup>(٣)</sup>

٤ - وكان مع تهتكه كريم النفس محمود الانحلال حتى لتراه أشرف الناس إذ يقول :

إِن الْكَرِيمَ إِذَا نَالَتْهُ مَخْصَةٌ      أَبْدَى إِلَى النَّاسِ شِعْمًا وَهُوَ طَيَّانٌ<sup>(٤)</sup>  
يَجْنِي الضَّلُوعَ عَلَى مِثْلِ اللَّفْلِ حَرْقًا      وَالْوَجْهَ غَمْرًا بِمَاءِ الْبُشْرِ مَلَانٌ

أَوْ حِينَ يَقُولُ :

أَلُمْتُ بِالْحُبِّ حَتَّى لَوْ دَنَا أُجَيْلٌ      لِمَا وَجَدْتُ لَطْعَمَ الْمَوْتِ مِنَ أَلَمِ<sup>(٥)</sup>  
كَلَالِ النَّدَى وَالْهَوَى قَدَمَا وَلَمْتُ بِهِ      وَبَلَى مِنَ الْحُبِّ أَوْ بَلَى مِنَ الْكَرَمِ

وذكر ابن حيان أن أبا عامر ( كان من أصح الناس رأيا لمن استشاره ، وأضلهم عنه في ذاته ، وأشدتهم جناية على حاله ونصابه ، وكان له في الكرم والجود أنهمالك مع شرب وبطالة حتى شارف الإملاق ) .

ومن العجيب في تشابه المخطوط أن النقاد الفرنسيين يصفون (لافتين) بهذا الوصف ؛ فيذكرون ( أنه كان من أصح الناس رأيا لمن استشاره ، وأضلهم عنه في ذاته ) ، وما أكثر ما يتشابه رجال الأدب في سوء الحال !

- 
- (١) النكاة جمع كنى وهو الشجاع ، والمصاع العرب بالسيف . (٢) الشيع : القزمن الحيات .  
(٣) طيان : من الطوى وهو الجوع . وفي رواية أخرى ( ربا وهو غلمان ) : أظهرها مش الضح ص ٤١٠ ج ١  
(٤) وفي رواية : أخرى « كلفت بالحب » . (٥) وفي رواية أخرى « وذادلى كرى عنى ولت به »  
وهي أفصح من الرواية الثالثة « رواقى كرى » . (٦) القصيدة ص ٢٩٤ ج ١  
(٧) استطاع Le Fontaine أن يكون أحكم الناس ، وأن يفرض حكمه في شعره على الفرنسيين من شباب وكهول ، وأن يظل في طليعة الحكماء على اختلاف الأجيال ، ولكنه يجز عن التفكر باستقامة الخلق في حياته الشخصية : فلم يكن زوجه ولا ولده من رعايته نصيب . وسبحان من تتفرد بالكمال !

٥ - قلت : إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حبا شديدا ، وكان يرى العيش كل العيش في معاقرة الجبال والصحباء ؛ فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشد الناس إحساسا بكرامة الموت ، وقد بلغ من تفرغه أن<sup>١</sup> شعر معاصروه جميعا بألمه وأمتعاضه وتهالكه على التثبث بأذيال الحياة .

قال ابن بسام : " ولما طال بأبي عامر ألمه ، وتزايد سقمه ، وظل عليه الفالج الذي عرض له في مستهل ذي القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، لم يعد له حركة ولا تقلب ، وكان يمشي الى حاجته على عصا مرة ، وأعتادا على انسان مرة ، الى قبل وفاته بعشرين يوما فانه صار حجرا لا يبرح ولا يتقلب ، ولا يحتمل أن يحرك لعظم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم بقتل نفسه<sup>(١)</sup> .

فلتصور قسوة المرض التي تحمل رجلا كابن شهيد على التفكير في الانتحار ، ولتقرأ محزونين قوله في ذلك :

أنوح على نفسي وأندب نبلها	إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها
رضيت قضاء الله في كل حالة	على وأحكما تيقنت عدلها
أظل قيد الداء تجنبني العضا	على ضعف ساق أو هن السقم رجلها
ألا رب خصم قد كفيت وكربة	كشفت ودار كنت في المحل وبلها
ورب قريض كالجرىض بعته	الى خطبة لا ينكر الجمع فضلها
من مبلغ الفتان أن أخاهمو	أخو فكة شفاء ما كان شكلها
عليكم سلام من فتي عضه الردى	فلم ينس عينا ثبتت فيه نبلها
يبين وكف الموت يطلع نفسه	وداخلها حب يهون نكلها

ولم يفت ابن شهيد أن يظل على عنف المرض ظريف الحس والروح ، فقد حدث أبو بكر المصنفى قال :

(١) الذخيرة ص ١٦٥ ج ١ (٢) الجريض بالجيم الرقيق ، وهي في نسخة الذخيرة بالحاء المهملة .

دخلت يوما على أبي عامر بن شهيد، وقد ابتدأت علته التي مات منها، فأنس بي وجرى الحديث الى أن شكوت له تجني بعض إخواني عليّ ونفاره عني، فقال: سأسعى لإصلاح ذات البين. فاتفق لقائي لذلك المتجني مع بعض إخواني وأعزهم عليّ، فلما رأي موليا عن ذلك الصديق أنكر عليّ وسأل عن السبب الموجب. فأخبره وزادا في مشيها حتى لحقاني، وعزم عليّ في تكليم صاحبي، وتعاينا عتابا أرق من الهوى، وأشهى من الماء على الظأ، حتى جثنا دار أبي عامر، فلما رأنا جميعا ضحك وقال: من كان تولى إصلاح ما سررنا فساداه؟ قلنا: قد كان ما كان! فاطرق مليا ثم أنشد:

من لا أسمى ولا أروح به أصلح بيني وبين من أهوى  
أرسلت من كيدى الهوى فدرى كيف تدأوى مواضع البلوى  
ولى حقوق في الحب ظاهرة لكننى إلهى بعدها دعوى<sup>(١)</sup>

وحدث المصحفى أيضا قال: دخلت عليه يوما في تلك العلة ومعى غلام وسيم من إخواننا، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فينا فره، حتى خاطب أبو عامر بعض إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه، فقال له ذلك الغلام: هجوتنى يا أبا عامر دون أن تثبت في أمرى، ولا تعلم من سرى ما يوجب ذلك، فقال: عليّ تكفيره بما يحوه من القراطيس والصدور. وكان ذلك إثر صلاة العشاء الأولى، فطفنا بالجامع ثم انصرفنا إليه فأنشدنا:

ألا بآي زائر في العثم بوجه يحمل سواد الظلم  
تكتم بالليل في ظله وهل يمكن الصبح أن يكتم  
أنى يستجير الينا به كما جاور البان وطب العثم<sup>(٢)</sup>

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فأرسل الى أبي محمد ابن حزم هذه الأبيات:

(١) القصيدة ص ١٦٣ ج ١ (٢) القصيدة بقية طريقته يجدها الفارنى في السخيرة ص ١٦٤ ج ١

ولما رأيت العيش ولَّى برأسه  
تميت أنى ساكن فى عبادة  
خيلت من ذاق النية مرة  
كأنى وقد حان آرتحالى ولم أفر  
فن مبلغ عنى ابن حزم وكان لى  
عليك سلام الله إني مفارق  
فلا تنس تأبني انا ما فقدتني  
وأبغنت أن الموت لاشك لاحقى  
بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق  
فقد ذقتها خمسين قولة صادق  
قدىما من الدنيا بلمحة بارق  
يدا فى ملهاتى وعند مضابقي  
وحسبك زادا من حبيب مفارق  
وتذكر أياي وفضل خلائي<sup>(١)</sup>

٦ - وكان ابن شهيد يشعر أنه أهل لأن يئس حين يموت، ويقول فى ذلك :

سقى الله قيانا كأن وجوههم  
إذا ذكرنى والثرى فوق أعظمى  
يقولون : قد أودى أبو عامر العلى  
هو الموت لم يصرف بأجراس خاطب<sup>(٢)</sup>  
ولم يحنن للبطن مهجة قادر  
يحمل عرى الجبار فى دار ملكه  
وليس عجيباً أن تدانت متنى  
ولكن عجيب أن بين جوانحي  
يمركنى والموت يحفر همتي<sup>(٣)</sup>  
وجوه مصابيح النجوم الزواهر  
بكوا بعيون كالسحاب المواطر  
أقلوا فقدما مات أبناء عامر  
بلغ ولم يمطف بأنفاس شاعر  
قوى ولا للضعف مهجة صابر  
ويهو بنفس الشارب المتساكر  
يصدق فيها أولى أمر آخرى  
هوى كشرار الجسرة المتطاير  
ويحتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقاً عجيب، فان ابن شهيد ظل يتلف فى أيام علته المهلكة الى محبوب له اسمه عمرو، وكان حبه له مشهوراً يعرفه القريب والبعيد، ولنتظر كيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفارق المشتاق :

(١) انظر جواب ابن حزم على هذه الايات فى ص ١٦٦ ج ١ من الفخيرة .  
(٢) التلطب : (٢) انطاب :  
التلطب وهى قفلة غيلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ، وهى أكثر موازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر .  
(٣) يحفر : يقطع .

أقر السلام على الأصحاب أجمعهم      وخصَّ عمراً بأزكى نور تسليم  
وقل له يا أعز الناس كلهم      شخصاً على وأولاهم بتكريم  
الله جارك من ذى منعة ظفرت      منه الليالى "بإلف" غير مظلوم  
ما كان حبيبك إلا صوب غادية      طيباً وحاشا بحبي فيك للوم  
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا      فقد رضيت حماك الله تقديمي  
عشنا رقيقين فى بر الهوى زمنا      حتى زقا بنوانا طائر الشوم  
فشتت نوب الأيام ألفتنا      قمرنا ولم يفننا طيبي وتجمي

وحسب القارئ أن يعلم أن آخر شعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيها ودع  
إخوانه ومحبيه آخر وداع :

أستودعُ الله إخواني وعشرتهم      وكلَّ خرق إلى العلياء سَبَّاق<sup>(١)</sup>  
وفتية كنتجوم الغرب نيرهم      يهدى وصلبهمو يردى بأحراق  
وكوكبا لي منهم كان مغربه      قلبي ومشرقه ما بين أطواق  
الله يعلم أنى ما أفارقه      إلا وفى الصدر منى حرمشتاق  
فان أعتش فلعل الدهر يجعنا      وإن أمت فبسيقه الردى الساق  
لا ضيع الله إلا من يضيعه      ومن تخلف فيهِ غير أخلاق!  
قد كان بردى إذا ما مسنى كلف      لا يشلم الحب آدابى وأعراف  
إني لأرمقه والموت يضغطني      فأقتضى فرجة ترتد أرماف

ثم أوصى أن يدفن بجانب صديقه أبى الوليد الزجالى ، ويكتب على قبره فى لوح رخام  
هذه الكلمة :

"بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو نبأ عظيم أتم عنه معرضون . هذا قبر أحمد بن عبد الملك  
ابن شهيد المذنب ، مات وهو يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده

(١) انخرق بالكسر : السحق أو الضرب فى سخامة ، والنقى الحسن الكريم الخليفة .



ورسوله ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . ومات في شهر كذا من عام كذا .

ويكتب تحت هذا النثر هذه الأبيات وهو يخاطب بها صديقه المدفون :

يا صاحبي قم فقد أطلنا	أنحن طول المدى هجود!
فقال لي : لن تقوم منها	ما دام من فوقنا الصعيد
تذكر كم ليلة نعمنا	في ظلها والزمان عيد
وكم سرور همي علينا	بمخابه ثرة تجود
كل كان لم يكن تقضى	وشؤمه حاضر عتيد
حصله كاتب حفيظ	وضمه صادق شهيد
يا ويلنا إن تنكبنا	رحمة من بطشه شديد
يارب عفوا فأنت موئى	قصر في شكره العيد

قال ابن بسام : وكان أبو عامر كثيرا ما يخشى صعوبة الموت ، وشدة السوق ، فيسأل الله عليه ، وما زال يتكلم ويرغب الى الله أن يرفق به ، ويكثر من ذكره ، وقد أيقن بفراق الدنيا ، الى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة . ولم يشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والمويل .

## ١٣ - نثر ابن سريـد

١ - اتفق من ترجحوا لأبن شهيد على وصفه بالبراعة في الانشاء، فقال ابن حيـان :  
 "كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنته ، وكيف يمر  
 في البلاغة رسته ، قلت عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في إبانـه ، والعجب منه أنه كان يدعو  
 قريحته لما شاء نظمـه وثره في بـسته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء  
 لكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ، فانه لم يوجد له — رحمه الله — فيما بلغنى  
 بعد موته — كتابٌ يستعين به على صنعه ، ويشعذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك  
 في عجائبه ، وإعجاز بدائمه ، وكان في تقيق المزمل والنادرة الحاذقة أقدر منه على سائر ذلك .  
 وشعره عند أهل النقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة  
 في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزل ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وأبقاها  
 في الناس خالدة . وكان في سرعة البديهة وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشي كلامه ،  
 وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه <sup>(١)</sup> .

● وقال الثعالبي : " فتره في غاية الملاحه ، وشعره في غاية الفصاحة " <sup>(٢)</sup> .

وقال ابن بسام : " وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ،  
 ونوادره القصار والطوال ، وتعريضاته السائرة الأمثال ، ما يحل له الوقور حباه ، ويمن معه  
 الكبير إلى صباه " <sup>(٣)</sup> .

وقال الخطاط وهو يهاجمه : " الإسهاب كلفة ، والايجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام  
 يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثرا ، ويطيل نظما ، شاعنا بأنفه ،

(١) النخبة ص ٩٤ ج ١ (٢) اليتمه ص ٣٩٤ ج ١ (٣) النخبة ص ٩٤ ج ١

ثانياً من عطفه، خيلاً أنه أحرز السبق في الآداب، وأوى فصل الخطاب، فهو يستصغر أساتيد الأدباء، ويستجمل شيوخ العلماء .

وابن اللبون إذا ما لُز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس<sup>(١)</sup>

وهذه الآراء التي قلناها عن ابن حيان والثعالبي والحناط تمثل رأى جمهور الناقدين في ابن شهيد، وتدلتنا على أنه شغل الناس حيناً من الزمان. ولو انتقلنا الى رأيه في نفسه لرأيناه مفتوناً أشنع الفنون بما أعقده من إجادة النظم والتشير، والتفوق البالغ على كتاب المشرق والمغرب . وقد آن أن يوزن ثره بمقيار النقد ليعرف ما فيه من الزائف والصحيح .

٢ — سئل أبو الملاء المعري رأيه في شعر ابن هاني، الأندلسي فأجاب : ”رعى تطحن قرونا“ وهو جواب يحذق وذكاء، فضلاً عما فيه من روعة التصوير . وأخشى أن يكون الأمر كذلك في ثراين شهيد، فهو في الأكثر جججة وقعقة وقفلقة في غير رفع ولا غناء . ويسوءنا والله أن يكون ذلك مانراه في ثر ذلك الرجل الذي نعتقد فيه دقة الفهم، ورقة الطبع، وسلامة الذوق، ولكن ما الحيلة وقد قلبنا ثره على وجوهه، وراجعنا ما بقى منه أكثر من عشرين مرة، فلم نزد إلا اقتناعاً بأنه كان في إنشائه من المتكلفين .

٣ — وربما كان من أسباب الالتواء الذي نشهده في ثراين شهيد غرام الرجل — كان — بمقارعة كتاب المشرق، ومواجهة كتاب المغرب بألوان من الفن كان لها في زمانه بريق يعشى العيون . وكان الثر في ذلك المصرقد أخذ يتنافس الشعر منافسة جدية، واستطاع ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل مجبرة موشاة، تؤدى في عالم النثر ما كانت تؤدى القناص في عالم الشعر، فوقع له مع الافيليل والحناط وغيرهما منافرات كان لها في مجالس المغرب دوى شديد . هذا مع أن الرجل كان من محول الشعراء، وكان يستطيع أن يقارع خصومه بالشعر، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيد به عهد الأخطل والفرزدق وجمرير

(١) الذخيرة ص ٢٢٢ — والبزل جمع بازل وهو البير يبلغ تسع سنين، والقناعيس جمع قنصا بالكسر وهو العظيم من الإبل، ومن الرجال الشديد المنع .

من شعراء المهجاء ، ولكنه أراد أن يجي في بلاده معارك ثرية كالمعارك التي كانت تقع في الشرق بين أمثال الخوارزمي وبديع الزمان . وفي هذا إغناء للنثر وسعى إلى إمداده بمختلف المعاني والأغراض ، ولكنه آنحدر بالنثر إلى موضوعات لا يصلح لها إلا قليلا ، فان المهجاء كما تسيغه الطبيعة العربية لا يؤدي إلا باليت السائر أو الكلمة الشروء .

٤ - ومع ما في نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فانه يغرى القارئ بالبحث عما فيه من نتائج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التي يوقن المتطلع بأن فيها كنوزا ، فلا يزال يقلب أكياس الخزف والتراب حتى يصل الى بعض ما ينشد من الذهب الدفين .

ومن أمثلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نخاعة قرطبة ، ويقرع أبا القاسم الافليل فلم يقل شيئا ذا بال ، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة في وصف الافليل :

” ليست مشيته مشية أديب ، ولا وجهه وجه أريب ، ولا جلسته جلسة عالم ، ولا أنفه أنف كاتب ، ولا نغمته نغمة شاعر <sup>(١)</sup> “ .

٥ - غير أن ابن شهيد لا يظل في جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فإن له أحيانا يفصح فيها وبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

” من عز بز ، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار ، جدك ، وحسام نبا ، وآمال تفترقت أيدي سبا . كلمات أثمرها عليك ، وآمال أصرفها إليك . كما قبل أن ترمي بنا النوى مرامها ، وتلق علينا الخطوب مراسها ، وتمخضنا الأيام غمضا ، وتركض بنا الليالي ركضا ، تربى حجة ، وحليق صبوة ، قد تخلينا عن الأنساب ، وآتسبنا الى الآداب ، والدار إذ ذاك صقب ، والمتلق كشب ، والزمان غير ، وحواصلنا صفر ، تترنم ترنم الحسام ، على زرق الجسام <sup>(٢)</sup> ، ثم ألفت الأيام علينا بكل كل ... .. فنشترنا بكل في عبق ، وأفق صديق ، ونفحت

(١) الصغيرة ص ١٢٣ ج ١ (٢) الجلام : المياه الكثرة ، والمقدريم ، وهو في الأصل الكبير

عليك رياح السد ، وجادتك المني من تامة ونجد ، وامنطيت ظهر الجوزاء ، واقترشت لبدة العواء<sup>(١)</sup> ، وكلما دعيت للترال والعراك ، ترست بالثريا وطعنت بالسماك ، فزعت منكب الدهر ، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء ، وحيدتك عن رطية قدم الإخاء ، أن تركت المخاطبة ، وأضربت عن المكتبة ، خشية أن يكون كلنا عليك ، ورغبنا فيا لديك ، وهيمات ! يابى ذلك كرم محض ، وهمة علياء نالها خفض ، ثم قلت : الحبل على حسن الظن أجمل ، والقضاء بأكرم العهد أقبل ، قد يشغل الرؤساء ، ويجاذب العقلاء ، وعينه مع ذاك راعية ، وأذنه واعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا باللمداد ، والاتقاء بالحلوم ، لا بالجسوم ، فانطويت على ود ، وثبتت على محبة عهد ... الخ<sup>(٢)</sup> .

وهذا ثم مقبول ، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوسع قليل . وأوضح منه وأفصح قوله يصف إحدى المناقرات :

” لما قدم زهير الصقلي قتي بنى عامر ، حضرة قرطبة من المرية ، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أمهاتنا منهم ابن برد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبقي ، فسألهم عنى وقال : وجهوا عنه ، فوافاني رسوله مع دابة له بسرج محلى ثقيل فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولى وقاموا جميعا إلى ، حتى طلع أبو جعفر علينا ، ساجدا لذيل لم ير أحد يحبه قبله ، وهو يزعم ، فسابت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فرد رد الطينان ، فسابت أن أنفه نمرة لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تراض إلا بمستهكم النظام ، فرأيت أمهاتى يصيحون إلى ترنمه ، فسألتهن عن ذلك فقال الحناط — وكان كثير الإنحاء على — جالبا في المحافل ما يسو — إلى — : الوزير حضرة قسيم من الشعر ، وهو يسألنا عن إجازته ، فسابت أنى المراد ، فأنشده ، وهو :

مرض الجفون ولثغة في المنطق

فأخذت القلم وكتبت بدنيا :

مرض الجفون ولتمة في المنطق      شيطان جرا عشق من لم يمشق  
من لى بالنع لا يزال حديثه      يذكي على الأجداد حجرة محرق  
ينبي فيليسو في الكلام لسانه      فكانه من نحر عينه سقى  
لا ينقض الألفاظ من عثراتها      ولو أنها كتبت له في مَهْرَق

ثم قلت عنهم فلم أثبت أن وردوا على، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من البديه : وسألوني أن أحمل مكاوى الكلام على اختباره، وذكروا أن إدريس هجاه وأغش، فلم أستحسن الإغشاش، فقلت فيه معرضاً إذ التعريض من محاسن القول<sup>(١)</sup>.

٦ - وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد، وحدّثنا في "التوايح والزوايح" أنه قرأها على شعراء الجن فاستجادوها، وهى رسالته في صفة البرد والنار والخطب، ورسالته في الحلواء، وكلماته في وصف جارية، ونعت الماء والتعب والبرغوث والبعوض. وهذه الرسائل في جملة ما تدل على غنى في اللغة وبراعة في الصنعة، ولكنها خالية من الروح. ونظّم أن الجن الذين استجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق في نقد الكلام، مع أنهم كانوا من أقطار مختلفة، وصاحبوا الأقداد من شعراء الحجاز والشام والعراق!

وأجود ما وقع له في تلك الرسائل "المستجادة" قوله في وصف ماء صاف :

"كانّه عصير صباح، أو ذوب قرياح"

\* وقوله في وصف البعوض :

"تقص الزائم وهى متقوضة، وتعجز القوى وهى بدوضة، ليرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خلقته"<sup>(٢)</sup>.

ورسالته في وصف الحلواء قالها تحقيراً لفقيهه نهم لقيه في المسجد الجامع، فلما طالعوا الحلواء «أضطرب به الألم، وأستخفه الشره، فدار في ثيابه، وأسأل من لعابه، وأزورّ جانبه،

(١) ما سماه ابن شهيد ترميزاً هو أيضاً إغشاش لم نر روايته لأننا لا نستعيز برواية الهجاء الفصح الذى يجرح الأدب والنوق. وفيه هذا الحديث في ص ١٥٤ من القصيرة ج ١ (٢) البنية ص ٣٩٢ ج ١

وخفق شاربه » ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصفها واحداً واحداً ، فالفالونوج  
 «مجانحة الزناير خالطها لباب الحبة ، بغاءت أطيب من ريق الأحية» والخبيص «جليد سماء  
 الرحمة ، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة ، تبحرحة المحطة ، وتدمية اللقطة» ، ثم يقول ابن  
 شهيد بعد كلام : «فأمرت السلام بابتياح أوطال تجمع أنواعها التي أنطقته ، وتحتوى على  
 ضروبها التي صرعت ، بغاء بها فوضعهما بين يديه ، فلما عاينها انحنى عليها بلبانه ، وألقى عليها  
 ببحرانه ، وجعل يركل برجليه ، ويحاشش بفخذه ، ماننا عنها ومدافعا ، فصاحت به لا عليك  
 حكما ، فجعل يقطع ويبيع ، ويوجرفاه ويدفع ، وعيناه تبصان ، كأنهما جمرتان ، وقد برزتا  
 عن وجهه كأنهما خصمتان . وأنا أقول على رسلك يا فلان ! البطنة تذهب الفطنة ! وهو  
 يقول : أكلها دائم وظلها ، حتى التقم بجامهرها ، وألحق أولها بأحرها ، فهبت منه ريح عقيم ،  
 قرن إقبالها بالعذاب الأليم ، نثرنا شذر مذر ، وفرقتنا في كل شعب شفر بفر ، فالتحنا منه  
 الظربان ، وصدق فيه الخبر البيان <sup>(١)</sup>» .

وعندى أن ابن شهيد في رسالة الحلواء عارض بديع الزمان في المقامة البغدادية ، والنكتة  
 في الرسائل متشابهة ، فهي عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكل ، وعند بديع الزمان استهزاء  
 بفلاح منهوم ، ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد ، ولننظر كيف يقول  
 وقد استدرج سواديا بالكرخ <sup>(٢)</sup> :

«فقلت : فهل إلى البيت نصب غداء ، أو إلى السوق نشترى شواء ، والسوق أقرب ،  
 وطعامه أطيب ، فاستغزته حمة القرم ، وعطفته عطفة النهم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ،  
 ثم أينت شواء يتقاطر شواؤه عرقا ، ويتسائل جودابه مرقا <sup>(٣)</sup> ، فقلت : أبرز لأبي زيد من  
 هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، وأختر من تلك الأطباق ، ونضد عليها أوراق الرقاق ،

(١) وردت رسالة الحلواء في النسخة ص ١٣٦ و ١٣٧ ج ١ وفي التبعة ص ٣٩٢ و ٣٩٣ ج ١ ، وفي التسخين  
 اختلاف شديد ، وفيها كذلك كثير من التحريف . والفقرات التي اخترناها مأخوذة مما صح لدينا نظمه على اختلاف  
 التسخين . (٢) الكرخ محلة كانت في الجانب الغربي من بغداد . (٣) الجوداب : خبز يوضع  
 في التورومعه طائر أو لحم .

وشيثا من ماء السيق<sup>(١)</sup>، لياكله أبو زيد هنيئا؛ فألقى الشواء بساطوره، على زبدة تنوره،  
 فجعلها كالكمال سحقا، وكالطين دقا، ثم جلس وجلس، ولا تبس ولا تبست، حتى استوفياه  
 وقت لصاحب الحلواء : زن لأبي زيد من اللوز بيج رطلين، فانه أجرى في الحلو، وأسرى  
 في العروق، وليكن ليلى العمر، يومى النشر، رقيق القشر، كثيف الحشو، لؤلؤى الدهن،  
 كوكبي اللون، يذوب كالصمغ، قبل المضغ، لياكله أبو زيد هنيئا . ثم قعد وقعدت،  
 ووجد ووجدت، وأستوفياه . ثم قلت : يا أبا زيد ! ما أحوجتنا إلى ماء يشمع بالطلع،  
 ليقمع هذه الصارة، ويفتأ هذه اللقم الحارة !<sup>(٢)</sup> <sup>(٣)</sup> إجلس، أبا زيد، حتى آتيتك بسقاء، يحمينا  
 بشرية من ماء . ثم خرجت، وجلست بحيث أراه ولا يراني، أنظر ما يصنع به، فلما أبطأت  
 عليه قام السوادى الى حمارة، فاعتلق الشواء بإزاره، وقال : أين ثمن ما أكلت ؟ فقال :  
 ما أكلته إلا ضيفا . فقال الشواء : هالك وآك، متى دعوناك ؟ زن يا أبا الفجة عشرين،  
 وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! فجعل السوادى يبكي ويمسح دموعه بأردائه، ويحل عقده  
 بأمانته، ويقول : كم قلت لذلك القريد، أنا أبو عبيد، وهو يقول : أنت أبو زيد ! .

وإنما أفترضنا ان ابن شهيد عارض بديع الزمان وحاكاه، لأنه كان مشغوبا بأدبه  
 ومعنيا بمعارضته، فقد حدثنا في " التوايح والزواج " أنه قابل بأرض الجح (زبدة الحقب)  
 صاحب بديع الزمان، ووجرت بينهما مصاولة انتصر فيها ابن شهيد . وهذا يدل على أن  
 رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس، وفعلت فعلها في أنفس الأدباء هناك،  
 وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين .

٧ — أما وصف الجارية الذى رضى عنه ابن شهيد، وقدمه كذلك الى شعراء الجح  
 فاستجاده، فهو رسالة فيها فقرات تم عن قلب غزل ونفس طروب، وفيها كذلك كلمات  
 طليح بمفازات الفتك والمجون، وكانت جاريته " أخت نعمة، وربيبة نعمة، كان شعرها على

(١) السيق : حب أحر منير شديد الحوضة شجرة يشبه الزمان . (٢) الصارة : الطين .

(٣) يفتأ : يسكن .



غررتها الغزاة، غراب يسفد حمامة بيضاء... تكلمك بالحفاظها ، وتأسوك بألفاظها ، تقابلك من تحتها بوردة ، ومن عينها بترجسة ، كأنما تفرها من جوهر ، وشقتها خيط حرير أحمر ، تقبل عليك بقضيب بان ، ثمرة رمانتان ، وتفتل عليك بكفل مانج ، كأنه كتيب مانج ... المنظر منظر غلام ، والمخبر مخبر قاة ، إن علوتها تدفعت اليك ، أو علتك تداركت عليك ، وإن أعطشتك فراشها سقتك من شراب ، إن شئت قلت نعمة أو رضاب ، أو أجاعك عراكمها أطعمتك من لسان ، يصل اليك وصول الإيمان <sup>(١)</sup> .

٨ - ورسائله عن النار والحطب تمثل فرع أهل الأندلس من البرد ، ولكنها ، كأكثر ما كتب ، منقولة بالصنعة ، خالية من الروح . وهي رسالة مهداة الى صديق فحبه بأحمال من الحطب الجزل - والحطب مما يهدى في تلك البلاد لما يعانى أهلها من قسوة الشتاء - ولننظر كيف يصور أصحاب النار بالوقود :

”حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة... فجعلتُ يجني حطباً دل على نفسه ، وتشظى من يسه ، فسلطت عليه صاحب الشرر ، ورمته منها بنات الحديد والجحر ، فواقعه قليلا ، وعاركه طويلا ، فكان لها عجيج ، وله من حرها ضجيج ، ثم خز لها صريحا ، وآستولت عليه صعبا منيعا ، فبددت شمله وألفت شملها ، وآستحالت حية لا نستلذ قتلها ، ترمى بالوان ، وتهتد بلسان ، فلذعت البرد لذعة ، وتكرته على فؤاده نكرة ، خز لها على جبينه ، ومات بها من حينه“ <sup>(٢)</sup> .

٩ - وبعد فان ثرا بن شهيد - على ما فيه من مأخذ وعيوب - دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول ، وليس يعيه أن نراه نحن أقل من شهرته ، فانا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصره أشد الاختلاف . والنثر الفني كالشعر ، له دقائق قلما يتفق في تذوقها الناقدون . وكان للرجل في حياته نجاح مرموق ، فقد وصل ثره وشعره الى الشرق على عصر الوصول ، وتداوله المؤلفون ، وكان لا يزال من الأحياء ، وفي هذا برهان على أن الرجل أمد عصره بروحه وآستولى بقوة على عرش البيان .

(١) البتية ص ٣٩٤ ج ١

(٢) البتية ص ٣٩٠ ج ١

ولا ننس أن ثرا بن شهيد لم يصل الينا منه إلا شيء قليل ، ولم يدون منه إلا الجانب البراق ، الذي طرب له كُتاب الصنعة في المشرق والمغرب ؛ وللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول . ولو وصلت الينا حيلة صالحة من ثره الذي جرى فيه على سلقته وفطرته ، وأنحاز فيه الى فيض عقله وروحه ، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى ، وخاصة اذا لاحظنا أن رسائله في صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس دياجة ، وأسدهم رأيا ، وأصدقهم فراسة ، اذا مضى يشرح مزائق الأفكار ومزلات العقول .

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يتمتع من قلب فكره ، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبية ، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدث ابن حيان ، وذلك كان في عصر مضطرب أشنع اضطراب ، يقاسى شعراؤه وكُتابه ومتأدبوه أهوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان .

فانحمد إذن ما أسداه ابن شهيد ، فان جهد المقل غير قليل ، ولنذكر أننا نقصد وتنقص ، في سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين تازلوا الأقدار ، ورفعوا أعلامهم بين أم الصليب فوق هاءات الأسود .

فعل ذكراهم تحيةً وسلام !

## ١٤ - أبو الفضل الميطالي

١ - أسرة الميكالي أسرة قديمة العهد بالمجد في المدنية الإسلامية، وكان لهذه الأسرة كرامة وسُلطان في القرن الثالث والرابع والخامس . فقد مدحهم البحرى وخدمهم ابن دريد، ونفياً غلامهم أبو بكر الخوارزمي ؛ وبديع الزمان الهمداني، وغيرهم من أعيان الكتاب والشعراء .

وأشهر أعلام هذه الأسرة في الأدب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي المتوفى سنة ٤٣٩ هـ . وكانت له آثار كثيرة لم يبق منها إلا شذرات متفرقة في قيمة الدهر وزهر الادب وثمار القلوب . وهو يلتمز السجع والأكزدواج في رشاقة وعذوبة وآساق . وفيه يقول النعماني في مقدمة فقه اللغة :

”ومن أراد أن يسمع سر النظم، ويحضر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستشذ ما أسفر عنه طبع مجده، وأثمره على فكره، من مَلَحٍ تَمَرَجَ بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلستها، ... وأيم الله ما من يوم أسعفى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالآقتباس من نوره، والافتراق من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالاً على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألحاطه، وأتتهب فرائد الفوائد من ألفاظه، إلا تذكرت ما أنشدني أدام الله تأييده لأبن الروى :

لولا عجائب صنع الله ما نبئت تلك الفضائل في لحم ولا عصب  
وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروز آباد، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سَبَلِ  
القطر ! فانها كانت بطلعته البدرية، وعشرته العطرية، وألفاظه اللؤلؤية، وعجاسن أهواله  
وأفعاله التي يعيا بها الواصفون، أنموذجات من الجنة التي وعد المتقون، فإذا تذكرتها في تلك  
المراجع التي هي مراتع النواظر، والمصانع التي هي مطالع العيش الناضر، والبساتين التي إذا

أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طوى لها الديباج الخسرواني، ونقي معها الوشي الصنعاني، فلم تشبه إلا بشيمه، وأثار قلبه، وأزهار كلمه، تذكرت بحرا وسما، وخيرا عميا، وأرتياحا مقيا، وروحا وريحانا ونميا“ .

٢ — وأظهر الفنون التي كان يجيدها الميكالي هوفن الإخوانيات، ورسائله إلى أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتى لتحبسها رسائل عاشق لا رسائل صديق ...

وإليك قوله من رسالة :

”أيام ظل العيش رطب ، وكف الهوى رحب ، وشرب الصبا عذب، وما لشرق الأنس غرب“<sup>(١)</sup> .

وقوله من رسالة ثانية :

”إنما أشكو اليك زمانا سلب ضعف ما وهب، وبغى بأكثر مما منع، وأوحش فوق ما أنس، وعنف في نزع ما أليس، فإنه لم يبقنا حلوة الاجتماع، حتى جرعنا مرارة الفراق، ولم يمتنا بأنس التلاق، حتى غادرنا رهن التلهف والأشتياق“<sup>(٢)</sup> .

وليتأمل القارئ رقة الحنين في قوله من كلمة ثالثة :

”أنا أسأل الله تعالى أن يرد عليّ برد العيش الذي فقدته، وفسحة السرور الذي عهدته، فيقصر من الفراق أمدّه، ويعلو لقاء حكه ويده ، ويرجع ذلك العيش الذي رقت غلالته ، وصفت من الأقداء مآله، فلم أهنأ بعده بأنس مقيم، ولا تعلقت يوما إلا بعيش بهيم .  
فإن ترجع الأيام بعد الذي مضى بذى الأثل صيفاً مثل صيفي ومرعي  
شدت بأعناق النوى بعد هذه مرائر إن جاذبتها لم تقطع

وما على الله بعزيز أن يقرب بعيداً، ويبهل عسيراً، ويثقل من رق الأشتياق أسيراً“<sup>(٣)</sup> .

ومع أن صلته بأبي منصور العالي كانت صلة الأمير المفضل بالصاحب الأمين فانا نجده يكتب إليه بأجل ما يوحى الرقى والحنان فيقول :

”كناي، وأنا أشكو إليك شوقا لو عاجله الأعرابي لما صبا إلى رمل عاجل، أو كابدته الخلق لا تثنى على كبد ذات حرق ولواعج، وأدم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا، ويخرق فلا ينوى رقعا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوى الوداد، ثم يخجل عليهم بما يشفى الصدور والأكباد، قاسى القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم أستعدى على صروفه واستنجد، وأتظنى غيظا عليه وأنشد :

مضى وصى يثنى الزمان عانهُ      بعثة حال والزمان عسور  
تذكرك آمالٌ وتقضى مآربٌ      وتحدث من بعد الأمور أمور

وكلا ! فما على الدهر عتب، ولا له على أهله ذنب، وإنما هي أقدار تجري كما شاء مجريا، وتنفذ كالسهم إلى مرامها، فهي تدور بالمكروه والمحبوب، على الحكم المقدور المكتوب، لا على شهوات النفوس، وإرادات القلوب، وإذا أراد الله تعالى أذن في تقرب البعيد النازح، وتسهيل الصعب الجامح، فيعود الأس للقاء الإخوان كأتم ما لم يزل معهودا، ويحسد للذاكرة والمؤانسة رسوما وعهودا، إنه الملقى به والقادر عليه“ .

٣ --- وقد كان الميكالى يعيش أطيب العيش بين نعمة الجاه والمال ، ولكنه كان يشكو زمانه على غير ما كان يشكو البائسون من الكلاب والشرعاء، فقرأه يقول :

”يا بئى الدهر إلا ولولا بشل وصل يشرده، ونظام أنس يبتده، وغلب ظلم يحمده . ولو أبسطت فيه يدى لكسرت جناحه، وخفضت جماعه، ولكنه الحية الصماء لا تستجيب لراقى، والذئب المضال لا يشفى منه طيب ولا واقى“ .

ولنتظر قوله يتوجع لرفيق طيل :

”لو أستطعت خلعت عليه سلامتى سرايلا، وأعرته من جسمى حمة وإقبالا، فلست أنتها بالعاقبة مع سقمه، ولا أتمتع بنضارة عيشي مع شحوب جسمه“ .

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨٩ (٢) ص ٢٥٥ ج ٤ بقية . (٣) ص ٢٥٦ ج ٤ بقية .

- ولستأ نعرف إلى من كتب العبارات الآتية :

” أنا في مقاساة حر الشوق إليك كما اعتاد نحموم بخير صائب<sup>(١)</sup> ، وتذكر الاجتماع معك كما اهتر من صرف المدامة شارب ، وفي تكلف الصبر عنك كطالب جدوى حلة لا تواصل وفي القلق لفراقك كطار جؤ أعلقته الجبال . كتبت هذه الأحرف وأنا أود أن مدادها سواد طرى ، وبياضها جلدة بين عيني وأخي ، وحاملها دون سائر الناس كفى . لولا التطل باللقاء لصدعت أكياد وقلوب ، وكانت بيني وبين النوى شئون وخطوب . أنا في مفارقتك كبنات الماء نضب عنها الغدير ، ونبات الأرض أخطأه التوء المطير . لا تخارق نفسي فيك أشواقها ، حتى تخارق الحائم أطواقها “ .

٤ — وأهتم الميكالي بهذا النوع من الكتابة غرس فيه الحرص على وصف ما يرد عليه من رسائل إخوانه ، فكان قلعه من أفصح الأقلام في وصف الكتب يتهاداها الأصدقاء ، ومن أمثلة ذلك قوله :

”وصل كتاب مولاي وسیدی أبدع الكتب هوادی وأعجازا، وأبرعها بلاغة وأعجازا، نغسبت ألفاظه در السحاب ، أو أصنى قطرا وديمة، ومعانيه در السحاب، بل أوفى قدرا وقيمة ، وتاملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عيقة النسيم والعرف ، فائزة بقدياح الحسن والظرف ، مالكة لزمام القلب والطرف ؛ ولا غرو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر وهو هدف الفقر والنوادر ، وصف الذر والجواهر . واقع يمتعه بما منحه من هذه الفرر والأوضاع ، كما أطلق فيها ألسنة اللناء والامتداح “ .

٥ — ويحاب هذه البراعة كان الميكالي كريم الأخلاق ، وما ألفت ما يقول الثمالى فيه : ”وكثيرا ما أحكى للإخوان أنى استغرقت أربعة أشهر بحضرته ، وتوفرت على خدمته ، ولازمت في أكثر أوقاتي على مجلسه ، وتمطرت بغيار موصبه ، فباقة يميناً كنت غنيا عنها لو خفت إثمها أنى ما أنكرت طرفا من أخلاقه ، ولم أشاهد إلا مجدا وشرفا من أحواله ، وما رأيته أعقاب غائبا ، أو سب حاضرا ، أو حرم سائلا ، أو خيب أملا ، أو أطاع سلطان

(١) حلبت الحى دامت واشتقت .

الغضب في الحضر، أو تصلى بنار الضجر في السفر، أو بطش بطش المتعبر، ولا وجدت  
المأثر إلا ما يتعطاء، والمآثم إلا ما يتخطاه<sup>٢٤</sup>.

٦ — ونعود فنذكر أن صلة الميكالي بأصدقائه وألأفه انتهت أجزاء نفسه بحيث يمكن  
رجع أدبه إلى المعاني النفسية التي توحى بها الصداقة والألفة والحب، فأدبه مقسم بين كتاب  
شوق، أو رسالة عتب، أو كلمة توجع، أو خطاب اقتضاء، أو مالكة تهتة، أو نيقة شاء  
والظاهر من كلام عمر المطوعى في كتابه عن الشعراء أن الميكالي كان بلغ الأثر في أنفس  
معاصريه، وأن فريقاً منهم كان يؤلف الكتب بارشاده وفي ضوء فكره. وهذا شبه بالحق:  
لأن الميكالي فيما يظهر من شعره وثره كان قوة عظيمة من القوى الأدبية، ولكن يبنى  
الاحتياط في فهم هذه الفكرة: فقد كان الميكالي غنياً، وكان يته ملجأ الشعراء والكتاب  
والمؤلفين، فلا مفر من أن يحسب لمجاملته حساب، وأن يقدر الناقد أنه قد ينسب إليه ما ليس  
له لمكانته من العلم والفنى والجاه.

٧ — صنعة الميكالي في شعره أظهر منها في ثمره، فهو حين ينثر سهل الخليفة، فإذا نظم  
تكلف، وهو يؤثر الحسن على سائر أنواع البديع، وإلى القارئ قوله:

شافه كفى رشاً      بقبله ما شفيت  
قفلت إذ قبلها      ياليت كفى شفتى

وقوله:

من لى بشمل الأتس أجمعه      بشادن حل فيه الأتس أجمعه<sup>(١)</sup>  
ما زال يعرض عن وصل فآخذه      فالآن لى لأن بعد الصد آخذه

وهذا كما نرى تكلف هزيل عجوج.

وقد يترك الصنعة ويمضى على محبته فيجيد، من ذلك قوله:

عمر الفتى ذكرك لا طول مدته      وموته نزيه لا يومه المانى

(١) الأخدع: شبة من الرديد، وأبلغ أخادع.

وقوله :

كم والد يحسرم أولادهُ وخيره يحظى به الأبدُ  
كالعين لاجبر ما حولها ولحظها يدرك ما يسعد

وجملة القول أن الجيد من قره أكثر من جيد شعره ، وهو فى كلا الفنين صناع اليد  
ذكى-الجنان .

٨ — وسلطانه على معاصريه له قيمته على أى حال ، فليس الفنى ولا العلم مما يكفى  
لأن يكون للرجل حاشية وأنصار أوفياء . وإنما يرجع ذلك الى رقة القلب وقوة العقل وخفة  
الروح، وهى المقومات الأساسية لحياة المفكر والأديب . وكذلك أستطاع الميكالى أن يستعبد  
طائفة من أحرار القلوب والمقول بما كان له من صفاء الذهن ، وقوة الفريضة ، وطهارة  
الوجدان .



## ١٥ - بديع الزمان

١ - ولد أبو الفضل أحمد بن الحسين في همدان نحو سنة ٣٥٨، درس اللغة والأدب وتعمق فيهما تعمقا ظهر أثره في شعره . وكان في صباه جميلا فتانا خفيف الروح، وكان بجماله وحلاوة لسانه أثر كبير في النصر الذي أحرزه في حياته الأدبية ، فقد أنتقل الى نيسابور سنة ٣٨٢، وكانت يومئذ موطننا لأبي بكر الخوارزمي أعلم أهل عصره باللغة والأدب، وأقر بهم مكانة من الملوك والأمراء . فبدأ لبديع الزمان أن ينظره علنا عند بعض الأمراء، فقبل الخوارزمي بعد تردد، ثم دارت المناقشة يوما أو بعض يوم في موضوعات أدبية مختلفة فأستطاع بديع الزمان بسرعة بديته ونضارة صباه أن يعجب اليه أنظار الحاضرين، فقلب الخوارزمي وظهرت عليه دلائل الضعف، وسرى في الأقطار الاسلامية يومئذ أن بديع الزمان أجمل منه شعرا، وأحل ثرا، وأقوى حجة، ثم مرض الخوارزمي حزنا ومات قبل أن ينقضي الحول سنة ٣٨٣

و بموت الخوارزمي خلا الحق لبديع الزمان عند الملوك والأمراء والوزراء، وصار ينتقل في الحواضر الاسلامية بالشرق الى أن أستقر في هراة، وصاهر أحد علمائها الأعلام، وحسنت حاله، وأقبلت عليه الدنيا، ولكن المنية طاحلته وهو في سن الأربعين سنة ٣٩٨ وقد أستيقظ في قبره بعد الدفن فظل يصرخ ويطلب النوث، ولكن الناس لم ينتبهوا اليه الا بعد مدة ففتحوا قبره فوجدوه مضطجعا وقد أمسك لجنته بيده ومزق كفته، ولكنه مات من الرعب والفرع حين يئس من النجاة .

٢ - اهتم كلب التراجم بحياة بديع الزمان، وأجمل ما قرأناه في ترجمته قول النعماني في يتيمة الدهر: "بديع الزمان، ومعجزة همدان، وقادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر،

وغرة مصر، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء الذهن، وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه، وغرر النظم ونكته، ومن لم يرو ولم يرو أن أحدا بلغ ما بلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إيجازه وصغره، فانه كان صاحب عجائب، وبدائع وخرائب : فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمها قط وهي أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا ينحرف حرفا ولا ينخل معنى، وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهدها عن ظهر قلبه هدا، ويسردها سردا ... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بدیع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة، والجواب عنها فيها، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فينتدئ بأخر سطر منه ثم هلم جرا إلى الأول ويخرجه كأحسن شيء وأملحه،<sup>(١)</sup> ويوضح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه فيقرأ من النظم والنثر، ويرى من النثر والنظم، ويعطى القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيدة، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف، على ريق لا يسلعه، ونفس لا يقطعها، وكلامه كله عفو الساعة، وفوض البداية، ومسارقة القلم، ومسابقة اليد، وجمرات الحسنة، وثمرات المدة، ومجارات الخاطر للناظر، ومباراة الطبع للسمع . وكان يترجم ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع، إلى عجائب كثيرة لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى . وكان مع هذا كله مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق، شريف النفس، كريم العهد، خالص الود، حلو الصداقة، صر الداود . وفارق همدان سنة ٣٨٠ وهو مقتبل الشبيبة، غص الحداثة، وقد درس على أبي الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع ما عنده، وأستفد علمه، وأستزف بحره . وورد حضرة الصباح فقرود من ثمارها، وحسن آثارها . ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش في أكتافهم، والاعتباس

(١) انظر شاهد هذا فيما سطر من نص المناظرة (ص ٣٤٨) .

من أنوارهم، وأختص بأبي سعد محمد بن منصور ونفقت بضائمه لديه، وتوفر حظه من عادته المعروفة في إسماء المعروف والإفضال على الأفاضل. ولما استقرت عزيمته على قصد نيسابور أعلنه على حركته، وأزاح عله في سفره، فوافاها في سنة ٣٨٢ ونشرها بزء، وأظهر طرزه، وأمل أربمائه مقامه عليها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها، وضنها ما تستهى الأخص، وتلد الأعين، من لفظ أتيق قريب المأخذ، بعيد المرام، وجميع رشيق المطلع والمقطع كسج الحمام، وجدة يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول. ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سببا لhibوب ريح الهمذاني وعلو أمره، وقرب نجسه، وبعد صيته، إذ لم يكن في الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء والكتاب والشعراء ينبرى لمباراته، ويمتري على مجاراته، فلما تصدى الهمذاني لمساجلته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما مكاتبات ومباهلات ومناظرات ومناضلات وأفضى السنان الى العنان، وقرع النبع بالنبع، وظل هذا قوم وذلك آخرون، وجرى من الترجيع بينهما ما يجري بين الخصمين المتحاكين، والقرنين المتصاوين، طار ذكر الهمذاني في الآفاق، وأرفع مقداره عند الملوك والرؤساء، وظهرت أمارات الإقبال على أموره، وأدزله أخلاق الرزق وأركبه أكثاف العز. وأجاب الخوارزمي داعي ربه غفلا الجول للهمذاني وتصرف به أحوال جميلة، وأسفار كثيرة، ولم يبق في بلاد خراسان ومجستان وغزنة بلدة إلا دخلها، وجنى ثمرتها، وأستفاد خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا استمطر منه بنوء، وسرى معه في ضوء، ففاز برغائب النعم، وحصل على غرائب النعم، وألقى عصاه بهيرة وأخذها دار قراره، وجمع أسبابه ... وخار الله له في مصاهرة أبي على الحسين بن محمد الخشنامي ... فانتظمت أحوال أبي الفضل بصوره، وتعرفت القرة في عينه، والقوة في ظهره، وأقنى بمعونته ومشورته ضياعا فاخرة، وعاش عيشة راضية. وحين بلغ أشده وأرأى على أربعين سنة ناداه الله طلباه، وفارق دنياه في سنة ٣٩٨ فقامت عليه نواديب الأدب، وأنتلم حد القلم ... إنلته.

(١) راجع ما حققناه من عدد المقامات في الجزء الأول ص ٢٠٦. (٢) البيهقي ج ٤ ص ١٦٧ - ٣٩٦

٣ - وقد قلنا كلام التعالي على طوله لأنه يعطى صورة من طرائق كتاب القرن الرابع في كتابة التراجم ، ولأن التعالي كان من معاصري البديع ، ولأنه أعطانا فوائد تاريخية على قلة ما يضل ذلك ، فقد عرفنا أن البديع أنشأ المقامات في نيسابور بعد أن حل بها سنة ٣٨٢ وعرفنا أنه ناظر الخوارزمي في ذلك الحين ، وهذا يعني أن الخوارزمي مات سنة ٣٨٣ لا سنة ٣٩٣ كما توهم بعض من قل عنهم ابن خلكان<sup>(١)</sup> .

وتاريخ إنشاء المقامات الذي نص عليه التعالي ظاهر الصحة ، لأن البديع يذكر تاريخ سبقت ذلك ، كقوله في المقالة الغزونية "غزوت النغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين" .

٤ - أما المناظرة التي أشار إليها التعالي والتي استفاض ذكرها في كتب الأدب فقد حررها بديع الزمان بقلمه ، وهي وثيقة أدبية تمثل زهوه وأخلاقه ، وتبين تهافت الناس اذ ذاك على شهود المناظرات ، وكانت من الفنون الظاهرة في القرن الرابع ، ومن أشهر من أهتم بتدوين مناظرات ذلك العهد أبو حيان التوحيدي ، غير أن التوحيدي كان يهتم بتدوين المناظرات الفلسفية والفقهية .

ابتدأ بديع الزمان لحقنا أن نقييد تلك المناظرة كان مما أقترح عليه ، وأنه سيسوق صدر حديثه مع الخوارزمي الى المعجز ، كما يساق الماء الى الأرض الجُرُز . ثم قال بعد كلام في التناء على من وجه اليه الحديث :

"نمود للقصه نسوقها ، وأولها أنا وطننا خراسان فما آخترنا الا نيسابور دارا . وإلا جوار السادة جوارا ، لا جرم أنا حططنا بها الرجل ، ومددنا عليها الطنب ، وقديما كنا نسمع بمحدث هذا الفاضل فتشوقه ، ونخبره على الخبيب فتعشقه ، وتقدر أنا لو وطننا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا في المشرة ، عن القشرة ، وفي المودة ، عن الجلدة ، فقد كانت لحة الأدب جمعتنا ، وكلمة الفربة نظمتنا ، وقد قال شاعر العرب غير مدافع :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيبُ

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف، وأختلف ذلك التقدير كل الاختلاف، وقد كان آتق علينا في الطريق من العرب آتق، لم يوجهه استحقاق، من بزة بزوها، وفضة فضوها، وذهب ذهبوا به، ووردنا نيسابور براحة أنقى من الراحة، وكيس أخل من جوف حمار، وزى أوحش من طلمة المعلم بل أطلاعة الرقيب، فما حللنا إلا قصبة جواره، ولا وطننا إلا عتبة داره. وهذا بعد رقعة كتبناها، وأحوال أنس نظمناها. فلما أخذنا لحظ عينه سقانا الدردى من أول دمه، وأجئنا سوء العشرة من باكورة فنه، من طرف نظر بشطره، وقيام دفع في صدره، وصديق استهان بقدره، وضيف استخف بأمره. لكننا أقطعناه جانب أخلاقه، وقاربناه إذ جانب، وواصلناه إذ جاذب، وشربناه على كدورته، ولبسناه على خشوته، ورددنا الأمر في ذلك إلى زى استغفنه، ولباس أسرته، وكتابناه نستمد وداده، ونسلس قياده، ونستميل قواده، ونقيم منأده.

• — وخلاصة ما سلف أن بدیع الزمان بعد أن أعانه محمد بن منصور وأزاح علله في سفرته إلى نيسابور خرج عليه اللصوص في الطريق — وهو يسميهم «العرب» — فسلبوا ما كان معه من فضة وذهب ودخل نيسابور على أسوأ حال، وفكر عند وصوله في الاتصال بأبي بكر الخوارزمي، ولكن الخوارزمي لم يكرم زيارته، وطن بدیع الزمان أن تلك الجفوة لم تكن إلا لأنه ورد في زى غث، ولباس رث.

أما المراسلات التي سبقت المناظرة فهي خطاب من البديع وجواب من الخوارزمي.

ولننظر كيف بدأ البديع بغرس بذور الشحنة :

”الأستاذ أبو بكر — والله يطيل بقاءه ! — أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه أباط الفلة، في أطار الفرية، فاعمل في رتبته أنواع المصارفة، وفي الإهتزاز له أنواع المضايقة، من إيماء بنصف الطرف، وإشارة بشطر الكف، ودفع في صدر القيام، عن التمام،

(١) يريد أن طلمة المعلم توحش الطفل لأنها تنقله من الحب إلى الدرس، ومماذا الله أن تكون «طلمة المعلم حشة»

ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام . وقد قبلت تربته صغرا، وأحتلته وزرا، وأخضضته نكرا، وتأبطته شرا، ولم آله عذرا، فان المرء بالمال، وثياب الجلال، ولست مع هذه الحال، وفي هذه الأسمال، أخترز صف النعال، فلو صدقته العتاب، وناقضته الحساب، لقلت إن بوادينا ناغية صباح، وراغية رواح، وناسا يجرئون المطارف، ولا يمتنون المعارف .

وفيم مقامات حسان وجوهم وأندية يتابها القول والفنعل

ولو طوحت بأبي بكر أيده الله طوائف الغربة، لو جد مغنى البشر قريبا، ومحط الرحل رحيا، ووجه المضيف خصيا . ووجه الأستاذ أبي بكر أيده الله في الوقوف على هذا العتاب الذى معناه ود، والمر الذى يتلوه شهد، موفق أن شاء الله تعالى .

فأجاب الخوارزمي :

”وصلت رقعة سيدى ومولائى ورئيسى أطال الله بقاءه الى آخر السكاج، وعرفت ما تضمنه من خشن خطابه، ومؤلم عتابه، وصرفت ذلك منه الى الضجر الذى لا يخلو منه من مسه عسر، وناب به دهر، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه، ومظنة مشتكى ما فى نفسه! أما ماشكاه سيدى ورئيسى من مضايقتى إياه فى القيام فقد وفيت حقه أيده الله سلاما وقياما، على قدر ما قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليه الا السيد أبا البركات العلوى أدام الله عزه، وما كنت لأرفع أحدا على من جدته الرسول، وأمه البتول، وشاهدها التوراة والانجيل، وناصراه التأويل والتتريل، والبشيره جبرائيل وميكائيل . فأما القوم الذين صدر سيدى عنهم فكما وصف حسن عشرة، وسداد طريقة، وكمال تفصيل وجملة، ولقد جاوهم فأحدث المراد، ونلت المراد :

فان كنت قد فارقت نجدا وأهله فاعهد نجدي عندنا بذيهم

واقه يعلم نبقى للاخوان كافة، ولسيدى من بينهم خاصة، فان أعانى الدهر على ما فى نفسى بلغت إليه ما فى الفكرة، وجاوزت مسافة القدرة، وإن قطع على طريق عسرى بالممارسة، وسوء المؤاخنة، صرفت عانى عن طريق الاختيار، بيد الاضطراب :

فما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفوا معينا

وبعد فبذا عتاب سيدي إذا استوجبت عتاباً ، وأقترفتنا ذنباً ، فاما أن يسلفنا العريضة  
فنحن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن احتماله . ولست أسومه أن يقول استغفرنا  
إنا كنا خاطئين ، ولكني أسأله أن يقول لا تريب عليكم اليوم يفر الله لكم وهو أرحم  
الراحمين .“

٦ - وهذين الخطابين بدأت البضاض ، وأقطع بديع الزمان عن زيارة الخوارزمي  
« ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبت الأيام ، ودرجت الليالي ، وتطاولت المدة » ومشي  
الواشون بالسوء ، ودعا ناس الى مناظرة تقوم بين الرجلين ، فتردد الخوارزمي وهش بديع  
الزمان ، ثم ركب الخوارزمي في جمع من أصحابه وتلامذته ، وبعد لحظات ابتدأ النضال ،  
ولترك البديع يصف ذلك الموقف المشهود .

### صورة المناظرة<sup>(١)</sup>

” ... فتركاه على غلوائه ، حتى إذا نقض ما في راسه ، وفرغ جعبة وسواسه ، عطفتا عليه  
قلتنا : يا عافاك الله ! دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، وأسترتاك وقصدنا غير المناوشة ، فلتهدأ  
ضلوعك ، وليفرخ روعك ، وما أجمعنا إلا لخير فلسكن سورتك ، ولئن فورتك ، ولا ترقص  
لغير طرب ، ولا تحم لغير سبب ! وإنما ذكرناك تملأ المجلس فوائد ، وتذكر آياتا شوارد ،  
وأمثالا فرائد ، وتباحثك فنسعد بما عندك ، ونسالنا قسر بما عندنا ، ويقف كل واحد منا  
موقفه من صاحبه ، وقديما كنت أسمع بمجديتك فيميجيني الالتقاء بك ، والاجتماع . مك ،  
والآن إذ سهل الله ذلك فهل إلى الأدب ننفق يومنا عليه ، وإلى الجدل نتجاذب طرفيه ،

(١) أثبتنا هذا الشاهد على طوله لطرافته ولدلالته على عقلية فريق من كتاب ذلك العهد ، ولينين كيف استطاعت  
الفة المتخلة بالأنثرف والسمع أن تؤدي نوعا من القصص في تدوين المناظرات . وقد أسقطنا جزءا من صورة هذه الوثيقة  
الأدبية فرارا من الطويل .

فأسمع خيرا وأسمعتا مثله، ولتبدأ بالعين الذى ملكت به زمانك، وقُفّت به أقرانك، وملكك به عنائك، وأخذت منه مكانك، قطار به أسمك بعد وقوعه، وأرفع له ذكرك عقب خضوعه، وأخفمت به الرجال حتى أذعن العالم، وقلد الجاهل... بخارتا بفرسك، وجُدّ لنا بنفسك.

فقال: وما هو؟

فقلت: الحفظ إن شئت، والنظم إن أردت، والنثر إن اخترت، والبدية إن نشطت. فهذه أبوابك التى أنت فيها أبن دعوأك، تملأ منها فاك.

فألحم عن الحفظ رأسا، ولم يحل فى النثر قدحا. وقال: أبادهك.

فقلت: أنت وذاك!

فقال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليجيز. فقلت: يا هذا أنا أكفيك، ثم تناولت جزأ فيه أشعاره وقلت لمن حضر:

هذا شعر أبى بكر الذى كد به طبعه، وأسهر له جفنه، وأجال فيه فكره، وأنفق عليه عمره، وأستزف فيه يومه، ودوّنه فى صحيفة مآثره، وجعله ترجمان محاسنه، وعبر به عن باطنه، وأخذ مكانه وهو ثلاثون بيتا، وسأقرن كل بيت بوقفه، وأنظم كل معنى الى لفقه، بحيث أصيب أعراضه، ولا أعيد ألفاظه، وشرطت أن لا أقطع النفس، فان تبيا لواحد، أو أمكن لناقد، ممن حضر، يريد النظر، أن يميز قوله من قولى، ويحكم على البيت أنه له أو لى، أو يرجح ما نظمته بناو الروية، على ما أملت على لسان النفس فله يد السبق، أو يكون غيرها إغضاء عن هذه المقاومة، ويتنحى لنا عن أرض المسائلة، ويغنى الطريق لمن يبنى المنار به.

فقال أبو بكر: ما الذى يؤمننا من أن تكون نظمتم من قبل ما تريد إنشاءه الآن؟



فقلت : اقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها ، ولا أقف به إلا عليها ، ومثال ذلك أن تقول ( حشر ) فأقول بيتا آخره ( حشر ) ثم ( عشر ) فانظم بيتا قافيته ( حشر ) ثم هلم جرا إلى حيث يتضح الحق ، ويفتضح الزرق<sup>(١)</sup> ، وتستقر الحجة ، وتستقل الشبهة ، وتطرّد يعرف الحال من العاقل ، ويفرق بين الحق والباطل .

فأبى أبو بكر أن يشاركنا في هذا العنان ، ومال إلى السيد أبي الحسين يسأله بيتا ليعيز فتبعنا رأيَه فيما رآه ، ولم نرض إلا رضاه ، وأعمل كل منا لسانه وفه ، وأخذ دوائه وقلمه ، فأجزنا البيت الذي قاله ، وكلما أجزاه إجازة جارى القلم فيها الطبع ، وبارى اللسان بها السمع ، وسارق الخاطر بها الناظر ، وسابق الجنان بها البنان ، إذ قلنا :

هذا الأديب على تمسف فككه	وبروكه عند القريض <sup>(٢)</sup> بيركه
منسرع في كل ما يتأدّه	من نظمه متباطئ عن تركه
والشعر أبعد منعبا ومصاعدا	من أن يكون مطيعه في فكه
والنظم بحجرٍ والخواطر معبرٌ	فانظر إلى بحر القريض وفكه
فتى توافى في القريض مقصر	عرّضت أذن الامتحان بعركه
هذا الشريف على تقدّم بيته	في المكرمات ورفعته في سمكه
قد رام منى أن أقارن مثله	وأنا القرنين السوء إن لم أنكه <sup>(٣)</sup>
وإذا نظمت قصمت ظهر مناظرى	وحطمت جارحة القرنين بدكه
ودبّنت منه أديبه وترصّته	نهج الأديم بدبّنه وبدلكه
أصغو إلى الشعر الذي نظّمته	كاللّز رصّع في مجرّته سلكه
فتى عجّزت عن القريض بديته	فدى الحرام له إراقته سفكه

وقال أبو بكر أبيتا جهدنا به أن يخرجها من الغلاف ، ويرزها من الحفاف ، فلم يفعل دون أن طواها وجعل يعركها ويفركها ، فقلت : إن البيت لقائله ، كالولّد لئجله ، فإليك

(١) الزرق جمع أزرق ويراد به الأعمى . وفي القرآن ( ونحشر المحرمين يومئذ ذرة ) أى عيا .

(٢) البرك بفتح فسكون : الصدر . (٣) من التكاية وهى الإهانة .

تفق أبك وتضيئه ؟ أبرزها للميون ، وخلصها من الظنون . فكره أبو بكر أيده الله أن تكون  
الهزة أعقل منه لأنها تحدث فتغلي ، فلم يستجري أن يظهر ثم مسح جبينه وبسط يمينه  
للبدية نفسا دون أن يكتب . قلنا : أنت وذلك . وأقترح علينا أن نقول على وزن قول  
أبي الطيب المتنبي حيث يقول :

أرق صل أرق ومثلي يارق      وجوى يزيد وعبرة تفرق  
وأبتدر أبو بكر أيده الله إلى الإجازة ولم يزل إلى النهايات سباقا فقال :  
وإذا أبتدعت بدية يا سيدي      فأراك عند بديقي ستلقى  
وإذا فرضت الشعر في ميدانه      لا شك أنك يا أمي تشفق  
إني إذا قلت البدية قتلها      عجلا وطبعك عند طبعي يرتق  
مالي أراك ولست مثلي عندها      تمسوها بالترعات تمخرق  
إني أجزع على البدية مثل ما      تريانه وإذا نطقت أصدق  
لو كنت من مخير أصم لهاله      مني البدية وأغصدي يتفلق  
أو كنت لثا في البدية خادرا      لرئيت يا مسكين مني تفرق  
وبدية قد قتلها متفسا      فعل الذي قد قلت يا ذا الأخرق

ثم وقف يعتذرو ويقول : إن هذا كما يحىء لا كما يجب . قلت : قبل الله عذرك لكنني  
أراك بين قواف مكروهة وقافات خشة كل قاف بكيل قاف ، منها ستلقى وتشفق وتمخرق  
وتفروق وتطلق وتلقى وتبرق وتفرق وأحق وأخرى إلى أشياء لا أكثرها العدد ، فخذ الآن  
جزءا عن قرضك ، وأداء لقرضك ، وقلت :

مهلا أبا بكر فزندك أضيق      فأحرص فإن أخاك حي يرزق  
دعني أمرك إذا سكت سلامة      فالقول يجحد في ذوبك ويعرق  
ولفائك فتكأت سوء فيكم      فدع الستور ورامعا لا تحرق  
وأنظر لأشنع ما أقول وأدعي      أله إلى أعراضكم متسلق  
يا أحف وكفالك ذلك خزبة      جربت نار معرق هل تحرق

فلما أصابه حر الكلام، ومسه لقع هذا النظام، قطع علينا فقال : يا أحق لا يجوز فإن  
أحق لا ينصرف . قلنا : يا هذا لا تقطع فإن شعرك إن لم يكن عيبة عيب فليس بطرف ظرف،  
ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سبيلا اليك . وأما أحق فلا يزال يصفمك لتصفمه  
حتى ينصرف وتصرف معه ! وعرفناه أن للشاعر أن يرد ما لا ينصرف الى الصرف، كما أن له  
رأيه في القصر والحذف، وأنشدناه حاضر الوقت من أشعار العرب قال : يجوز للعرب ما لا  
يجوز لك . فلم يدركف يوجب عن هذا الموقف وهذه الموافقة، وكيف يسلم من هذه  
المصارفة، لكنا قلنا : أخبرنا عن بيتك الأول أمدحت أم قدحت، وزكيت أم جرحت ؟  
ففيه شتان متفاوتان، ومعنيان متباينان، منها أنك بدأت تغاطبت بيا سيدى، والثانية أنك  
عطفت فقلت تتلقى وهما لا يركضان في حلبة ولا يخطان في خطة . ثم قلت له : خذ وزنا  
من الشعر حتى أسكت عليك قستوى من القول حظك وأسكت علينا حتى تستوى حظنا،  
ثم إنى أحفظ عليك أنفاسك وأوافكك عليها وأحفظ على أنفاسى ووافقنى عليها فإن عجزت عن  
اختلافها حفظتها لك، فسلى عنها بعد ذلك . وأخذنا بيت أبى الطيب المنبئ :

أهلا بدار سبائك أغيدها أبعد ما بان عنك نردها

قللت :

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فاخذت بحق البيت قبل تمامه، ومضيق الشعر قبل نظامه، فقال : ما معنى تكندها ؟  
قللت : يا هذا، كند النعمة كفرها . فرفع يديه ورأسه وقال : معاذ الله بأن يكون كند بمعنى  
جحده، وإنما الكنود القليل الخير . فأقبلت الجماعة عليه يوسعونه برا وفريا ويتلون له قول  
الله تعالى (إن الإنسان لره لكنود) وقلت له : أليس الشرط أملك؟ والمعهد بيننا أن تسكت  
ونسكت حتى تم وتم، ثم نبحث وتفحص، فنبد الأدب وراء ظهره وصار الى السخف يكلنا  
بصاعه ومُده، وينفض فيه حمة جهده، وأفضى الى السفه يفرغ علينا غرقا، ويستق من  
جرفه جرقا . قللت : يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب والناظرة حضرا لا للناظرة، فإن  
نفضت من هذا السخف يدك، وثبتت عن هذا السفه قصبك، وإلا تركت مكالمك . ولو كان

فی باب الاستخفاف شیء أعظم من الاحترار، وإنكار أبلغ من ترك الإنكار، بلغته منك . فأخذ يمضي على غلوائه، ويمعن في هرائه وهذائه . فاستندت الى المسند، ووضعت اليد على اليد، وقلت استغفر الله من مقاتلك ونقضتها قائمة معه . وسكت حتى عرف الناس، وأيقن الجللاس، أني أملك من نفسي ما لا يملكه، وأسلک من طریق الحلم ما لا يسلكه، ثم عطف على وقلت : يا أبا بكر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمي، وتعجبوا من فضلي، وبقی الآن أن يعلموا أن هذا السکوت ليس عن عی، وأن تکلفی للسفه أشد استمرارا من طبعک، وغری فی السخف أمتن عودا من نبحک، وسقرع باب السخف معک، وفترع من ظهر السفه مقترک . فتکلم الآن . فقال لی : أنا قد کسبت بهذا العقل دية أهل هذان مع قلته فا الذي أفدت أنت بعقلک مع غرارته ؟ قلت أما قولک أهل هذان فأولانی أن أجب عنه ولكن هذا الذي تمدح به وتبجح وتتشرف وتتعلف من أنك شخصت فأخذت، وسألت لخصلت، وأجديت فأقنيت، فهذا عندنا صفة ذم یا عافاک الله ! ولأن یقال للرجل یا فاعل یا صانع أحب إليه من أن یقال یا شحاذ یا مكدی ! وقد صدقت، أنت فی هذه الحلة أسبق، وفي هذه الحرفة أعرق، ولعمرك أنت أشحد، وفي الكدية أنفذ، وأنا قریب المهد بهذه الصنعة، حديث الورد لهذه الشرعة، مرمل اليد فی هذه الرقعة . فاما مالك فنحننا یهودی یماتك فی مذهبہ، ویزیدك بذهبہ، ومع ذلك لا یطرفنی إلا بعین الرهبة، ولا یمد الی إلا ید الرغبة، ولو كان الغنى حظا لأخطأه مثل هذا العقل، ولو كان المال غنیا لما أدرك بهذا السعی . ولكن عرفنی هل كنت فیما سلف من زمانك، ونبت من أسنانك، إلا هاربا بذماتك، مضرجا بذماتك، مرتهنا بقولك بین وجنة موشومة، وجوارح مهشومة، ودار مهذومة، وخدود ملطومة . ومتی صفت مشارعك، وأخصبت مرابعك، إلا فی هذه الأيام القذرة؟ وسعترف غدك من بعد، وتترك أسك، وتعلم قدرک فی غد، وتعرف نفسك . وما أضيع وقتا أنطقته بذکرک، ولسانا دنسته باسمك ! وملت الى القوال فقلت أسمعنا خیرا فدفع القوال وغنی آیاتا منها :

وشبها بتفسیح عارضیه بقایا العلم فی الخلد الرقیق

فقال أبو بكر : أحسن ما في الأمر أني أحفظ هذه القصيدة وهو لا يعرفها ، فقلت : يا عافاك الله أعرفها وإن أنشدتكها ساعك مسموعها ، ولم يسرك مصنوعها ، فقال : أنشد ! فقلت : أنشد ولكن روايتي تخالف هذه الرواية وأنشدت :

وشبهنا بنفسج عارضيه      بقايا الوشم في الوجه الصفيق

فاتته السكنة ، وأصغبرته النكته ، وأنطفأت تلك الوقدة ، وأنحلت تلك المقدة . وأطرق مليا وقال : والله لأضربنك وإن ضُربت ، ولأشمتنك وإن شُمت ، ولتلعنن نياه بعد حين ، ولتلعنن أينما الضارب وأينما المضروب ! فقلت : يا أبا بكر مهلا فانك بين ثلاثة فصول لم تحفظها من عمرك وثلاث أحوال لم تنمدها في أمرك ، وأنت في جميع الثلاثة ظالم في وعيدك ، تمتد في تهديبك ، لأنك كهل وأنت شاعر ، وكنت شابا وأنت مقامر ، وكنت صبيا وأنت مؤاجر ، فنتاطق القدرة في الفصول الثلاثة ضيق عن هذا الوعيد ، لكنا نصفعلك الآن وتضربنا فيها بعد ، فقد قيل اليوم قصف ، وغدا خسف ، وقيل اليوم نحر ، وغدا أمر ! فقال أبو بكر والله لو دخلت الجنة ، واتخذت السندس والإستبرق جنة ، لصفعت ! فقلت : والله لو أن قفاك غدا في درج في خرج في برج لأخذك من التمال ما قدم وما حدث ، وشملك من الصفع ما طاب وخبث ، وأنشدت قول ابن الرومي :

إن كان شيئا سفيا      يفسوق كل سفية

فقد أصاب شيئا      له وفوق الشبيه

ثم لما آتت نفس العقل وزال سكر النيفظ تملت بقول القائل :

وأزلى طول النوى دار غربة      إذا شئت لاقيت أمرا لا أشاكه

أحاطه حتى يقال بحجة      ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وُدِّعَ القوال قيدا بأبيات ، ولحُرِبَ بأصوات ، وجعل الناس يثني الرؤوس ، ويمنع الجلوس ، فقمنا عن الليل وهو يحمره مائل التقى الى ما وُطِّي من مضجع ، ومُهَّد من مهجع ، ولم يكن النوم ملء الجفون ، ولا شغل العيون ، حتى أقبل وفد الصباح ، وحمل المؤذن بالفلاح ،

ونذب الى النهوض، بالمفروض، فأجبنا . فلما قضينا الفرض، فارقنا الأرض، فأوى الى أم  
 مثنواه وأويت الى الحجره وظنى أن هذا الفاضل يأكل يده ندما، ويسكى على ما جرى دمعا ودما،  
 فانه إذا سمع بحديث هذان قال : الهاء هم والميم موت، والذال ذل، والالف آفة، والنون  
 ندامة، وأنه إذا نام هاله منا طيف، وإذا أتبه راعه منا سيف، وأخذ الناس يترازمون بما  
 جرى ويتنازون، وراب هذا الفاضل غمزاتهم مثل ماراب المريض تنافس العواد بفعل  
 يحلف للناس بالعق، وتحريك الرق، والمكتوب في الرق، إنه أخذ قصب السبق، وأنه ينطق  
 عن الحق، والناس أكياس لا يقنعهم عن المدعى يمين دون شاهدين ! وسعوا بينا بالصلح  
 يحكون قواعد ومعاقد، وعرفنا له فضل السن فقصدناه متذرين اليه فاوما إيماء مهيضة،  
 وأهترأزاة مغيضة، وأشار إشارة مريضة، بكف صحبها على الهواء صحبا، وبسطها في الجوف  
 بسطا، وعلمنا أن القصور أن يستخف ويستين، وللقامر أن يحتمل ويلين، فقلنا إن بعد  
 الكدر صفوا، كما أن عقب المطر صحوا، فهل لك في أخلاق في العشرة نستأنفها، وطرق  
 في الخلطة نسلكها، فان ثمة الخلاف ماقد بلوتها؟ فقال ظهر الوفاق لفظا كما ذكرت، والجمل  
 أجل كما عابت، وسفسترك هذا العنان. وعرض علينا الإقامة عنده صحابة ذلك اليوم، فاعتلنا  
 بالصوم، فلم يقبل الصدر وألح فقلت : أنت وذاك قطعنا عنده، وأخذنا دندناُ مزده،  
 ونرجنا والنية على الجليل موفورة، وبقعة الود معمورة، وصرنا لا نتعلل إلا بمدحه، ولا نتقل  
 إلا بذكوه، ولا نعد إلا بوجه، لا بل ملائنا البلد شكرا، والأسماع نشرا، وبتنا نحن من الحال  
 في أعذها شرعة، ومن الثقة في أطيبها جرعة، ومن الظنون في ألمحها فرعة، ومن المودة  
 في أعزها بقعة، وأوسعها رقعة، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقاتله، مؤيدان لرسالته،  
 ذاكران أن أبا بكر يقول قد تواترت الأخبار، وتظاهرت الآثار، في أنك قهرت وأنى قُهرت  
 ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله . والخبر إذا تواتره النقل، قبله العقل . ولا بد  
 أن نجتمع في مجلس بعض الرؤساء فتتناظر بمشهد الخالصة والعامة، فانك متى لم تفعل ذلك  
 لم آمن عليك تلامذتى أو تهر بجزك وقصورك عن بلوئك أمدى وما أبدي . فنجبت كل  
 العجب مما سمعت، وأجبتة فقلت : أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قُهرت وأن ذلك عن

جهتي صدور من لسانى سمع فبالله ما أتمدح بقهرك ، ولا أجمع بقهرك . وإن لنفسك عندك  
لشأنا إن ظننتى أقف هذا الموقف ، أنا إن شاء الله تعالى أبعد مرتقى همة ومصعد نفس  
أسأل الله سترًا يمد وجهها لا يسود ! فأما التواثر من الناس والتظاهر على أنى قهرتك فلو قدرت  
على الناس لخطت أفواههم ، ولقبضت شفاههم ، فإلى الحيلة وهل إلى ذلك سبيل فأتوسل ،  
أم ذريعة فأتوصل ؟ ثم هذا التواثر ، ثمرة ذلك التناظر ، مع ذلك السائر ، فإن كان قد ساءك  
فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومحتفل أولى الفضل ، ولأن يترك الأمر مختلفًا فيه خير  
لك من أن يتفق عليه . وإن أحببت أن تطير هذا الواقع وتنج هذا الساكن فرباك موقفا .  
فأما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحى أجمع وجوارحى كلها فلم تنشد إلا بيت القائل :  
وعيدٌ تخرج الآرام منه ومكره نية الغم الذئاب

فكم تتكرب تلامذتك ويتسكرون ، ويجهش أصحابك ويجمعون ، ولست أراك إلا بين  
ثنتين : أحدهما تزوج إلى أذى وتفسد إلى طفل ، والأخرى تجيب دعوة المضطر إذا دعاك  
بمسلمات . فإن كان الله قد قضى أن القتل بأخس السلاح ، فلا مفر من القدر المتاح ، رزقنا الله  
عقلا به نعيش ! ونعوذ بالله من رأى بنا بطيش ! وقتلنا من بعد إن رسالتك هذه وردت موردا  
لم نحتسبه ، ووصلت موقفا لم نرقبه ، فلذلك نخرج الجواب عن البصل ثوما ، وعن البصل  
لوما . فلما ورد الجواب عليه وسع من الفيظ فوق ملئه ، وحمل من الحقد فوق عيئه ، وقال :  
قد بلغ السيل الزبا ، وعلت الوهاد الربا ، فى أصررك . وسئرى فى يومك ، وتُعرف فى قومك !  
ثم مضت على ذلك أيام ونحن منتظرون لفاضل ينشط لهذا الفصل ، وينظر بيننا بالعدل ،  
فانفتحت الآراء على أن يعقد هذا المجلس فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير وأستدعيت فسرحت  
الطرف من ذلك السيد فى عالم أفرغ فى عالم وملك فى درع ملك ورجل نظم إلى التبل تبذلا  
والى الترمع تواضعا ، وتطلق فودت الأعضاء لو أنها أسمع مصفية وأسمع قمتت الجوارح  
لو أنها ألسن ناطقة فقلت : الحمد لله أن عقد هذا المجلس فى دار من يفرق بين من يُحق ومن  
يزرى<sup>(١)</sup> وكنت أول من حضر وأستظرت مليا حضور من ينظر وقدم من يناظر ، وطلع الإمام

(١) من زرق الطائر إذا أخرج ما فى أسنانه .

أبو الطيب وأخذ من المجلس موضعه ، والامام أبو الطيب بنفسه أمة ووحده عالم . ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والإمامة ، وعامر أرض الوحي والمحتجب بفناء النبوة والضارب في الأدب بعرقه ، وفي النطق بمحذقه ، وفي الإنصاف بحسن خلقه ، فغشم الى المجلس قدّم سيفه وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين لأمر كان قد موه عليه ، وحديث كان شبه لديه ، ونطنت لذلك فقلت : أيها السيد أنا إذا سار غيري في التشيع برجلين ، طرت بجناحين ، وإذا متّ سوى في موالة أهل البيت باسعة دالة توسلت بثرة لائحة ، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يملكك على ترك الواجب . ثم إن لي في آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتي البر والبحر ، وركبت الأقواء ، ووردت المياه ، وسارت في البلاد ، ولم تميز زاد ، وطارت في الآفاق ، ولم تسر على ساق ، ولكني أستوق بها لديكم ولا أتنفق بها عليكم ، وللاّخيرة قلتها لا الحاضرة ، وللدين أذخرتها لا الدنيا . فقال أئشندني بعضها فقلت :

يا لمة ضرب الزما	ن على مُعرّسها خيامه
لله درك من تُزنا	حى روضة عادت تقامه
لرزفة قامت بها	للدين أشرط القيامة
لمضرج بدم النبوة	ة ضارب يمد الإمامه
متقم بظبا السيو	ف مجرّع منها حمامه
منع الورد وماؤه	منه على طرّف الثمامه
نصب ابن هند رأسه	فوق الوري نصب العلامة
ومقبّل كان النبي	بلمه يشفى غرامه
قرع ابن هند بالقضيب	عذابه فرط استضمامه
وشدا بنغمته عليه	ه وصبّ بالفضلات جامه
والدين أبلغ ساطع	والعدل ذو خال وشامه
يا وبع من ولى الكا	ب قصاه والدين أمامه
ليضرن يد الندا	مة حين لا تخفى الندامه



وليدركن على الفرا  
مة سوء عاقبه الضرامه  
وحى أباح بنو أمية  
ة من طوائهم حرامه  
حتى آشفوا من يوم بد  
ر وأسبدوا بالزعامة  
لعنوا أمير المؤمنين  
بن بمثل إعلان الإقامة  
لم لا تحرى يا سمي  
و لم تصي يا غمامه  
لم لا تزولى يا جبا  
ل ولم تسولى يا نمامه  
يا لعنة صارت على  
أعناقهم طوق الحمامه  
إن السمامة لم تكن  
للسيم ما تحت الممامه  
من سبط هند وأبها  
دون البتول ولا كرامه  
يا عين جودى للبق  
ع وزرقى بدم رغامه  
جودى بمذخور الدمو  
ع وأرسل بندا نظامه  
جودى بمكنون الدمو  
ع أجده بما جاد أين مامه

فلما أنشدت ما أنشدت، وسردت ما سردت. وكشفت له الحال فيما اعتقدت، انخلت له العقدة وصار سلبا يوسعا حلما. وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البساطى وناهيك من حاكم يفصل، وناظر يعدل، يسمع فيقهم، ويقول فيعلم. ثم حضر بعد ذلك القاضي أبو نصر والأدب أدنى فضائله، وأيسر فواضله، والعدل شية من شيه، والصدق مقتضى همه. وحضر بعده الشيخ أبو سعيد محمد بن ارمك أبده الله وهو الرجل الذى يحبه لألأوه ولودعيته من أن يذال بن أو ممن الرجل، وهو الفاضل الذى يحطب فى جبل الكتابة ما شاء، ويركض فى حلبة العلم ما أراد. وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب وله فى الأدب عينه وفراة، وفى العلم شعلته ونازه. وحضره بعده الفقيه أبو الهيثم ورائد الفضل يقدمه، وقائد العقل يتقدمه. وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان والفضل منه بدأ واليه يعود. وحضر بعده أصحاب الإمام أبي الطيب الأستاذ أبيه الله.

”وما منهم إلا أغر نجیب“ .

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ الفاضل أبي الحسن الماسرجسی :

”وكل إذا عد الرجال مقدّم“

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ أبي عمر البسطامي وهم في الفضل كأستاذان المشط ومنه بأعلى مناهل المقدس . وحضر بعدهم الشيخ أبو سعيد الهمداني وله في الفضل قدحه المجل، وفي الأدب حظه الأعلى . وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسيلة المسبلة، والأسوكة المرسله، رجال يلبن بعضهم بعضا فصاروا الى قلب المجلس وصدره حتى رد كيدهم في نحرهم وأقيموا بالنعل الى صف النعال، فقلت لمن حضر : من هؤلاء؟ فقالوا : أصحاب الخوارزمي، فلما أخذ المجلس زخرفه من حضر، وأنتظر أبو بكر فتأخر، اقترحوا على قوافي أثبتوها واقترحات كانوا يتوهمها، فلما ظنك بالحلفاء أدنيت لها النار من لفظ الى المعنى نسقته، وبيت الى القافية سقته، على ريق لم أبلسه، ونفس لم أقطعها، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوردت، وتعجب مما أنتدبت . وقال أحدهم بل أوحدهم وهو الإمام أبو الطيب لن تؤمن لك حتى تقترح القوافي وتبين المعاني وتنص على بحر فإن قلت حينئذ على الروي الذي أسوميه، وذكر المعنى الذي أرومه، فانت حتى القلب كما عهدناك، مفسر الصدر كما شاهدناك، شجاع الطبع كما وجدناك، وشهدنا أنك قد أحسنت، وأن لاقى إلا أنت . فباخرجت من عهدته هذا التكليف حتى أرتفعت الأصوات بالهيلة من جانب والحوقلة من آخر وتجبوا إذ أرتبهم الأيام، ما لم ترم الأعلام، وجادهم العيان بما تجل به السماع، وأنجزهم الفهم ما خلفهم الوهم، ثم التفت فوجدت الأعناق تنفت وما شمرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع في شمسته وهب بجملته، بأوداج ما يسمعها الزران، وعينين في رأسه تزان، ومشي الى فوق أعناق الناس وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر وقد أخذ المجلس أهله فقلت : يا أبا بكر ترحن عن الصدر قليلا الى مقابلة أخيك . فقال : لست برب الدار، فتأمر على الزوار ! فقلت : يا عافاك الله حضرت لتناظرني والمناظرة أشتقت إما من النظر أو من النظر، فإن كان

اشتقاقها من النظر فن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحداً حتى يتبين الفاضل من المفضول ثم يتناول السابق ويتقاصر المسبوق . ففضت الجماعة بما قضيت ، وغص هذا الفاضل من تلك الحكمة ، وأنحط عن تلك العظمة ، وقابطني بوجهه فقلت : أدرك أيها الفاضل حريصاً على اللقاء ، سريماً الى الهجاء .

”ولو زينتك الحرب لم تترصم“ .

ففى أى علم تريد أن تتناظر؟ فأومأ الى النحو، فقلت: يا هذا إن اليوم قد مَنَعَ، والنهار قد أرتفع، والظهر قد أزف، ولئن قرعنا باب النحو أضعنا اليوم فيه، فبأ ذا يخرج الناس، فعلا هتاف الناس أيهما رد الجواب هناك ما يدرى المحيب . فإن شئت أن أناظرك فى النحو فسلم الآنلى ما كنت تدعيه من سرعة فى البديهة وجودة فى الروية ، وقدرة على الحفظ ونفاذ فى الترسلى . ثم أنا أجارك فى هذا، فقال : لا أسلم ذلك ولا أناظر فى غير هذا، وأرثعت المضاجعة وأستمرت الملاحة حتى بلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر اليه فقال : أيها الأستاذ أنت أديب نحاسان وشيخ هذه الديار وهذه الأبواب التى قد عددها هذا الشاب ، كما تعتقد لك السبق والحسنى، وتناقلك عن مجاراته فيها مما يثيم ويوهم، وأضطره الى منازلة أو نزول عنها ومقاومة فيها أو إقرار بها . فقال : سامت الحفظ، فأنشدت قول القائل :

ومستلم كسفت بالريح ذيله . ألفت بعضب ذى شقاشق ميله

بفحت به فى ملتقى الحى خيله تركت عناق الطير تحجل حوله

وقلت : يا أبا بكر خفف الله عنا فى الحفظ فقد كفيتنا مؤونة الامتحان، ولم نضع وقتنا من الزمان، فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضاً مع الترسلى حتى نفرغ للنحو الذى أنت عليه أكبر واللغة التى أنت بها أعرف والعروض الذى أنت عليه أجراً، والأمثال التى لك فيها سبق والقدم والأشعار التى أنت فيها تقدم، فقال : ما كنت لأسلم الترسلى ولا سلمت الحفظ، فقلت : الراجع فى شيئه، كالراجح فى قبيئه، لكأ تقيك عن ذلك السماح فهات أنشدنا نحسين بيتاً من قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتاً من قبلى عشرين مرة، فسلم أن دون ذلك نرط القناد

تهاب شوكتها اليد فسلمه ثانياً، كما سلمه بادياً، وصرنا الى البدية، فقال أحد الحاضرين هاتوا  
على شعر أبي الشيص في قوله :

أبقى الزمان به ندوب عِضاضٍ ورعى مسود قرونه بياضٍ

فأخذ أبو بكر يمحضه، ويحصده، مقدراً أنا ننفل عن أغصاه، أو نوليه جانب وسواسه ،  
ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم ثم تواقفه عليها، فقال :

يا قاضيا ما مثله من قاضٍ أنا بالذي تمضي علينا راضٍ

فلقد لبست ضفيرة ملمومة من نسج ذاك البارق الفضفاض

لا تمضيت إذا نظمت تنفعا إن الفضا في مثل ذاك تناض

فلقد ليت بشاعر متقادر ولقد ليت بناب ذئب غاض

ولقد قرضت الشعر فاسمع وأستمع لنشيد شمر طائعا وقراض

فلا غلبت بدنية يسليقي ولأرميت سواده بياض

فقلت : يا أبا بكر ما معنى قولك ضفيرة ملمومة وما الذي أردت بالبارق الفضفاض فإنكر  
أن يكون قاله قافية ، فواقعه على ذلك أهل المجلس وقالوا : قد قلت ! ثم قلت : فما معنى  
قولك ذئب غاض؟ فقال : هو الذي يأكل الفضا، فقلت : استنوق الجمل يا أبا بكر وأقبلت  
القوس ركوة وصار الذئب جملا يأكل الفضا، فما معنى قولك إن الفضا في مثل ذاك تناض  
فإن الفضا لا أعرفه بمعنى الإغضاء، فقال : لم أقل الفضا، فقلت : ما قلت ؟ فإنكر البيت  
جملة، فقلت : يا ويحك ما أغناك عن بيت تهرب منه وهو يتبعك، وتنبأ منه وهو يلحق بك  
فقل لي : ما معنى قراض فلم أسمعه مصدرا من قرضت الشعر ولكن هلا قلت كما قلت وسقت  
الحشو الى القافية كما سقته؟ فقال : هذه طريقة لم تسلكها العرب فلا أسلكها . ثم دخل  
الرئيس أبو جعفر والقاضي أبو بكر الحارثي والشيخ أبو زكريا الحيرى وطبقه من الأفاضل مع  
عثة من الأراذل فهم أبو زشيدة، فقلت : ما أخرج هذه الجماعة الى واحد يصرف عنهم عين

(١١) الكمال! وأخذ الرئيس مكانه من الصدر والدمت وله في الفضل قدم وقدم وفي الأدب هم وهم وفي العلم قديم وحديث قم المجلس وظهر الحق بنظره وقال : قد أدعيت عليه أبيانا أنكرها فدعوني من البدنية على النفس وأكتبوا ما تقولون وقولوا على هذه، فقلت :

برز الربيع لنا برويق مائه	فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالترب بين ممسك ومعتبر	من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصنل ومكفر	في حسن كدره ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صواح	مثل المغني شاديا بشنائه
والورد ليس بممسك رياه إذ	يهدى لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع جلبت أزكى متجر	وجلوت للرائين خير جلانه
فكانه هذا الرئيس إذا بدا	في خلقه وصفائه وعطائه
بجى أمر عجر وندى أمر	محجل في خلقه ووفائه
يشو اليه المختوى والمجتدى	والمجتوى هو هارب بدمائه
ما البحر في ترخاره والنيث في	إمطاره والجو في أنوائه
بأجل منه مواهبها ورغائبها	لا زال هذا المجد حلف فثائه
والسادة الباقون سادة عصرهم	متمدحون بمدحه وثنائه

فقال أبو بكر تسعة أبيات قد غابت عن حفظنا لكنه جمع فيها بين إقواء وإكفاء ، وإبطاء ، فرددنا عليه بعد ذلك عشرين ردا وقدنا عليه فيها كذا نقدا ، ثم قلت لمن حضر من وزير ورئيس وقيه وأديب : أرايت لو أن رجلا حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعرا قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط هل كنتم تطلقون أمراته عليه ؟ ! فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ! ثم قلت : أتقد على فيما نظمتم ، وأحكم عليه كما حكمت . فأخذ الأبيات وقال : لا يقال نظرت لكذا وإنما يقال : نظرت إليه ، فكفتني الجماعة إجابته ، ثم قال : شبهت الطير

(١١) يتم بذكر بقول الشاعر :

ما كان أحوج ذا الكمال الى عيب يرفقه من الدين

بالمحصنات وأى شبه بينهما؟ فقلت : يا ربيع ، إذا جاء الربيع ، كانت شواذى الأطيوار ، تحت ورق الأشجار ، فيكنّ كأنهنّ المخدرات تحت الأستار . ثم قال لى : لم قلت مثل المحصنات مثل المعنى ، فقلت : هن فى النلدر كالمحصنات وكالمعنى فى ترجيع الأصوات . ثم قال : لم قلت زمن الربيع جلبت أركى متجر وهلا قلت أربح متجر؟ فقلت : ليس الربيع بتاجر يحلب البضائع المربجة . ثم قال : ما معنى قولك النيث فى إبطاره والنيث هو المطر نفسه فكيف يكون له مطر؟ فقلت : لاسئ الله النيث أدنيا لا يعرف النيث ! وقلت له : إن النيث هو المطر وهو السحاب كما أن السماء هو المطر وهو السحاب . وقال الجماعة : قد علمنا أى الرجلين أشعر ، وأى النلصحين أقدر ، وأى البليهتين أسرع ، وأى الرويتين أصنع . فقال أبو بكر : فأسقونى على الظفر . فقالوا : كفالك ما سفاك ! ثم ملنا الى الترسل ، فقلت : أقترح على غاية ما فى طوقك ، ونهاية ما فى وسعك ، وأختر ما نلغسه بذرعك حتى أقترح عليك أربعاة صنف فى الترسل فان صرت فيها برجلين ولم أطر بياحين ، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف ولم تلحف كل الإلخلاف فكى يد السبق وقصبة ومثال ذلك أن قول لك : اكتب كتابا يقرأ منه جوابه هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك : اكتب كتابا على المعنى الذى أقترح لك وأنظم شعرا فى المعنى الذى أقترح وأفراغ منهما فراغا واحدا ، هل كنت تمد له ساعدا؟ أو أقول لك اكتب كتابا فى المعنى الذى أقول وأنص عليه ، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تناقل ولا تناقل حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره الى أوله وأنظمت معانيه إذا قرئ من أسفله ، هل كنت تفوق لهذا الغرض سهما ، أو تجيل قدحا ، أو تصيب نجحا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا قرئ من أوله الى آخره كان كتابا ، فان عكست سطوره مخالفة كان جوابا . هل كنت فى هذا العمل وارى الزند ، قاصد القصد؟ أو قلت لك : اكتب كتابا فى المعنى الذى أقترح ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عن الكلمة بدنية ولا يميم فيها قلبك ، هل كنت تفعل؟ أو قلت لك : اكتب كتابا خاليا من الألف واللام تصب معانيه على قالب ألفاظه ولا تلخرجه عن جهة أغراضه ، هل كنت تنف من ذلك موقفا ممدوما أو يمشك ربك مقاما محمودا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا يملو من الحروف العواطل ،

هل كنت تحظى منه بطائل ، أو تبيل لمائك بناطل ؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً أوائل مطوره كلها ميم وآخرها جيم ، على المعنى الذى يقترح ، هل كنت تنلوفى قوسه غلوة ، أو تحطوف فى أرضه خطوة ؟ أو أقول لك : اكتب كتاباً إذا قرئ معرجاً وسرد معوجاً كان شعراً هل كنت تقطع فى ذلك شعراً ؟ بلى والله تصيب ولكن من بدتك ، وتقطع ولكن من ذقتك ! أو أقول لك : اكتب كتاباً إذا فسر على وجه كان مدحاً وإذا فسر على وجه كان قدحاً . هل كنت تخرج من هذه المهدة ؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً إذا كتبتك تكون قد حفظته ، من دون أن لحظته ، هل كنت تنق من نفسك به الى مالا أطاولك بعده ، بل آست البائن أعلم ؟ ! فقال أبو بكر هذه الأبواب شعبذة ، فقلت : وهذا القول طرمذة ! فإ الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها ، حتى أباحتك على مكنونها ، وأكاثرك بمخزونها ، وأشبر فيها قلبك ، وأسبر فيها لسانك وفك ، فقال : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين الناس ، فقلت أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول لكل قلم ، المتناول بكل يد وفم ، ولا تحسن هذه الشعبذة ؟ فقال نعم . فقلت : هات الآن حتى أطاولك بهذا الحبل وأناضلك بهذا النيل ، ثم تقاس الفاظي بالفاظك ، ويمارض إنشائي بإنشائك . وأقترح كتاب يكتب فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وأنقطاعاتها والأسعار وغلاتها .

فكتب أبو بكر بما نسخته :

### بسم الله الرحمن الرحيم

” الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة ، بهما يتوصل الى جنات النعيم ، ويخلد فى نار الجحيم ، قال الله تبارك وتعالى : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم . وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشد الإكبار ، وأنكرناه أعظم الإنكار ، لما نراه من الصلاح للعباد ، وتنويه من أخير البلاد ، وتعرفنا فى ذلك ما يريح للناس فى الزرع والضرع ، ويعود إليه أمر الضر والنفع “ .

الى كلمات لم تعلق بحفظنا .

فقلت : إن الإيجار والإنكار والعباد والبلاد وجنات النعيم ونار الجحيم والزرع والضرع أجمع قد نبتت في المعد ، ولم تزل في اليد ، وقد كتبت وكتبت ، ولا أطالبك بمثل ما أنشأت فأقرأ ولك اليد . وناولته الرقعة فبقي وبقيت الجماعة وبهت وبهت الكافة وقالوا : اقرأه ، فحملت أقرؤه منكوسا وأسرده معكوسا والعيون تزرق وتحار وكانت نسخة ما أنشأناه .

### بسم الله الرحمن الرحيم

الله شاء إن المحاضر ، صدور بها وتعلأ المنابر ، ظهور لها وتفرع الدفاتر ، وجوه بها وتمشق الحجاب ، بطون لها ترشق ، آثارا كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه ، في تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل ، هذا ويرفع الدين ، أهل عن الكل ، هذا يحيط أن في اليه تنضرع ونحن واقفة ، والتجارب زائفة ، والقنود صياقة ، أجمع الناس صار فقد كرميا نظرا لينظر شيمه ، مصاب وانخبنا كرمه ، بارقة وشمتانهمه على آمالنا رقاب وعلقتنا أموالنا ، وجوه له وكشفنا آمالنا وفود اليه بعثنا فقد نظره ببجيل يتداركا أن ونماء تأييده وأدام بقاءه الله أطال الجليل الأمير رأى إن وصلى الله على محمد وآله الأخيار .<sup>(١)</sup>

فلما فرغت من قراءتها أنقطع ظهر أحد الخصمين وقال الناس قد عرفنا الترسل أيضا فلما إلى اللغة ، فقلت : يا أبا بكر هذه اللغة التي هددتنا بها وحدثتنا عنها وهذى كتبها وتلك مؤلفاتها نخذ غريب المصنف إن شئت وإصلاح المنطق إن أردت وألفاظ ابن السكيت إن نسطت وبجل اللغة إن احترت فهو ألف ورقة وأدب الكاتب إن أردت ، واقترح على أي

(١) هذا الخطاب في ظاهره مطلق ، ولكنه يقرأ من عنده بسهولة فيقال :

« إن رأى الأمير أحوال الله بقاءه ، وأدام تأييده ونماءه ، أن يتداركا ببجيل نظره ، فقد بعثنا إليه وفود آمالنا ، وكشفنا له وجوه أحوالنا ، وعلقتنا رقاب آمالنا على همه ، وشمتا بارقة كرمه ، وانخبنا مصاب شيمه ، لينظر نظرا كرميا ، قد صار الناس أجمع صياقة ، والقنود زائفة ، والتجارب واقفة ، ونحن تنضرع اليه في أن يحيط هذا الكل عن أهل الدين ويرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين ، فإذا جرى الأمير أدام الله تأييده في أياديه ، على مقتضى آمالنا فيه ، كانت آثارا ترشق لها بطون الحجاب ، وتمشق بها وجوه الدفاتر ، وتفرع لها ظهور المنابر ، وتعلأ بها صدور المحاضر إن شاء الله .



باب شئت من هذه الكتب حتى أجهله لك نقدا، وأسرده عليك سردا ، فقال : أقرأ من غريب المصنف رجل ماس ، خفيف على مثال مال وما أساءه ! فاندفعت في الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه ، وأتيت على الباب الذي يليه ثم قلت أقترح غيره ، فقالوا : كفى ذلك فقلت له : أقرأ الآن باب المصادر من أخبار نصيب الكلام ولا أطالبك بسواه ولا أسالك عما عداه ، فوقف حماره ، وتحدث ناره ، وقال الناس اللغة مسلمة لك أيضا فهاتوا غيره ، فقلت : يا أبا بكر هات المروض فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعللها وزحافها ، فقلت : هات الآن فاسرده كما سردته فلما برد خجل الناس وقاموا عن المجلس يمدونني بالأهيات والأب، ويسمعونه باللحن والسب ، وقام أبو بكر فتشى عليه وقت إليه فقلت :

يعز عليّ في الميدان أني      قلت مناسي جلجا وقهرا  
ولكن رمت شيئا لم يرمه      سواك فلم أطلق ياليت صبرا

وقبلت عينه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له فهلا يا أبا بكر جئتنا من باب الخلطة وفي باب العشرة؟ وتفرق الناس وحسبنا الطعام ، مع أفاضل ذلك المقام ، ولما حلقتنا على الخوان ، كزعت في الخفان ، وأسرت إلى الرغفان ، وأمعنت في الألوان ، وجعل هذا الفاضل يتناول الطعام بأطراف الأغفار ، فلا يأكل إلا قضا ، ولا ينال إلا شما ، وهو مع ذلك ينطق عن كبِد حُرّى ويفيض عن نفس ملاي ، فقلت : يا أبا بكر بقيت لك مُنة وفيك مسكة :

يا قوم اني أرى الأموات قد نشروا      والأرض تلفظ موتاكم إذا قبروا

فأخبرني يا أبا بكر لم عُشّي عليك؟ فقال : لحى الطبع وحى الفرو ، فقلت : أين أنت من السجع ، هلا قلت حى الطبع وحى الصفع ! وقال السيد أبو القاسم : أيها الأستاذ أنت مع الجدل والحزل تغلبه ، فقلت : لا تظلموه ولا تطعموه طعاما يصير في بطنه مفسا ، وفي عينه رمسا ، وفي جلده برسا ، وفي حلقه غصصا ! فقال أبو بكر : هذه أجماع كنت حفظتها فقل كما أقوله : يصير في عينك قذى ، وفي حلقك أذى ، وفي صدرك شئى ! فقلت : يا أبا بكر على

الألف تريد؟ خذ الآن: بئيك البراءة، وعلى هامك الثرى، ولا أطلعك الخ... إلا من وراء، كما ترى فقال: أيها الأستاذ السكوت أولى بك ومالوا إلى وقالوا: ملكت فأصبح! فأبى أبو بكر أن يبقى لنفسه حمة لم ينفضها، أو يذخر علينا كلمة لم يعرضها، فقال: والله لأتركك بين الميآت، فقلت: ما معنى الميآت؟ فقال: بين مهزوم ومهذوم ومهشوم ومقوم ومجوم، فقلت: وأتركك بين الميآت أيضا بين الهيام والصدام والجدام والحمام والزكام والسام والبرسام والحام والسقام وبين السينات فقد علمتنا طريقة بين منحوس منخوس منكوس معكوس متعوس محسوس معروس وبين الخالآت فقد فتحت علينا بابا بين مطبوخ مشدوخ منسوخ ممسوخ مفسوخ وبين الباءآت فقد علمتى الطعن وكنت ناسيا بين مغلوب ومسلوب ومرعوب ومصلوب ومركوب ومنكوب ومنهوب ومفضوب. وإن شئتَا كلنا بهذا الصاع، وطاولنا بهذا القراع، وعرضنا عليك من هذا المتاع، وكأنتك بهذه الأنواع، ثم خرجت واحتجرت فقد كان اجتماع الناس وغلث الكروش، ولما خرجت لم يلقونى إلا بالشقاء ثقيلًا، والأفواء تيجيلا، وأنظفروا خروجه إلى أن غابت الشمس ولم يظهر أبو بكر حتى حضره الليل بجنوده وخلع الظلام عليه قروته.

فهذا ما علقناه عن المجلس وأديناه، والسيد أطال الله بقاءه يقف عليه إن شاء الله.

## ١٦ - نثر بديع الزمارة

١ - أول ميزة لبديع الزمان أنه يشمرك بفهمه للحياة ، فهو يتحدث عن أنجبان وأغراض هي في صميمها ألوان للنفوس الانسانية . وإذا كان هناك كاتب يخاطبوك بما لا يفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك ، وقلب أجنبي عن قلبك ، فإن بديع الزمان يطالملك بطائفة من الأزمات النفسية والروحية هي أزمالك أنت لو درست نفسك وتطلعت الى وجدانك ، وهذا هو السر في أن بديع الزمان لا يزال أدبه حيا ، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهد وتماقب الأجيال . ومن العجب أننا نتقبل منه الزهو والخيلاء لأننا نشعر أنه في زهوهِ وخيلائه لا يكذب ولا يمين . ولنتظركيف يقول :

” فاني وإن كنت في مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهري البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصاحلت يدى النفع والضر ، وضربت إبلى العسر واليسر ، وبلوت طعمي الحلو والمر ، ورضعت ضرعى العرف والنكر ، فما تكاد الأيام ترحى من أفعالها غريبا ، أو تسمعى من أحوالها عجيبا . ولقيت الأفراد ، وطرحت الآحاد ، فما رأيت أحدا إلا ملأت حافتي سمعه وبصره ، وشغلت حيزى فكره ونظره “<sup>(١)</sup>.

٢ - وهذه الفقرة تمثل شعوره بأرزاء الدهر ونكبات الحياة ، وتمثل حرصه على أن يشغل البارزين من معاصريه . وقد كانت لبديع الزمان غضبات تظهر فيها فورات نفسه وهى مضطربة متأججة ، فترى في كتاباته صورة نفسه وهى تتوَّش كما تتوَّش السنة الجحيم ، كقوله في خليفة أبى نصر الميكالى بهراة :

«وحدثت عن هذا الخليفة ، بل الخليفة ، أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة منذ ورد ، هذا البلد ، وليس يفتح ، فما أصنع ؟ فقلت يا أحمق إن أستطعت أن ترائى محتاجا فاستطع

أنت أراك محتاجا إليك، أف لفولك وفصلك، ولدهر أحوج لثلك<sup>(١)</sup> ! « ولتأمل القارئ  
« ان استطعت أن ترى محتاجا فاستطع أن أراك محتاجا إليك » فانه غاية في التهكم اللذاع .

وفي مثل هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

« هذا الخليفة يزعم أنى طعام ، فلا والله إن لمى حرام ، وفيه عروق وعظام ، ولو كنت  
طعاما لكنت الأكلة التي تمنع الأكلات ... ومن شتمني من خلف ، فجزاؤه مائة ألف ، وإذا  
انتهت الدعوة إلى فقد عزل عزرائيل ، ولم يبق في ولايته إلا قليل ، والله ما يصلح لمى للقديد ،  
ولا يحسن فوق الثريد ، وإنه لا يابى في المضغ ، وينشب في الحلق ، ويقلق في البطن ، ولا  
يخرج من المعى إلا مع الأمعاء . وكانوا لا يصيدون ابن آوى ، وإن كانوا شهوى<sup>(٢)</sup> » .

٣ — وكان بدیع الزمان شديد الحقد على أبي بكر الخوارزمي، وكان لذلك مغرما بالنيل  
منه والوقوع فيه . ومرض الخوارزمي، فكتب أحد أصدقاء بدیع الزمان يهنته بمرض عدوه  
فغضب لذلك ورأى في هذه التهينة لؤما لا يرضى عنه كرمه ، ولا يغفر مثله نبهه ، وقذف  
صديقه ذاك بالكلمة الآتية :

«الحر، أطال الله بقاءك، لا سيما اذا عرف الدهر معرفتي، ووصف أحواله صفتي،  
اذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهي أمانى، فان وجدت فهي عواري ، وأن  
محن الزمان وإن مطلت فستفد، وإن لم تصب فكان قد، فكيف يشمت بالحنة من لا يأمنها  
في نفسه، ولا يدمها في جنسه؟ والشامت إن أفلت فليس يفوت، وإن لم يمت فسيموت،  
وما أقبح الشئامة، بمن أمن الإمامة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة.  
والدهر غرثان طعمه الخليار، وظلمان شره الأحرار، فهل يشمت المرء بانياب آكله، أم  
يسر الماقل بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضل شفاء الله وإن ظاهرناه بالمداوة قليلا ، فقد باطنه  
ودا جيلا، والحرعند الحية لا يصطاد، ولكنه عند الكرم ينقاد، وعند الشائد تنهب

الأحقاد، فلا تصوّر حتى إلا بصورتها من التوجع لمتة، والتحزن لمرضته، وفاء الله المكروه، ووقائي سماع السوء فيه، بحوله ولطفه» .

وهذه الرسالة من أصل الرسائل في أسلوبها، وموضوعها، وله رسالة تشبها كتبها إلى أبي طاهر الضبي يميزه في بعض أقاربه وفيها يقول :

« أحسن ما في الدهر عمومته بالتواثب، وخصوصه بالرتائب، فهو يدعو الجفلى إذا ساء، ويختص بالنعمة إذا شاء، فلينظر الشامت فإن كان أظلم، فله أن يشمت، ولينظر الانسان في الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، إلى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه، أثرا في نفسه، أم لتديره، عونا على تصويره، أم لعمله قدما لأمله، أم لحيه، تأخيرا لأجله ؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئا مذكورا، خلق مقهورا، ورزق مقدورا، فهو يحيا جبرا، ويميت صبرا . وليتأمل المرء كيف كان قبلا، فإن كان العدم أصلا، والوجود فضلا، فليعلم الموت عدلا. والعاقل من رفع من حوائل الدهر ماسا لذهب ماضر بما نفع، وإن أحب أن لا يحزن فلينظر نعمة، هل يرى إلا محنة، ثم ليطفف يسرة، هل يرى إلا حسرة ؟ ومثل الشيخ الرئيس من تفلن لهذه الأسرار، وعرف هذه الدار، فأعد لتعيمها صدرا لا يملؤه فرحا، ولؤسها قلبا لا يطعمه جزا، وصحب الدهر رأى من يعلم أن للجنة حدا، وللصارية ردا . ولقد نهي إلى أبو قبيصة قدس الله روحه، ويرد ضريحه، فعرضت على آمالي قعودا، وأمانى سودا، وبكيت والسخرى بما يملك، ومضكت وشرد الشدائد ما يضحك، وعضضت الإصبع حتى أدميته، وذممت الموت حتى تمتيته، والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، وتكر قد عم حتى عاد عرفا، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصفر ذنوبها وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها . الخ » .

٤ - وهذه الرسالة تعطينا صورة من نفس ذلك الرجل الحساس . فهو هنا يدرس قيمة الانسان وينتهي بالدرس إلى أنه أثر ضئيل بين آثار الوجود، فقد خلق من حيث لا يريد، ورزق من حيث لا يحتسب . فهو بهذا ألموبة صغيرة في يد القدر يرضعها حين يشاء، ويرى بها في الفناء حين يشاء .

ولا يقف بديع الزمان عند هذا الحد، وإنما يمضي فيدعوك الى سياسة نفسك، فيحدثك بأن من العقل أن تجسم حسنات الدهر لتضوّل بجانبها سيئاته، ويروضك على أن تنتظر حواليك لترى أن لكل إنسان نصيبه من بأساء الحياة، ويدعوك الى أن تعد لنعم الدنيا صدرا لا يملؤه الفرح، وقلبا لا يطيره الجزع، وتلك هي السياسة الرشيدة عند من يفقهون .

وقد أعطانا البديع في هذه الرسالة أجمل صورة للجزع عند فقد الأعزاء، فقد أمضحك الحزن وأبكاه، وحسنا بأنه بكى لأن البكاء غاية ما يملك الحر في رد العزير المفقود، وأنه ضحك لأن الشدائد المرة ترمى المحزون بقهقهة المجانين . وقد وصل البديع الى قرار الحكمة حين حدثنا بأن الموت خطب قد عظم حتى هان، ووصل الى أسنى غايات الخيال حين حدثنا بأن الدنيا أجهت حتى صار الموت أظهر ما فيها من العيوب . وهو بهذا ينظر الى الوجود وكأنه صو فاجر لا ينتهى ما لديه من الشؤم الميئ والشر المستطير .

٥ - لكن هذه السباحة النفسية ليست سمة غالبية في بديع الزمان، فهو في أكثر الأحوال رجل ما كر خيبت، ومقاماته تنتهى الى فلسفة واحدة هي السخرية من العالم وأقتناص ما يملكون يشقى الحيل والمداورات من غير تورع ولا استحياء . ففي المقامة الأصفهانية يحتال أبو الفتح الاسكندري فيحتجز المصلين في المسجد ولا يزال بهم حتى يملأ جيبه ثم يقول في السخر من أولئك المتصدقين :

الناس مُحرُّوْ بَغْوَزْ وأبرز عليهم وبرز  
حتى اذا لث منهم ما تشتهيه قفروز

وفي المقامة المكفوفية ينشد أبو الفتح بعد أن يصل الى بيته وقد تماهى طلبا لال :

أنا أبو قلمون<sup>(١)</sup> في كل لون أكونُ

إختر من الكسب دونا فان دهرك دون

زج الزمان بحسب إن الزمان زبون<sup>(٢)</sup>

(١) أبو قلمون توب روى من الأبريس يظهر اللين في ألوان مختلفة بضاعه . (٢) الزبون : الناقة التي تدفع بطنها رجلها عند الحلب .

لا تكذبَ بقل ما العقل إلا جنون

وفي المقامة القزوينية يعترف أبو الفتح بأن النسبة صورة من صور المنافع ويقول :

أنا حلى من الزما ن كحالى من النسب

نسبي في يد الزما ن اذا سامه أهلب

أنا أمسى من النيب ط وأضحى من العرب

وفي المقامة الساسانية يقول :

هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم

الحسنى فيه مليح والمقل عيب ولوم

والمال طيف ولكن حول اللثام يحوم

وهذه الأبيات تمثل حقهده على الأغنياء، ورميه الى أن كل غنى لثم ، ومثل هذا قوله

في المقامة البصرية :

الفقر في زمن اللثا م لكل ذى كرم علامة

رغب الكرام الى اللثا م وتلك أشرط القيامة<sup>(١)</sup>

٦ - والذي يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه في أكثرها يحارب معاصريه

من الكتاب والرؤساء، ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلا . ولا يمكن

أن تكون لبديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخططة الصاخبة التي ألفها في حياته وهي العنف

المطبق في البحث عن أسباب الفنى وإلجاء . ومن دلائل حقهده وبشيه أن واليا عزل

وكتب اليه بعد عزله يستميل فؤاده، فكتب اليه البديع يؤنبه ويصوره بصورة المعشوق الذي

انقضت أيام حسنه ولم تبق منه بقية يحتمل معها الدلال . فمن تلك الرسالة قوله :

(١) وقد تهكم بديع الزمان بالأدب وأهله غير مرة . راجع ص ٣٩٦ حيث ترى أنه يرى الأدب والفة والتفسير

ضروريا من الحسنى «لا يبيع بها ذو عقل باقة بقل» وفي ص ٢٢٢ يرى أنه لا قرابة بين الأدب والذهب وأن الأدب لا يمكن ثده في قصعة ، ولا صرفه في ثمن سلعة ، الخ .

”تناسيت أيامك إذ تكلمتا نورا، وطمعنا شزرا، وتجالس من حضر، ونسرق اليك النظر، ونهتر لكلامك، ونهش لسلامك . فأقصد الآن فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودوله عرضت، وأيام آتقت :“

ومهد تفاق مضي      وخطب كساد نزل  
وخد كان لم يكن      وخط كان لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت في النفس، وثمر فاض مائه فلا يشرف، وريق خدع فلا يشف، وتمايل لا يعجب، وشن لا يطرب، ومقلة لا تجرح الحاظها، وشقة لا تفتن ألقاظها ! وقد بلغني الآن ما أنت متعاطيه من عويه يحوز بعد الفاق، في الفسق... وإفناك لتلك الشعرات حفا وحصا . وسيكتفي الدهر مؤونة الانتكار عليك، بما ينف من بنات الشر وأمهاته اليك .

ما يفعل الله باليهود      ولا يباد ولا يهود  
ولا يفرعون إذ عصاه      ما يعقل الشعر باليهود<sup>(١)</sup>

وهي رسالة طويلة اكتفينا منها بهذه الفقرات، وقد تأثر بهذه الرسالة وحاكها في أسلوبها وموضوعها جماعة من الكتاب أشهرهم أبو المتقدين أبو المغيرة الوزير عبد الرحمن بن حزم الأندلسي وأشهرهم في المتأخرين المرحوم الشيخ عبد العزيز جوايش .

٧ - - ولو كان بديع الزمان غرض يرى اليه في مجموع كتاباته لوصل الى أبعد حد من حدود النجاح لأنه أبرع من حمل القلم بين أهل عصره، ولا نعرف كاتباً التزم السجع ووفق الى الدقة والرشاقة والمزودة كما وفق بديع الزمان . والقاعدة التي اختارها أساساً لفلسفته وهي سوء الظن بالناس تلاشى أثرها في مقاماته لأنه أعطى لبطل تلك المقامات صورة مشوهة هي صورة الاستجداء، ثم التزم منها واحداً لا يختلف إلا قليلاً بحيث لا يبدأ القارئ إلا وهو يعلم ما ستنتهي اليه المقامة .

ومهما يكن من شيء فمن يمكن نكران ما وفق اليه بديع الزمان من نقد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والتفاق والضمّة والإسفاف، وما الى ذلك من الهنات التي يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء ، ثم لا يكونون في أنفسهم وفي سلوكهم إلا برهانا على فساد الحياة وقصص الأحياء .



## ١٧ - عبد العزيز بن يوسف

١ - كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كما وصفه الثعالبي «أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق» وكان مع ثقافته ديوان الرسائل لمعهد الدولة طول أيامه معدودا في وزرائه، وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعده لأبنائه<sup>(١)</sup>. وكان صاحب بن عباد يقول: كُتب الدنيا أربعة: الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابئي، ولو شئت لذكرت الرابع، يعني نفسه<sup>(٢)</sup>.

وجملة أخباره تدل على أنه كان في زمانه من أعلام الكتاب.

٢ - ويظهر مما أثر من أخلاقه أنه كان رجلا كريم النفس. وقد شفع لأبي إسحاق الصابئي عند عضد الدولة في ساعة غضب، وتفصيل ذلك أن قوما سحوا لإخراج الصابئي من السجن فقال عضد الدولة «قد سوغته نفسه: فإن عمل كتابا في مآثرنا وتاريخنا أطلقته» فشرع الصابئي في عهده في تأليف كتاب في أخبار بني بويه، وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو في تبيض الكتاب وتسويده فساله عما يعمل فقال: أباطيل أنعمها، وأكاذيب ألفتها» فخرج الرجل وأنهى ذلك إلى عضد الدولة - ودانس الأصدقاء كثيرة يمانيا الأحرار في جميع الأزمان! - فأمر عضد الدولة بإلقاء الصابئي تحت أرجل الفيلة، فأكب أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وضرب بن هارون على الأرض يقبلاتها ويسقون إليه في أمره حتى أمر<sup>(٣)</sup> بآستحيائه.

٣ - والظاهر أن صلته بالصاحب والصابئي كانت صلة ودا، ورسائله إلى صاحب كثيرة، ولكن تغلب عليها صفة التودد المشوب بالتملق<sup>(٤)</sup>. أما رسائله إلى الصابئي فتفيض بالمعطف والحنان.

(١) البتة ج ٢ ص ٧٦ (٢) البتة ج ٢ ص ٨٧ (٣) ياقوت ج ١ ص ٣٢٨ (٤) ياقوت

ج ١ ص ٣٢٥ (٥) راجع هذه الرسائل في البتة ج ٢ ص ٩٢ - ٩٤

وأنظر هذه الرسالة :

« وصل كتاب مولاي بما قرب الى جناه ، وبعد على مداء ، من محاسن لفظه ونظمه ، ومبازه التي ما يزال يؤثرني فيها بالرضا ، ويصفيني منها بالعائق . فوقفت منه بين اعتبار واقتياس ، واعتذار واغتباط ، واستبصار في موضع الفضيلة ، وشكر لما جمع الله لي في وده من المنع الجذيلة ، ووجدت خطابه مفتحا بشكوى الأيام في انحرافها ، ومكاره أحداثها ، فاستوحشت منها لاستيعاشه ، واستعدت عليها لاستعدائه . وشايت المهجنين لآثارها ، والزارين على أحكامها ، لاعتراضها دون آماله ، وقدحها في أحواله ، ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لأهلها ، دهر<sup>(١)</sup> أناخ على مولاي بصرفه ، وأحترله دون واجب حقه » .

٤ - وتماز رسائله في الاخوانيات بترصيعها بحبات شعره ، فقد ابتدأ إحدى رسائله الى صاحب هذه الأبيات :

كتاب لو أن الليل يرمي بمثله	لألفت يدا في محبته ذكاه
تهادى بأبكار المصاني وعونها	وأعياى لفظ ما هن كفاء
شواهد لولا أنهم أولف	ضرائر إلا أنهم سواء
لبسنا بها فعى وألبست الربا	نعمائل روض جادهن سما
بنان ابن عباد تعلين نومه	وما صوبه إلا حيا وحياه

وثلاث كتب تناظرت في الحسن والاحسان ، وتقابلت في البر والإتمام ، لازالت أياديه قلائد الأعتاق ، ومراميه مضامير السباق ، ولا أنفكت عين الله حامية له ، وكافله به .<sup>(٢)</sup>

ويظهر أن الصابي كان كذلك يرصع رسائله بالشعر بدليل قول أبي القاسم من رسالة ثانية : « وقفت على الايات التي أنحفني بها سيدي ، وتكلفت لجوابها على ظلم في خاطري لطول السفار ، وأتصال حالي بالحل والترحال . ومولاي يأخذ العفو ويرضى بالميسور ، ويعذر

(١) البيهقي ج ٢ ص ٩٤ (٢) مطوف على (حيا وحياه) وبذلك يتبين الفارق في مهارة الكاتب في وصل الشعر بالتفرق في سياق واحد . (٣) البيهقي ج ٢ ص ٩١

مستأنفا على التصدير في جواب ما يأتي من أمثاله ، مادمتا في ملكة الهواجر ، وتنب البكر<sup>(١)</sup> والأصائل<sup>(٢)</sup> .

٥ — ومن الفنون البارزة عند أبي القاسم وصف الرسائل الاخوانية ؛ كقوله في وصف رسالة للصاي :

«عرفت كيف تنظم فرق البلاء ، وتلقى طرف الخطابة ، وتراءى أشخاص البيان ، وتقابل أعطاف الحسن والاحسان ، وقرأت لفظا جليا ، حوى معنى خفيا ، وكلاما قريبا ، رعى غرضا بعيدا ، وفصولا متباعدة كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنهجها الامتراج صيغة المضارعة ، ولجة الموافقة ، فصارت لدلالة الأول منها على الثاني ، وتعلق المعجز فيها بالهادي ، أولاد أرحام مبرورة ، وذوات قربي موصولة ، تتماطف عيونها ، وتناصف أبكاها وعونها<sup>(٣)</sup>» .

٦ — وعند تأمل رسالته نجده يحسن الوصف . كقوله من كتاب له الى الصاحب في فتح عمان وإبادة الزنوج بها وما وصل الى عضد الدولة من المغانم :

«... وكانت لأولئك الكفرة عادة أشتهرت منهم في استباحة الناس وأكل لحومهم ، وبلغ من كلبهم على ذلك أنهم كانوا يقتلون بينهم إذا شربوا بأكف الناس ، وسأل مولاي عن هذا النفل القريب حكى لي عنهم أنه لا شيء في الانسان ألد من كفه وبنانه ، وكان في ذلك اليوم الذي شارف فيه طلائع العسكر المنصور باب عمان تار من بعض المكامن طوائف من أولئك الكلاب فكبا ببعض الغلمان دابته فأختلسوه وأقسموه بينهم وأكلوه في الوقت ، وتصحب الناس من ضراوتهم وقساوتهم ، وقد أبادهم الله تعالى جده ، وطهر البر والبحر من عبثهم ومعرتهم ، فأقاد أهل جبال عمان باخيين بالطاعة ، معتمدين بئمة الجماعة ، وتمت نعمة الله على مولانا في هذا الفتح ، وجلت له مقام الأجر ، ووصل أسمى غنائم تلك الناحية وفيها فيل صغير بقدر الفرس ما عرف ألطف ولا أظرف . منه ، وفي الغنائم كل ما تشتهي

الأنفس وتلد الأعين . والله تعالى يبنى مولانا ثمار الأرض برا وبحرا، وسهلا وجبلا،  
بمنه وكرمه . آمين ” .

٧ — وكانت له بحكم منصبه جولات في الرسائل السلطانية، نذكر منها قوله من كتاب  
عن الطائفة إلى ركن الدولة لما ورد عضد الدولة العراق :

”فانت وعضد الدولة — كلاهما الله ! — يدا أمير المؤمنين فيا يأخذ ويذر ، وناظره  
فيما يقرب ويبعد ، بكأقترش مهاد الملك بعد إقصاضه ، ورفع منار الدين بعد انقضاءه ، فأبشرا  
من الله تعالى بالحسن ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين <sup>(١)</sup> ” .

ومن كتاب عن عضد الدولة في عود الطائفة إلى بغداد والثقاته معه :

”ولما ورد أمير المؤمنين بالنهروان أنهم بالاذن لنا في تلقيه على الماء ، فامتلتاه وتقبلناه  
وتلقانا من عوائد كرمه ، ونفحات شيعه ، والمخاطل الواعدة بجيمل آرائه ، وعواطف أنعمائه ،  
ورعاية ما كفتنا بينه ، وشايئنا عزه ، إلى أن وصلنا إلى حضرته البهية ، في الحديديدة ، التي  
استقبلت منه بسليل الملك ، وقصيد الخلقة ، وسيد الأنام ، والمستزل بوجهه در الفهم ، فتكفأت  
علينا ظلال نوره وبشره ، وغزتنا جهات تفضله وفضله ، وقرب علنا سنن خدمته ، وأنالنا  
شرف القعود بين يديه ، على كرسى أمر بنصبه لنا عن يمينه ، وأمام دمه ، وأوسعنا من جميل  
لقيامه ، وكرم نجهواه ، ما يسم بالمرز أغفال النعم ، ويضمن الشرف في النفس والعقب ، ويكفل  
من الفوز في الدين والدنيا بغايات الأمل . وكان لنا في الوصول إليه ، والقعود بين يديه ،  
في مواقع الملاحظة ، وموارد المفاضة ، مراتب لم يعطها أحد فيا سلف ، ولم تجد الأيام بمثله  
لمن تقدم ” .

٨ — وليس بين أيدينا من أخباره ورسائله ما يعطينا صورة صحيحة من نفسه  
وأخلاقه ، والذي يمكن الجزم به أنه كان دقيق العبارة رصين الأسلوب ، وإلى القارئ هذه  
الكلمات مقتبسة من رسائله القليلة التي أعفاها الزمان من الضياع .

- ”وأجنهم الليل فادرعوه مقتادين بجزائم أنوفهم، الى مصارع حنوفهم“ .
- ”سار الى سدة دار الخلافة والسعود تشايه، والميامن تواكبه، وطلائع الآمال تشرف عليه، وقرر الاسلام يتيم اليه“ .
- ”وقد كان الفضغرين حمدان حين نفضته المذاهب، ولفظته المهارب، وألقته عن مجامع المكاييد والكائب، تطوع الى بلاد الشام يتقل بين مصارع يحسبها مراتع، ومجاهل يمدحها معالم، يروم أتماعشا والجد خاذله، ويبني آنتياشا والبني طاليه“ .
- ”ولما ضاق عن هذا المخدول حلسنا باتساع غوايته، ووعر الطريق الى أستبقائه، استخرنا الله تعالى في أسترجاع ما ألبسناه من النعم“ .
- ”إن الله سائلك عن الخطرة والخطفة، والخطفة واللفظة“ .
- ”أدرع من ثوب عفاذك، ما يشمل كافة أطرافك“ .
- ”احذروا أن ينقلكم الله بأقدامكم، الى مصارع حمامكم“ .
- ”التقوى هي العدة الوافية، والجئنة الواقية، والتجارة الراجحة، والسعادة السانحة، والجللاء للشبهة، والضياء للغمه“ .
- ”سيعبض الله من حرّ الهواجر برد الظلال، ومن قلق الركاب، نبح الإياب“ .
- ”أيقظوا قلوبكم من سنة الخواطر، وأحبسوا الحلاظكم عن محظور المناظر“ .



## الفهرس المفصل

### الباب الرابع كتاب النقد الأدبي

صفحة	مضمون	صفحة	مضمون
٢٢ ... ..	أثر الخلقة الطبيعية ... ..	١ — أبو الحسن الجرجاني	
٢٣ ... ..	ما هو الجزل وما هو الرقيق ... ..	القاضي إنسان له عواطف وأهواء ... ٧	
٢٤ ... ..	إشارة إلى ما نقله عن السابقين من النقاد	وصف جرجان وما كان بها من نعم ... ٨ ٧	
٢٥٠٢٤ ... ..	الفرق بين الشعر والدين ... ..	وفاء أبي الحسن لجرجان ... .. ٨	
...	رأى مؤلف هذا الكتاب في حدود	أسفاره وأعماله ... .. ٩	
٣٦٠٢٥ ... ..	الشاعرية ... ..	مؤلفاته في الأدب والفقه والتاريخ ... ١٠ ٩	
	٣ — ابن فارس	إياؤه وعزته ... .. ١٠	
٢٧ ... ..	مولد ابن فارس ومنهجه وأشياخه ... ..	نماذج من شعره في التصون والصفاء ... ١١	
٣٠-٢٨ ... ..	ما وقع بينه وبين تلميذه بديع الزمان ... ..	اعتذاره من الانتقاض عن الناس ... ١٢	
٣٠ ... ..	متزلته الشعرية والثربة ... ..	تفريده على أفنان الجمال ... .. ١٣	
٣١ ... ..	نماذج من شعره ... ..	وصفه لنعم الحواس ... .. ١٤	
٣٢ ... ..	كتاب الصاحي ... ..	حنينه إلى ليلى بغداد ... .. ١٥	
٣٢ ... ..	حياته العقلية بين التحزير والجمود ... ..	رقعة الشوق ... .. ١٦	
٣٣ ... ..	إنكاره أن يكون للفلاسفة شعر وإعراب	٢ — نقد آراء الجرجاني	
٣٤٠٣٣ ... ..	الجانب المشرق من حياته العقلية ... ..	كيف ألف كتاب الوساطة ... .. ١٧	
٣٦٠٣٥ ... ..	نماذج مما استباحه من شعر المحدثين ... ..	أخوة الأدب وحقوقها المقروضة ... ١٨ ١٧	
	آراء ابن فارس في فقه اللغة	أغلاط الجاهليين ... .. ١٩ ١٨	
٣٨٠٣٧ ... ..	نقد رأي السنيور جويدي ... ..	التصنف في الدفاع عن أشعار الجاهلية	٢١ ٢٠
٣٩٠٣٨ ... ..	ما هو فقه اللغة في رأي التعالي وأبن فارس	أثر المكان والطبع في رقة الشعر وجفافه	٢٣ ٢١

صفحة	موضوع	صفحة	موضوع
٥٧	كيف حم الجاحظ من شرف المتزلة	٤٠	رأى ابن سيده وابن جنى ... ..
٥٨	وكيف سبقه ابن الزيات وإبراهيم	٤٠	أول من كتب بالخط العربي ... ..
٥٨	ابن العباس ... ..	٤١	رأيه في التوقيف والاصطلاح ... ..
٥٨	قد رأى ابن شهيد في ذلك ... ..	٤٢	رسم المصحف ... ..
٥٩	٥ - أبو بكر الباقلافي	٤٢	رأيه في نشأة العلوم العربية ... ..
٥٩	حياته ... ..	٤٤٤٣	رأيه فيجاهل أصله من التماير ... ..
٥٩	تصوره لما كان في زمانه من أزمة عقلية	٤٥	نقد هذا الرأي ... ..
٦٠	موقفنا من دوس إعجاز القرآن ... ..	٤٥	الالفاظ المبهمة المدلول ... ..
٦١٦٠	الموازنة بين القرآن وبين غيره من الكلام	٤٦٤٥	خصائص اللغة العربية ... ..
٦١	نتيجة هذا البحث ... ..	٤٦	تعليل ما عرف من كثرة المترادفات ... ..
٦٢	نقد رأى الباقلافي ... ..	٤٧	تأثير الأقاليم في اللغات ... ..
٦٣	الفرق بين القرآن وبين غيره من الكتب	٤٧	٥ - النقد عند ابن شهيد
٦٣	الربانية ... ..	٤٨	الفرق بين البيان وبين النحو والتصريف
٦٣	لماذا لم يصف الله التوراة والانجيل	٤٩	التنديد بالنحاة والمعلمين ... ..
٦٣	بالاعجاز؟ ... ..	٤٩	كلمة الجاحظ في معلم النحو ومعلم البيان
٦٤	شرح أسرار تفوق اللغة العربية ... ..	٥٠	نقد رأى الجاحظ وابن شهيد ... ..
٦٤	نقد رأى الباقلافي ورأى المسيو مرسيه	٥١	محاورة ابن شهيد لتلاميذه من العرب
٦٥	بين اللغة العربية واللغات الأجنبية ... ..	٥١	واليهود ... ..
٦٥	أثر الضرور القوي ... ..	٥٢	الأنساب والقرابات بين الحروف ... ..
٦٦	ليس القرآن من جنس كلام العرب ... ..	٥٢	اختلاف البلاغة باختلاف أقدار المخاطبين
٦٦	نقد هذا الرأي ... ..	٥٣	الشعر الذي يوضع للجندين ... ..
٦٧	رأينا في الفوارق بين اللغات ... ..	٥٣	هل في مقدور كل بلغ أن يصل الى كل
٧٠-٦٨	سر البلاغة والفصاحة يرجع الى	٥٤	غرض ... ..
٧١	ما في المعنى من قوة وروح ... ..	٥٤	البلاغة ضرب من السياسة النفسية ... ..
٧١	بين القديم والجديد ... ..	٥٥	سر البلاغة يرجع الى الطبع ... ..
٧٢	قد من كانوا يرون أن البلاغة لا ترجع	٥٦	هل الأجسام من صور النفوس؟ ... ..
٧٢	الى المعاني ... ..		



صفحة	موضوع	صفحة	موضوع
٩٢ ... ..	تجنب البحرى للغريب ... ..	٧٤، ٧٣ ... ..	شواهد من القرآن بلاغتها في معانيها
٩٣ ... ..	السهو والغلط عند المتقدمين ... ..	٧٦-٧٤ ... ..	شواهد من كلام العرب وأشعارهم
٧ - أبو هلال العسكري		٧٦ ... ..	مناقشة بعض السركات الشعرية ... ..
٩٤ ... ..	تحقيق تاريخ وفاته ... ..	٧٧، ٧٦ ... ..	أهمية الألفاظ والأماليب ... ..
٩٥، ٩٤ ... ..	أبو أحمد العسكري ... ..	٧٧ ... ..	البلاغى ينفى السجع من القرآن ... ..
٩٦ ... ..	إباء أبى هلال ... ..	٧٩-٧٨ ... ..	خطأ هذا الرأى ... ..
٩٦ ... ..	شعره في التوجع لحظ الأديب ... ..	٨١، ٨٠ ... ..	غلط في فهم السجع ... ..
٩٦ ... ..	صلته بالصاحب بن عباد ... ..	٦ - أبو القاسم الأمدى	
٩٨، ٩٧ ... ..	دفاعه عن أدب الصاحب ... ..	٨٢ ... ..	حياته ومنهجه في الأدب ... ..
٩٩، ٩٨ ... ..	تحامله على المنفى ... ..	٨٣ ... ..	نماذج من شعره ... ..
٩٩ ... ..	ثر أبى هلال ... ..	٨٤ ... ..	معرفة لنفسية أدعياء الأدب والبيان ... ..
١٠٠ ... ..	نماذج من ثره ... ..	٨٥ ... ..	رأيه في الحاسة الفنية ... ..
١٠١ ... ..	نماذج من شعره ... ..	٨٦ ... ..	هل يمكن كسب التدوق بكثرة المران ... ..
٨ - كتاب الصناعتين		٨٦ ... ..	إثبات الشعر المطبوع على المصنوع ... ..
١٠٣ ... ..	الغاية من علم البلاغة ... ..	٨٦ ... ..	يفتقر للأعراب ما لا يفترس للشعراء
١٠٤، ١٠٣ ... ..	جودة كتاب الصناعتين ... ..	٨٧ ... ..	المحققين ... ..
١٠٥، ١٠٤ ... ..	غلبة الأدب على هذا الكتاب ... ..	٨٧ ... ..	مسألة العمل والإغراب بإيثار وحشى
١٠٦ ... ..	إسماله لأكثر أسماء الشعراء والكتاب ... ..	٨٧ ... ..	المعاني والألفاظ ... ..
١٠٦ ... ..	سر البلاغة عند أبى هلال ... ..	٨٨ ... ..	دخل هذا الاتجاه في أعمار الألفاظ ... ..
١٠٧ ... ..	حسن اللفظ موقوف على جمال المعنى ... ..	٨٨ ... ..	الحنى لا يعرى منه أحد من الشعراء ... ..
١٠٧ ... ..	السهل المتنوع ... ..	٨٩ ... ..	بين صاحب أبى تمام وصاحب البحرى
١٠٨ ... ..	الكلام الجزل ... ..	٨٩ ... ..	اجتماع أبى تمام والبحرعى لأقول مرة ... ..
١٠٩ ... ..	المدار على إصابة المعنى ... ..	٩٠ ... ..	التحليق والإحفاف عند هذين الشاعرين
١١٠، ١٠٩ ... ..	أطايب من الأدب ... ..	٩٠ ... ..	هل أبدع أبو تمام مذهب البديع ... ..
		٩١ ... ..	غربة شعر أبى تمام وحسد معاصريه ... ..

صفحة	٩ - أبو على الحاتمي	صفحة
١٢٠ ... ..	حياته وأدبه ... ..	١١١
١٢٠ ... ..	مثل القصيدة مثل الانسان في اتصال	١١٢
١٢١ ... ..	بعض أجزاءه ببعض ... ..	١١٢
١٢٢ ... ..	القدماء والمحدثون ... ..	١١٣
١٢٢ ... ..	براعته في نقد الشعر ... ..	١١٣
١٢٣ ... ..	السري في تحول الحاتمي هو صلفه وكبرياؤه	١١٤
١٢٤ ... ..	اصطدامه بالمتني ... ..	١١٥
١٢٤ ... ..	وصفه لفطرسة المتني ... ..	١١٦
١٢٤ ... ..	الرسالة الحاتمية ... ..	١١٧-١١٩
١٢٤ ... ..	مناقشة هذه الرسالة ... ..	١٢٠
١٢٤ ... ..	١٠ - أبو عبدالله المرزباني	
١٢٤ ... ..	حياته وإدماؤه على الشراب ... ..	١٢٠

## الباب الخامس

### كتاب الآراء والمذاهب

١ - أبو حيان التوحيدى	صفحة
أمرار العبقريّة ... ..	١٣٣
مولد التوحيدى وتحول نشأته ... ..	١٣٣
ثورته على الحياة والأحياء ... ..	١٣٤
اتصاله بالصاحب وخروجه عليه ... ..	١٣٤
ثورة نفسية ... ..	١٣٥
إحراقه لكتبه وغضبه على الناس ... ..	١٣٦
مجاوزه لمعاصره ... ..	١٣٧
حديثه عن ابن مسكويه ... ..	١٣٧
١٣٨ ... ..	١٣٨
١٣٩ ... ..	١٣٩
١٣٩ ... ..	١٣٩
١٤٠ ... ..	١٤٠
١٤١ ... ..	١٤١
١٤٢ ... ..	١٤٢
١٤٣ ... ..	١٤٣
١٤٤ ... ..	١٤٤

صفحة	
١٦٢	القيمة الفنية لخطبه المنبرية ... ..
١٦٢	اهتمامه بالسجع والأزدواج ... ..
١٦٣	تضمينه لآى القرآن ... ..
١٦٣	كلفه بالخيال ... ..
١٦٤	وقوفه عند الأفكار السطحية... ..
١٦٥	سياسته لعامة الجماهير ... ..
	٥ - أبو محمد بن حزم
١٦٦	حياته وكلفه بالكتابة عن الحب ... ..
١٦٧	كتاب طوق الحمامة ... ..
١٦٧	المحبة لاتصح إلا بعد طول الأئس ... ..
١٦٨	دوام الوصل لا يذهب بالحب ... ..
١٦٩	لأغرامه بشبع أخبار العشاق ... ..
١٧٠	وصف رسائل الحب ... ..
١٧١	دراسة الحب جزء من علم النفس ... ..
١٧٢	رأى ابن حزم فى طبيعة المرأة... ..
١٧٣	غرامه منذ الطفولة بدرس المرأة... ..
١٧٤	شاهد محزن من وفاء المرأة ... ..
١٧٥	المرأة أكثر مواساة من الرجل... ..
١٧٦	السفر فى تمكن طبع المواساة من النساء... ..
١٧٦	المرأة والرجل فى الضعف سواء ... ..
١٧٧	ما الصلاح وما الفساد فى الرجال والنساء ... ..
١٧٧	عفاف ابن حزم... ..
١٧٨	الجمال أهل للدرس ... ..
	٦ - أبو منصور الثعالبي
١٧٩	حياته وشعره ... ..
١٨٠	مواهبه الثرية ... ..

صفحة	
	٢ - أبو على بن مسكويه
١٤٥	تحقيق آسمة وإسلامه ... ..
١٤٥	اتصاله بابن العميد ... ..
١٤٦	سخرية التوحيدى من اشتغاله بالكيمياء ... ..
١٤٧	سرحامال التوحيدى عليه ... ..
١٤٨٠١٤٧	بدع الزمان يتوحد اليه ... ..
١٤٩	شفق ابن مسكويه بالفلسفة اليونانية... ..
١٥٠	وصيته ودستوره فى نظام السلوك ... ..
	٣ - الأخلاق عند ابن مسكويه
١٥٢	تعريف الخلق ... ..
١٥٣	حيثه بين الفلاسفة القدماء ... ..
١٥٤	اهتمامه بتنظيف الخواص... ..
١٥٤	تقنته بالمنطق ... ..
١٥٥	الجسم والنفس ... ..
١٥٦٠١٥٥	نقد رأيه فى خلود النفس... ..
١٥٦	جهوده فى الفلسفة العملية ... ..
١٥٧	تحديد آرائه الأخلاقية ... ..
١٥٨	آداب الصداقة ورعاية الصديق ... ..
	٤ - ابن نباته الخطيب
١٥٩	أبناء نباته فى الأدب العربى ... ..
١٥٩	حياة ابن نباته الخطيب ... ..
١٦٠	خطبة المنام ... ..
١٦٠	ولوعه بالأخبار المنامية ... ..
١٦١	تحليل هذه الأخبار ... ..
١٦١	أثر الزهد والصلاح فى خطبه ... ..

صفحة	مقدمة
١٨٧ ... ..	١٨٢٠١٨١ ... ..
١٨٨ ... ..	١٨٣ ... ..
١٨٩ ... ..	١٨٤ ... ..
١٩٠ ... ..	١٨٤ ... ..
١٩٠ ... ..	١٨٥ ... ..
	١٨٦ ... ..

## الباب السادس

### كتاب الوسائل والمهود

ما يجب أن يتعلم به الرجل في الحياة الرسمية ... .. ٢٠٨	١ - أبو الفضل بن العميد حياته ومواهبه ... .. ١٩٣
الرسائل الإخوانية ... .. ٢١٠-٢٠٨	إجلاله لأبي بكر الخياط ... .. ١٩٤
٣ - أبو حفص بن برد حياته وأدبه ... .. ٢١١	طريقته في نقد الشعر ... .. ١٩٤
ضياع رسائله ... .. ٢١٢	أدب النفس ... .. ١٩٥
خطابه إلى القواد والكتاب ... .. ٢١٢	رائية ابن نباتة السعدي .. .. ١٩٦
صور التزاع بين العرب والبربر ... .. ٢١٣-٢١٥	ما وقع بين ابن العميد وبين السعدي ... .. ١٩٧
قيمة ابن برد الأدبية ... .. ٢١٥	عمل التوحيد في هذه المحاورة ... .. ١٩٨
عهد المؤيد بن هشام ... .. ٢١٥	أبو الفتح ابن العميد وزوانه في صباه ... .. ١٩٩
كتاب ابن برد عن المظفر حين قتل وزير عيسى بن سعيد ... .. ٢١٦	توجع أبي الفضل من سيرة أبنه ... .. ٢٠٠
الجانب النفعي والوجداني عند ابن برد ... .. ٢١٧	مرض ابن العميد ومماته ... .. ٢٠١
٤ - أبو المغيرة بن حزم حياته وتحوله ... .. ٢١٨	٢ - ثر ابن العميد عظمته الثرية ... .. ٢٠٢
ما وقع بينه وبين أبي محمد بن حزم ... .. ٢١٨	خطاب وعيد ... .. ٢٠٣
	رسائله الوجدانية ... .. ٢٠٤-٢٠٧

صفحة	استهداء الشراب ... .. ٢٣٧
٢٣٨	استهداء الدواة والمداد ... ..
٢٣٩	الموضوعات المكررة ... ..
٢٤٠	تهنئة بالشفاء من المرض ... ..
٢٤٠	تهنئة بالمرض ! ... ..
٢٤١، ٢٤٠	تكرير العبارات والألفاظ ... ..
٢٤٢، ٢٤١	رسائله المرسعة بالشعر ... ..

#### ٧ - الصاحب بن عباد

٢٤٣	بداية أمره ... ..
٢٤٣	اتصاله بابن العميد ... ..
٢٤٤	ولايته الوزارة ... ..
٢٤٤	عدته العلمية ... ..
٢٤٤	أخلاقه بين الكرم والقوم ... ..
٢٤٥	رغبته في استكتاب الصابي ... ..
٢٤٦	ما أختلقه التوحيدى على ابن عباد ... ..
٢٤٧	صور من غرور الصاحب ... ..
٢٤٨	مفتريات التوحيدى عليه ... ..
٢٤٩	رأى الثعالبي في الصاحب ... ..
٢٥٠	من قصد الصاحب من الشعراء والكتاب ... ..
٢٥٢، ٢٥١	إغرابه بالكتابة في الطب ... ..
	رسالة الخوارزمى الى تلميذ ظهر عليه
٢٥٢	الجسدى ... ..
٢٥٣	كلام الخوارزمى عن الحرب ... ..
	إغراب الصاحب بنظم قصائد خالية
٢٥٤	من بعض الحروف ... ..

صفحة	مخبريته من الدراسات الفقهية ... .. ٢١٩
٢٢٠	دقة حسه في اختيار أطايب الحياة ... ..
٢٢٠	سوء ظنه بالناس ... ..
٢٢١	حنينه الى اخوانه ... ..
٢٢٢	غريبة أدباء الأندلس ... ..
٢٢٢	حديثه عن بلائه بالناس ... ..
٢٢٣	إقذاعه في الهجاء ... ..
٢٢٤	عماكانه لبديع الزمان ... ..
٢٢٥	معارضته لإحدى رسائل بديع الزمان ... ..
٢٢٥	غلبة التكلف على ثمره ... ..

#### ٥ - أبو الفرج البغا

٢٢٦	حياته ونحوه ... ..
٢٢٧	دورانه حول أغراضه النفسية ... ..
٢٢٨، ٢٢٧	نماذج من شعره ... ..
٢٢٩	مودته لأبى إسحاق الصابى ... ..
٢٣٠	وصف البيضاء ... ..
٢٣١	وصف الصابى للغة البيضا ... ..
٢٣٢، ٢٣١	غلبة الامة الوصفية على البيضا ... ..

#### ٦ - ثر البيضا

٢٣٣	اهتمامه بالإخوانيات ... ..
٢٣٤، ٢٣٣	نماذج من إخوانياته ... ..
٢٣٤	رسالته في التهنئة بمولودة ... ..
٢٣٥	تفضيل الأثى على الذكر ... ..
٢٣٥	"تهنئة" من تزوجت أمه ... ..
٢٣٦	رسالة ابن العميد في الموضوع نفسه ... ..

صفحة	صفحة
٩ - قابوس بن وشمكير	تحميل صاحب على المتنبي ... ٢٥٥
نشأته وأدبه ... ٢٧٧	إعجابه بمنهج ابن العميد ... ٢٥٦
شعره في محنته ... ٢٧٨	شذرات من رسالته عن المتنبي ... ٢٥٧، ٢٥٨
صنعتة في نثره ... ٢٧٨	قيمتة الأدبية ... ٢٥٨
ما أبدته من فنون - البديع ... ٢٧٩	٨ - أبو بكر الخوارزمي
الجمع بين الصور المختلفة في الجملة الواحدة ... ٢٨٠	نبوغه بين معاصريه ... ٢٥٩
تقد رسائل قابوس ... ٢٨٢، ٢٨١	حياته وأسفاره ... ٢٦٠
دراسة الآداب القديمة تعطينا صورة	كلمة عن أشعار النساء ... ٢٦٠
عجيبة من أحلام الانسانية ... ٢٨٣-٢٨٥	اتصاله بالصاحب ... ٢٦١
هل كانت لقابوس فلسفة؟ ... ٢٨٦-٢٨٨	تحميله على المتنبي بمجملته للصاحب ... ٢٦١
نشأة التكنية عند العرب ... ٢٨٨، ٢٨٩	فساد الصلات بينه وبين الصاحب ... ٢٦٢
١٠ - أبو إسحاق الصباني	اصطدامه بالمعتزلي بديع الزمان ... ٢٦٣
حياته وأخلاقه النبيلة ... ٢٩٠	شعوره بأعباء الحياة ... ٢٦٤، ٢٦٥
تأثره بالروح الاسلامي ... ٢٩٠	تساؤله من محبة من يعانون إدبار الأيام ... ٢٦٥
صداقته للشرىف الرضى ... ٢٩١	فهمه لأسرار البيان ... ٢٦٦
قصيدة الشرىف في رثائه ... ٢٩١-٢٩٣	سر البلاغة يرجع الى الصديق ... ٢٦٧
رغبته في أن يمدحه المتنبي ... ٢٩٣	الخوارزمي بين التحليل والإسفاف ... ٢٦٨، ٢٦٩
تأبى الصباني عن الاتصال بالصاحب ... ٢٩٤	المزج والفكاهة ... ٢٦٩
توجهه من الحياة ... ٢٩٤	الجوانب الجدلية ... ٢٧٠
رقعة شعره وعذوبته ... ٢٩٥	شعوره بهزيمته في الحياة ... ٢٧١
١١ - رسائل الصباني	تصويره لبعض من عرف من الظالمين ... ٢٧٢
فتاء روحه في البيئة الاسلامية ... ٢٩٦	شاهد من بحبه المتكلف ... ٢٧٣
استفائه من منبع على بن أبى طالب ... ٢٩٦	هل كانت للخوارزمي فلسفة خاصة؟ ... ٢٧٤، ٢٧٥
نثره تغلب عليه الصبغة الادارية ... ٢٩٧	إشارته الى ما وضع بعد الاسلام على السنة
ضعف الخلقاء لمهده ... ٢٩٧	الجاهلية ... ٢٧٥

صفحة	صفحة
٣١١ ... ... غرامه بمقارنة كتاب المشرق ...	٢٩٧ ... ... نظاره بمواجهه الأديبة ...
٣١٢ ... ... خبته في مجاه الافلى ...	٢٩٨ ... ... فقرات وصفية ...
٣١٢ ... ... نموذج من ترة الجيد ...	٢٩٩ ... ... أثر الحكمة قليل في شره ...
٣١٣ ... ... وصفه لاحدى المناقرات ...	٣٠٠ ... ... كتابه عن الطائع الى عضد الدولة ...
٣١٤ ... ... فتتته ببعض رسائله ...	٣٠٠ ... ... كتابه عن عز الدولة وقد زوجت أبته ...
٣١٤ ... ... وصف البهوض ووصف الحلواه ...	٣٠١ ... ... تفوقه وسعة حيلته ...
٣١٥ ... ... رسالة بديع الزمان في وصف ما عند الشواء ...	١٢ - أبو عامر بن شهيد
٣١٦ ... ... وصف جارية ...	٣٠٢ ... ... آل شهيد ...
٣١٧ ... ... رسائله عن النار والحطب ...	٣٠٢ ... ... غرام أبى عامر بالفتوة والصبوة ...
٣١٧ ... ... قوته في اللغة العربية ...	٣٠٣ ... ... عيشه في القصف والتهتك ...
٣١٨ ... ... ترأبن شهيد لم يبق منه إلا القليل ...	٣٠٤ ... ... كرم نفسه ...
١٤ - أبو الفضل المكللى	فساد رأيه في شئون نفسه وسداد رأيه
٣١٩ ... ... أسرة الميكالى ...	في شئون غيره ، وما أتفق للشاعر
٣١٩ ... ... رأى الثمالى في أبى الفضل ...	الفرنسى لافونتين في هذه الحال ...
٣٢٠ ... ... الاخوانيات عند الميكالى ...	شعوره بكرامة الموت ...
٣٢١ ... ... كتابه الى الثمالى ...	نوحه على نفسه حين فكر في الانتحار ...
٣٢١ ... ... شكوى الزمان ...	ظرفه في مرضه ...
٣٢٢ ... ... وصف رسائل الاخوان ...	نماذج من شعره الموجه حين أحس دق
٣٢٣ ... ... صلته بأصدقائه وآلافه ...	الموت ...
٣٢٣ ... ... فنه في شره وشعره ...	شعره في اخوانه ومحبيه ...
٣٢٤ ... ... سلطانه على معاصريه ...	ما أوصى أن يكتب على قبره ...
١٥ - بديع الزمان	وفاته رحمه الله ...
٣٢٥ ... ... حياته وأسفاره ...	١٣ - ترأبن شهيد
٣٢٦ ... ... رأى الثمالى فيه ...	٣١٠ ... ... براعته في الإنشاء ...
٣٢٨ ... ... بوادر الشربينه وبين الخوارزمى ...	٣١١ ... ... مظاهر الانواء في شره ...

صفحة	المراسلات التي تقدمت المناظرة ...	صفحة
٣٥٠ ...	جواب الخوارزمي ...	٣٢٩
١٦ - ثر بدیع الزمان	صورة المناظرة ...	٣٣١
٣٥١ ...	المباراة في نظم الشعر ...	٣٣٢
٣٥١ ...	قصيدة بدیع الزمان ...	٣٣٣
٣٥٢ ...	جواب بدیع الزمان ...	٣٣٤
٣٥٣ ...	مناوشة أدبية ...	٣٣٥
٣٥٤ ...	ملاحظة ...	٣٣٦
٣٥٤ ...	ملاحظة أشنع ...	٣٣٧
٣٥٥ ...	هدنة تعقبها حرب ...	٣٣٨
٣٥٦ ...	تمحوش وصفه ...	٣٣٩
٣٥٦ ...	قصيدة في التشجيع ...	٣٤٠
١٧ - عبد العزيز بن يوسف	استئناف النضال ...	٣٤٢
٣٥٧ ...	نقد قصيدة الخوارزمي ...	٣٤٤
٣٥٧ ...	وصف الربيع ...	٣٤٥
٣٥٨ ...	ملاحظة ...	٣٤٦
٣٥٨ ...	مباراة في الترميل ...	٣٤٧
٣٥٩ ...	رسالة الخوارزمي في التجارات والأسعار ...	٣٤٧
٣٥٩ ...	رسالة لبديع الزمان تقرأ معكوسة ...	٣٤٨
٣٦٠ ...	هزينة الخوارزمي ...	٣٤٩
٣٦١ ...		



## فهرس الاعلام

أحمد بن الحسين — ج ٢ ص ٢٢١ (واقظ الخنجر).  
 أحمد بن الحسين — (انظر يدع الزمان).  
 أحمد بن الخطيب — ج ١ ص ٨١  
 أحمد زكي باشا — ج ١ ص ٢٩٧  
 أحمد بن صالح — ج ١ ص ٢٩٧  
 أحمد ضيف — ج ١ ص ٢٠٢، ٢٥٨، ٢٦٠  
 أحمد بن طولون — ج ١ ص ٢٩٧  
 أحمد طارف الزين — ج ٢ ص ١٧  
 أحمد بن عبد ربه — ج ١ ص ١٢٢  
 أحمد عيد الخالق السادات — ج ٢ ص ٢٨٩  
 أحمد بن كثير الفرغاني — ج ١ ص ٢٠٢  
 أحمد بن يوسف المصري — ج ١ ص ١١٣  
 ١٥٣، ٢٩٤، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣٠٤  
 الأحنف بن قيس — ج ١ ص ٨٩  
 الأحوص — ج ١ ص ٢٣٩  
 الأخشيدي (كافور) — ج ٢ ص ٢٦١  
 الأخضري — ج ١ ص ٦٤  
 الأخطل — ج ١ ص ٧٦، ٨٧، ٢٥١، ج ٢  
 ص ١٢٣، ٢٣١، ٢٣٢، ٣١١  
 الأخفش — ج ٢ ص ٨٢  
 ادريس — ج ١ ص ١٢٧، ج ٢ ص ٢١٤

## حرف الألف

آدم (عليه السلام) — ج ١ ص ١٨٣، ٢٤٧  
 ج ٢ ص ٢٩، ٤٠، ٤١  
 أبان بن أبي عياش — ج ١ ص ٨٩  
 إبراهيم بن زيد — ج ١ ص ١٢٧  
 إبراهيم بن العباس — ج ٢ ص ٥٧  
 إبراهيم مصطفى — ج ١ ص ٢٩  
 ابليس — ج ١ ص ١٢٧  
 ابن الأبهري — ج ١ ص ١٦٨  
 أبي بن كعب — ج ٢ ص ٤٢  
 ابن الأثير — ج ١ ص ١٨، ٩٥، ٩٦، ٩٨، ج ٢  
 ص ١٥٩، ١٦٣  
 الأمدى — ج ١ ص ١١٣، ج ٢ ص ٨٤، ٨٥،  
 ٨٦، ٨٨  
 ابن الأجدابي — ج ٢ ص ٢٩  
 أحمد بن إبراهيم بن علي — ج ١ ص ٢٤٣  
 أحمد أمين — ج ١ ص ٨٦، ٩٦  
 أحمد بن أيمن — ج ١ ص ٣٠٠  
 أحمد بن بندار — ج ٢ ص ٣٦  
 أحمد بن حاتم — ج ١ ص ٢٤٦  
 أحمد بن الحارث — ج ١ ص ٢٤٢



البحري (وهب بن وهب) — ج ٢ ص ٢٧٦  
 بختيار — ج ١ ص ٢٤٤  
 بلو الحرمي — ج ٧ ص ٣٠٠  
 بديع الزمان الحمذاني — ج ١ ص ١٧١، ١٨٠، ٢٧٠، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧

بزرگمهر - ج ۱ ص ۹۹

ابن بسام - ج ٢ ص ١٧٩، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٤٢  
٣٥٩، ٣١٠، ٣٠٩، ٣٠٥  
البساطي (أبو عمر) - ج ٢ ص ٣٤١  
جليحوس - ج ٢ ص ٢٨٨

بشار بن برد — ج ۱ ص ۱۸، ۲۰، ۴۸، ۷۱، ۱۵۵  
ج ۲ ص ۱۸۲

الجرجانی (عبد القاهر) - ج ۱ ص ۲۲، ج ۲ ص ۷،  
۴۲

الجرجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز) —  
 ج ١ ص ٢٦٦٨ ٢٦٦٩ ج ٢ ص ٢٦٧٠ ٢٦٧١  
 ٢٦٧٢ ٢٦٧٣ ٢٦٧٤ ٢٦٧٥ ٢٦٧٦ ٢٦٧٧ ٢٦٧٨ ٢٦٧٩  
 ٢٦٨٠ ٢٦٨١ ٢٦٨٢ ٢٦٨٣ ٢٦٨٤ ٢٦٨٥ ٢٦٨٦ ٢٦٨٧

جزیرہ - ج ۱ ص ۸۷، ۷۶، ۷۵، ۷۴، ۷۳، ۷۲، ۷۱، ۷۰، ۶۹، ۶۸، ۶۷، ۶۶، ۶۵، ۶۴، ۶۳، ۶۲، ۶۱، ۶۰، ۵۹، ۵۸، ۵۷، ۵۶، ۵۵، ۵۴، ۵۳، ۵۲، ۵۱، ۵۰، ۴۹، ۴۸، ۴۷، ۴۶، ۴۵، ۴۴، ۴۳، ۴۲، ۴۱، ۴۰، ۳۹، ۳۸، ۳۷، ۳۶، ۳۵، ۳۴، ۳۳، ۳۲، ۳۱، ۳۰، ۲۹، ۲۸، ۲۷، ۲۶، ۲۵، ۲۴، ۲۳، ۲۲، ۲۱، ۲۰، ۱۹، ۱۸، ۱۷، ۱۶، ۱۵، ۱۴، ۱۳، ۱۲، ۱۱، ۱۰، ۹، ۸، ۷، ۶، ۵، ۴، ۳، ۲، ۱

بحریر بن عبد اللہ - ج ۲ ص ۲۷

الجزایری (طاہر) - ج ۲ ص ۱۵۹

الجزیری (محمد ابراہیم) — ج ۱ ص ۵۵۵

الجلد ۱ (الناجیة) — ۱ ص ۲۸

جعفر بن محمد بن ثوابه — ج ۱ ص ۱۷ ج ۲ ص ۱۴۱

جیل - ج ۱ ص ۱۶۱، ۲۳۹، ۲۵۱ ج ۲ ص ۹۰  
جنان (مشوقہ ابی نواس) - ج ۱ ص ۲۴۱

ابن جنی - ج ۲ ص ۴۰

جوت - ۲۳ ص ۶۶

ابن الجوزی — ج ۱ ص ۲۰۲

جولڈ یزہیر — ج ۲ ص ۱۶۷

جوبیدی - ج ۲ ص ۳۸۶۳۷

## حرف الحاء

ابو حاتم السجستانی - ج ۱ ص ۲۵۰، ۲۷۷

المخاتمی (أبو علی) - ج ۱ ص ۱۱۲، ج ۲ ص ۱۱۱، ۱۱۲، ۱۱۳، ۱۱۴، ۱۱۵، ۱۱۶، ۱۱۸، ۱۱۹

الحارث بن شمر الغساني - ج ١ ص ٤٨

أبو حامد المروزي - ج ١ ص ٢٨٢، ٢٨٣

التوحيدى - ج ١ ص ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨

## حرف الشاء

٤٥٥ ٢٢٣ ٢٢٢ ٢٢١ ٢١٩ ١٧٠ ١٦٠ ١٥٨ ١٤٩ ١٤٤ ١٣٣ ٨٤  
 ١٦٦ ١٦٤ ١٥٨ ١٤٩ ١٤٤ ١٣٣ ٨٤  
 ٤٢٨ ١٧٨ ١٧٥ ١٧٤ ١٧٣ ١٧٢ ١٧١  
 ٤٤ ٢٢٩ ٢٢٨ ٢٢٧ ٢٢٥ ٢٢٤ ٢٢٣ ١٧٠ ١٦٠ ١٥٨ ١٤٩ ١٤٤ ١٣٣ ٨٤  
 ١٨٤ ١٨٣ ١٨٢ ١٨١ ١٨٠ ١٧٩ ١٧٨ ١٧٧ ١٧٦ ١٧٥ ١٧٤ ١٧٣ ١٧٢ ١٧١ ١٧٠ ١٦٩ ١٦٨ ١٦٧ ١٦٦ ١٦٥ ١٦٤ ١٦٣ ١٦٢ ١٦١ ١٦٠ ١٥٩ ١٥٨ ١٥٧ ١٥٦ ١٥٥ ١٥٤ ١٥٣ ١٥٢ ١٥١ ١٥٠ ١٤٩ ١٤٨ ١٤٧ ١٤٦ ١٤٥ ١٤٤ ١٤٣ ١٤٢ ١٤١ ١٤٠ ١٣٩ ١٣٨ ١٣٧ ١٣٦ ١٣٥ ١٣٤ ١٣٣ ١٣٢ ١٣١ ١٣٠ ١٢٩ ١٢٨ ١٢٧ ١٢٦ ١٢٥ ١٢٤ ١٢٣ ١٢٢ ١٢١ ١٢٠ ١١٩ ١١٨ ١١٧ ١١٦ ١١٥ ١١٤ ١١٣ ١١٢ ١١١ ١١٠ ١٠٩ ١٠٨ ١٠٧ ١٠٦ ١٠٥ ١٠٤ ١٠٣ ١٠٢ ١٠١ ١٠٠ ٩٩ ٩٨ ٩٧ ٩٦ ٩٥ ٩٤ ٩٣ ٩٢ ٩١ ٩٠ ٨٩ ٨٨ ٨٧ ٨٦ ٨٥ ٨٤ ٨٣ ٨٢ ٨١ ٨٠ ٧٩ ٧٨ ٧٧ ٧٦ ٧٥ ٧٤ ٧٣ ٧٢ ٧١ ٧٠ ٦٩ ٦٨ ٦٧ ٦٦ ٦٥ ٦٤ ٦٣ ٦٢ ٦١ ٦٠ ٥٩ ٥٨ ٥٧ ٥٦ ٥٥ ٥٤ ٥٣ ٥٢ ٥١ ٥٠ ٤٩ ٤٨ ٤٧ ٤٦ ٤٥ ٤٤ ٤٣ ٤٢ ٤١ ٤٠ ٣٩ ٣٨ ٣٧ ٣٦ ٣٥ ٣٤ ٣٣ ٣٢ ٣١ ٣٠ ٢٩ ٢٨ ٢٧ ٢٦ ٢٥ ٢٤ ٢٣ ٢٢ ٢١ ٢٠ ١٩ ١٨ ١٧ ١٦ ١٥ ١٤ ١٣ ١٢ ١١ ١٠ ٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١ ٠

حرف الجيم

جابر بن حیان — ج ۲ ص ۱۴۶

[illegible]

جالينوس — ج ۲ ص ۱۴۹، ۱۵۲

جبریل — علیہ السلام ج ۱ ص ۹۹، ۱۰۰

جبریل القرداحی — ج ۱ ص ۲۰۲

الحرجانی (أحمد بن محمد) — ج ۲ ص ۱۸۱

الحليقة — ج ١ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ ج ٢ ص ٤٢

حماد بن إسحاق — ج ١ ص ٢٤٢

حمزة الأصفهاني — ج ١ ص ٢٣٠

حمزة بن رافع — ج ١ ص ٢٥٢

حميد الدين البلخي — ج ١ ص ٢٠٣

حميد بن نور — ج ٢ ص ١٠٥

الحميري (السيد) — ج ٢ ص ١٩٨ ، ١٩٩

الحناط — ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢

ابن حيان — ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٥

الحيري (أبو زكريا) — ج ٢ ص ٢٤٤

### حرف الخاء

خالد الخريت — ج ١ ص ٣٣٨

خالد بن عبد الله القسري — ج ١ ص ٧٢

ابن خالويه — ج ١ ص ٤٢٤٩ ج ٢ ص ١١٤

الخيزأرزي — ج ١ ص ٢١٧

الخزرجي (أبو دلف) — ج ١ ص ٣٥١

الخصمي — ج ١ ص ١٢٠

أبو الخطاب (الصائفي) — ج ١ ص ١٣٩

الخفاجي — ج ١ ص ٤٨٩ ، ٤٩٠

ابن خفاجة الأندلسي — ج ١ ص ١٧٣

ابن الخلال — ج ٢ ص ١٢٠

ابن خلدون — ج ٢ ص ٢١٥

خلف الأحمر — ج ٢ ص ٤٨٥ ، ٤٩٢ ، ١٣٠

ابن خلكان — ج ١ ص ١٣١ ، ٢٤٧ ج ٢ ص ١٧

٤٩٤ ، ١٢٠ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٩٢ ، ١٩٤

١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨

حافظ إبراهيم — ج ١ ص ٤٢٠ ، ٤٤٣ ، ٤٥٤ ، ١٧٣

الحجاج — ج ١ ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ ج ٢ ص ١٣٣

٢٧٢ ، ٢٧٣

ابن الحجاج — ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٤٠ ج ٢ ص ١١٣

ابن أبي الحديد — ج ١ ص ٦٩ ، ٩٦ ، ١٠١

٢٨٢ ، ٢٨٣ ج ٢ ص ١٥٩

الحري (أبو بكر) — ج ٢ ص ٣٤٤

الحريري — ج ١ ص ٩٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣

٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٩٤ ج ٢ ص ١٦٢ ، ٢٢٢

الحريزي (يود ابن شلومو) — ج ١ ص ٢٠٣

ابن حزم (أبو المغيرة عبد الوهاب) — ج ١ ص

١١٠ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥

ابن حزم (أبو محمد) — ج ١ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ج ٢ ص

١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٣

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢١٩

٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٧

ابن حزم (أبو بكر) — ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٨٣

٢٨٤ ج ٢ ص ١٧٤

حسان — ج ١ ص ٢١٧

الحسن بن علي — ج ١ ص ١٢٧

حسين مخلوف — ج ١ ص ٢٩٤

أبو الحسين (السيد) — ج ٢ ص ٢٤٠

الحسين بن محمد الخشنامي — ج ٢ ص ٢٣٧

الحصري (أبو إسحاق) — ج ١ ص ٢٤ ، ٢٧

٢٧١ ، ١٦٦ ، ١٩٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٢٧

ج ٢ ص ١٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩

ابن الخصيب — ج ١ ص ٨٢

الخليل بن أحمد — ج ١ ص ١٨٤ ٢٦٩ ج ٢ ص ٤٢٤ ٤٢٤ ٤٢٤

خنافر الحميري — ج ١ ص ٣٥ ٤٢٦ ٥٦

الخفصاء — ج ٢ ص ١٠٧

خواجا — ج ١ ص ٢٤٩

خوارزم شاه (مأمون بن مأمون) — ج ٢ ص ١٧٩

الخوارزمي (أبو بكر) — ج ١ ص ١٨٤ ١٩٦ ٢٦٦

١٠٥ ١٠٦ ١١١ ١١٣ ١١٤ ١١٦ ١٢٦

١٢٧ ١٣٠ ١٣١ ١٣٤ ١٣٤ ج ٢

١٣٩ ص ١٤٠ ١٤٠ ١٤٦ ١٤٦ ١٤٦ ١٤٦

٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٤ ٢٥٤

٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٥

٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧١

٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦ ٢٧٦

دعبل بن علي — ج ٢ ص ٩١

دكين (من حيدر الجبل) — ج ١ ص ٢٦٣

دوزي — ج ٢ ص ١١٧

ديك الجبل — ج ١ ص ١٧٣ ١٧٣ ج ٢ ص ١٨٤ ٢٥٠

ديمومين (Demombynes) — ج ١ ص ٦٩٩

١٨٠ ١٨٧ ٢٠٠ ج ٢ ص ١٦٧

### حرف الذال

الذبياني (الناطقة) — ج ١ ص ٦٥٥ ج ٢ ص ٧٠٠

١٠١ ١١٢ ١١٢ ١٢٦ ١٢٥

ابن ذريح (قيس) — ج ٢ ص ٧٥

أبو ذر — ج ٢ ص ٢٧١

### حرف الزاء

زوبة — ج ٢ ص ٢٢٢

الرازي (أبو الحسين بن قاروس) — ج ٢ ص ٢٧٧

الرافعي (مصطفى صادق) — ج ١ ص ١٦٢

ربيعة بن حذار — ج ١ ص ٨٩

رجاء (أبو سعد) — ج ٢ ص ١٨٥

الرسامي (أبو سعيد) — ج ٢ ص ٢٥٠

ابن رشد — ج ١ ص ٢٨٢

الرشيد — ج ٢ ص ٤٦ ٢٥٠

ابن رشيقي — ج ١ ص ١٨٤ ١٨٤ ٢١٩ ٢٢٢

الرضي (الشريف) — ج ١ ص ٢٠٠ ٢٢٦ ٢٦٩

١١٣ ١٢١ ٢٨٣ ج ٢ ص ٢٣١ ٢٥٩

٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٦

الرفاعي (عبد الصمد بن الفضل) — ج ١ ص ٨١٠

٨٩ ٩٣

الرفاعي (الفضل بن عيسى) — ج ١ ص ٨٠ ٨٩ ٩٢

ركن الدولة — ج ١ ص ١١٦ ١٩٥٠ ٢٠٣ ٢٠٣  
ج ٢ ص ٢٤٤ ٣٦٠  
الرواني (عل بن ميس) — ج ١ ص ١٨٩ ج ٢ ص ١١٤  
ذو الرمة — ج ١ ص ١٨٢ ٢٠٧ ٢١٦ ٢١٧  
روش (Ruch) — ج ٢ ص ٢٥٤  
الروزباري (أبو بكر بن علي) — ج ١ ص ٢٨٦  
ابن الرومي — ج ١ ص ١٢٠ ٢١٦ ٢٢٠ ج ٢ ص ١٠٥  
١٢٦ ١٣٣ ١٣٧ ١٨٠ ٢١٦ ٢١٩ ٣٠٠  
رينان (Renan) — ج ١ ص ١٤٤ ج ٢ ص ٢٢٢ ٢٢٣  
حرف الزاي  
زبدة الحقب (شيطان بدیع الزمان) — ج ١  
ص ٢٦٧  
أبو زيد الطائي — ج ١ ص ٢١٥  
ابن الزيري — ج ٢ ص ٢٥  
الزير بن بكار — ج ١ ص ٢٤٢  
الزيري (بكار بن عبد الله) — ج ٢ ص ٢٧٦  
الزجاج — ج ٢ ص ٨٢  
الزجالي (أبو الوليد) — ج ٢ ص ٣٠٨  
الزركلي (خير الدين) — ج ٢ ص ١٤٥ ١٤٤  
ابن زكريا — ج ٢ ص ٢٥١  
بنت زكريا بن يحيى التميمي — ج ٢ ص ١٧٤  
الزنايري — ج ١ ص ٢٤١  
أبو زكريا — ج ٢ ص ١٤٦  
الزغفراني (أبو القاسم) — ج ٢ ص ٢٥٠  
الزوزني (أبو علي) — ج ٢ ص ١٨٨

الزوزني (الكتاب) — ج ٢ ص ٢٨٠

زهير بن نعيم (من الجفن) — ج ١ ص ٢٦١ ٢٦٢

زهير — ج ٢ ص ١٣٠

ابن الزيات — ج ١ ص ١١٨ ج ٢ ص ٥٧

الزيات (أحمد) — ج ١ ص ٦٠

زياد بن أبي سفيان — ج ١ ص ٤٧ ٤٦٣ ٩٢

زيدان (جورجي) — ج ١ ص ٢٣٤ ج ٢ ص ٩٤

أبو زيد — ج ١ ص ٧٧

ابن زيدون — ج ١ ص ١٨٠ ١٨٠ ٢٩٤ ج ٢ ص ٢٠٩ ١٥٩

زيد بن عدى — ج ٢ ص ١٨٦

زيد بن علي — ج ١ ص ١٢٧

أبو زيد القرشي — ج ٢ ص ٢٦٠

### حرف السين

السجستاني (أبو سليمان محمد بن طاهر) — ج ٢

ص ١٤٢

السجستاني (أبو حاتم) — ج ١ ص ٢٥٢

سحبان — ج ١ ص ٣٧ ٣٩ ٥٩ ١٣٩

ابن السراج — ج ٢ ص ٨٢

سعد باشا — ج ١ ص ٥٤ ٥٥

ابن سعدان (أبو عبد الله) — ج ١ ص ١٢٣

ابن سعد (أبو الحسين) — ج ٢ ص ١٨٥

السحدي (ابن نبأة) — ج ٢ ص ١٥٩ ١٩٦ ١٩٧

١٩٨ ١٩٧

سعيد بن حيد — ج ١ ص ١٩١ ج ٢ ص ١٠٨

سقراط — ج ٢ ص ١٤٩ ١٥٣

ابن شعيد — ج ١ ص ٤١٨ ٤٢٦ ٤١٣ ٤٥٨  
٤٢٠ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦  
٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦  
٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦  
٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦  
٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦  
٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦  
٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦

شوق — ج ١ ص ٤٢٠ ٤٢٣ ٤١٠ ١٨٥

الشياني (أحمد بن يحيى) — ج ٢ ص ٩١

### حرف الصاد

الصابي — ج ١ ص ٤١٧ ٤١٨ ٤٢٦ ٤٥٨ ٤١١  
٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣  
٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣  
٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣  
٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣  
٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣  
٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣  
٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣ ٤١٣

الصابي (أبو الخطاب) — ج ١ ص ٣٩

الصاحب بن عباد — ج ١ ص ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩  
٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦  
٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦  
٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦  
٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦  
٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦  
٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦  
٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦ ٤٢٦

صالح بن عبد الجليل — ج ١ ص ٢٠١

صحر (اسم قاة) — ج ١ ص ٢٤٨

صدق باشا — ج ١ ص ١٨٥

الصدق أبو بكر — ج ١ ص ٤٥٠ ١٤٣

صعصعة بن صوحان — ج ١ ص ٧٥ ٧٦

٧٧

الصقلي (زهير) — ج ٢ ص ٣١٣

السلطان العبدى — ج ١ ص ٢٠٦

ابن سكرة (أبو الحسن) — ج ١ ص ٣٣٨

السلامى (أبو الحسن) — ج ٢ ص ٢٥٠

سليمان عليه السلام — ج ٢ ص ١٨٣

سليمان بن الحكم — ج ١ ص ٢١٤ ٢٥٩ ٢١٣

أبو السمط بن أبي الجون الأموى — ج ٢ ص ٢٧٦

سنوك هو جرينيه (Senouk) — ج ٢ ص ١٦٧

سوار بن شراعة — ج ١ ص ٢٢٥ ٢٩٧

سهل بن هرون — ج ٢ ص ٥٨ ٥٧

السيافى (أبو سعيد) — ج ١ ص ٢٤٧ ٢٤٨

٢٤٩ ٢٦٦ ٢٨١ ٢٨١ ٢٨١ ٢٨١

ابن سيار القاضى — ج ٢ ص ١٤٢

ابن سيده — ج ٢ ص ٣٩ ٤٠

سيف الدولة بن حمدان — ج ١ ص ٢٣٤ ٢٨٦

ج ٢ ص ١١٣ ١١٣ ١١٣ ١١٣ ١١٣ ١١٣

٢٢٢ ٢٢٢ ٢٢٢ ٢٢٢ ٢٢٢ ٢٢٢

أم سيف الدولة — ج ٢ ص ٢٥٦

السيوطى — ج ١ ص ٢٠٢ ٢٠٢ ٢٠٢ ٢٠٢ ٢٠٢ ٢٠٢

### حرف الشين

ابن شاناف — ج ٢ ص ١٢٠

الشافعى (الامام) — ج ١ ص ٢٩

شبيب بن شبة — ج ١ ص ٨٠

شكيب أرسلان — ج ١ ص ٨٤

الشقيطى — ج ٢ ص ٢٢

ابن شبيب (أحمد) — ج ٢ ص ٢٦٣





عبد الله بن شقادة - ج ١ ص ٧٤  
 عبد الله بن عبد الله - ج ٢ ص ١٨٦  
 عبد الله عفيفي - ج ١ ص ١٦١  
 عبد الله بن عمار البرقي - ج ٢ ص ٢٧٦  
 عبد اللطيف بن يوسف البغدادي - ج ٢ ص ١٥٩  
 عبد الملك بن مروان - ج ١ ص ٩١  
 ابن عبد الواحد (أبو الحسن بن محمد) - ج ٢ ص ٨٢  
 ابن عبد الواحد (القاضي أبو جعفر) - ج ٢ ص ٨٢  
 العتي (أبو نصر) - ج ١ ص ١٧٠  
 أبو عبيدة - ج ١ ص ٦٩٩ ، ٢٥٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥  
 عثمان بن إبراهيم الخاطمي - ج ١ ص ٢٣٨  
 عثمان بن عفان - ج ١ ص ٥٨ ، ٦٩ ، ١١٢ ، ٢٣٨ ج ٢ ص ٤٢  
 عثمان بن مظعون - ج ٢ ص ٦٦  
 عثمان بن يوسف القليوبي - ج ٢ ص ١٥٩  
 العجاج - ج ١ ص ٧٤  
 العجل (محمد بن علي) - ج ٢ ص ٣٤  
 عدي بن زيد - ج ٢ ص ٢٢  
 العذري - ج ١ ص ٢٣٨  
 عصمة بن بلال الفزازي - ج ١ ص ٢٠٦  
 ٢٠٧  
 عضد الدولة - ج ١ ص ١١١ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ٢٥٧ ، ٢٤٤ ، ١٢٥ ، ١٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩

العبيد (في عرف أهل الأندلس) - ج ٢ ص ٢١٣  
 أبو العاتية - ج ٢ ص ١٠٥ ، ١٢٥ ، ١٢٧  
 عتبة بن أرقم (شيطان الجاحظ) - ج ١ ص ٢٦٥  
 عتبة بن عبيد - ج ٢ ص ٢٤٥  
 عتبة بن مرداس - ج ١ ص ٨٧  
 عدة الدولة - ج ٢ ص ٢٠٠  
 عز الدولة - ج ٢ ص ٣٠٠  
 العسكري (أبو أحمد) - ج ٢ ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٢٨٨  
 العسكري (أبو داود المتكلم) - ج ١ ص ٢٢١  
 العسكري (أنظر أبو حنبل)  
 عبد الحميد العبادي - ج ١ ص ١٨  
 عبد الحميد بن يحيى - ج ١ ص ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، ٢٦٢ ج ٢ ص ١٣٢  
 عبد الرحمن الشيباني - ج ٢ ص ١٨٨  
 عبد الرحمن بن عبد الله ابن أمي الأصمعي - ج ١ ص ٢٤٩ ، ٢٤٦  
 عبد الرحمن بن هشام - ج ٢ ص ٢١٨  
 عبد الصمد بن الفضل - ج ١ ص ٧٩ ، ٨٨  
 عبد الصمد بن المعذل - ج ١ ص ٢٠ ، ٢١  
 عبد العزيز البشري - ج ١ ص ١٨٥  
 عبد العزيز (أبو الحسن صاحب ديوان الرسائل) - ج ٢ ص ٢٦٤  
 عبد العزيز جاويز - ج ١ ص ٥٤ ، ٥٥ ج ٢ ص ٧١ ، ٢٢٥  
 عبد العزيز بن يوسف - ج ١ ص ٢٦ ، ٢٥٧ ج ٢ ص ٣٦١  
 عبد الله بن خلف - ج ١ ص ٢٤٠

علي بن هشام القائل - ج ١ ص ٢٤٨ ١٥٢  
 علي يوسف - ج ٢ ص ٧١  
 ابن عمار - ج ٢ ص ٨٢  
 عمر بن الخطاب - ج ١ ص ٤٤٧ ٤٥٠ ٤٥٤ ٤٥٨ ٤٦٩ ٤٦٣ ٤٢٨٣ ٢٨٥ ٢٨٤  
 ج ٢ ص ٧٥  
 عمر بن أبي ربيعة - ج ١ ص ١٨١ ١٨٢ ٢٣٦ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤١ ٢٤٠  
 ج ٢ ص ٩٧  
 عمرو بن ذر - ج ١ ص ٨٧  
 عمر المطوعي - ج ٢ ص ٢٢٣  
 عمر بن هيرة - ج ١ ص ٢٠١  
 عمرو بن عبد العزيز - ج ١ ص ٢٢٣ ٢٠١ ٦١  
 أبو عمر الزاهد - ج ١ ص ٢٤٩  
 عمرو بن شبة - ج ١ ص ٢٤٢  
 عمرو (مشوق ابن شهيد) - ج ٢ ص ٣٠٧  
 عمرو بن سعيد - ج ١ ص ٢٥٢  
 أبو عمرو (غلام ثعلب) - ج ٢ ص ١٨٥  
 عمرو بن عبيد - ج ١ ص ٨٩ ٢٠١  
 عمرو بن كلثوم - ج ١ ص ٢١٧  
 أبو عمرو بن العلاء - ج ٢ ص ٤٢  
 ابن العميد (أبو الفتح) - ج ١ ص ١١٧ ١١٨  
 ج ٢ ص ١٩٩ ٢٦٩  
 ابن العميد (أبو الفضل) - ج ١ ص ١٨ ١٩  
 ٢٦ ٢٧ ١٠٥ ١١١ ١١٣ ١١٥ ١١٧ ١٣١ ١٥٧ ١٦١ ١٧٤ ١٧٥  
 ج ٢ ص ١٩٠ ١٤٥ ١٤٤ ١٣٧ ١٣٤ ٥٢ ١٤٦ ١٨٢ ١٨٥ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥  
 ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠٢

العكلى (بن حزام) - ج ١ ص ٢٤٨ ج ٢ ص ٤٦  
 علقمة بن لبيد - ج ١ ص ٧٤  
 العلوى (أبو طالب) - ج ٢ ص ٢٤٦  
 العلوى (أبو البركات) - ج ٢ ص ٣٣٠  
 العلوى (محمد) - ج ٢ ص ٢٦٨ ٢٧١  
 أم عفيف الحاربية - ج ١ ص ٢٦٤  
 العقاد (عباس محمود) - ج ١ ص ١٦١  
 عقاب بن شبة - ج ١ ص ٧٠  
 طليكة بن أحمد - ج ١ ص ١٤٢ ١٤٦  
 ابن عمر القاضي - ج ٢ ص ١٨٢  
 علي بن أبي طالب - ج ١ ص ٢٤٨ ٢٤٣ ٢٤٧ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٣ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٥  
 ١١٢ ١٢١ ٢٨٣ ٢٨٤ ج ٢ ص ٢٩  
 ٢٩٦ ٢٧٥ ١٦٤  
 علي ابن ابراهيم - ج ٢ ص ٢٧  
 علي بن أحمد (طليكة) - ج ١ ص ١٤٣  
 علي بن الجهم - ج ٢ ص ١٨  
 علي بن حاصم - ج ١ ص ٢٣٩  
 علي بن عبد العزيز - (انظر الجراحى أبا الحسن)  
 علي بن عبيدة الريماني - ج ١ ص ١٥٢  
 علي بن عرس الموصلى - ج ١ ص ١٤٣  
 علي بن كاهن - ج ١ ص ١١٦  
 علي ماهر باشا - ج ١ ص ١٨٥  
 علي بن محمد الكوفي - ج ٢ ص ١٨  
 علي بن المستنير بن بنت قطرب - ج ١ ص ٢٤٦  
 علي بن موسى - ج ١ ص ١٢٧

نغر النولة - ج ١ ص ١٢٠ ج ٢ ص ٢٤٤ ٢٧٧  
 ابن الفرات (محمد بن علي) - ج ٢ ص ١٨٥  
 أبو فراس - ج ٢ ص ١٨٨ ٢٠٢ ٢٥٩  
 فرانك هاريس (Franc Haris) - ج ٢ ص ٢٦٩  
 القراهدي (الخليل بن أحمد) - ج ١ ص ٢٦٦  
 الفرزدق - ج ١ ص ٨٧ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٢٠  
 ج ٢ ص ٢٠ ٢١١ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩  
 فرعون - ج ١ ص ٢٧٢ ٢٧٣  
 الفضل بن محمد (القاضي أبو بشر) - ج ٢  
 ص ٢٦٦  
 فلوجل (Flugel) - ج ١ ص ٨٤  
 فيثاغورس - ج ٢ ص ٢٨٨

### حرف القاف

قابوس بن وشمكير - ج ١ ص ١١٣ ١٥٧ ج ٢  
 ص ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢  
 ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٨ ٢٨٩  
 ابن القارح - ج ١ ص ٢٦٠  
 قاسم أمين - ج ٢ ص ٧١  
 القاسم بن علي - ج ٢ ص ٩  
 أبو القاسم الإفريقي - ج ٢ ص ٥٧  
 أبو القاسم الأمدى - ج ٢ ص ٨٢ ٨٧ ٨٩  
 القسالي - ج ١ ص ٢٠٠ ٢٣٠ ٢٥٠ ج ٢  
 ص ٢٧٢  
 ابن قتيبة - ج ١ ص ٥٩ ٦٠ ٩٩ ١٢٩  
 قدامة بن جعفر - ج ١ ص ٩٨ ١٠٦ ٨٢ ٢٧٩  
 ٩٨ ١٠٦ ١٢٩ ١٤١  
 ابن قريصة (أبو بكر) - ج ١ ص ١٤١

٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢٢٠ ٢٢٧ ٢٢٩ ٢٤٣  
 ٢٥٩ ٢٥٦ ٢٤٩ ٢٤٦ ٢٤٥ ٢٤٤  
 ٣٥٧ ٢٦١  
 حميد الملك - ج ٢ ص ١٤٥  
 عيسى بن سعيد - ج ٢ ص ٢١٦  
 عيسى بن عمر - ج ٢ ص ٣٧  
 عيسى بن موسى العباس - ج ١ ص ١٢٧  
 عيسى بن هشام - ج ١ ص ٨٦ ١٣٣ ١٣٩  
 ١٩٨ ٢٠٢ ٢٠٦ ٢٠٩ ٢١٤ ٢١٩  
 ٢٢٤ ٢٢٣  
 أبو العيناء - ج ١ ص ٨٤ ٨١

### حرف الغين

الغزالي - ج ١ ص ٢٨٢ ٣٢٧  
 الفضل بن حمدان - ج ٢ ص ٣٦١

### حرف الفاء

ابن فارس (أحمد) - ج ١ ص ٤٤٤ ٤٥٦  
 ٤١٣ ٤١٤ ٤٤٩ ج ٢ ص ٢٣ ٢٢٧  
 ٢٢٨ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧  
 ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨  
 ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠  
 الفارسي (أبو علي) - ج ٢ ص ١١٤  
 السيدة فاطمة (بنت الرسول) - ج ١ ص ١٢٦  
 فاطمة بنت عبد الملك - ج ١ ص ٢٤٠  
 أبو الفتح الاسكندري (طل المقامات) -  
 ج ١ ص ٧٨ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧  
 ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠  
 ٢٠٠ ج ٢ ص ٢٢٤



محمد لطفى جمعه - ج ١ ص ٢٠٥  
 محمد نجيب الفرابى باشا - ج ١ ص ٢٩  
 محمد بن منصور (أبو سعد) - ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩  
 محمد المولى - ج ١ ص ١٧٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤  
 محمد المهدي - ج ١ ص ٢٥٨ ، ج ٢ ص ٢٦٠  
 محمد بن موسى - ج ١ ص ٣٠٢  
 محمد هلال بك - ج ١ ص ١٧٤  
 محمد هيكى بك - ج ١ ص ٢٣  
 محمد بن يوسف الثغرى - ج ٢ ص ٨٩  
 الملهي (أبو محمد) - ج ١ ص ١٦٧ ، ٢٨٢  
 ابن ميمون (الباس) - ج ٢ ص ١٣٠  
 المرزبانى (أبو عبد الله) - ج ١ ص ١١٣ ، ج ٢  
 ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦  
 ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٦١  
 ابن المرزبان (أبو نصر) - ج ٢ ص ٢٤١  
 مرسيه (Marçais) - ج ١ ص ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٣ ، ٢٣٣  
 ٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٧١  
 ١٩٩ ج ٢ ص ٢٦٤ ، ١٦٧  
 المرقش - ج ١ ص ٤٨  
 مروان - ج ١ ص ٦٠  
 مروان بن أبى حفصة - ج ٢ ص ٢٧٦  
 المستعين - ج ١ ص ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ج ٢ ص ١٢٩  
 أبو مسلم - ج ١ ص ٧٠  
 مسلم بن الوليد - ج ١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٤٨ ، ج ٢  
 ص ٢٥٧ ، ٢٩٠

الذى راسله الخوارزمي) - ج ٢ ص ٢٧١  
 محمد بن أحمد - (انظر أبو الطهر الأزدى) .  
 محمد بن أحمد - ج ٢ ص ٢٧  
 محمد بن أرمك - ج ٢ ص ٢٤١  
 محمد بن اسحاق - ج ١ ص ٨٤  
 محمد بنجيت - ج ٢ ص ٢٢  
 محمد بن جامع الصيدلانى - ج ٢ ص ١٧١  
 محمد بن جعفر - ج ١ ص ٢٤٦  
 محمد بن حامد - ج ٢ ص ١٨٩  
 محمد بن حبيب - ج ١ ص ٢٤٢  
 محمد بن الحسين (ابن أخت الفارسي) - ج ٢  
 ص ٧  
 محمد بن خلف - ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠  
 محمد السباعى - ج ١ ص ١٧٤  
 محمد بن سعيد الكاتب - ج ٢ ص ٣٢٢ ، ٣٤  
 محمد بن سلام - ج ١ ص ٢٧  
 محمد بن سليمان - ج ١ ص ٢٩٧  
 محمد بن صالح القورى - ج ١ ص ٢٩٨  
 محمد عبده - ج ١ ص ١٢٨ ، ٢٢٢ ، ج ٢ ص ٢٧١ ،  
 ١٣٣  
 محمد عبد الرحمن المستكني - ج ٢ ص ٢١٢  
 محمد بن على - ج ٢ ص ١٠٥  
 محمد بن عمران المرزبانى - ج ١ ص ٢٤٧  
 محمد عبد المطلب - ج ٢ ص ٢٦٩  
 محمد فريد - ج ١ ص ١٨١

المصور (الخليفة) — ج ١ ص ٢٠١  
 المنصور بن أبي طاهر — ج ٢ ص ١٧٤  
 المنفلوطى — ج ١ ص ١٨٤ ج ٢ ص ٨٩  
 المهدي — ج ١ ص ١٣٧ ج ٢ ص ١٨٢  
 المهلبى (أبو محمد) — ج ١ ص ١٦٧ ج ٢ ص ٢٥٥  
 ٢٩٩ ٢٩٣  
 موسى عليه السلام — ج ٢ ص ٧٧ ١٨٣  
 موسى بن جعفر — ج ١ ص ١٢٧  
 الموصلى (الحق) — ج ٢ ص ٨٥  
 ميتس (Mez) — ج ١ ص ٣٢٨ ج ٢ ص ٢٥٤  
 ابن ميادة — ج ١ ص ١٨٤ ج ٢ ص ٤٤  
 الميكالى (أبو نصر) — ج ١ ص ١١١ ج ٢ ص ٣٥١  
 الميكالى (أبو الفضل) — ج ١ ص ١١٣ ١٧٠  
 ٤١٧٨ ج ٢ ص ١٨٢ ١٨٦ ٢٠٩ ٤٢٢٠  
 ٢٢٦ ٢٦٩ ٣١٩ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٤  
 ٣٢٥

## حرف النون

النابعة — ج ١ ص ٢٢٠  
 ابن نابقا — ج ١ ص ٢٠٢  
 ابن نباتة الخطيب — ج ١ ص ٥٨ ١١٣ ج ٢  
 ص ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٤ ١٦٥  
 ابن نباتة المصرى — ج ٢ ص ١٥٩  
 ابن نباتة السعدى — ج ١ ص ٢٠٢  
 نجاح بن سلمة — ج ٢ ص ١٢٤  
 نجبة بن عل — ج ٢ ص ٢٤٤  
 أبو النجم — ج ١ ص ١١٧

ابن مسكويه — ج ١ ص ١١٣ ١٢٢ ١٢٣  
 ١٢٤ ج ٢ ص ١٣٧ ١٣٨ ١٤٥  
 ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥٢  
 ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٩٣ ١٩٦  
 ٢٠٠ ٢١٨  
 ابن مصعب (عبد الله) — ج ٢ ص ٢٧٦  
 أبو المطهر الأزدي — ج ١ ص ٢٣٨ ٣٤٢  
 ٣٥١ ٣٤٩  
 المطيع لله — ج ٢ ص ٢٩٩  
 معاوية — ج ١ ص ٢٥ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠  
 ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦  
 ابن المقر — ج ١ ص ٢٠ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨  
 ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤  
 المعتصم — ج ١ ص ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦  
 ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢  
 المعتضد — ج ١ ص ١٧  
 المعتز بن عباد — ج ٢ ص ٢٧٧  
 المعرى (أبو السلام) — ج ١ ص ٢٦ ١٩٢  
 ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨  
 ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤  
 معز الدولة — ج ١ ص ٢٤٤  
 معن بن أوس — ج ١ ص ١٦٦ ج ٢ ص ٢٦  
 معين الدولة — ج ١ ص ١٤٢  
 المقرئ — ج ٢ ص ٢١٥ ٢١٨  
 ابن المقفع — ج ١ ص ١٨ ٣٨ ٤٣ ٦١  
 ٧٢ ج ٢ ص ٢٨٩  
 المكثف — ج ٢ ص ١٨١  
 المنادى (يوسف بن حمويه) — ج ٢ ص ٣٥  
 ابن منذر — ج ٢ ص ١٣٠  
 المنتصر — ج ٢ ص ١٢٩  
 المنفل البشكرى — ج ٢ ص ٢٢

هرم بن قطبة - ج ١ ص ٨٩

هرمس - ج ٢ ص ٢٨٨

هشام بن حسان - ج ١ ص ٨٩

هشام بن الحكم الأموي - ج ٢ ص ٢١٦، ٢١٥

هشام بن عبد الملك - ج ١ ص ٢٠١، ٢٧٠

أبو هلال العسكري - ج ١ ص ٢٢٤، ٢٢٣، ٢١٨

٢٤٨، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣١٣

١٦١، ٢٠٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٨، ٢٩٩

٢٩٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥

٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١

٢٨٨، ١٣٧

الهلالي بك - ج ١ ص ٥٤

الهمذاني (أبو الحسين) - ج ٢ ص ٢٥٤

الهمذاني - (انظر بديع الزمان)

الهمذاني (أبو سعيد) - ج ٢ ص ٢٤٢

هند بنت الحارث - ج ١ ص ٢٣٩

هوميروس - ج ٢ ص ٦٥

الميم بن عدي - ج ٢ ص ٢٧٥

## حرف الياء

يأجوج وماجوج - ج ١ ص ٢٧٧

ياقوت - ج ١ ص ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩

٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨

٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥

٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢

٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨

يحيى بن أكرم - ج ٢ ص ١٨٦

يحيى بن محمد - ج ٢ ص ١٧٤

ابن النديم - ج ٢ ص ١٢٠

نصر بن نوح - ج ١ ص ٢٤٩

نصيب - ج ١ ص ٢٣٩

النصبي (أبو اسحاق) - ج ٢ ص ١٣٩

نعم (جارية ابن حزم) - ج ٢ ص ١٧٣

النتان - ج ١ ص ٢٣٦، ج ٢ ص ١٨٦، ١٢٦

نقيل بن عبد العزى - ج ١ ص ٨٩

الفرز بن تولب - ج ١ ص ٢٩٤، ج ٢ ص ١٠٥

أبو نواس - ج ١ ص ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥

٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤

٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢

## حرف الواو

واصل بن عطاء - ج ١ ص ٦١، ج ٢ ص ٢٥٤

واليس - ج ٢ ص ٢٨٨

الواقدي - ج ٢ ص ٢٧٥

## حرف الهاء

الهائم (أبو علي) - ج ١ ص ١٦٧

هرون (عليه السلام) - ج ١ ص ١٢٧، ج ٢ ص ٧٧

هرون بن أبي الجيث - ج ١ ص ٢٩٧

ابن هرون (مهل) - ج ٢ ص ٥٧، ٥٨

ابن هاني الأندلسي - ج ١ ص ١٨٨، ج ٢ ص ٣١١

ابن هرامة (كثير) - ج ٢ ص ١٠٤

الهليل - ج ١ ص ١٨١، ٢١٦، ٢١٧، ج ٢ ص ٢١٦، ٢١٧



اليقوبى (أبو محمد) - ج ١ ص ٣٣٨	البربوعى (أبو الأفيشر) - ج ٢ ص ٨
يموت بن المزرع - ج ١ ص ٢٤٦	اليزدادى - ج ٢ ص ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠
يوسف عليه السلام - ج ١ ص ٤٩٩، ١٠٠	يزد جرد - ج ٢ ص ٢٧٣
يوسف بن إبراهيم - ج ١ ص ٢٩٧	يزيد بن معاوية - ج ١ ص ٢٥١
يوسف الاسرائيلى - ج ٢ ص ٥١	يزيد بن الوليد - ج ١ ص ٦٠
أبو يوسف (القاضى) - ج ١ ص ٣٣٤	يعقوب بن إبراهيم (أبو الفرج) - ج ٢ ص ١٨٥
	يعقوب بن أبى شبة - ج ١ ص ٢٤٢



جمع مواد هذا الفهرس فضيلة الأستاذ على عبد الحميد مبارك، ورتبه  
حضرة سليمان فهمى مبارك أفندى : فلهما من المؤلف أجزل الشاء .

## المراجع

الفرض من هذه المراجع هو تحديد الطبقات التي اعتمدنا عليها عند تحرير الشواهد أو قد بعض الآراء ليستطيع القارئ الرجوع إليها حين يشاء، ولم نرد استقصاء كل ما رجعنا إليه عند تأليف هذا الكتاب وإنما اكتفينا بما لم يكن بد من الإشارة إليه في معرض البحث والتحقيق<sup>(١)</sup>.

أحياء علوم الدين - الغزالي - القاهرة - ١٢٧٨

الأخلاق عند الغزالي - زكي مبارك - ١٩٢٤

الأدب الجاهل - طه حسين - القاهرة ١٩٢٨

أدب الكتاب - ابن قتيبة - القاهرة ١٩٢٧

أدب الكتاب - الصولي - القاهرة ١٣٤١

أدبيات اللغة العربية - عاطف بركات - القاهرة ١٩٠٩

إرشاد الأديب، إلى معرفة الأديب (هو معجم الأديباء) .

أسواق الذهب - أحمد شوقي .

الأغنى (٢١ جزء) - الأصبهاني - طبع دار الكتب المصرية وطبع الساسى .

الأمالى - القالى - طبع بولاق ١٣٢٤

بنية الوعاة - السيوطى - القاهرة ١٣٢٩

بلاغة العرب فى الأندلس - أحمد ضيف - القاهرة ١٩٢٤

البيان والتبيين - الجاحظ - القاهرة ١٣٣٢

تاريخ الأدب العربى - أحمد الزيات - ١٩٢٠

(١) راعينا في تراجم الطبقات ما أتجه الناشر، والقارى لا يصعب عليه تمييز السمة المجرية من السمة المملادية.

- الصفحة البية - الاستانة - ١٣٠٢
- تجارب الأثم - ابن مسكويه - طبعة مرجوليوت .
- التفضيل بين بلاغة العرب والعجم - أبو هلال العسكري (ضمن مجموعة الصفحة البية) .
- ثمار القلوب - الثعالبي - القاهرة .
- تهذيب الأخلاق - ابن مسكويه - ١٣٢٩
- حب ابن أبي ربيعة وشعره - زكي مبارك - الطبعة الثالثة .
- حكاية أبي القاسم البغدادي - أبو المطهر الأزدي - طبع هيدلبرج .
- جواهر الألفاظ - قدامة بن جعفر - الطبعة الأولى .
- الحويان - الجاحظ - القاهرة .
- الخصائص - ابن جني - الطبعة الأولى .
- خطب ابن نباتة - بيروت ١٣١١
- درة النواص - الحريري - الطبعة الأولى .
- دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - القاهرة ١٣٣١
- ديوان أبي نواس - طبعة دمشق .
- ديوان الشريف الرضي - طبعة بيروت .
- الذخيرة - ابن بسام - مخطوط بدار الكتب المصرية .
- الرسالة الحاتمية (ضمن مجموعة الصفحة البية) .
- رسائل اخوان الصفا - القاهرة ١٩٢٩
- رسائل بديع الزمان - بيروت .
- رسائل البلاء - كرد علي - القاهرة ١٩١٣
- رسائل الجاحظ - القاهرة ١٣٢٤
- رسائل الخوارزمي - القاهرة ١٣٧٩

- رسائل الصابي — القاهرة
- رسالة الففران — المعري — القاهرة ١٩٢٥
- الرسالة العنقاء — ابن المدر — طبع دار الكتب المصرية ١٩٣١ (شرح زكي مبارك) .
- زهر الآداب — أربعة أجزاء — الحصرى — ١٩٢٥
- بحر البلاغة — الثعالبي — دمشق .
- سر الفصاحة — الخفاجي — مخطوط بدار الكتب المصرية .
- شرح نهج البلاغة — ابن أبي الحديد — القاهرة ١٣٢٩
- الصاحبي — ابن فارس — القاهرة ١٩١٠
- طبع الأعشى — القلقشندي — طبع دار الكتب المصرية .
- الصدافة والصدق — التوحيدى — القاهرة ١٣٢٣
- الصناعتين (في مجلدين) — أبو هلال العسكري — ١٣٢٠
- صهاريج اللؤلؤ — توفيق البكرى — القاهرة ١٣٢٠
- صلى الإسلام — أحمد أمين — ١٩٣٣
- طبقات الشعراء — ابن سلام — القاهرة ١٣٣٢
- طبقات النحاة — الأنبارى — القاهرة ١٩٢٤
- طوق الحمامة — ابن حزم — لندن ١٩١٤
- المقد الفريد — ابن عبد ربه — القاهرة ١٣٣١
- عيون الأخبار — ابن قتيبة — طبع دار الكتب المصرية .
- غول البلاغة — توفيق البكرى — القاهرة ١٣١٣
- الفرائد والتلائد — الثعالبي — ١٣١٧
- فقه اللغة — الثعالبي — القاهرة ١٩٢٧
- الفوز الأصغر — ابن مسكويه — الطبعة الأولى .

- الفهرست - ابن النديم - طبع القاهرة .  
 كتاب الكتاب - ابن درستويه - بيروت ١٩٢١  
 كليله ودمنة - ابن المقفع - القاهرة ١٣٢٧  
 كمال البلاغة - اليزدادى - القاهرة ١٣٤١  
 الكليات - الثعالبي - القاهرة ١٩٠٨  
 المثل السائر - ابن الأثير - بولاق ١٢٨٢  
 محاضرات الراغب الأصفهاني - الطبعة الأولى .  
 مصارع العشاق - جعفر بن أحمد - القاهرة ١٩٠٧  
 معجم الأدباء (سبعة مجلدات) - ياقوت - طبعة مرجوليوت ١٩٢٣  
 معجم البلدان (ثمانية مجلدات) - ياقوت - القاهرة ١٣٢٤  
 المقابسات - التوحيدى - القاهرة ١٩٣٩ .  
 المكافاة - أحمد بن يوسف - القاهرة ١٩١٤  
 مقامات بديع الزمان - بيروت .  
 مقامات الحريري - طبع الحلبي .  
 مقدمة ابن خلدون - القاهرة ١٣٢٢  
 من غاب عنه المطرب - الثعالبي - طبع الآستانه .  
 مختارات المنفلوطى .  
 الموشح - المرزبانى - القاهرة ١٣٤٣  
 الموتى - أبو إسحاق الوشاء - لندن .  
 الموازنة بين العاليتين - الآمدى - بيروت .  
 الموازنة بين الشعراء - زكى مبارك - القاهرة ١٩٢٦  
 نثر النظم، وحل القند - الثعالبي - القاهرة ١٣١٧

- المخصص — ابن سيده — الطبعة الأولى .  
 نشوار المحاضرة — التنوخي — طبعة مرجوليوت .  
 نفع الطيب — المقرئ — طبع لندن .  
 نقد الشعر — قدامة بن جعفر — الأستانه ١٣٠٢  
 نقد النثر — قدامة بن جعفر — القاهرة ١٩٣٣  
 نهاية الأرب — النويري — طبع دار الكتب المصرية .  
 نهج البلاغة — علي بن أبي طالب — ١٩٢٥  
 الوساطة — أبو الحسن الجرجاني — صيدا ١٣٣١  
 الوسيط — أحمد السكندري ومصطفى عثاني — ١٩٢٩  
 وفيات الأعيان — ابن خلكان — القاهرة ١٢٩٩  
 يتيمة الدهر — الثعالبي — طبعة دمشق .

### Encyclopédie de l'Islam

- Huart. — Littérature Arabe. Paris 1923.  
 Marçais. — Origines de la prose littéraire arabe (Revue Africaine 1<sup>er</sup> trimestre 1927).  
 Mez. — La Renaissance de l'Islam (traduction inédite de M. Ruch).  
 — Abulkasim. (Heidelberg 1920).  
 Mubarak. — La Prose Arabe au IV<sup>e</sup> siècle de l'Hégire.  
 — Paris 1931.



كَمُلَ طبع الجزء الثاني من كتاب "النثر الفني في القرن الرابع"  
 بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٣٥٢  
 (أول فبراير سنة ١٩٣٤) م  
 محمد نديم  
 ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

# ولولاً زكى مبارك

مقتطفات من بعض مقالات الكتاب والشعراء الذين نقدوا هذا الديوان

نوصي قراءة بالاطلاع على مقدمة هذا الديوان، بل بالامعان فيها، فقد أزعج فيها صاحب الديوان حياته الأدبية وحياته العاطفية الشعرية بصفة خاصة، ولولا ضيق المقام لآثرنا نشرها برمتها فهي نموذج من النثر الفني الرشيق الجميل ... الدكتور زكى مبارك شاعر غنائى بطبعه : فلفظه موسيقى كصوته المعروف لخلافة . وشعره يحوم حول العاطفة ويقتات بها . سواء أكانت عاطفة جنسية أم وطنية . ولو عبر شاعرنا عن عاطفة الوطنية نظماً بدل حصرها في نثره الفني لكان لنا منه ذخيرة شعرية قيمة على مدى الزمن ... وشعر ديوانه صور شتى من عواطفه . وخواطره هي مرآة نفسيته ونظراته الى الحياة ، وهو أمين بفطرته في تصوير نفسيته بهذا الشعر جميعه، وكفى بهذا الصدق المطبوع في التعبير نفراً لأى شاعر ، فان هذه هي الصفة الخالدة التي لا يقال عنها أى نقد، والتي تستنكر بجانها المقارنة والتفضيل .

مجلة أبولو الشعرية



لعل المقدمة التي كتبها الدكتور زكى مبارك خير ما يكتب في تحليل شعره : فقد تجرد كفاً من ذاتيته وعمد الى ما يعلمه عن نفسه فجعله أساساً لتلك النظرة التقديرية التي وصف فيها شعره ونفسه . قال عن نفسه : ( فان الشاعر نفسه يحذثنا في مواطن كثيرة من مؤلفاته الأدبية والوجدانية بأنه يجهل قلبه كل الجهل ) وأشار في الموضوع نفسه الى رسالة كان كتبها فقال : ( وأعيد عليك يا صديق أن الأزمة الباقية هي أزمة القلب فقد فهمت كل

شيء. وبني قلبي كالنابة المجهولة في ضمير الظلماء) وكلاهما قول شاعر ... وإنك لترحب إذ تقرأ  
أشعار هذه المجموعة بإشراق ديباجتها وجرسها ، والإجادة في اختيار ألفاظها . ومن غرر  
الديوان قصيدة ( غريب في باريس ) .

محور المقتطف



نقلنا من هذا الديوان صفحة يخاطب فيها المؤلف أهل أسبوط وهي مثال حسن لسائر  
القصائد والمقطوعات . وأحسن ما في الدكتور زكي مبارك أنه يذكر المدن المصرية ويصف  
معاني الطبيعة على ضفاف النيل .

محور المجلة الجديدة



لعل الكثيرين من قراء العربية لا يجهلون الأديب النابغة الدكتور زكي مبارك ، ولعل  
الكثيرين يعرفون أنه جمع بين كثير من المواهب والصفات، فهو كاتب وشاعر ومن متخبر  
الأزهر والجامعة، ومن أبناء سنتريس وباريس، ومن رجال التعليم والصحافة أيضا . وعلى  
الجملة هو من الشبان الذين اعطوا حكمة الكهول وتدقيقاتهم وتحقيقاتهم، ومن الكهول الذين  
لم تفشط الشبان وثورة الشباب ... جمع في هذا الديوان كثيرا مما فاضت به عاطفته وجادت  
به قريحته الخصبية من قصائد في الحب والمجد والشباب والجمال ، وأهداء تحفة ممتعة لقراء  
العربية يتصفحونها فيرون فيها نفوسهم كما يصورها الخيال الصادق والشعور الفياض والأحلام  
اللاذنية، ويقرأون فيها نوعا من الشعر جديدا بخياله وأفكاره وصوره، قديما بنسجه العربي ،  
وأسلوبه الأدبي، ونسجه المحكم الذي لم يفسده شرود عن القواعد ولا تنجى على أصول اللغة  
بدعوة الابتكار والتجديد .

محور الهلال



ديوان زكي مبارك مجموعة من حالاته النفسية في الفراق والبعد والشكوى والحنين وذكر  
الديار والأحباب . وفي شعره الطابع العربي الصميم، وهو نتيجة حفظه ثلاثين ألف بيت  
في حياته من الشعر القديم .

محور الحديث





أهدانا الأستاذ زكي مبارك مجموعة من شعره ، سماها بالعربية " ديوانا " وبالفرنسية " قصائد غرامية " والتسعة الثانية أحق أولى ... وإن قارئ قصائد الأستاذ مبارك ليدرك من أول وهلة أنه تأثر بالأدب الغربي الى حد بعيد ، ولا غرو فالأستاذ أديب في الفرنسية كما هو أديب في العربية .

محرر جريدة الهدى



الدكتور زكي مبارك عالم وأديب وقد طالع له الفراء فصولا رائحة في مختلف الصحف والمجلات . ولكن الدكتور زكي مبارك لا يكتفى بمثل هذه الأبحاث العلمية المحضة ، بل يعنى كذلك بأدب الخلق والابتداع والتقد وله فيه مؤلفات مشهورة ككتاب ( حب ابن أبي ربيعة وشعره ) وكتاب « ذكريات باريس » . وقد أخرج هذه الأيام ديوان شريدل أبلغ الدلالة على إحساس فياض وشعور قوى وشاعرية متقدمة تنعكس فيها شتى العواطف الانسانية ويمتاز شعر الدكتور زكي مبارك بشيء من تعادل قوى العاطفة والعقل فيه فهو ليس بالشاعر الخائف الناج من العقل وحده وليس بالشعر المفكك الصادر عن العاطفة المشوشة ولذلك تلمع فيه أثر الأسلوب المتين والصياغة الحلوة والنظم والتناسب والانسجام . وفي وسعنا أن نقول إن ديوانه جهد عظيم للتوفيق بين نزعات الشعر المعصرى القائم على قوة الملاحظة والتحليل والشعر العربي القائم على قوة الخيال وبلاغة العبارة .

مجلة الأسبوع      ابراهيم المصرى



كان حين تصفحت هذا الديوان أن أتمسح من روح الشعر : هل استقر فيه أو هو محوم عليه على قرب أو بعد ، أو أنه لم يصمره أبدا ولم يطل عليه من قريب أو من بعد . وقد فرحت لصديقي الوفي الدكتور زكي مبارك حين رأيت روح الشعر يتقمص ديوانه ويشيع فيه الحركة ويجيل فيه الحياة ... قرأت في هذا الديوان قصائد قد بلغت للتغنية في حسن

النظم وقوة المعنى وجمال الأسلوب . ذلك الى إحكام في ربط المعاني بعضها ببعض وبراعة في حسن السياق مما لا يتبرأ ذلك كله إلا للفحول من الشعراء .

محمد خالد

الاهرام



مزنية شعر الدكتور زكي مبارك التي تبدولى هي حسن السبك وجودة الصياغة . ولقد نسيت معانيه بعد طلى الديوان ولم يعاق بنفسى منها أثر ولم يستقر في ذاكرتى لما طيف . ولكن الدكتور زكي مبارك أديب كبير وبجائه له آثاره المشهورة ودراساته المعروفة وعالم من كبراء العلماء، وله في ذلك فضل غير منكور لا يزيد أن يكون شاعرا ولا ينقصه أن لا يكون.

إبراهيم عبد القادر المازني

البلاغ



شعر زكي مبارك يطرده فيه الماء، ديباجة مشرقة وكلام منسجم ولفظ منضد، شعر متين من نبع البحرى ومنحدر من جنبه ... ثم ان هنالك ما يبعثنى على أن أوثر شعر الدكتور زكي مبارك على قصائد لبعض الشعراء المحدثين . ذلك بأنك لا ترى في قوافيه قلقا ولا فورا ولا عيبا ولا تراها مستكرهة على مواضعها ... وإنما لنراه يعيد الشعر حين يستلهم صبوته . والذي يؤخذ من هذا أن في دخیلة قفس زكي مبارك ميلا شديدا الى الفتك، ولقد أطاعه قليلا لاجداد بعصاه كثيرا فكما:-

بشر فارس

الاهرام



لقد أزدحت مكتبات الأدباء بمؤلفات الأديب الممتاز النابضة الدكتور زكي مبارك 'دك' وها هو ذا يخرج ديوانه للناس . ومهما حاول الكاتب أن يقول عن شعر زكي مبارك فحسبه أنه لا يقول شعرا مجرد أن يملا صفحة أو صفحتين ولكنه يقوله عند ما يمتلئ قلبه رغبة في أن يقول الشعر، فشعر الدكتور زكي مبارك وحى هذا القلب الكبير الناضج الذى غمرته الأيام بمحادثاته

وصهرته في أتون تجاربيها وأخرجته لصاحبه قطعة من الاحساس السامى الدقيق ... قرأ ديوان الدكتور زكى مبارك من الألف للياء فحس له في نفسك راحة وتستشعر بلذة وتذكر ما إذا عسى أن يريد قوله ، أهو جاد أم عابث ، أهو ضاحك أم باك ، أهو متحمس أم مترتب ، أهو عاشق أم هو مدنف ؟ أنت تقف على هذه الخواطر وتذكرها بنفسك ، وأنت تصف هذا الشاعر الذى يشد قلبه أغاريد سامية في هذه الحياة . وثمة عقيدة تخاضرك هى أن هذا الشاعر الفنان قد خلق ليعيش في عزلة عن الناس وأن يحيا بعيدا عن ضوضاء الحياة ومعه من قلبه قيامة عجيبة ، وإن كان ضنيننا بشعره كما تفضن الحياة بالنبوغ .

الصباح محمد على غريب



كان لا بد من أن يصدر الدكتور زكى مبارك ديوان شعره بعد ما أتحف الأدباء بطائفة طيبة من ثمره وأبحاثه وتعليقاته على الكتب الأدبية ، وكان موقفا في نظمه كما هو موقف في ثمره وخطبه ، لأن الدكتور زكى مبارك أستطاع أن ينشئ نفسه نشأة أدبية ممتازة ساعده عليها استعداداه الفطرى وما أحاط به من ضروب شتى . وفى الديوان مجموعة طيبة من الشعر المصرى النفيس . وهو يلبس شعره دياجاة بدوية ، ورقة حضرية . وللديوان مقدمة بدية كتبها الشاعر بنفسه ولم يسبق إليها فيما أعلم .

المقطم محى الدين رضا



للدكتور زكى مبارك مكانة محبوبة بين الشباب ، لأنه يكتب بروح الشباب وينظم بعواطف الشباب ، ويرى بعين آمالهم وأحلامهم . وهو فى الحياة عصامى وفى الأدب يكاد يكون عصامى . كان لما يكتبه وينظمه رونق يمتاز بخص به . وقد أصدر أخيرا ديوانا من الشعر الطريف ، الذى يجمع بين حسن الديباجة ومثانة الأسلوب وبين الأفكار المبتكرة والخواطر الفذة والصور النفسية الجذابة . فتهنى " الدكتور زكى بهذا الديوان ، وتهنى القراء بهذه الهدية التى يهديها إليهم .

المصور طاهر الطناحى

(طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢/٦١/٣٠٠٠)







Biblioteca Alexandrina



0205733